

تاريخ أفريقيا التي كانت

شونس - الحبشة - المغرب الأقصى
من البعث الاسباني إلى سنة 1830م

تعريب :

محمّد مزالك
البشير بن سلاص

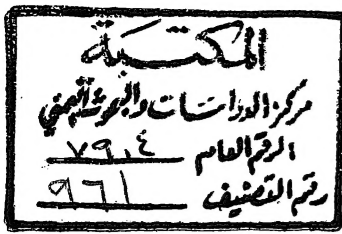


مكتبة إفريقيا الشمالية

سونس - الجندائر - المغرب الأقصى
من البضائع الأسبانية إلى سنة 1830 م

٥٦١
١٠٩٨





سار اندري جوليان

تاريخ إفريقية الشمالية

تونس - الجزائر - المغرب الأقصى
من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830 م



الجزء الثاني

النشرة الثانية

تعريب

البشير بن سلامة

محمد مزالي

الدراسات والبحوث للنشر

٧٩٤



تم تعريب هذا الكتاب عن الطبعة الثانية
التي نشرها وزاد عليها «روجي سوتورنو»



© جميع الحقوق محفوظة
لدار التونسية للنشر
فيفري 1983

مُدخل

اندماجت إفريقيا الشمالية في الشرق باعتمادها الإسلام بعد أن تفاننت في الدفاع عن ذاتيتها لا عن طريق الثورات فقط بل بالركون إلى الردّة كلّما انهزم الفاتح والالتجاء إلى البدعة وانتحال النحل ذات المنجى القومي . ولم ترسخ العقيدة الإسلامية التي بدأت تنتشر منذ أواخر القرن السابع إلاّ بعد انتصار الموحدين في القرن الثاني عشر . ولم يتخذ الجهاد من أجلها الصبغة الشعبية في المغرب الأقصى إلاّ عند صدّه للغزوات المسيحية ومن ذلك الوقت أصبح من المستحيل التمييز بين الإسلام والمغرب . ولا يزال الأمر كذلك إلى اليوم بحيث يتعذر فهم المشاكل الاجتماعية والسياسية والقومية جميعها من دون اعتبار للبعد الإسلامي فيها .

ومن هنا تبرز أهمية هذه الفترة الطويلة من تاريخ إفريقيا الشمالية التي بقيت معزولة بعيدة عن المؤثرات الأوروبية فشهدت دولا تشاد ثمّ تنهار من دون أن تظفر بوحدة دائمة . وكان للأبحاث التي قام بها منذ عشرين سنة خاصة الاستاذ (M. R. Brunschvig) و (A. Cateau) و (J. Ceillié) و (Emérit) و (Lévy Provençal) و (R. Le Tourneau) و (G. Marçais) و (Penz) و (R. Ricard) و (H. Terrasse) تأثير عميق في بعض الأحيان على معلوماتنا السابقة . فلماذا لم يشمل الدراسات المتعلقة بالخوارج والفاطميين من التغيير إلاّ القليل ولم تقتض الفصول المختصة للسرابطين والموحدين والسعديين والعلويين والأتراك إلاّ إصلاحا بسيطاً فإنّ كلّ ما يتصل بالأداسة والحقصيين والمرينيين وجبت مراجعته مراجعة عميقة أو كاملة . أمّا الخاتمة فقد أعيدت تماما . فكان لابدّ للقياس بمثل هذا

العمل على أحسن وجه من مؤرخ ملّم بماضي بلاد البربر لا يمتاز بثقافته فحسب بل ببحوثه الشخصية .

ولقد تفضل المؤرخ المستعرب السيد لوترنو (M. Letourneau) الاستاذ بكلية الآداب فكريس خصاله للقيام بمراجعة هذا الكتاب وهو عمل صعب لا يبرز فضله للعيان (بسهولة) الأمر الذي يفرض علي أن أقدم اليه الشكر الجزيل .

وإن أطروحته حول فاس قبل الحماية التي تشهد بمعرفة مباشرة وعميقة للمجتمع الإسلامي ، تشمل تاريخ المغرب الأقصى الإسلامي كله . وكذلك كتابه الجديد : الإسلام الحديث (l'Islam contemporain) الذي ينبىء عن سعة معارفه وعن مدى اهتمامه بالحاضر والماضي . وسيتسنى للقراء ، بفضل الببليوغرافيا الثرية النقدية الموجودة في آخر المؤلف ، أن يتعمقوا في درس المسائل أو أن يواصلوا بحوثهم الشخصية .

وفي هذه الفترة التي تفرض فيها نهضة القوميات الإسلامية معرفة ماضي المغرب فإن كتاب تاريخ إفريقيا الشمالية من الفتح العربي إلى سنة 1830 الذي راجعه السيد لوترنو بحذق سيتيح للقارئ أن يكون ملّمًا بآخر ما وصل اليه علم التاريخ .

شارل أندري جوليان

مقدمة

افريقيا الشمالية ابان الفتح العربى (I)

عندما استرجع البيزنطيون في خريف سنة 533 م . المقاطعات التي سبق أن كانت رومانية وأطردوا منها الوندال بدوا كأنهم سعيديون التقاليد الإمبراطورية إلى سالف عهدها وهي التي أبطلها طيلة ما يقارب القرن جنسريق وخلفاؤه . وفي الحقيقة فإن إفريقية البيزنطية لم تكن تشبه في شيء إفريقية الرومانية — ولعل هذا يفسر ضلالة ما قام به البيزنطيون عندما أقبل الغزاة المسلمون .

وكانت البلاد التي احتلها البيزنطيون أقل مساحة بكثير مما كانت عليه من قبل : ذلك أن موريطانيا الطنجية انحصرت في سبتة وموريطانيا القيصرية اقتصرت على شرشال (قيصارية) . أما موريطانيا السطيفية فقد اقتطع منها الجزء الغربي ، كما أن طرابلس فقدت الجزء الجنوبي منها — ولم تبق على حالها إلا نوميديا والبروقنصلية والمزاق ، ذلك أن البلدان التي تركت وشأنها ظلت تزور شيئاً فشيئاً عن الحضارة الرومانية وترجع تدريجياً إلى سالف عاداتها البربرية — وإذا كان الأمر هيناً بالنسبة للأرياف حيث لم يتوغل الرومان ، فإن البربر « المترومين » في المدن والقرى كانوا يتباعدون في أسف عن أسلوب في الحياة طالما

(1) راجع جوليان وكرتوا ، تاريخ افريقيا الشمالية من بدء التاريخ الى الفتح العربى .

أحبته نفوسهم . وعلى كل فإن البربر سواء كانوا حضرا أو قرويين استرجعوا ما فطروا عليه من تعلق بالاستقلال السياسي . وكانت هذه الحاجة الى التحرر السياسي ظاهرة بوضوح حتى في البلاد الخاضعة لبيزنطة : من ذلك أن مجموعات بربرية عظيمة كانت تظهر وكأنها مستقلة عن والي قرطاج . زد على ذلك أن البيزنطيين أنفسهم لم يأتوا الى إفريقية مدعين كما كان الشأن بالنسبة للرومان .

فلقد جاؤوا بخصوصياتهم الدينية المتشعبة والعنف التي زادها فتح العرب لمصر حدا . ذلك أنه من بين من التجأ إلى إفريقية كان يوجد القائلون بمبدأ الطبيعة الواحدة (Les monophysistes) . كما جرهم تسامحهم في الدين إلى إثارة الطوائف المسيحية وزرع بذور الفتنة بينها .

وأخيراً فإن موظفي بيزنطة لم يظهرُوا دائماً في مظهر الخادم المطيع للسلطة المركزية : إذ كانوا يناقشون الأوامر قبل تطبيقها وأحياناً لا ينفذونها — ومما زاد في تفاقم هذه الحالة موت هرقل وتولي الحكم قسطنطين II (Constant) (سنة 641) ولم يتخط سن المراهقة في ذلك الوقت — وفي سنة 646 شق عصا الطاعة الشيخ « جرجير » والي بيزنطة بإفريقية ونصب نفسه إمبراطوراً .

تلك هي حالة إفريقية قبيل الفتح الإسلامي ، بلاد يعوزها التماسك ، تتباعد عن مدنية محتضرة ، وتستعيز تدريجياً عن المؤسسات الرومانية بالتقاليد العريقة ، وتمرد على رؤسائها البيزنطيين الذين كان ولاؤهم أيضاً لوطنهم الأم في فتور متزايد .

الباب الأول

الفتح العربي ومفاتيح الخوارزم

- 1- الفتح العربي
- 2- المقاومة البربرية
- 3- محاسن الخوارزم



(I) الفتح العربي

تاريخ خرافي : إن اتحاد الإسلام مع إفريقيا الشمالية بلغ حدا من المتانة أصبحنا معه ننسى بسهولة مدى ما خاضه المشرق الإسلامي من معارك للتمكن من بسط نفوذه على المغرب البربري .

وبدهي أن الذي يهـرنا هو ما أسفر عنه الفتح العربي واعتناق الأهالي الدين الإسلامي من نتائج بارزة عظيمة الخطر . فالذي حدث كما أكد قوتيي (E. F. Gautier) « ثورة عارمة إذ تخطت البلاد ذلك الحاجز الفاصل بين الغرب والشرق والذي صعب اجتيازه في بلدان أخرى . إنها قفزة في المجهول نجد الثورتين الفرنسية والروسية بالنسبة إليها متواضعتين جدا »

ولم يقم المغرب بهذه القفزة في المجهول عن طيبة خاطر بل نحن نعلم أنه قاوم مقاومة طويلة جامحة . وقد يكون من المجازفة أن نظفر بأكثر من هذا اليقين . فليس لدينا وثائق ولا رحلات كتبها أجانب ولا أخبار أوروية . وإذا قلت النقائش وشحت النقود وانعدمت النصوص الثابتة وجب علينا اللجوء إلى إخباريين عرب عاشوا بعد الأحداث التي تعيننا بأمد طويل .

قال ويليام مرسي وهو أقدر الناس على تقييم النصوص : « إن أقرب الأشياء إلى الواقع في ظني استنادا إلى ما وصلت إليه معلوماتنا الحالية في هذا الصدد هو أن المعطيات القليلة المتعلقة بهذه الفترة البطولية الأسطورية مستقاة من روايات أربع : رواية مشرقية يتزعمها الواقدي الذي عاش بالمدينة وبغداد في نهاية القرن الثامن ، ورواية إسبانية يمثلها أحد أحفاد الفاتح

موسى بن نصير الذي عاش بالأندلس في أواخر القرن الثامن ، ورواية إفريقية منسوبة إلى أحد أحفاد فاتح آخر وهو أبو المهاجر وقد عاش بالقيروان في نفس الفترة ، وأخيراً رواية مصرية لابن عبد الحكم المتوفى بالقاهرة سنة 871 وهي الرواية الوحيدة الكاملة التي وصلتنا مباشرة .

لقد دون ابن عبد الحكم في أواسط القرن التاسع ما نقله في مصر من روايات ترجع إلى القرن الثامن . وكلمة رواية لا نلقيها هنا على عواهنها لأن المصادر كانت تذكر على الطريقة التي كان ينقل بها الرواة أحاديث الرسول محمد . فالمؤلف يذكر سلسلة الأخبار التي أمكن له جمعها ويسندها إلى أصحابها واحدا عن واحد إلى أن يصل إلى آخر حلقة أي إلى الرجل الذي شهد أو كان في وسعه أن يشهد الأحداث المعنية بالأمر . ثم إن الرغبة في تدوين الفقه وضبطه كانت واضحة . ذلك أن التاريخ لا يهم في حد ذاته بقدر ما تهتم الحجج التي يمكن أن يستنبطها المذهب الذي كان ينتسب إليه ابن عبد الحكم . فمن الواجب إذن معرفة هذه النظرة التي لا تخلو من تشويه للواقع لنذكر مدى الحيلة التي يجب اتخاذها عند الاعتماد على آثار هذه الرواية . وإذا كان في الإمكان أن نستنبط منها معلومات ثمينة جداً فإنه لا يمكن اعتبارها تأليفاً تاريخياً بأنهم معنى الكلمة ولا حتى مجرد أخبار .

غير أن الإخباريين العديدين الذين عاشوا في القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر ، زودونا بجملة من التفاصيل أوفى من دون أن يذكروا مصادر هامة غير التي أوردناها من قبل . فكأنهم اعتمدوا في تأليفهم نزراً قليلاً من الأخبار من الواجب استعمالها بنفس الحذر الذي أحطنا به أخبار ابن عبد الحكم . وابن خلدون هو الوحيد الذي لا يكتفي بحرية كبيرة في الحكم ولا يتقيد بالروح النقدية فحسب ... بل يتجاوز ذلك إلى ضرورة الفهم والتفسير . غير أن ما نقله عن الفتح جاء للأسف متأخراً عن الأحداث بسبعة قرون ومن المستحيل لم شتات المصادر التي اعتمدها . والذي يبعث فينا الحيرة كذلك عندما نعلم أن ابن خلدون والمؤرخين الذين عاشوا بين القرن الحادي عشر والقرن الخامس عشر مثل المالكي وابن الأثير وابن عذاري والنويري هو غزارة في التفاصيل

تتناقض مع الاقتضاب الذي يلاحظ في روايات الإخباريين الذين عاشوا بين القرن الثامن والقرن التاسع مثل ابن عبد الحكم والبلاذري.

ولقد قال وليام مرسى (William Marçais) منبها إلى هذه المتناقضات : « إن أبطال المأساة عند الإخباريين الأول لهم ملامح أكثر وضوحا ، وأدوار أشدّ تحديدا ، ووقفه أغزر حيوية وأبعد إثارة . وهذه المزايا يمكن أن نعزوها إلى تطور في البراعة الأدبية أكثر من أن نعزوها إلى استغلال موفق لوثائق ذات قيمة حديثة » . ومعنى هذا أننا مضطرون في آخر الأمر إلى استمداد معلوماتنا لدراسة الاحتلال العربي من حياة أشخاص هي إلى القصة أقرب منها إلى التاريخ .

فهل يجب أن نتخلى من أجل ذلك عن طلب الدقة العلمية ؟ قد يميل الباحث إلى ذلك — أم من واجبنا أن نحرص كما فعل قوتيبي (Gautier) على إدخال شيء من النظام في فوضى الحروب والثورات وسقوط المسالك وذلك بالسعي إلى « تفسير » الأخبار التي رواها العرب و « تنسيقها » . وهذه الطريقة وإن لم تكن هي المثلى فهي على الأقل موثقة الوحيدة إلا أنها تحمل غنصا ذاتيا أخطاره لا يمكن أن يخفيها النجاح الباهر الذي عرفه كتاب « قرون المغرب المظلمة » . ذلك أننا إذا نسجنا بيوت العنكبوت ولو بخيوط من الحرير لماعة ولم نحصل على نسج متين فإن الذنب ليس ذنب الناسج .

كذلك يمكن لنا على غرار ما قام به جورج مرسى (Georges Marçais) أخيراً ، أن ندرس بصبر النصوص ونستخرج منها ما يمكن لنا استخراج منه الحقائق التي لا يستهان بها ومن نقط الاستفهام العديدة من دون أن يغيب عن أذهاننا وجوب وضع كبل هذا في سياقه التاريخي ، أي في التاريخ العام لحوض البحر المتوسط ذلك أن المغرب مهما كان منعزلا في ظرف كانت فيه المواصلات بطيئة غير مضمونة فهو جزء لا يتجزأ من حوض البحر المتوسط يساهم إن قليلا أو كثيرا في حياة هذه المجموعة الممتدة من مضيق جبل طارق إلى الشرق الأوسط وقد كانت إفريقيا الشمالية مشدودة إليه زمان قرطاج ، وسيزداد اتصالها به متانة بفضل الفتح الإسلامي والغزوات العربية وحياة بعض الأبطال المليئة بالمغامرات أمثال إدريس وابن رستم وابن تومرت وأخيراً الزحفة التركية في القرن السادس عشر .

المغرب المفرق : لما أشرف العرب على إفريقية البيزنطية لم يجدوا منذ أن عبروا مضيق السويس (سنة 640) من يصدّهم عن ذلك بصفة جدية . ولقد كان أقل من أربعة آلاف رجل كافيا في معركة واحدة للانتهاء من أمر مصر حيث استقبل الأقباط المضطهدون الزاحفين بحماس . وسقطت منذ خريف 642 برقة وهي أهم مدينة في خماسي المدن (Pentapole) ثم بلاد القريني (Cyrénaïque) كلها . ومن هناك أخذوا يوالون الغارات تارة على جنوب البلاد حتى بلغوا الفزان (زويلة) وطورا على غربه حتى انتهوا إلى طرابلس التي أخذوها عنوة سنة 643 .

ولم يصطدم الفاتحون عند هذا الحد بالقبائل البربرية وكان تخاذل أكسرخص (Exarque) يشجعهم على مواصلة زحفهم الا أنهم اقتصرُوا على احتلال بلاد القريني نهائيا ولم يتجاوزوا جبال نفوسة . وقيل إن قائدهم عمرو وقد هزته نشوة انتصاراته رغب في القيام بحملة إلى إفريقية أي تونس الا أن الخليفة عمر عارضه في ذلك . والرسالة الشديدة اللهجة التي نسبها ابن عبد الحكم إلى الخليفة تدل على الأقل اذا كانت منتحلة على ما كان يشعر به العرب في القرن التاسع من احترازات ازاء الغزوات الإفريقية المليئة بالأخطار . قال عمر لعمرو عندما اقترح عليه الزحف على إفريقية « لا إنها ليست بإفريقيا ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها لا يغزوها أحد ما بقيت » وزاد ابن عبد الحكم الراوية الثقة على ذلك بقوله : « لا أوجه إليها أحدا ما مقلت عيني الماء » . وهكذا فإن التحذيرين المنسوبين إلى الخليفة عمر لا يتركان مجالا للشك في رأيه .

غزوة ابن سعد : وضع عثمان خليفة عمر حدا لهذا التردد سنة 644 وأمر أخاه من الرضاع عبد الله بن سعد والي مصر بالدخول في المغامرة . ولربما قام ابن سعد بمحاولة أولى سنة 645 أو سنة 646 غير أن النجاح كان حليفه سنة 647 في غزوته الكبيرة التي زخرفها كتاب التاريخ العرب بأحداث عجيبة أو خرافية .

وكان الشيخ جرجير قد تحالف مع القبائل البربرية تفاديا لكل غزو واتخذ من سبيلة المركز المحصن قاعدة استراتيجية له من دون أن يجعلها عاصمة . وكان ابن سعد قد حل أول الأمر بالموقع

الذي سُمِّى فيهِ القيروان ثمَّ تحول إلى الجنوب الغربي وبعد أيام قليلة قضاهَا في الملاحظة هجم على الجيش البيزنطي في سهل سبيطلة فمحقه . وهلك جرجير في المعركة وقد يكون ذلك بيد عبد الله بن الزبير نفسه الذي نسبت إليه الأسطورة . ومن الخصال ما يدعو إلى الشك . كذلك لا يُعتد بما نسب إلى يمينة ابنة الشيخ من مغامرات هي من قبيل الخرافة .

وقد وصف المؤرخون العرب من دون فرط تحرُّ هذه الفتاة الجميلة وهي ممتطية جوادا تقيها حرَّ الشمس مظلة من ريش الطاووس أو بارزة للناس من أعلى برج وهي سافرة .

غير أن هذه المرأة التي كان في الحسبان أن تكون من نصيب المنتصر على ابن سعد فاز بها أحد الأنصار ولم تفلس من الرِّق الا عندما ارتمت من فوق الجمل فدق عنقها . وهذه القصة المؤسسة المنتحلة تماما تعبر تعبيرا مؤثرا كما لاحظ ذلك قوتيي عن مدى الفزع الذي عرفته ولا شك اليونانيات الارستقراطيات عندما وقعن في أيدي البدو الغليظة .

وكان الطمع في الغنيمة هو الذي دفع العرب إلى القيام بهذه الغزوة . وقد كسبوا بفضل غزوات جنوب المزاق غنائم عظي .

غير ان ابن سعد كان يخشى هجوما معاكسا متوقعا ينطلق من مراكز الشمال المحصنة التي كان عاجزا عن حصارها . وعندما عرض عليه البيزنطيون غرامة حربية باهضة مقابل ارتحاله عن المزاق سرعان ما قبل العرض والتحق بمصر حاملا معه كنوزه . وبذلك لم تدم الحملة أكثر من عام (647 - 648) .

وكانت هذه الحملة رغم قصر مدتها ضربة قاصمة للهيمنة البيزنطية . فقد أفلتت من سلطة قرطاج القبائل البربرية الموجودة في جنوب المزاق الذي نهب وأقصر من أهله وزاد هلاك الشيخ جرجير في القوضى والحزازات المزمنة .

واستفاد العرب بالخصوص من هذه التجربة أن مقاومة اليونان ليست شديدة وأن الغزوات تدر عليهم المنافع العجيبة وهكذا كان من المتوقع رجوع الغازين بسرعة .

أزمة الخلافة : غير أن الاضطرابات التي عقيت مقتل الخليفة عثمان كانت سببا في كسب 17 سنة من الاطمئنان لإفريقيا ذلك أن اتساع رقعة الامبراطورية العربية أثارت مشاكل كان من المستحيل حلها من دون الوقوع في ازمات . فلقد ظن الخليفة الثاني عمر أنه كان من الممكن استتباب الأمن بتنظيم موارد الدولة بصفة يمكن معها توزيع الجرايات على الفاتحين حتى يبقوا تحت نفوذه .

لكن هذا النظام المعتمد على مشيئة الخليفة وعلى استغلال المغلوبين بدون هوادة ما كان يمكن أن يدوم من دون أن يثير غيرة البعض وتمرد الاخرين .

وحافظ عثمان على هذا النظام رغم نقائصه : فكان ضحية له كما كان الشأن بالنسبة لعمر . ووجد علي الخليفة الجديد رغم أنه كان صهر محمد صعوبات أشدّ وطأة . إذ شق والي الشام معاوية عصا الطاعة في وجهه واستدرجه بمهارة إلى التحكيم في شأن مقتل عثمان ثمّ أعلن علي عن تنازله ولم يلبث ان قتل سنة 661 . وكان معاوية بادر قبل موت علي بتنصيب نفسه خليفة في جويلية 660 . وبخلافته قامت الدولة الأموية التي ستحاول تشييد ملك مركزي قومي عاصمته دمشق .

وكان لمصر التي منها انطلقت غزوات إفريقيا الشمالية علاقات مباشرة بتلك الاضطرابات . فلقد ثارت ضد ولاية عثمان وأجبرت ابن سعد على مغادرة البلاد وبعثت إلى المدينة بقتلة الخليفة . ثمّ دخلت في بيعة علي سنة 658 حيث احتلها أحد قواد معاوية وكان من الطبيعي أن تحتل مشاريع الزحف على المغرب المكانة الثانية بسبب الخلافات السياسية والدينية وتبنت الدولة الجديدة فكرة التوسع تجاه الغرب وأوكلت أمر مصر إلى الشيخ عمرو الذي لم يتخل عن مطامعه في غزو إفريقيا .

زحفة معاوية : لم تستمر إفريقيا فترة الاطمئنان لتسترجع قواها كما ان القسطنطينية لم تغتنم فرصة موت جرجير لتدعم نفوذها من جديد بل إن الأمبراطور قسطن الثاني أصدر مرسوما جديداً اسمه « التمودج » (Le Type) يقضي بإزالة صارم العقاب على كل من لا يتبع الرموز القديمة من دون إشارة إلى أصحاب المشيئة الواحدة

(المونوثيلية) (Monothelisme) أو المشيئة المزدوجة (Duothélisme) .
وأثار بذلك عليه المسيحيين الارتودكس في إفريقيا الذين يعادل امتثالهم
للسلطة البابوية مناوأتهم للإرادة الإمبراطورية . وقد يكون دعي من
الأدعياء اسمه جناديوس استغل الموقف ليستأثر طيلة سنوات بإمارة
مستقلة . ولما خشي أحد منافسيه لقي مساندة من الإمبراطور والتجأ إلى
فتح التفاوض مع المسلمين للحصول على إعانتهم .

ولما عاد الإمبراطور إلى سالف نفوذه لم يجد بين يديه الا أسمالا
من الأكسرخسية (Exarchat) واضطر إلى التخلي عن حصون المواقع
الأولى واكتفى بحماية تخوم تونس الوسطى .

وهكذا فإن كل ما كتبه المؤرخون العرب عن هجماتهم ضد البربر
بين سنتي 660 و 663 مدعاة إلى الاحتراز . وفي سنة 665 كان معاوية بن
حديج الذي تزعم شق الأمويين بمصر قد توغل في المزاق بإذن من
ال خليفة وهزم جيشاً بيزنطياً بحضرموت (سوسة) واقتحم حصن جلولى
فدكه ثم قفل راجعاً إلى مصر محملاً بالغنائم .

الاحتلال الدائم : عقبة . ولم يمض وقت طويل حتى قام عقبة بن
نافع الذي كان شن غارة موفقة على الفزان بحملة ثالثة تخالف
الحملتين الآخرين من حيث إنها انتهت بالعرب إلى الاستقرار الدائم . ذلك
أن عقبة أسس سنة 670 في قلب المزاق ، وفي سهل فسيح يكاد يكون
صحراويا مدينة القيروان بعد أن طهره من جميع الحيوانات المفترسة
والزواحف الساكنة به مرددا بلا انقطاع طيلة ثلاثة أيام مارواه النويري :
« أرى لكم يا معشر العرب أن تتخذوا بها مدينة تجعلونها عسكريا
وتكون عزا للإسلام إلى آخر الدهر » .

ولئن كانت القيروان معسكرا يصد البيزنطيين الذين كان من الممكن
أن يجعلوا من المدن الساحلية قاعدة للهجوم فإنها كانت بالخصوص
معتقلا في وجه البربر الذين أصبحوا هم وحدهم أعداء العرب المهاجرين .
وبذلك لم تحم هذه المدينة طريق مصر فحسب وكان من الواجب أن
تبقى مفتوحة للمدد وصالحة للانسحاب المحتمل بل تصدت للأوراس
الذي انقلب محورا للمقاومة .

ورغم هذا الاستيلاء لم تتحول إفريقية إلى مقاطعة مستقلة بل بقيت تابعة لمصر حتى أن عقبة أقبل من مهامه في غير رفق وعوض بأبي المهاجر وهو من أنصار الوالي الجديد . ولعل القوم كانوا يعيبون على مؤسس القيروان منحاه العسكري البحث وموقفه الحاد تجاه قواد البربر وما كان يأذن به من مجازر في غير هودة ويشنه من غارات بالغة الخطورة بقدر ما هي عديمة الجدوى .

ويظهر أن أبا المهاجر خلافا لسلفه فتح مع قواد البربر مفاوضات لكسب مساندتهم ضد البيزنطيين .

ويقال أيضاً إنه توغل حتى وصل إلى « عيون تلمسان » حيث هزم أمير قبيلة أوروبة كسيلة الجبار الماهر وأسر . وعلى كل فإن سياسة أبي المهاجر وإن كانت دون سياسة عقبة إشعاعاً فقد كانت أكثر جدوى .

مسيرة عقبة نحو الغرب : ولم تطل محنة عقبة إذ أسندت إليه سنة 681 القيادة العليا بإفريقيا فشن لوقته على المغرب غارة من الطراز العالي قد يكون من المجازفة الاطمئنان إلى وقوعها .

وجر عقبة وراءه أبا المهاجر وكسيلة مصفدين في الأغلال لإشفاء لغليله من دون أن يقتصد حسب ما روي في كيل الإهانات للقائد البربري فكلفه ذلك فيما بعد ثمناً باهضاً . ولم يحاول عقبة حصار المراكز المحصنة شمال الأوراس بل انطلق من هناك صوب طنجة مباشرة بعد أن اصطدم بجيوش من الأهالي تعززها عناصر من الروم قرب باغاية (Baghar) ولامباز (Lambaïse) ثم تاهرت (Tiaret) .

وروى المؤرخون العرب أن النبيل يوليان (Julien) عوض أن يقاوم عقبة استقبله محملاً بالهدايا الثمينة . فاستفسره عقبة عن أمر قوط (Wisigoths) أسبانيا والروم وبربر المغرب . واعتمد على هذه الإرشادات فاقتحم السوس وقتل أهله تقتيلاً وسبها من الفتيات الجميلات عدداً كثيراً ثم أشهد الله أن بحر الأطلنطيق هو وحده الذي حال دون مواصلة زحفه لمحق الكفار .

وكل هذا من الغرابة بمكان حتى أن أ. ف. قوتيي (E. F. Gautier) بنى عليه نظرية مفادها أن سرعة احتلال موريطانيا الطنجية يمكن موازاتها

مع سرعة احتلال إفريقيا ثمّ فيما بعد اسبانيا . ذلك أن بلدان إفريقيا الشمالية التي عرفت التأثير القرطاجي انحازت بسهولة إلى المسلمين . غير أن جل التفاصيل لم تبرز إلا بفضل المؤرخين المتأخرين في الزمن . فإذا نظرنا في بعض الروايات التي ذكرها ابن عبد الحكم جميعها فنحن لانجد ذكرا إلا للسوس وهي لفظة غامضة في كتب الجغرافيين العرب المتأخرين ، ومن الواجب تحديد معناها في القرن الثامن . كما لانجد الا عبارة عقبة الشهيرة عندما وقف على شاطئ البحر (وأي بحر ترى ؟) وأشهد الله على أنه غير قادر على مواصلة زحفه . فلا إشارة إلى مدينة طنجة ولا تفاصيل لهذه المسيرة العجيبة في بلاد مجهولة . وفي هذا ما يدعو حقا إلى إعمال الرأي والشك : والذي لاجدال فيه أن عقبة أجهد نفسه لتوسيع رقعة الإمبراطورية الإسلامية نحو الغرب ، وأنه لذلك حارب في الأوراس إلا أنه يكون من المجازفة ان يؤكد الباحث أكثر من ذلك وقد قال برنشفيق في هذا المعنى « اذا ملنا الى التصديق بوقوع جولة عقبة فلأنه من الحكمة ان نحصرها في الجزائر الوسطى إلى أن يأتي ما يخالف ذلك . ولربما وصلت هذه الجولة إلى جهة وهران الحالية ووادي شلف » (ر . برنشفيق)

المقاومة البربرية : كسيلة : إذا نحن جاريننا في بعض المسائل ما ذهب إليه كتاب ما بعد القرن الحادي عشر وخاصة ابن خلدون الذي دون آثاره في نهاية القرن الرابع عشر انتهينا إلى القول بأن شخصية كسيلة كانت مهمة على تاريخ إفريقيا الشمالية إذ ذاك . ولقد ذهب أ . ف . قوتي حتى إلى الافتراض بأن كسيلة كان ملكا لبني جدار وأنه على الأقل قاد بني أوربة وهم من حضر قبيلة برانس المتأثرين بالحضارة اللاتينية والمسيحية والمائلين إلى الاتحاد مع اليونان ضد العرب المسلمين . وقال هذا المؤرخ في النهاية : « إن الانتصار على سيدي عقبة كان انتصارا بيزنطيا في معظمه أكثر من أي انتصار حققه البربر فيما بعد » .

ونظرا لندرة الوثائق وقلة دقتها فإنه من الصعوبة بمكان معرفة مدى تأثير كسيلة معرفة مضبوطة الا أن الأخبار التي رواها ابن عبد الحكم كفيلة بتأكيد الدور الخطير الذي قام به في هزيمة عقبة وشاهدة على أنه يعتمد في خطته على الروم الساكنين بإفريقيا الشمالية . ويظهر أن

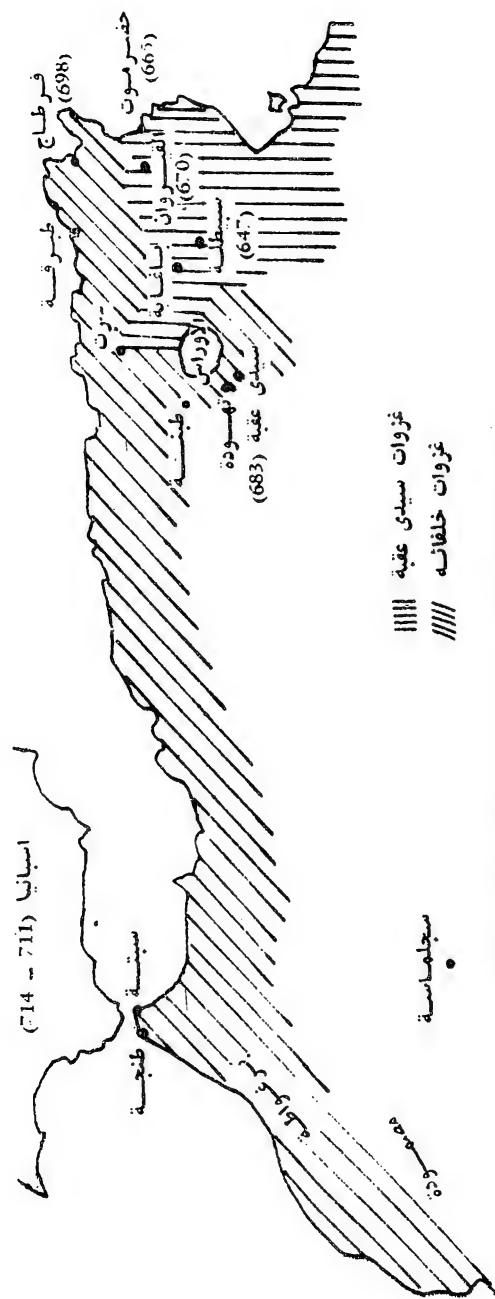
هؤلاء الذين لم تكن لهم قوة عسكرية كافية لصد المسلمين نجحوا في إثارة البربر المتمسكين بخصوصيتهم على المغيرين ولئن أعوزت البرطيين القوة العسكرية ، فقد احتفظوا بتأثير سياسي في شرق المغرب على الأقل ، فهل أسلم كسياسة ورجاله بعد كما يؤكد ذلك المؤرخون المتأخرون في الزمن أم أنهم بقوا على دين المسيح ؟ قد يكون من المجازفة الجزم برأي في هذا المجال .

ومهما يكن فإن عقبة بوغت في جهة بسكرة عند رجوعه من غارة قام بها في الغرب بحلف عتييد جمع البربر والبيزنطيين ولربما لم يكن عند ذلك مسيطرا على جيوشه المحملة بالغنائم وعلى كل فإنّه قسم جيشه في طبنة (Thubunae) إلى ثلاثة فيالق واتجه على رأس كتيبة قليلة العدد نحو جنوب الأوراس ؛ لكن كسياسة الذي كان انسلخ عنه في مكان مجهول ووحّد القبائل البربرية مع جيوش الروم حاصره في حدود الصحراء قرب تهودة (Thabudeos) على مصب الوادي الأبيض وقتله مع ثلاثمائة من فرسانه (سنة 683) . ومعلوم أن جثمان عقبة مدفون في مسجد الواحة التي تحمل اسمه «سيدي عقبة» على بعد خمسة كيلو مترات جنوب تهودة تحت قبة متواضعة البناء يحج إليها أحفاد الذين ساهموا في مقتله .

وكان الانتصار في الظاهر حاسما : ذلك أن سياسة عقبة أدت إلى الكارثة : إذ أن العرب اضطروا أمام تضافر جهود البربر والروم إلى التخلي عن ممتلكاتهم الواقعة ما وراء برقة .

وبعد ان دخل كسياسة القيروان بقي فيها ثلاث سنوات صاحب السلطة الحقيقية على إفريقيا والمغرب الشرقي . وما لبث البربر أن ارتدوا عن الإسلام كما كان شأنهم مرات عديدة حتى وصلوا في ظرف سبعين عاما إلى اثنتي عشرة ردة حسب ما ذكره ابن خلدون في نص شهير له ، فكان إفريقيا كانت مصممة على أن تحيا مستقلة تحت إمرة قائد بربري في منطقة الأوراس حيث نبض قلب المقاومة البربرية .

غير أن العرب ما كانوا ليصبروا على مثل هذه الهزيمة . فلقد اضطّر الخليفة عبد الملك إلى تأجيل الأخذ بالتأثير ليتسنى له مقاومة الدعي



شكل : I - مراحل فتوح المغرب (القرن السابع والثامن ميلادي)

الخطير عبد الله بن الزبير الذي كان انتصر قبل ذلك على النيسل جرجير والذي أمكن له بفضل قرابته من عائشة أرملة الرسول أن يتزعم جزءا عظيماً من الأمبراطورية الإسلامية . واغتسم عبد الملك فترة هدوء ليعقد لزهير بن قيس على رأس جيش واجه به كسيلة في ممّس (Mems) قرب القيروان ، فانهزمت الجيوش البربرية والبيزنطية بعد قتال عنيف قتل فيه كسيلة (سنة 686) . وكانت الهزيمة نسبية إذ أن زهيراً تراجع بجيشه ولم يترك الاحامية صغيرة بالقيروان وبغت بتزول جيش للبيزنطيين من البحر في برقة حيث لقي حتفه .

الكاهنة : إذا اقتصرنا على ما أورده ابن خلدون في تاريخه وعلى التفسير المغربي الذي قام به أ. ف. قوتيبي انتهىنا إلى القول بأن أفول نجم كسيلة أدى إلى نتائج خطيرة . ذلك ان البيزنطيين المسيطرين على المواني الكبيرة من سوسة (Hadrumète) إلى عنابة (Hippo regius) وعلى الحصون العديدة داخل البلاد كان دورهم في الحرب الدفاعية دور الروادف بالنسبة للبربر . فاغتنموا فرصة رحيل العرب ومنافسة قواد البربر بعضهم لبعض لتدعيم سلطانهم في المزايق . وأفلت من أيدي أوربة زمام العمليات وصار في حوزة قبيلة جراوة بالأوراس الشرقي .

ولم يبق جراوة حسب أ. ف. قوتيبي حضرا تقر بهيم حضارتهم ودينهم من الروم بل أصبحوا زناقين أي « بدوا أقحاحا جمالة دخلاء على المغرب » ليس لهم جذور تصلهم بماضي البلاد ولا مصالحة تشدهم إلى إفريقيا القديمة .

وهذا الافتراض خصب لأنه يكشف لنا فيما إذا أمكن التدايل عليه عن الاتجاهات الجديدة التي طبعت بها الكاهنة ملكة الأوراس البربرية المقاومة البربرية .

إن هذا التحول تم في ظرف على قدر كبير من الخطورة . ذلك أن عبد الملك الذي تمكن في آخر الأمر من القضاء على ابن الزبير (سنة 698) وعلى الثورات الدينية في المقاطعات الفارسية (697) أراد أن يقوم بعمل واسع النطاق في إفريقية . وفعلا بادر الوالي حسان بن النعمان الغساني بتوخي طرق جديدة فبدأ بإزالة الخطر البيزنطي عند استيلائه على

قرطاج (سنة 695) فكانت الصدمة عظيمة في القسطنطينية على غرار التأثير الذي حصل بعد انتصار جنسريق واضطر الإمبراطور ليونسيوس (Leontios) إلى تجهيز أسطول نجح من حسن حظه في استرجاع المدينة من جديد .

وفي الأثناء اتجه حسان إلى مقاومة بربر الأوراس . وقد بلغه حسبا يروى أن ملكة عظيمة الشأن تسمى الكاهنة ، أي النبىة ، تحكمهم . وهذه المرأة المجهولة الاسم (دمية أو دمية ؟) كانت كما أكد ابن خلدون هي وقومها على دين اليهود . ولقد أراد بعضهم التذليل على ذلك بكنيتها التي هي في واقع الأمر عربية صرف .

وعلى كل فقليلون هم الأبطال الأفارقة الذين غنوا الأساطير بمثل ما غزتها به من سماها جورج مارسي (G. Marçais) في لغة جميلة « الدبورة البربرية » (Débora berbère) . ويحسن التنبيه — نهائيا — بأن النساء في بلاد البربر قمن في مناسبات عديدة بدور مرموق على الأقل إلى الفترة الموحدية . وحسبنا أن نذكر بقوة زينب زوجة يوسف بن تاشفين التي كانت هي أيضاً تعرف السحر وبعده أميرات من المرابطين وبأخت ابن تومرت نفسه التي عاضدته في ساعاته الأخيرة مع أخلص مريديه . غير أن واحدة منهن لم تبلغ شأوا الكاهنة . والواقع أننا لا نعرف من أمرها إلا اسمها وإشعاعها ومقاومتها الشديدة للغاصب وقد غزتها على ما يظهر وطنية بربرية وعقيدة عبرية .

والذي لا شك فيه هو أن الكاهنة جمعت كلمة البربر من جديد وهزمت الجيش العربي على ضفاف مسكيانة بين عين البيضاء وتبسة ودحرته إلى طرابلس .

انتصار حسان : غير أن حسانا اقتحم بعد ذلك بقليل المزاك من جديد وافتك مرة أخرى قرطاج (سنة 698) فلم يجد في المدينة إلا عددا قليلاً من الروم بلغوا من المسكنة حدا جعلهم لا يبالون بمن يسودهم . أما السكان الآخرون ، فقد لاذوا بجزر البحر المتوسط . لكن حسانا سرعان ما استعاض عن العاصمة المنهارة بمدينة جديدة في منتهى الخليج وهي تونس فكان دورها الأول أن أصبحت دار صناعة لا ينالها العدو من عرض البحر .

وكانت مراكز الخليفة قد شنت الأسطول البيزنطي وهو آخر أسطول قدر على أن يجول قرب شواطئ إفريقيا . وانتقلت بذلك السيطرة على البحر إلى العرب ولم يبق في حوزة الروم إلا مركز سبتة (Septem) وأشلاء من موريطانيا الطنجية ومايورقا (Majorque) ومينورقا (Minorque) وعدد قليل من المدن في إسبانيا . ويظهر أنهم كانوا من هذا كله آتسرخسية (Exarchat) دامت عشر سنوات أخرى .

وبقي كسر شوكة البربر ، وفي هذه المرة يسرت خلافاتهم انتصار العرب ، ذلك أن الكاهنة قد تكون حكمت المغرب طيلة خمس سنوات حسب عرف البدو والرحل لذا فإن النتائج لم تتأخر عن أجلها .

فقد أجمع المؤرخون العرب على أن الفاتحين وجدوا في الروم وحضر البربر أعواناً قيمتهم لا تقدر . وإذا صح أن المالكة أرادت قطع خط الرجعة على العرب فأمرت بتخريب البلاد بحيث لم يبق ماثلاً لا الشجر ولا الأسوار فإننا نفهم لماذا ألبت عليها أهل المدن والمزارعين سواء كانوا روما أو بربرا .

وكان الحسن أذكى من أن يستغل مثل هذه الحالة ، ثم إن عبد الملك الذي كان انتصر (سنة 702) على آخر تمرد قام به أحد الأعداء أرسل إليه بجيش عظيم أمكن له به أن يشن هجماته من جديد .

وأمرت الكاهنة قبل المعركة الحاسمة بيوم أولادها بأن يسلموا أنفسهم إلى العدو . ولقد بين أ. ف. قوتيبي في مقارنة موحية كيف أن هذا الصنيع طبيعي بالنسبة لقائد بربري يضع سلطان عائلته على القبيلة فوق كل اعتبار ، وخاضت المالكة وقد تقدمت بها المن معركة ميثوسا منها في مكان ربما يكون قرب طبرقة ثم طوردت هي وخلصاؤها حتى الأوراس ، وقتلت قرب بئر تسمى . من ذلك الوقت بثر الكاهنة وحمل رأسها مشهرا إلى الخليفة . وبموتهما انتهت فترة الدفاع البطولي .

الموازنة برانس + بتر = حضر + بدو رحل : وهكذا فإن الصراع الدائم بين الحضرة والبدو يحتل المقام الأول في سياق الفتح العربي . وقد تلقي هذه المقابلة الأضواء الكاشفة على تاريخ بلاد البربر لو أمكن مقايستها بالترتيب الذي وضعه ابن خلدون وتبين الواقع الجغرافي والاقتصادي من خلال النظرة الخيالية للأنساب .

وهذا ما حاوله أ. ف. قوتيبي في أحد افتراضاته الجريئة التي تحمل على إعادة النظر في التاريخ التقليدي . وقد يكون الجمالة الذين سمح لهم آل سواربوس بتكوين قبائل عظيمة سريعة الرحيل صعبة المنال هم البربر الذين يسميهم المؤرخون العرب البتر والمنحدرون من رجل خرافي اسمه مغديس الأبتسر .

بينما الحضر قد يرجعون إلى البرانس نسبة إلى جدهم برنس وكل جماعة تتكون من سكان يتحدثون في نمط الحياة وليست بينهم قرابة . وعلى ضوء ما سبق يمكن فهم الصعوبات التي قامت في وجه العرب عند الفتح وعوامل الانقسام التي سهلت عليهم الانتصار ، ولم يتطلب خضوع أهل المدن الإفريقية العريقين أي مجهود يذكر ، فقد كان قيام حكومة نظامية ضروريا لحياتهم ، وقضاء شؤونهم أهم في نظرهم من الحرية . غير أن مأساة اجتماعية كانت تحاك خيوطها في نوميديا منذ العهد الوندالي . ذلك أن الفلاحين كانوا زمن الهيمنة الرومانية يفقدون منزلتهم شيئاً فشيئاً لفائدة الرحالين الصغار وخاصة كبار البدو الجمالة . ومن المحتمل أن تجسست على التداول في جماعة البرانس المقاومة البربرية . فكانت أوربة الحضرية تحت إمرة كسيلة وجراوة البدو الرحل تحت إمرة الكاهنة . وقد تكون ثورة الحضر على أساليب البدو الرحل هي العنصر الحاسم في انتصار الفاتحين . وهي التي قد تكون أتاحت لهم الفرصة لمواصلة فتوحاتهم ونشر دينهم في اتجاه الغرب .

قال أ. ف. قوتيبي في الختام : « لم يحاول الحضر والبدو في المغرب قط العيش جنباً إلى جنب من دون أن يضمم الحقد بعضهم لبعض . وكان في ذلك انتصار الزحف العربي والمنعرج الحاسم الذي تخطاه حسان بن النعمان » . وإذن فإن هذه الفرضية يمكن أن تستمد من الزحف العربي مثالا يبرز صحتها .

ولقد ناقش وليام مرسي كل ذلك بما يفرضه المقام من جد وكان يرى من المستحيل اعتبار البتر بدواً رحلاً والبرانس حضراً . « ذلك أن جانباً عظيماً من الزناتيين الممثلين المتمثل الحق لفرع البتر كانوا من دون شك جمالة » . غير أنه من الصعب تصور الكثيرين من البتر بدواً رحلاً على

الوجه الأكمل مثل القرويين الكومية والمتاغرة « المستقرين بالأكوخ » وفلاحي نفوسة المستوطنين بنجاد طرابلس وبني جراوة من الأوراس . ومن جهة أخرى نجد من بني البرانس صنهاجة سكان الصحراء وهم أكبر الرحل عظمة . ويشهد كذلك ابن خلدون بأن هوار البرانس كانت تضم الرحل والحضر معا ، وبأن فرعا كاملاً من برانس كتامة وهم بنوسدويكش كانوا يعيشون تحت الخيام ويربون الإبل ، وغالباً ما تعتبر كتامة من القبائل ؛ وهكذا فإن الواحد من بني سدويكش يمثل خليطاً غريباً من القبائلي الراعي الساكن بالخيام .

وإذا كان المؤرخون العرب لم يلاحظوا تضارباً في نمط من الحياة كان مألوفاً عندهم فمعناه أنه لم يكن ليطمأن مع المغرب . ويقدم وليام مارسي بدوره بما له من مكانة في العلوم اللسانية وفي حذر رغم ذلك ، تفسيراً شخصياً لهذا التقسيم . قال : « ربما أنبنى هذا التقسيم على الفروق التي لاحظها العرب في لباس أولى القبائل البربرية التي عرفوها من بربر يرتدون برانس (جمع برنس) ذات قلانس وبربر يرتدون ملابس قصيرة أو ليست لها قلانس (بتر جمع أبتر وهو الثوب المقطوع) . وهل نحن في حاجة إلى القول إننا مازلنا إلى هذا الحد في مجال الافتراضات .

وفيما بعد تلاشى المعنى الأول لهذا الفارق عندما أصبح ينطبق شيئاً فشيئاً على الأمازيغي الذين أخذ الفاتحون يتصاون بهم تدريجياً » .

ومن المحتمل أن الفاتحين عند توغلهم نحو الغرب ، وجدوا في أماكن بعيدة جداً أحياناً بعضها عن الآخر ، قبائل تحمل نفس الأسماء مستمدة من ظروف حياتها « وربما كان الأفرن من سكان المغاور » أو منسوبة إلى طوطم يحميهم . « وبما أن تشابه الأسماء كان بالنسبة إليهم الدليل المرجح لثبوت النسب فإنهم وجدوا في قبائل تتحد في الاسم الأحفاد المنحدرين من جد واحد وقد شتتتهم صروف الحدثان ! ومنها ، ما كان يعيش في شرق المغرب ، ومنها ما كان يعيش في غربه ، وبعضها من البدو الخالص أو أشباه البدو والبعض الآخر من الحضر الفلاحين . ومن بينها من استوطن تخوم السودان والآخر استقر بجبال التل » .

ولو حاول مؤرخ عربي اليوم اعتماد نفس المعيار لمعرفة سكان الجبال لحشر في عائلة واحدة « الجبالية » المغاربة سكان المنازل ، و « جبالية » قسنطينة سكان الأكواخ و « الجبالية » التونسيين المربين للإبل والعائشين تحت الخيام فترة من السنة . وينسبهم إلى جد واحد وهو جبل . وهذا هو الذي جعل بعضهم ولا شك ينسب صنهاجة إلى صنهاج ومطماطة إلى مطماط .

ومن الواجب دحض افتراض أ. ف. قوتيبي وإن كان مغرضاً وذلك نظراً لإفراطه في التعميم . إلا أن هذه النظرية تؤكد الانعكاسات الاجتماعية للفتح العربي وتستحق من هذه الناحية أن تؤخذ بعين الاعتبار ، وإن هناك ظاهرة ظالماً تكررت وهي أن البدو يغتنمون الأزمات السياسية للخروج من عزلتهم والهجوم على الحضار قصد الانتفاع من الفوضى . وهكذا انقض المرابطون على المغرب الأقصى المتداعي في القرن الحادي عشر وظهر بنو مرسين في جهات ملوية السفلى حالما بدت على الدولة الموحدية علائم الوهن . كما انطلق حديثاً الهبة ورجاله الزرق من الساقية الحمراء (Rio de Oro) على الدولة العلوية عندما كان نجمها في أفول . وليس من الغريب إذن أن يظهر البدو الرحل على مسرح الأحداث بعد الاضطرابات الكثيرة التي نتجت عن الفتح الاسلامي على الأقل في الجهة الشرقية من إفريقيا الشمالية .

ومن جهة أخرى فإن افتراض أ. ف. قوتيبي يؤكد أهمية أنماط الحياة التي تختلط اختلاطاً وثيقاً بوشائج القرى والتي يميل الإخباريون العرب بسهولة إلى إهمالها لشدة تعلقهم بالنسب وكثيرة هي أمثلة القبائل المنحدرة مبدئياً من جد واحد والتي تكونت في الواقع من عناصر متباينة لا يجمع بينها إلا نمط واحد من الحياة ولم تعطها طابع وحدة الجنس الذي يتمسك به المغرب تمسكاً شديداً إلا أوهام التبني .

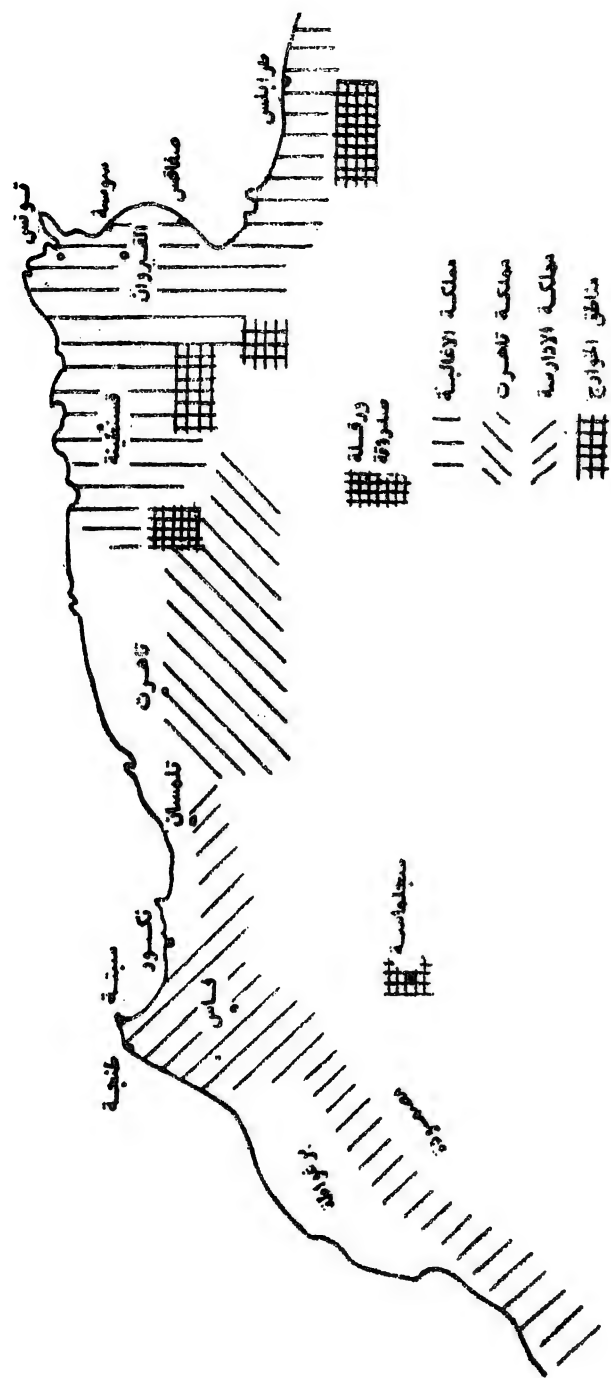
أمّا دور كسيلة والكاھنة فإنّه يبدو من قبيل المجازفة ضبطه بالاستناد إلى ما بين أيدينا من نصوص غير موثوق بها ومتضاربة . فلقد مكنت القرون المتتالية شخصية كسيلة أول بطل لاستقلال بربري من أن تبرز بروزاً . ذلك أن البلاذري لا يعرفه البتة . أمّا البكري فلقد جعله

يفسر من طبنة أمام موسى بن نصير وابن قتيبة أكد أنه قضى نحبه سنة 702 وهو يقاتل موسى هذا بعينه لافتكالك منفذ الماسوية . كما أن ابن عبد الحكم لا يعرف بالضبط هل إن عقبة بن نافع قتل بيد كسيلة أو « ابن الكاهنة » وربما اعتبرهما في الواقع شخصا واحدا . وعلى كل فإن واحدا من الإخباريين القدامى لم ينع كسيلة « بأنه رأس قبيلة أوربة » التي لا تسمح أية وثيقة بجعل موقع سكانها في الأوراس زمن الفتح العربي .

وهكذا فإن كامل الرواية التقليدية التي تستجيب لنسواز النفوس التواق إلى الملاحم لا تثبت أمام مكافحة النصوص . وقد يكون من المجازفة اعتبار شخصية كسيلة أوضح ملاح من شخصية رولان (Roland) كما تبدو من خلال ملحمة (Chanson de geste) .

بقيت النظرية المتائلة بوجود أوراسين التي اقتبسها أ. ف. قوتيبي من مسكراي (Masqueray) وانها قد تقوم على أساس التفسير بين لهجتين . لهجة الشاوية سكان الأوراس الغربي أحفاد رعايا كسيلة ولهجة الشاوية سكان الأوراس الشرقي أحفاد رعايا الكاهنة . وهو تفسير يقبلي مبني على عدة أخطاء ومردود اليوم من جميع الاختصاصيين في اللغة البربرية « فنظرية مسكراي القائمة على ثنائية بلاد الشاوية تظهر إذن واهية جدا ، والمحطة تفرض علينا اجتنابها انتظارا لما يخالف ذلك » .

وهكذا فإن الظروف التي اكتتفت المقاومة البربرية تند عن تطلعا . فلم يسبق لنا والحالة هذه سوى التذكير من جهة بالرواية القديمة المتعلقة بالفتح كما اعتاد القوم استخلاصها من المؤرخين العرب اعتمادا على اختيار لا يخضع دائما إلى مقتضيات النقد الموضوعية . ومن جهة أخرى عرض الفرضيات التي أوحى بها هذه الرواية التقليدية إلى فذين من المؤرخين ثم مناقشتها ؟ فهل معنى ذلك أن ما حاوله أ. ف. قوتيبي كان لافائدة فيه ؟ إننا أبعد ما نكون عن هذا القصد ، ونحن لو تغاضينا عن براءة هذا المؤرخ وإمتاعه لوجب أن نؤكد أكثر ممن سبقه ، الفوارق الموجودة بين « أهل الوبر » و « أهل المدر » ونبين كل النتائج التي يمكن للمؤرخ والجغرافي معا استخلاصها ، والواقع أن ما وجه من



شكل : 2 - المغرب في مستهل القرن التاسع ميلادي

نقد في هذا الصدد كان ضحلا ما عدا بعض الاستثناءات ومنها نقد وليام مارسيه (W. Marcais) البارع .

ومن البدهي ، كما طاب لمنتقده الاعتراف بذلك ، « أن مؤرخي المغرب لن يتيسر لهم التفصي ولو من مسألة واحدة من بين المسائل التي وضعها » .

موسى بن نصير :

أمّا رجع حسان إلى القيروان وشرع في سنن قوانين جبائية قارة أصبح في عيني الخليفة مشبوها في أمره فاستقدمه وأوكل لموسى بن نصير أمر إفريقية التي أصبحت مستقلة عن مصر منذئذ فلم يكن منه إلا أن وسع رقعة انتصارات سلفه . وإذا كان من الصعب جدا ضبط فترة هذا التعيين طالما أن التواريخ المذكورة متغايرة جاز ترجيح سنة 705 مع تقدير نسبة الخطأ بعشر سنوات تقريبا .

وأول ما قام به موسى بن نصير إخضاع المغرب الأقصى حتى المحيط الأطلنطي والتوغل إلى سجلماسة في قبيلات . ولئن أخفق في فتح سبتة فإنه احتل نهائيا طنجة . وكانت البلاد آنذاك آهلة بقبائل البربر من سلالة صنهاجة . فكانت قبائل غمارة نازلة بساحل البحر المتوسط وقبائل برغواطة على طول المحيط الأطلنطي بين مضيق جبل طارق ومصب أم الربيع .

أمّا قبائل مكناسة فقد استوطنت وسط البلاد ، وقبائل مصمودة حطت بالسفح الغربي من الأطلس الكبير وبساحل أم الربيع في بلاد السوس ، وأقامت قبائل هسكورة بين السوس ودرعة وقبائل لمطة ولمتونة على الضفة اليسرى من درعة . ولقد فرض موسى الدين الإسلامي في حزم شديد على هذه القبائل المسيحية أو اليهودية المنصرفه غالبا إلى عبادة الطبيعة ، وكذلك على القبائل المرتدة في سائر بلاد البربر .

ولقد وجد المسلمون الجدد في إسبانيا ما يشفي الغليل إذ انتصر جيش من البربر بقيادة طارق بن زياد البربري على القوط فكانت معركة واحدة كافية للإطاحة بامبراطوريتهم وذلك سنة 711 . وكان البربر

هم الذين توغلوا في الجزيرة واقتحموا غاليا حتى بلغوا مدينة بواتيي سنة 732 (Poitiers) . ولئن انسحبوا بعد انتصار شارل مارتل فلم يكن ذلك تحت ضغط الإفرنج (Les Francs) بل كان نتيجة لما جد في المغرب الأقصى من ثورات اندلعت بسبب استشعار العرب للأراضي الإسبانية عند اقتسامها ، وبسبب ما صدر عن ولاية طنجة كذلك من أعمال اتصفت بالتنكيل أو العنف . وتمكن الغزاة من كسب عطف برجوازية مدن إفريقية وموريطانيا الطنجية ومن صرف حماس البربر بصفة وقتية إلى الغزو والنهب ، غير أن خضوع جماهير البربر التي كان العرب يحتقرونهم ويستغلونهم لم يكن إلا وهميا . فلقد لاحظ حسان منذ ذلك الوقت « أن فتح إفريقية أمر مستحيل » وأدرك خلفاؤه إزاء ما لاقوه من عنت أن الاحتلال القار أعز منلا من مجرد غزوات خاطفة .

(2) المقاومة البربرية

نحلة الخوارج :

لابد لكل انتفاضة من أصول مذهبية فالفلاحون المصريون الذين ثاروا في الألف الثانية قبل المسيح لإرغام الارستقراطية على كشف الرموز الضامنة للخلود ، والدوناتوسيون الذين قاوموا الانتهازية الكاثوليكية وناهضوا تحالف الولاة الرومان مع الأساقفة والملاكين العقاريين لم يتجاوزوا أن عبّروا تحت قناع الدين عما كانوا يضمرونه من حقد نحو الأغنياء ورجال السلطة . وكذلك كان الأمر بالنسبة للبربر الذين أسلموا على يد العرب فقد صبغوا معارضتهم بالصبغة الإسلامية فتمكّنوا بذلك من عرض مطالبهم الاجتماعية في صورة مثل أعلى ديني .

لقد أصبح الخروج بمثابة حلقة من الصراع الطبقي وظاهرة شعوبية كما كان الأمر بالنسبة للدوناتوسية . ولئن كان المغرب مسرحا ممتازا لهاتين البدعتين أو بعبارة أصحّ لهذين الانشقاقين المطبوعين بالطابع الثوري فذلك لأن مشاعر التقشف والمساواة التي لا يمكن فصلهما عن كراهية المسود للسيد لم تبلغ درجة من الحدة كما بلغته في هذه البلاد .

ومما لا شك أن ظهور نحلة الخوارج راجع أولا وبالذات إلى التحكيم الذي اضطرّ الخليفة علي إلى قبوله تحت ضغط جيوشه . لكن جمعا من الجند الإضافيين آثروا الانسحاب فورا خشية أن يفهم من بقائهم الاعتراف بقرار يخضع كلمة الله لحكم البشر . وبعد إدانة علي غادر سراً جمع غفير من أنصاره الكوفة الموجودة على الضفة الغربية من الفرات حيث كان يعسكر الجيش والتحقوا بالمشقّين الأولين . وهذه الهجرة هي التي أعطت للمشقّين اسم الخوارج .

وإذا نحن تركنا جانبا النحل المتعادية التي تكاثرت بسرعة لاحظنا أن الخوارج أجمعوا فيما يخص "الخلافة على إعلان معارضتهم للجماعة حسب تعبير ولهوسن (Wellhausen) الراشق . فقالوا بأن كل إمام يزيغ عن الطريق المستقيم يجب خلعه . وبموجب هذا المعيار الأخلاقي والديني رضوا بخلافة أبي بكر ، وقصدوا عمر ولكنهم تنكروا لعثمان بعد عامه السادس من الحكم كما خرجوا على علي بعد رضاه بالتحكيم . وعلى هذا الأساس فإن كل مؤمن جدير بهذا الاسم يمكن للجماعة أن تبايعه ، من دون أي اعتبار لجنسه ، « ولو كان عبدا أسودا » . وفي الواقع فقد كانوا متطرفين في نظرتهم الأخلاقية . ذلك أن الإيمان عندهم لا يصح إذا لم تؤيده الأعمال ، ومن اقترف ذنبا عظيما عدّ عاصيا وفي نظر بعضهم عدّ كافرا واستحق هو وذووه القتل . ولم يزل الخوارج يوجهون ضد أنصار الأمويين الحملات الانتقامية ويفرقون أثناءها في بحور من الدماء الأمبراطورية الشرقية بجرائمهم الدينية حتى قضى عليهم الخلفاء العباسيون وبقوا مجرد نحلة . ولم يبدأ رسولهم في نشر مذهبهم ببيلاد المغرب إلا في أواخر العهد الأموي فقبلت دعوتهم إلى المساواة وتزمتهم بحماس كبير . ومن بين الاتجاهات الأساسية الثلاثة التي تنازعت الخوارج من أزارقة يمثلون التطرف اليساري وإباضية يمثلون اليمين وصفريّة اليسار احتلت الإباضية والصفريّة مكانة عظيمة في تاريخ المغرب . وتبلاءم مذهب الخوارج بطبيعة الحال مع ما فطر عليه البربر من نزوع إلى الثورة . فجعلوا من الصفريّة النحلة المناهضة مبدئيا للطرق الإرهائية مذهبها يقول بالعمل المباشر مثل نحلة الأزارقة في الشرق .

وسرعان ما تحوّلت معارضة الخوارج إلى تمرد على مذهب السنّة المتمثل عمليا في استبداد العرب وبيروقراطيتهم .

وإذا مال قوتيبي (Gautier) إلى نسبة هذه الثورة إلى زناقة دون سواهم فان ويليام مرسيه (W. Marçais) يتبين في القرن الثامن الهجري مصدرين للتمرد كفيلين كلاهما بالقضاء المبرم على الوجود العربي ، أحدهما في المغرب الأقصى وكان يهدد بعزل إسبانيا عن بقية البلاد وامتداد الثورة إليها ، والثاني في الأفاصي الشرقية من بلاد البربر جهة جنوب قسنطينة والبلاد التونسية وطرابلس حيث كان في

الإسكان أن يؤول انتصاره إلى انهيار العاصمة الجديدة وقطع المواصلات مع القواعد الشرقية . وإذا قامت زناقة بلمور لا ينكر في شرق البلاد فإن نشاط الخوارج شمل بالخصوص البرانس من دون أن يتوغل أول الأمر في أواسط بلاد زناقة أي شرقي المغرب الأقصى ، وجهة وهران وسهل شلف .

طفيان العرب ورد فعل البربر

كان المغرب وإسبانيا يخضعان آنذاك إلى الولاة المقيمين في القيروان الذين كانوا ينتمون ، حسب التقلبات السياسية ، مرة إلى القيسية وأخرى إلى اليمينية إذ أن انتصار الإسلام لم يحد قط من وطأة الخلافات الجاهلية .

وعلاوة على ما لاحظناه من عدم استقرار فان إفريقية كانت تنوء مغلوبة على أمرها تحت وطأة الضرائب التي فرضها الخلفاء . وتلافيا لنضوب الخزينة من جراء انتشار الاسلام ، اهتدى الأمويون إلى جبر الذين دخلوا في الإسلام حديثا على دفع الجزية والخراج وهما من الضرائب المستلطة عادة على الكفار دون سواهم . وكان العرب يعاملون بدون شفقة ولا رحمة المسلمين الذين لم يمض وقت طويل على إسلامهم وخاصة منهم البربر الأجلاف . ألم يتنجح الوالي يزيد بتوخي نفس الطرق التي استعملها الحجاج في العراق . وكان الحجاج مثالا يحتذى بحق إذا تذكرونا على الأقل الوضع الذي كانت تتسم به مبادئه في الحكم عندما تولى أمر الكوفة .

وهو الذي أعلن في هذه المناسبة السعيدة : « إنني أرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها ، وأرى الدماء ترقق بين العمائم واللحي ... والله لألحونكم لحو العصا وأضربكم ضرب غرائب الإبل » فإذا سلط على البربر هذا النظام أدركنا لماذا ثاروا وقتلوا يزيد .

وبعد ذلك بأعوام قليلة وجد الخليفة هشام الذي أراد تعزيز النظام الجبائي الذي أقره عمر في ولايتي طنجة والسوس من الشطط في القيام بالواجب ما حمل الأهالي على الثورة (739 - 740) وكان الدور الأول في ذلك من نصيب الخوارج ، فكان ميسرة السقاء الصفري طبعاً على رأس الثوار من غمارة ومكناسة وبرغواطة بعد أن بايعوه خليفة ولكن هذا

لم يمنحهم فيما بعد من خلعه وقتله عندما ظهر في أعينهم بمظهر الضعف وكانوا قد سيطروا بسرعة تحت إمرته على طنجة رغم تدخل والي إسبانيا . وان صدقنا ابن خلدون يكون قائدهم الجديد ، خالد بن حميد قد هزم جيش العدو على ضفاف شلف « في وقعة البلاء » حيث هلك القائد العربي « وجميع الأبطال » الذين كانوا معه (740) . وإذا كان ذلك كذلك وجب التسليم بأن مركز الخوارج في الغرب امتد إلى أواسط بلاد زناتة مما يؤيد نظرية أ.ف. قوتيبي غير أن المؤرخين العرب الآخرين حدّدوا على ما يظهر مكان الواقعة شمالي المغرب الأقصى . ولربما كان الخلاف ناتجا عن خطأ في نسخ نص ابن خلدون يتمثل حسب وليم مرسبي في تعويض كلمة سبو بشلف . إذ يكفي أن تطول أو تقصر تعريقة بقطع النظر عن الإعجام الذي كان النساخ يسهون عنه أو يشتونه خطأ ، حتى تكون للأسمين نفس الكتابة تقريبا « وهكذا فإن ما في الوثائق التي بين أيدينا من غموض يدعونا مرة أخرى إلى المزيد من التثبت وعند ذلك رأى هشام أنه من الواجب ردّ الفعل فأرسل تحت إمرة كلثوم خيرة جيوش الشام فكان مآلهم نفس المآل في واقعة بقدورة على نهر سبو (742) . وكان متوقعا أن ينهار نهائيا سلطان دمشق لو لم ينهض في نفس السنة حنظلة بن صفوان والي مصر الجديد ليوقف في الوقت المناسب زحف جيشين من الخوارج كانا تغلغلا في إفريقية وهددا القيروان ويتنصر عليهما في وقعتي القرن والأصنام (أفريل - ماي 742) .

اضطرابات إفريقية :

أتاحت هزيمة الخوارج والصعوبات التي وجدها في نفس الفترة الأمويون من أجل البقاء في الحكم ظهور نوع من الرجعية العربية ذات الصبغة التمردية في إفريقية . ففي سنة 744 أي السنة التي اندلعت فيها بالشرق الثورات التي أدت بعد ست سنوات إلى قيام الدولة العباسية أعلن عبد الرحمن بن حبيب وهو سيّد من أسياد العرب وحفيد من أحفاد عقبة استقلاله في تونس . ويقال إن حنظلة آثر ، تحاشيا من وقسوع حرب أهلية بين العرب ، وبدافع التقوى والورع ، الرجوع إلى الشام من دون قتال

لاعنا إفريقية أرض الفتن (فيفري - مارس 745). وكان آخر خلفاء الأمويين وأول العباسيين في شغل شاغل عن الوقوف في وجه المغتصب. ولما استحث الخليفة المنصور آخر الأمر عبد الرحمن على الولاء والطاعة تمرّد من جديد، وأوى من نجا بنفسه من الأمويين واستطاع واحد منهم بلوغ قرطبة حيث أسس إمارة تحولت فيما بعد إلى خلافة (756). غير أن آخر أيام عبد الرحمن كانت مضطربة من جراء خصوماته مع حاشيته وقد هلك بطعنة خنجر سدّدها له أحد إخوته (755).

ووجد بنو ورفجومة، وهي قبيلة صفرية من الجنوب التونسي، في الصراع الذي عقب موت عبد الرحمن مجالا لاحتلال القيروان فعاثوا فيها فسادا. واضطر القوم إلى الاستنجاد بالإباضيين من جبل نفوسة وهم نحلة أخرى من الخوارج كانوا قد خلعوا والي العباسيين في طرابلس تحت قيادة إمامهم أبو الخطاب.

وقيل إن أبا الخطاب استفظع ما اقترفه خوارج النحلة المعادية من جرائم فرمى بجيوشه القيروان وقتل بني ورفجومة تقتيلا رغم اعتدال مبادئه، وبسط نفوذ سلطانه من طرابلس مقر إقامته إلى إفريقية التي ولّى عليها عبد الرحمن بن رستم وأقره بالقيروان وهو شريف من أصل فارسي كان تربى بها (جوان 758).

وصار البربر مرة أخرى مثلما كانوا في عهد كسيلة أسيدا على الجزء الشرقي من إفريقيا الشمالية بينما بقي الغرب مستقلا إلا في الفترة الواقعة بين فتوح موسى بن نصير وبين تمرّد ميسرة. ورغم ذلك فإن الفاتحين بذروا في البلاد بذرة دينية ستثبت مع الأيام، وبالرغم من أن الإسلام نحا منحى البدع في بلاد البربر ولم يسيطر على كثير من القبائل المتحصنة في الجبال وحتى السهول فإنه كان حيا متغلغلا في النفوس منتصرا على ما سبقه من المعتقدات. وبعث ابن الأشعث والي مصر الجديد جيشين لقتال أبي الخطاب مني كلاهما بالهزيمة. واضطر في آخر الأمر إلى أن يعيد الكرة مرة ثالثة فقاد الجيش بنفسه. وبعد أن دفع ثمنا باهضا للانتصار في وقعة تاورغة (في الجنوب الشرقي من زليطن بطرابلس) تمكن من دخول القيروان (أوت 760).

خوارج المغرب الأوسط :

ولم يكن لابن الأشعث الذي استوثق سلطانه بإفريقية وعمل على استئصال الخوارج منها شأن كبير في سائر المغرب . بل إن انتصاره كان سببا غير مباشر في تكوين مملكة إباضية تمكّن فيها مذهب الخوارج من الازدهار في حربة تامة . فلقد توّصل ابن رستم إثر سقوط القيروان من أن يفلت من قبضة المنتصر ويؤسس على سفح جبل جزول مدينة تاهرت أو تيهرت (واسمها اليوم تغمّت) وهي لا تبعد كثيراً عن مركز روماني قديم اسمه اليوم تيارت وفيها ارتضاه أصحابه بعد سنوات قليلة إماماً عليهم (776 أو 778) . وفي نفس الفترة أسس أبوقرة سيّد قبيلة ايفران المنيعية مملكة الصفرية قريباً من تلمسان . ونحن لانعرف عن حياته الذاتية شيئاً كبيراً غير أن شأنه في الميدان العسكري كان عظيماً . ولاقي والي القيروان عمر بن حفص عناء كبيراً من خوارج هاتين الإمارتين اللذين تحالفوا مع خوارج جبل نفوسة وجماعات أخرى من البربر . فقد حاصره أبو قرّة على رأس ثلاثة عشر فيلقاً في طينة بالزاب . ولم يسلم العرب إلاّ بفضل خيانة أمير الصفرية الذي أبعد عن ساحة الوغى أكبر جيوشه عدداً وأشدّها بأساً مقابل أربعين ألف درهم . ولم يفلت عمر من طينة ويلتحق بالقيروان إلاّ بمشقة بالغة ، إلاّ أن البربر حاصروه وقطعوا عنه المؤونة فكانت المجاعة وبذلك أصبح الخوارج يسيطرون لا على المغرب الأوسط فقط بل على كامل إفريقية (سنة 771) .

إلاّ أن الخليفة أرسل من الشرق جيشاً عتيداً بقيادة يزيد بن حاتم الذي أحله محلّ عمر . ويقال إنّه لما بلغ عمر بن حفص هذا الخبر عرّض بنفسه للموت في واقعة فقتل . واتجهت الجيوش البربرية نحو جنود العباسيين بقيادة أحد ولاة طرابلس السابقين وهو خارجي كان قام بدور كبير في طينة وأشرف على حصار القيروان ويدعى أبا حاتم وقد خلع عليه الإباضية لقب إمام فمني بهزيمة نكراء في طرابلس غربي جنوبي (Jenby) (772) . ويذكر المؤرخون العرب أن هذه الواقعة هي خاتمة لثلاثمائة وخمس وسبعين معركة خاضها البربر ضد الجيش العربي منذ أن ثاروا على عمر بن حفص . وتوخّى يزيد الشدّة في معاملته لخوارج إفريقية طيلة ولايته التي دامت خمس عشرة سنة (772 - 787) . فقد كادت

قبيلة ورفجومة التي أنهكها أبو الخطاب أن تبعد عن آخرها تحت ضربات يزيد . وكذلك كان مصير نفزاوة بالجريد . يقول ابن خلدون : « وعليها كان ركود ربح الخوارج بافريقية وإذعار البربر » ومن السهل طبعا إدراك الأسباب . وانهزم إذن الخوارج بافريقية واستتب النظام العربي السني في الجهة الشرقية من البلاد فقط . ذلك أن جزءا كبيرا من المغرب الأوسط والمغرب الأقصى بأكمله لم يخضع لنفوذ بغداد وبقي متشبثا ببدع شتى من مذهب خارجي هنا إلى ديانات بربرية جديدة هناك وخاصة في بلاد برغواطة التي سترجع إلى الحديث عنها . وقد يكون من المجازفة إذن الادعاء بأن بلاد البربر قد خضعت تماما لسلطان العرب أو حتى أن الإسلام عمها بالرغم من أنه قد انقضى قرن كامل منذ أن وطئت أقدام العرب المسلمين أرضها .

(3) ممالك الخوارج

مملكة تاهرت :

ولم يبلغ يزيد من القوة ما جعله يمنّ على مغرب الخوارج بحسنات الأمن الذي ران على فرسوفيا . ففي سنة 787 عرض ابن رستم الصلح فلم يكن بدّ من قبول شروطه . ولم يقدر الأغلبية الذين حكموا بلاد البربر الشرقية منذ سنة 800 على مشاغبة بني رستم بصورة فعّالة بحيث تمكنت مملكة تاهرت الإباضية من تدعيم نظامها طيلة القرن العاشر وعاشت في ظل مبادئها الدينية بكامل الحرية .

وفي هذا الباب يحتدّ الخلاف بين أ. ف. قوتيبي ووليام مرسبي فأكد الأول غرابة موقع هذه المملكة قائلا : إذا اعتبرنا لأول وهلة المعطيات الجغرافية فقط وجدنا أن مملكة تمتد من جبال نفوسة إلى تيارت تبدو مقطّعة بصورة غير معقولة . بينما حاذت حدودها جهة من ألصق الجهات بالطبيعة نعني منطقة « السباسب » وهي جهة مناخها جاف ، ومراعيها جدباء استوطن بها بتر منحدرّون من الجهة الشرقية وخاصة من جنوب تونس وطرابلس موطنهم الأصلي . وكان عيش هؤلاء البدو ضنكا بالضرورة إذ لم تكن لهم موارد ذات بال لسدّ حاجاتهم . فكان ما يدعون إليه من تقشف وتقوى منسجما تمام الانسجام مع ما فرض عليهم من شظف العيش . كما أن تصوفهم كان يجد في الصحراء الإطار الأنسب لبلوغ أقصى درجات التطرف .

ومن المؤسف أن أ. ف. قوتيبي لم يستغل نصّا معاصرا لتدعيم نظريته . فلنرجع إلى ارنست بيسكاري (Ernest Pichari) الذي أعاد إلى الأذهان ما تبعث به الصحراء (هذه الأرض الروحانية) في نفوس البشر من

« ميل شديد إلى التأملات » . وانساق جبابة - وهو الذي استعمل هذه الكلمة - نحو « أصحاب التأملات وأحلام السباسب ونحو الذين أفنى الصيام أجسامهم واستأصل الإقبال على الحياة من نفوسهم . وهكذا فإن الضابط الشاب الذي يتجاذبه وازع الإيمان فيجذبه رغما عنه لما للصحرَاء من سحر ، يشعر بميل نحو البربري البدوي المتصوف ! ولنا في حاجة إلى أن نغير كلمة واحدة مما قاله بسيكاري لتطبيقه على الإباضية . ألا أن وليام مرسي يضيف مؤكداً أن العناصر الفعالة للمذهب الخارجي الرسمي لم يكونوا أولئك الرحل من زناة الساكنين بالمغرب الأوسط المفطورين على الشقاق والتمرد غير المخلصين لقضية الخوارج الذين نغصوا على أمراء تيهرت ممارسة الحكم . « ومن حسن حظ بني رستم أن اعتمدوا على أبناء الأوراس وهم رحل يتعاطون الفلاحة وعلى سكان قرى جبال طرابلس . وكانوا يجلدون من بينهم الجند المخلصين والدعاة المتحمسين والممولين لخزائنها بما يدفعونه من ضرائب . »

ولكن الجدير بالاهتمام ليس التوزيع الذي كانت عليه القبائل في صلب مملكة بني رستم بل هو حياة الخوارج الحاكمين بأمرهم وخاصة في كنف عاصمتهم حيث تأجج حماسهم الديني وهم في شبه عزلة . ولنا في خبرين ما يدل على ذلك ، أحدهما منسوب إلى ابن الصغير وهو مسلم لا ينتمي إلى نحلته عاش في تيارت تحت حكم من تأخر من أيمتهم ، والثاني دون في أواخر القرن الحادي عشر رواه أبو زكريا وهو عالم خارجي من خوارج ورقلة . وقد نشر الرواية الأولى وترجمها موتيلنسكي (Motylinski) أما الرواية الثانية فقد ترجمها مسكراي (Masqueray) معتمداً على نسخة أصلية مزبانية ظن القوم خطأ أنها فقدت . وكان عزم الأستاذ البولوني زموغورزفسكي (Zmogorzewski) نشرها ولكنه مات دون ذلك وهو الذي عكف على دراسة مذهب الخوارج ووجد مخطوطات عديدة في المزاب . واتخذت الإباضية تاهرت عاصمة لهم وهي على منحدر يشرف من علو قدره ألف متر على سبب للمرعى . وفيه ينتجع الرحل في فصل الصيف ويبدلون محصول ماشيتهم بحبوب التل . وكان رؤسائهم يبادرون عند وصولهم بالاتصال بأعيان المدينة ثم يرجعون

إلى موضع خيامهم حتى الرحيل . ولقد ذاع صيت العاصمة الرستمية حتى أصبحت محط رحال الخوارج الذين كانوا يخفون إليها من العراق حاملين معهم أموال المتحمسين ساعين إلى التشبع من روح المذهب الخارجي المنتصر وطامعين كذلك في القيام بمضاربات أقل تجرداً . وكثير هم الذين كانوا يحجمون عن الرجوع . قال ابن الصّغير : « ليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بين ظهرانيهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته وأمانه على نفسه وماله حتى لا ترى داراً إلا قيل هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري وهذه لفلان القروي وهذا مسجد القرويين ورحبتهم وهذا مسجد البصريين وهذا مسجد الكوفيين » .

واقصر الباحثون زمناً طويلاً عند تقييم فنّ بني رستم المعماري على آثار صدراتة (قرب ورقلة) وهي المدينة التي التجأ إليها أهل تاهرت عندما استولى الفاطميون على عاصمتهم سنة 911 . وتدلنا هذه الآثار على أن فنّها المعماري متصل بفن إفريقية وأن زخرفها ينتسب إلى زخرف أديرة الأقباط وأن لها عناصر معمارية متأثرة بالمباني المصرية المعاصرة لها وربما بقصور العراق . وكانت الدور ذات الزخرف الثمين المقامة هناك تذكر بمنازل سكّان تاهرت المشاركة التي كان ابن الصّغير معجباً بها .

وفي سنة 1941 قام ج . مارسى ودوسي لامار (Dessus - Lamare) بزيارة استطلاعية لمعالم تاهرت وأجريا تنقيبا على آثارها . والذي زاد في صعوبة مهمتها هو أن الأمير عبد القادر نزل بين سنتي 1835 و 1841 بموقع عاصمة بني رستم العتيقة وترك فيها أطلالا بعد رحيله .

ورغم هذا فإنهما تمكّنا من أن يكشفوا بصورة قطعية عن جزء من سور بني رستم وعن مخازن عظيمة للماء ، وبقيايا من الفخار كما أنهما ضبطا موقع القصبة مقرّ أمراء بني رستم ، وانتهيا بعد البحث إلى أن تاهرت كانت قبل كل شيء قلعة حصينة مهيأة للصمود عند الحصار الطويل وأن فنّ القصبة المعماري يذكرّ بقصور الشام من القرن الثامن .

ومن جهة أخرى فإن ما وجدناه من بقايا الفخار مكنّهما من الجزم بأن فن الخزف بتاهرت كان بدائياً بسيطاً .

وإن هذه المعطيات الأثرية التي لاتزال إلى اليوم معجزة لتبعث إلى حدمًا على تصديق ما رواه ابن الصغير عن الإمام وهو يبني بنفسه سقف بيته بالملاط الذي كان يتاوله إتياء عبده . إن الأمور تطوّرت فيهما بعد طبعاً لذلك فإن رسل الكوفة لمّا قدموا ثانية إلى تاهرت « نظّروا إلى قصور قد بنيت ، وإلى بساتين قد غرست » . وهذه المفاتن ، إن وُجدت ، لا بد أنها كانت متواضعة إذا اعتمدنا على آثار صدراته . وعلى كل فلإن التنقيبات الحالية لا تدل على أثر لذلك .

حكومة لاهوتية :

كان على رأس المملكة الإباضية إمام جماعة المؤمنين . وكان يحكم رعاياه على سنة الله ورسوله وكان له عليهم الطاعة المطلقة . وابن رستم قبل أن يستجيب لرغبة الأعيان طلب منهم أن يؤكدوا الأيمان بالامتناع لأوامره ما تماشت مع العدل ، فإذا حاد الإمام عن الإرادة الإلهية الهادية له فلإن قراراته تصبح بموجب ذلك غير نافذة المفعول . ولاحظ ج . مرسي أن كل خلاف بين الإمام والفقهاء يتخذ بطبيعة الحال طابع الخروج وتكون له خطورته وفعلاً كان تاريخ تاهرت في معظمه تاريخ نحل وقفت في وجه السلطة وأفسدتها .

وكان على الإمام أن يحيا حياة الزهد . من ذلك أن ابن رستم لمّا قدم عليه من العراق رسل من الإباضية واصل ما كان منصرفاً إليه من إصلاح شقاق في سطح بيته بالطّين ولم يتزل من السلم لإقتبالهم إلا بعد أن أتم شغله . وقدم لهم خبزاً وسمناً . « وليس في بيته شيء سوى وسادته التي ينام عليها وسيفه ورمحه وفرس مربوط في ناحية من داره » . وكان يحتقر المال إلى درجة أنه أوصد بابه دون بعثة ثانية قدمت إليه محمّلة بالهدايا لأن الجماعة لم تعد على درجة من الفقر تسمح لها بقبولها . وكان الإمام يعقوب « بعيد الهمة ، نزيه النفس » ما جس بيده ديناراً ولا درهما وكان إذا أتى وكيله بغلاته أمره أن يجعلها تحت

بردعة له يجلس عليها وإذا أراد إخراج شيء منها دفعه بقضيب من يده». ويواصل ابن الصغير قائلا: «وكانت له بقرات يأمر بحلبها بين يديه في إناء جديد فاذا امتلأ شربه أجمع ثم يقوم عليه ثلاثا لا يأكل طعاما ولا يشرب شرابا ولا يخرج لبراز». فإذا سافر «ونزل يقوم لم يأكل لهم طعاما».

وكان على الإمام تسيير شؤون الدولة وتأويل القوانين والقضاء بين الناس وإمامتهم في الصلوات وقبول الزكاة.

وكان رجال الدين والأعيان يراقبونه وكثيرا ما كانوا ينهونه نهيا شديدا وكانوا يبتلون نزاهته عند تعيينه للمسؤولين: فكانت مثالا نتيجة المفاوضات بين الرجل وكبار الإباضية طلب عزل القاضي والقائم على بيت المال وصاحب الشرطة. وكانت عملية تعيين القاضي المسؤول عن الحكم بين الناس عسيرة جدا. إذ كان في إمكانه أن يقف في وجه الأمير ويسلط أحكامه على أصحاب الجاه. من ذلك أن قاضيا وبخ صديقه وحامية عندما بدت منه نية النيل من استقلاله وأن قاضيا آخر رمى بخاتمته ودفأته بين يدي الأمير احتجاجا على اختطاف ابنه لفتاة، ومن أجل ذلك كله كانت الجماعة تحتاط احتياطا كبيرا حتى أنها كانت تبحث في بعض الأحيان عن التأهل لخطة القضاء في أقاضي جبال نفوسة؛

وكان جباة ابن رستم لا يستخلصون الضرائب أثناء الحصاد على الحبوب فقط بل على الغنم والإبل أيضا. وعندما تتم الجباية توزع الحبوب بين الفقراء ثم تباع الأغنام والإبل. وإذا انتهى الإمام من إرسال الأموال إلى ولاته لسد حاجات الإدارة استعمل الباقي لشراء الأقمشة الصوفية والزيت لتوزع على كل عائلة توزيعا عادلا مع تقديم فقراء الإباضية. أما تكاليف الدولة فقد كانت متأتية من الجزية والخراج وبيع الأراضي وغيرها من المداخل. وما زاد على ذلك رجع إلى المشاريع العامة العائدة بالفائدة على المسلمين.

وكان الإمام بحكم مسؤوليته فقيها مقتدرا لأن القوم في تاهرت كانوا يعيشون دائما في جو ديني بالغ الحماس. فكانت العقول النيرة التي بهرها تطرف المذهب الخارجي لا تخشى الجدل. بل وصل بهم الأمر

إلى التسامح إزاء القوم الكافرين . ألم تذهب جماعة منهم في المشرق حتى إلى محو الفروق أو كادت بين المسلمين وبين اليهود والنصارى ؟ وكان في عاصمة بني رستم على حدّ قول ابن الصغير نصارى يجلسون مع الأعيان حول الأمير أبي حاتم . وكان أحدهم وهو فارس مشهور يعتبر من حماة المدينة . ولمّا داهم الخطر الأمير أبا بكر أسرع النصارى لنصرة بني رستم . وكان الخوارج يشجعون الجدل مع خصومهم على أمل أن يسلموا . وكانت الإباضية والمعتزلة يلتقون بوادي مينة للمناظرة . ولم يخف عدد من الفقهاء المشاركة نيّتهم « في وضع حدّ لتغلغل الإباضية وطمس مذهبهم » وكان أحدهم ذا منزلة مرموقة عند الشعب . وكانت هذه المجادلات تدور حول الفقه والكلام والوثائق والنحو واللغة . وليس أقرب إلى الطريقة المدرسية من الحوار الذي نشب بين بعض الخوارج وابن الصغير حول زواج البنات اللواتي لم يدركن البلوغ فكانت بذلك مكانة العلماء عظيمة ، حتى أن بعضهم كان يتقاضى مالا من المعجبين به في سجلماسة « لسعة علمه في الفقه ، والدين والمعاملات والنحو واللغة » . وكان الإباضية يكثرّون من التأليف في الجدل ويجمعون المخطوطات كما أنهم يتعاطون إلى جانب رياضتهم على الخصومات الدينية الدراسات الدنيوية بنفس الحماس .

وكان لا بد لهذه المدينة التي كانت في بلاد المغرب بمثابة جنيف في أوروبا من نظام يصون الأخلاق العامة لكن إذا ما ضعفت الإطارات زمن الحرب الأهلية ضرب الفساد أطنابه وإذا استتب النظام فرضت الأخلاق من جديد فكسرت دنان الخمر ولاذ اللواطون بالفرار إلى أعالي الجبال أو أعماق الأودية . « وكان كل إباضي في عزمه إعلاء كلمة الله بكل الوسائل متمزّدا بالقوة . ولا يبقى الإمام على نفوذه غالبا إلّا بتوخي سياسة التوازن . وكلما نشب خصام ظهرت حالا الكتل وشهر السلاح . من ذلك أنه لمّا أمر أبو بكر بقتل محظوظه الذي أثار قلقه بأبهته وشعبيته اندلعت حرب أهلية دامت سبع سنوات . فاستغل التجار الموقف لتمويل الثوار واقتنصت القبائل المشاغبة الفرصة للدخول في المعركة . قال ابن الصغير : « والحرب لا تفتقر لسيلا ولا نهارا وحميت فيما بينهم حميّة الجاهلية وجرت بينهم الحرب سمعة ورياء » .

وكانت المصادمات تنشأ في بعض الأحيان عن الحقد الكامن بين القبائل والحضر ، وفي أكثر الأحيان عن غضب الشعب الناتج عن التنكر للعادات . ولما قضى الإمام أفلح نحيه احتج بعضهم على الطريقة التي عين بها ابن الإمام . وصاح أحدهم قائلاً : « الله سائلكم معاشر نفوسه إذا مات واحد جعلتم مكانه آخر ولم تجعلوا الأمر للمسلمين وتردوه إليهم فيختارون من هو أتقى وأرضى » . لذلك كان الناس على إمامهم الأمير الجديد أبي بكر « عليه » ، ولما « أحببت عشيرته وإخوته وأعمامه وبنو أعمامه ومواليه أن يجعلوا له حجاباً وهيبة أبت العوام من ذلك وأرادت الدنو إليه في كل الأوقات على ما كانت تعرف من قبل إمارته » .

ولعلنا نلمس من خلال ما رواه ابن الصغير سعي الأعيان والفقهاء إلى تكوين ارسقراطية من شأنها أن تملي على الأمير إرادتها وقد حذر الإمام أفلح كبار الإباضية من مغبة تعيين قاض من الجبل .

وكان القواد وخلصاء عبد الوهاب أقنعوه بنكث عهد أخذه على نفسه تجاه الرجل محتجين بالخطر الذي ينشأ عن التراجع أمام الضغط وبمحاسن سياسة الحزم . وكانت النتيجة أن تمرّد العرب فأحمد ثورتهم ولكنه رغم توالي الاصطدامات فإنه يبدو أن مجتمع تاهرت لم تغلب عليه النزعة الحربية ذلك أن المعارك لا تسيل فيها الدماء كثيرة فلا ملاحقة في الغالب للفارين ولا إجهاز على الجرحى . بل كان الخصوم يجنحون إلى التحكيم . وكان هذا ولاشك السبب في زوال مملكة بني رستم . ذلك أن الأئمة لم يوفقوا إلى تنظيم جيش عتيد ما كادت جيوش الشيعة أن تشن هجومها حتى استولت على العاصمة من دون عناء (911) .

ولم يؤل تخريب تاهرت الذي اضطر الإباضية إلى الاستغاضة عن المواجهة لا إلى التقيّة وإلى إخماد جذوة الخوارج ولا إلى اضمحلال نشاطهم الفقهي . ولئن تشنّتوا في الصحراء الجزائرية والتونسية فإنهم مازالوا إلى يومنا هذا موجودين بجبال نفوسة وجزيرة جربة وورقاسة والمزاب . وبقي

المزايبة يبذلون مجهودات جبارة وأموالا طائلة لتعهد واحات في أرض كؤود وللحفاظ على ما في غرداية ومليكة وبنسي إسغن المقدسة من مساجد عارية من الزخرف ويظهرون في قدينتهم تظرفا يتنافى أحيانا مع الحياة التي يحيهاها في التل تجارهم ورجال أعمالهم العاذقون .

مملكة سجلماسة وبرغواطة :

ومن المؤسف أنه لا يوجد لدينا معلومات كافية حول مملكة أخرى للخوارج أسسها حسب الجغرافي البكري في سنة 757 بسجلماسة بربر مكناسة من الطفريية كانوا ثاروا على والي القيروان . إنها مملكة واحات الصحراء . وإذا صدقنا ابن خلدون فإن أصحاب هذه النحلة كانوا يبالغون في ممارسة حقهم في خلع إمامهم . روى صاحب المقدمة أنهم غضبوا من سيرة أميرهم الأول : « فشده كسافا ووضعوه على قنة جبل إلى أن هلك » .

وكان من بينهم فقهاء مشهورون ذاع صيت أحدهم بفضل ما نهله من علوم في المدينة . ويظهر أن أعظم أمير دولة بني مدرار هو أبو منصور اليسع الذي تربع على عرش الملك أربعاً وثلاثين سنة ، أتم أثناءها بناء سجلماسة وسيطر على الواحات (790 - 823) .

وكان من المنطقي أن يتحالف مع مملكة تاهرت فزوج ولده من ابنة ابن رستم .

وكانت هذه النحلة مرموقة إذ انتشرت في المغرب الأقصى ببلاد الشاوية بين القبائل التي تكوّنت منها برغواطة . وكانت اعتنقت نحلة الخوارج وشاركت في حملات ميسرة السقاء ثم تبعت قائدها صالحا حوالي سنة 744 عندما عزم على الدعوة إلى دين جديد . وكان صالح ادعى النبوة في البربر وألف قرآنا بلغته وسن قانونا دينيا ضبط محظورات لاشك أنها ترجع إلى أصل بربري وأدخل بعض التغييرات على العبادات .

وسواء كانت هذه النحلة لصالح نفسه أو جدد لها حفيده يونس وربّما أسسها أو خلقها هو نفسه فإنها تعدّ على كل حال من أطراف المحاولات « لبربرة » دين ورد إلى المغرب عن طريق الغزاة .

وإن ما استعرضناه من ممالك الخوارج لم يحظ بعناية المؤرخين العرب رغم ما نراه فيها من أهمية كبيرة . إنهم شغفوا بدراسة الدولتين السنتيتين اللتين تأسستا في أوائل القرن التاسع في طرفي المغرب نعني دولة الأدارسة بفاس ودولة الأغالبة بإفريقية .

الباب الثاني

الدولة العربية في المغرب

من القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر

1 - دولة الإدريسيين

2 - دولة الأغلب

3 - حكم الفاطميين في المغرب

4 - دولة الصنهاجة وزحف بني حلال

إن الفترة الممتدة من أواسط القرن الثامن إلى أواسط القرن الحادي عشر بالنسبة لتاريخ المغرب يكتنفها الغموض ، إذ غمرت أثناءها البلاد موجتان من البدو الرحل ، انحدرت الأولى من الصحراء المغربية ونعني المرابطين ، وأتت الثانية من صحارى المشرق ونعني زحفة بني هلال .

لقد كانت فترة تحوّل ، قطع فيها البربر الروابط التي شدّتهم ردحا من الزمن إلى المشرق من دون أن يأنسوا في أنفسهم من القوة ما يجعلهم يتخلصون نهائيا من هذا المشرق الذي كانوا يرفضون سلطانه السياسي . وإذا هم ، باستثناء إفريقية ، لم يعترفوا بسلطة الخلفاء العباسيين فإنهم أسرعوا إلى احتضان اللاجئين المشاركة واتخذوهم رؤساء عليهم ، ونهلوا مباشرة من منهل الفقه الإسلامي والفن الشرقي وأجهدوا أنفسهم للعيش داخل مدنهم التي لم تتحضر بعد على منوال حضر دمشق أو بغداد العريقين في الحضارة .

وهكذا يبدو التناقض الغريب المتمثل في أن البربر ، في الوقت الذي تحرروا فيه سياسيا ، تأثروا عميق التأثير بالحضارة السامية ، وحاولوا لأول مرة منذ بدء التاريخ على ما يظهر أن يتمشقوا .

أما الوثائق المتعلقة بهذه الفترة فهي أغزر وأصح من وثائق الفترة التي سبقتها . وعلينا طبعاً أن نقنع في كثير من الأحيان بما كتبه مؤرخون عاشوا في عهد متأخر عن الأحداث التي نحن بصدددها ، ولا يمكن أن ننسنا عبقرية ابن خلدون أن الفترة التي تفصله عن الإدارة والأغلبية تساوي ما يفصلنا نحن عن حرب المائة سنة . غير أن بين أيدينا مصادر أكثر قدما كتّبت بعضها شهود عيان مثل اليعقوبي وابن

حوقل ، ومن دون أن نظفر بكل الأضواء الكاشفة ، إذ لاتزال عبارة « القرون المظلمة » التي استعملها « أ. ف. قوتيي » تحتفظ بكل قيمتها ، فإنه في الإمكان إذن أن نخطو خطوات أكثر تثبتا ، ونسمح لأنفسنا بتأكيد بعض الحقائق الثابتة .

(I) دولة الادارسة

استقرار إدريس في المغرب الأقصى

وصل إدريس بن عبد الله الى طنجة سنة 788 وهو من سلالة علي وفاطمة . جاء هاربا من الشرق . وكان تورط في إحدى ثورات العلويين على العباسيين وأسفله الحظ فأقلت من المجزرة التي عقت انتصار العباسيين على الثوار في وقعة فخ قرب مكة سنة 786 . وواصل طريقه صحبة مولاة الوفي راشد حتى بلغ طنجة من دون أن يقر له قرار لا في إفريقية التي بقيت على وفائها للخلافة ولا في المغرب الأوسط الذي كان يحكمه الخوارج . وكانت طنجة بعيدة عن مركز النفوذ فلم يبق بها طويلا بل أصبح ضيفا ثم زعيما بل إماما (حسب اصطلاح الشيعة) على قبيلة أوربة المستوطنة حول فوليبليس (Volubilis) المدينة الرومانية العتيقة التي تسمت فيما بعد ويلي . وهل نحن في حاجة إلى أن نعتقد كما فعل «أ. ف. قوتيي» أن إدريس تمكن من رئاسة هذه القبيلة لأن أفرادها ما زالوا من البربر «المترومين» ولعلّ الأفضل أن نوافق تراس (Terrasse) في أن البربر ، سواء ترومنوا أم لا ، قد أحسنوا وفادة إدريس لأنه شريف معارض للخلافة التي كانوا يمتثلونها وربما لأنه كان يتمتع كذلك بخصال شخصية مرموقة ، وسرعان ما التحق بأوربة عدد من العرب المناهضين للعباسيين . وقد يكون إدريس بيت النية كما فعل الفاطميون فيما بعد لجعل المغرب نقطة انطلاق لاسترجاع إرث آبائه . وعلى كل فإنه لما وجد ويلي دون مقامه أسس مدينة جديدة سمّاها مدينة فاس في موقع الحي الأندلسي اليوم وشرع في تشييد مملكته بالاعتماد على قبائل بربرية عديدة من شمال المغرب . ومضى يهاجم تامسنا في جهة سلا وغاز جهة عزرو عين اللوح

ثم تلمسان التي استولى عليها . ولكن ما إن علم هارون الرشيد بهذا النجاح حتى أرسل إليه من دس له سمّا سنة 791 - 792 .

ادريس الثاني وتأسيس فاس

لم يترك إدريس ولدا يتولى بعده الإمارة ، ولكنه ترك إحدى جواريه وتدعى كترة البربرية ، وكانت حاملا منه فولدت بعد شهرين من مماته ولدا سمي بدوره إدريسا ، فنشأ برعاية أمه وعناية راشد ، محفوا بتقديس بربر أوربة الذين رأوا فيه وارث البركة ، هذه القدرة النافعة التي قوارثها أبا عن جدّ أحفاد الرسول .

ولا بد أن الطفل حقق الآمال الساذجة التي وضعها فيه القوم إذ أنه ما أن بلغ الحادية عشرة من عمره حتى بويع في حفل مشهود خليفة لأبيه، إلا أنه الى جانب تأثير أوربة عليه كان يخضع لمؤثرات أخرى ، فلقد دخل في حاشيته بوليلي عرب من إفريقية والأندلس وأيقظوا فيه على أغلب الظن ميولا وراثيه لأنه أصبح يختار من بينهم أكبر أعضاده . بل وصل به الأمر سنة 808 إلى أن أذن بقتل أبي ليلي إسحاق رأس أوربة بإيعاز من صحابته الجدد ، ولا شك ، غير أننا لا نعرف بالضبط الظروف التي حفت بهذه الفعلة . وأحس إدريس ومن كان معه من العرب إثر مقتل أبي ليلي أنهم لم يعودوا مطمئنين على أنفسهم في وليلي ففكروا في مدينة فاس التي كان أسسها قبل ذلك بعشرين سنة إدريس الأول من دون أن يجد الوقت الكافي لجعل منها عاصمة فظلت قرية بربرية متواضعة (سنة 809) .

وآثر الأمير الشاب عوض إدخال تغييرات على المدينة ، أن يستقر قبالتها على الضفة الشمالية من النهر . فبنى مسجدا وسوقا وقصرا متواضعا . ولا شك أنه أسكن فيه أصحابه العرب . وهكذا ولدت المدينة التي سيطلق عليها فيما بعد اسم القرويين والتي سميت في أول الأمر العالية . تلك هي الرواية التي اقترحها ليفي بروفنصال (L. Provençal) في مقال هام جدا خصصه للبحث في تأسيس فاس ، وأن الحجج المتنوعة التي أوردها تحمل على الاقتناع بذلك حسب رأينا على الأقل .



شكل 3 - فاس - هذا رسم بياني كتلي وضعه أ. ف. قوتبي • • يبرز الرسم البياني الكتلي الفارق البنيوي بين جهتين يفصل بينهما الخط المتسلل في وادي سبو ووادي فاس • فعن اليمين (غربي الشمال الغربي) نجد بنية معقدة وتعايير عتيقة • وعن اليسار تنحدر طبقات الاطلس الاوسط الكلسية لتنتهي مع الوادي في انحناءة رفيقة • ويتحول ماؤها الى عيون غزيرة سيلها متواصل ثابت ومنها يتكون وادي فاس ويزيد في انتظام السيل سهل عالية فاس بمستنقعاته (سهل السوس) • وشيدت فاس في النقطة التي فيها يخرج السهل من جراء الانجراف العنيف الذي يحدثه وادي سبو • وهكذا تم حل مشكل تزويد المدينة بالماء عن طريق الطبيعة (أ. ف. قوتبي ص 343) •

(عن أ. ف. قوتبي ، عصور المغرب المظلمة ، دار بابو شكل 10 ، ص 284).

وعلى كل حال فإنه ليس في الإمكان بعد قراءة هذا المقال أن نجهل وجود روايتين حول تأسيس فاس وأن نغفل رواية بروفنصال التي ليست رغم افتقارها الى التفاصيل أقل قدما ولا أحوج برهاننا من رواية روض

القرطاس والتي تعلل فوق كل ذلك تواجد مدينتين قديمتين تحمل كلتاها اسم فاس وهو أمر بقي الى اليوم غامضا.

ولقد أصاب « أ. ف. قوتيبي » حين أكد على غزارة المياه التي تسيل أو تنبع من موقع فاس ولا بد أن كان الماء هو العامل المرجح لاختيار إدريس الأول والثاني لموقعها وزيادة على ذلك فإن مواد البناء متوفرة حول المدينة وهي أخيرا كائنة في الطريق الملائمة والرابطة بين السهول الأطلسية والمغرب الأوسط التي تشقه في هذا المكان بالذات طريق تصل الشمال بالجنوب من طنجة إلى تقيلات.

ولم تلبث هاتان المدينتان التوأمان أن توافدت عليهما جماعات أخرى من السكان إذ اضطرت ظروف السياسة ماث من عائلات قرطبة والقيروان إلى الهجرة فأتت إلى فاس الفتية تحمل معها فنونا راقية (سنة 818 وسنة 825) وكفت المدينة مؤونة التدريب الطويل على الحياة الحضرية .

إن إدريس الثاني لم يشيّد مدينة فقط بل أسس أول دولة للمغرب الأقصى . وليس معنى ذلك كما لاحظته هـ . تراس (Terrasse) أنه وفق إلى أن يجمع تحت لوائه كل ما يعرف اليوم بالمملكة الشريفة بل إن الوثائق التي بين أيدينا (البكري وابن خلدون خاصة) « تبين على ما يظهر ، أن معظم السهول الأطلسية ، والأطلس الأدنى باستثناء ساحله الشمالي والأطلس الأوسط كله والأطلس الأعلى وأغلب جهة الواحات وجزءا كبيرا من المغرب الأقصى الشرقي بقيت كلها خارجة عن امبراطورية الإدارة » ، غير أن إدريس تمسك من جمع عدد عديد من القبائل البربرية تحت سلطة إسلامية واحدة وقد كانت قبل ذلك مستقلة الواحدة عن الأخرى .

انحطاط الدولة :

كانت هذه المملكة الجديدة عتيقة في الظاهر- لكنّها كانت غير قادرة على الصمود فهي لم تثبت عند موت مؤسسها الذي عاجلته المنية سنة 828 . ولا ندري هل هو ذهب ضحية حادث أم قتل ، ذلك أن

الروح البربرية القديمة المفطورة على التجزئة السياسية والتزاعة إلى الاستقلال المحلي لم تستأصل تماما . وأن أبناء لإدريس الثاني العشرة انتصحوا بما أشارت عليهم به جدتهم كنز البربرية فاقسموا لإرث والدهم وخرّبوا بذلك الصرح السياسي الذي بناه من دون أن يقدرّوا على طمس عمله الحضاري وذلك بفضل إشعاع فاس المدينة الوحيدة الحرة بهذا الاسم بالمغرب الأقصى في تلك الفترة .

وبقيت إمارات الأدارسة تتقوى على نفسها حتى قدوم الفاطميين سنة 921 ثمّ تشبّث أعقاب الأدارسة بجبال طنجة المجاورة حتى سقطت هذه الدولة سنة 974 على يد قواد قرطبة .

(2) دولة الاغالبة

دولة مستقلة :

أسس إبراهيم بن الأغلب أحد ولادة العرب في الزاب في الطرف الآخر من بلاد البربر أي في إفريقية دولة بقيت مستقلة استقلالاً تاماً من دون أن تقطع علاقاتها مع الخلفاء العباسيين . وسببت هذه الدولة باسم الأغلب ابن سالم الذي تقلد الإمارة بفضل ثقة الخليفة ، ولكن مشاكل الحكم لم تزل تداهم حتى هلك تحت سهام الجند (765 - 767) . أمّا ابنه إبراهيم فقد تولى حكم الزاب بعد أن قضى بعيداً عن القيروان السنوات التي كان فيها يزيد بن حاتم يحسك زمامها بيد من جديد ويقرّ فيها النظام . ثم استغل في مهارة ثورات إفريقية ليقوم بدور الوسيط ولم يزل بهم حتى أولتوه أمرهم سنة 800 .

وبقي أحفاده يتداولون بعده على الحكم إلى أوائل القرن العاشر من دون أن تحدث بين القيروان وبغداد أزمة خطيرة . وكان الخلفاء الذين تدخلوا خاصة في العهد الأخير لهذه الدولة أثناء خصومات الأمير مع أهل مدينة تونس يكتفون غالباً بسلطة اسمية ، بل كانوا يحجمون عن كتابة العهد إلى الأمراء الجدد .

أما الأغالبة الذين استمدوا من ثقة الخليفة مزبدا من الهيبة في نظر الجند العرب والذين كان في إمكانهم بفضل ولائهم التمتع بمنح من العباسيين فإنهم لم يحاولوا أبداً قطع علاقاتهم ولم يشعروا في الواقع بوطأتها أبداً .

امتداد سلطان الأغالبة :

سيطر هؤلاء الأمراء على إفريقية بلاد الحضرة التي لا نقدر على ضبط حدودها ، إن كانت ، فحكموا في الجنوب الشرقي طرابلس ولكن بقيت ضواحيها القرية بيد إياضية جبل نفوسة الذين لم يتأخروا عن مراقبة الطريق الساحلية الضيقة المؤدية إلى المدينة إلى أن تمكن الأمير أثناء معركة لم تكن متوقعة من محقق خصومه الأشداء (896) . وكان جنوب الجريد الذي استترفت المقاومة قواه ، منطقة أغلبها بيد الخوارج ولكن يعمها الأمن ، وفي الجنوب الغربي بالزاب والحفنة تمكن عدد قليل من العرب الحازمين والموالين للأغالبة من إبقاء هذه المقاطعات البعيدة تحت نفوذ القيروان حتى سنة 865 ، وكان عدد الحاميات المستقلة بعضها عن بعض أو تكاد ، تراقب المسالك المؤدية إلى الزاب وتضمن أمن المسافرين فيها .

أما الأوراس فقد كان بالطبع كتلة مناوئة يهيمن عليها مذهب الخوارج في صيغته الأشد تطرفا ، نفي النكارة الذين مهدوا السبل لعقلانية المعتزلة ، مما حمل الأمير على الحذر والرضى بسلطة صورية . وأخيرا في الغرب كانت عنابة تابعة للأغالبة وكذلك بلاد كتامة الأشاوس الذين كانت قلعة بـلـزـمـة تثنيهم عن التمرد . وكانت بلاد القبائل الصغرى وكامل الأوراس لاتخضع في الواقع لسلطان الأغالبة .

ولم يجد الأمير في إفريقية بالذات صعوبة لبسط نفوذه على الجهة الساحلية من قابس إلى سوسة وعلى قمودة في الجنوب الشرقي بين القيروان وقفصة وتبسة وكذلك على كامل المنطقة الكائنة بين القيروان وتونس . وسكانها جميعا حضر مستعربون سنيون ؛ إلا أنه كان عليه أن يقرأ حسابا للقبائل البربرية القاطنة في الشمال الغربي والمجاورة لكتامة . ولسكان الشمال الغربي الذين بلغوا شوا في الحضارة إلا أنهم ظلوا مستقلين . كما أن سكان القيروان ومدينة تونس لم يكونوا ميالين إلى الطاعة .

كان البربر الذين أسلموا يمثلون أغلبية السكان طبعاً غير أن أحفاد العرب الفاتحين عددهم كثير وربما بلغ مائة ألف . أما النصاري وهم البربر الذين مضى على اعتناقهم المسيحية وقت طويل أو أحفاد الرومان

المعروفون باسم الأفارقة فإنهم لم يبذلوا بل كانوا يحتلون رغم تناحرهم منزلة مرموقة بفضل ثقافتهم التقليدية . وكان يوجد كذلك حسب اليعقوبي عدد من الروم وهم بقايا الحاميات البيزنطية قديما يتدرجون نحو الاندماج التام . وكان اليهود يمثلون في المدن النخبة المثقفة ومن بينهم بالخصوص الأطباء . ويظهر أن النصارى واليهود لم يتضايقوا من معايشة المسلمين . أما العرب الأدنون منهم فقد كانوا يكرهون البربر المسلمين .

وقد وجد الفاتحون في مذهب الخوارج ما يكفي من الذرائع لتبرير حقدهم المتزايد على البربر لذلك أقام الزاهد بهلول وليمة يوم أن علم علم اليقين أنه عربي فقح .

مجتمع نقاة :

في الإمكان أن نتصور المجتمع الإسلامي بإفريقية تصورا كاملا لا بواسطة الأخبار الباهتة بل بكتب الطبقات التي تضبط ظروف نقل الحديث ومرجع السنة . وإن كتاب طبقات علماء إفريقية وهو من أقدم هذه الكتب يزودنا بعدد عديد من اللوحات الصغيرة التي تصور بصورة ملموسة حياة القيروان اليومية وكانت التقوى تغطي على مجتمع إفريقية شأنها في كامل بلاد الإسلام في القرن التاسع . غير أن الجماهير البربرية التي تأبى أنصاف الحلول أضفت على هذه التقوى صفة الوجوب وأتاحت لمن يمارسها القيام بدور اجتماعي مرموق ، ولقد فرض رجال الدين مهما اختلف الوسط الذي انحدروا منه الاحترام والإعجاب على هذا الشعب الذي عانى منذ أواخر القرن الثامن أزمة زهد ، فبلغ احتقار بهلول الولي للجسم البشري حدا جعله لا يبدل ثوبه قط ، ويتخذ من الميضاة مكانا للوعظ ، فذاع صيته حتى بلغ سمرقند لفرط زهده وتطرفه في التمسك بالسنة ، وقويت هذه الظاهرة في العهد الأغلب الأول فتفاقم عدد المسلمين الذين شعروا بالحاجة إلى الخلوة ، وأحيانا إلى اعتزال الدنيا تماما أو الاعتكاف في أكثر الأحيان بالرباطات . وهي حصون تحمي التخوم لا يقل فيها داعي العبادة عن واجب الدفاع عن الأوطان .

غير أن إفريقية لم تكن أرض الإيمان الفطري فحسب بل كانت أيضا مركزا فقهيا زاهر النشاط ، سأل مسافر قادم من العراق : فيم يتحدث أهل القيروان ؟ أجابه شاب : « في أسماء الله وصفاته الحسنى » .

ويظهر أن الزهد في مظهره البسيط تطور ابتداء من سنة 830 تحت تأثيرات واردة من العراق ثم دخله الجدل وأخذ المشرق والأندلس يبعثان بعلمائهما إلى إفريقية حيث كثر مريدوهم . وكان العرب وخاصة أهل القيروان يسافرون إلى العراق أو المدينة للجلوس إلى حلقات العلماء المشهورين ثم يفتلون راجعين ونفوسهم تفيض حماسا بما نهلوه من علوم جديدة وهي توافقة إلى نشرها في أوطانهم ، وهكذا نشأت طبقة من العلماء ورجال الدين والفقهاء أثاروا بمناظراتهم حماس الناس ، ولم يكونوا كلهم متفرغين لهذه المهنة بل كان الكثير منهم يمارسون مهنتهم فممنهم الخزاف أو الطيان ومنهم بائع الأفرأ او القطنيات ومنهم التاجر المقسط الذي تميل نفسه إلى إيفاء الكيل والميزان ومنهم الملاك الخادم أرضه . وأحبهم الشعب جميعا لشعوره بأنهم أقرب الناس إليه وألصقهم بحياته اليومية فلا غرابة أن أصبحوا الناطقين باسمه مما دعا الأمير إلى أن يقرأ لهم كل حساب خاصة وأن ما عرفوا به من استقلال وما اتصفوا به من عزوف عن الجاه والسلطان حرم الحكومة من وسيلة لتسليط الضغط عليهم .

مسألة خلق القرآن والمعتزلة :

إن المسائل التي تناظر فيها القوم حينذاك هي نفسها التي أثارت حماس الناس في كافة البلاد الإسلامية وفي مقدمتها مسألة خلق القرآن الخطيرة . وكان أهل السنة الذين تبينوا من خلال مناقشاتهم مع النصارى معنى ازلية كلام الله وقدمه يؤكدون أن القرآن وحي الله المنزل القديم قدم الله . فكل نسخة من القرآن العربي موجودة منذ الأزل مثل اللوح المحفوظ ومطابقة لكلام الله ، « الموجد بين دفتي الكتاب » .

وأنكر المعتزلة بقوة هذه الأقوال التي من شأنها في نظرهم أن تمس بوحداية الذات الإلهية ، وأكدوا أن القرآن مخلوق . واختلفوا في

مسائل أخرى جوهرية مع أهل السنة ، وقالوا بالاختيار ، وقابلوا النظريات التي تؤول إلى تشبيه الله بتفسير مجازي للقرآن ، ورفضوا باسم نظرية التوحيد الصفات الإلهية التي لا يمكن تمييزها عن الذات الإلهية والتي يقضي تعدادها اللامتناهي إلى غير القول بأن الله موجود ، ورأوا أخيرا أن العقل هو المصدر الأساسي للمعرفة الدينية .

وتواصلت المعركة حتى أتى الأشعري المتوفى سنة 935 وهو الذي أسس علم الكلام السني بعد أن قطع صلته بالمعتزلة ، واستعمل طرقهم في الجدل للدلالة على أن القرآن في جوهره وحقيقته قديم قدم كلام الله الأزل ، وبذلك ضمن لمذهب السنة الانتصار .

وظل المعتزلة في إفريقيا ابتداء من أواخر القرن الثامن أقلية مستقلة شجاعة لا يتنكرون لأرائهم أمام جماهير البربر المتعصبين الذين رأوا في الاعتزال إنكارا للربوبية ولا يضعفون أمام السنين إلا أنهم وجدوا أنفسهم محاصرين بين هاتين التزعتين كأنهم بين شقي رحى ، وقد قصت بلورة العقيدة الإسلامية في آخر القرن التاسع على محاولاتهم بالفشل . ولما انتصر الشيعة كانت الضربة القاضية

المذهب المالكي - الامام سخون :

كانت المناظرات في أصول الدين متصلة اتصالا وثيقا بالفقه الاسلامي المقنن لحياة المسلم دينا ودنيا . ومن بين مذاهب السنة الأربعة التي يمكن اعتناقها كان الدور الأعظم في إفريقيا للمذهب الحنفي نسبة للإمام أبي حنيفة المتوفى ، حوالي سنة 767 وهو مذهب فارسي التزعة ، أقل تشددا من المذهب المالكي ، نسبة إلى إمام المدينة الشهير مالك بن أنس المتوفى سنة 795 وهو مذهب متمسك أشد التمسك بالنص ، مناهض للتأويل المعتمدة على العقل .

ولما كان المذهب المالكي منسجما أتم الانسجام مع العقلية البربرية انتصر طبعاً بإفريقية ثم بكامل إفريقيا الشمالية حيث لا يزال سائدا ، إلا أن نجاحه لم يتحقق من أول وهلة . فأسد بن الفرات العظيم الذي كتب له أن يفتح صقلية على رأس الجيوش الأغلبية قد نشر المذهب المالكي في

إفريقية إلاّ أنّه لم يسلم من التواطؤ في بعض الأحيان مع المذهب المنافس فكان أحد تلامذته وهو الإمام سحنون صاحب المدونة الشهير ، وهو فقيه بارع مقدام اشتهر بالتقشف واستقلال الرأي ، وهو الذي قوّم أخطاء شيخه ودعا إلى مذهب مالكي صارم وضمن له بذلك الفوز .

وصمدت نخبة الحنفية القليلة صمود الأبطال بفضل ما وجدته لدى بعض الأمراء من إعانة فعالة إلاّ أنّها تورطت في آخر القرن التاسع بسبب اتصالها بالمعتزلة فضاعت في حشود البربر المالكية المعروفة بعنفها ومناواتها لها . وبذلك سيطر على كامل إفريقية المذهب المالكي المتصف بالصرامة وفرط الحماس . قال بغدادي إلى قيرواني : إن الرسول قال : فقطعه القيرواني قائلا : روي أن مالكا له رأي آخر . فصاح به البغدادي قائلا : سوّد الله وجوهكم يوم القيامة يا أهل المغرب تقابلون حديث الرسول بحديث مالك .

الأمراء :

لم يتمسك الأمراء دائما بالمذهب المالكي تمسكا كاملا ، فقد كان عدد منهم يميل إلى الحنفية واعتنق أحدهم مذهب المعتزلة ؛ إلاّ أنّه كان من الضروري مراعاة الرأي العام حتى أنهم اضطروا بعد سحنون إلى تعيين قضاة القيروان من بين المالكية الذين كان لهم تأثير بالغ الأهمية .

وكانوا يؤثرون على المناظرات الدينية حياة الترف في قصور شيّدوها على غرار قصور بغداد محفوفين بالعازفات على الآلات والجواري والغلمان والخصيان الذين كانوا يرتقون أعلى المراتب بفضل حظوتهم لديهم ومصحوبين بعدد كبير من أمراء بيتهم وأسياد العرب الداخلين في طاعتهم والمعتقين البيض وحرسهم الأسود الوفي . فيستمعون إلى الغناء والشعر ويضحكون من تهريج البهلوانيين ويتيهون في الحداثق ويتزهون على المراكب في بركهم ويعزفون ويلعبون لعبة الصولجان أو يحضرون سباق الخيل . وكانوا في أكثر الأحيان أدباء ظرفاء يتمتعون برحابة الصدر وسعة الأفق ، إلاّ أنّهم اتصفوا في بعض الأحيان بالقسوة . وأدمن أكثرهم على الخمر .

وكان مؤسس الدولة إبراهيم الأول (800 — 812) شخصية مرموقة ، عالما ، بارعا مقداما ، وكان محبدا لله الأول (812 — 817) طاغية انصرف كامل وقته إلى استغلال رعاياه ، وجمع زيادة الله الأول (813 — 838) الذي أحمده ثورة الجند وشرع في فتح صقلية بين الذوق الأدبي والإدمان على الخمر . وظهرت من أبي عقاب (838 — 841) بوادر طيبة أثناء مدته القصيرة . وأحمد محمد (841 — 856) إلى الجهل والمجون . وتفرغ أحمد (856 — 863) إلى حياة التقوى وولع بالبناء والتشييد . وبعد إمارة زيادة الله الثاني الوجيزة عكف محمد الثاني (864 — 875) على الصيد ولذات السكاس . أما إبراهيم الثاني (878 — 902) أشهر أمراء الدولة الأغلبية فقد كان رجل دولة بحق رغم اختلال توازنه النفساني إذ أشبع نهمه بتقتيل ذويه ثم غلبت عليه التقوى فاعتزل الحكم وانقطع إلى محاربة نصارى صقلية . وكان عبد الله الثاني أميرا ممتازا جمع بين العلم والفقه وتمتع بشعبية واسعة رغم اعتناقه الاعتزال إلا أنه لم تكد تمر على ولايته سنة حتى خرّ صريعا تحت ضربات ابنه زيادة الله الثالث (903 — 909) الذي كان ضعيفا المدارك وحشي السلوك ، فلم يقدر على الصمود في وجه الشيعة وفرّ إلى المشرق حيث تجرّع مرارة البؤس .

وتجلى ميلهم إلى الأبهة فيما أقاموه من مباني كثيرة اعتمدوا في تشييدها على قدماء العبيد النصاري الذين أصبحوا فيما بعد موالين لهم . فلقد بني إبراهيم الأول على بعد فرسخ من القيروان القصر القديم الذي تحول إلى قلب مدينة عظيمة محصنة كما أن إبراهيم الثاني بنى على بعد تسعة كيلو مترات من العاصمة مدينة رقادة التي كانت مركز الحكم وفي نفس الوقت موطن المجون الذي استفظعه ثقافة القيروان . وكان يراوح الإقامة بينها وبين تونس .

الفن المعماري العسكري والديني :

حرص الأمراء الأغلبية على صيانة البلاد فأدخلوا تحسينات على الحصون البيزنطية وخاصة في بلزمة وباغاية (باغاية العتيقة) . واستوحوا منها على الأخص نماذج لبناء الرباطات على طول السواحل مثل سوسة والمنستير أو لإقامة أسوار منيعة كما هو الحال بالنسبة لصفافس .

غير أن المباني الدينية هي التي حظيت أكثر من غيرها ، بطبيعة الحال ، بفائق عنايتهم . ونخص بالذكر منها الجامع الكبير بالقيروان . وأول من بناه حسب الرواة عقبة بن نافع . وأغلب الظن أن محرابه الحالي هو الأصلي . وأعاد زيادة الله سنة 836 بناء الجامع ، وتم توسيعه مرتين أثناء القرن التاسع . وقد شيد على النمط الشرقي الذي لم تدخل عليه تغييرات من عهد الرسول . ويحتوي بالخصوص على قاعة مستطيلة مقامة على سوار تفتح على صحن تحيط به أروقة من ثلاث جهات . وإن المرء يغمره شعور غريب بروعة هذا الجامع لما اشتمل عليه من صحن فسيح الأرجاء ، وصومعة على النمط السوري ذات الأبراج الثلاثة المتراكبة ، وقبة ، ومحراب رخامي ، وخاصة مصلاه بأقبته السبعة عشر المعتمدة على عدد كبير من السواري والمضاء بمقدار .

وللأغالبة شواهد أخرى على نشاطهم في ميدان البناء منها جامع الزيتونة الأعظم في تونس بزياداته الهامة . وجامع سوسة ، وهو أقل منه سعة ، وجامع الثلاثة أبواب بالقيروان بصفائه الشبيهة بصفائح حصان التي تزخرف واجهته زخرفة على جانب كبير من الجمال . وأخيرا جامع صفاقس الذي أدخلت عليه تغييرات فيما بعد .

ولقد استعمل القوم في بناء هذه المعالم جميع المواد من طوب و آجر مجفف وحجر المقاطع كما أنهم غرفوا ملء أيديهم من الآثار الرومانية . وتأثروا في زخرفتهم بتقنية الفترة المسيحية فنقلوا الصور على شكل فروع وورود . أما الكرم الذي اتخذته الوثنيون والمسيحيون منذ القدم رمزا لهم فإنه شاع في زخرف المباني الإسلامية بإفريقية على شكل أوراق مبسوطة أو مطوية .

الحكومة :

لم يتميز الأغالبة بحبهم للمتعة وولعهم بالبناء فقط ، ولا يصح أن يقال إن الراحة أبطرتهم عند اضطلاعهم بالمسؤولية بل إنهم حرصوا حرصا شديدا على تنظيم الحكم تنظيمًا محكمًا على نحو ما وجد في بغداد إنهم لم يطمئنون كثيرا إلى الاستقرار العربية فانتخبوا أعضادهم من

بين أمراء بيتهم الذين ظلّوا أوفياء دائما أو من بين عامة القوم من موال وخدم وخصيان وحتى من النصارى .



شكل 4 - المنستير ، منظر للرباط من جهة البحر • الرسم لجورج مرسى •

وعينوا وزراء كما فعل العباسيون من دون أن يعطوهم نفوذا حقيقيا ، وحجّابا يجمعون بين الحجابة وقيادة الجيش . وكان لهم صاحب البريد وهو في آن واحد صاحب الشرطة . وكان لهم كذلك عدد من الكتاب . وانتخبوا القواد لا حسب مكانتهم بل اعتمادا على قيمتهم الشخصية كما أوكلوا الأعمال الإدارية من ديوان رسائل وجباية ، وديوان الختم ، إلى بعض أصحاب الأقاليم المتواضعين . أمّا فيما يخص القضاء فإن خطة قاضي القيروان ، زيادة على ما فيها من مشمولات إدارية لا تسند إلا إلى شخصيات مرموقة اشتهرت بيقظة ضميرها أكثر من سعة علمها . وتمتع ولاية المقاطعات بنفوذ كبير تحت رقابة الأمير . وفي الواقع فإن مشمولات الموظفين لم تضبط ضبطا واضحا ممّا جعل السلط تتداخل تداخلا خطيرا ، غير أن الموظفين وهم جميعا من العرب ، فقد انتدبهم الأمير حسب مشيئته فأصبحوا مدينين له بكل شيء وظلّوا على وفائهم له .

وانتهج الأغلبية سياسة اقتصادية في ميدان الماء على الأقل . ويشهد بذلك ما أقاموه من مخازن مياه وحنايا ويظهر أن إفريقية عاشت في القرن

التاسع فترة رخاء . غير أن سياستهم الجبائية كانت فاسدة ، إذ فرضوا على رعاياهم حتى المسلمين منهم الجزية واستخلصوا الخراج عينا . لا عَرَضاً . وسنوا ضرائب لم ينص عليها القرآن وخاصة على الأسواق ونقل المؤونة . فإذا أضفنا إلى ذلك تنكّل الموظفين تصورنا الأسباب التي أدت إلى سقوط هذه الدولة .

الجنيد وفتح صقلية :

سعى الأمراء إلى إدماج العرب والبربر من دون أن يفتحوا في ذلك . ولئن لم يجدوا صعوبات تذكر من البربر فإن الجيش العربي وضع أحيانا دولة الأغالبة على قاب قوسين أو أدنى من الانهيار فكان الجنيد المتكوّن من قدماء الحرس المستريحين بدون راتب ، المتضورين جوعا ، أو من الجيش النظامي المسخر لخدمة الأمراء تتآكله الخصومات القبلية ، ويفرق صفوفه تطاحن الحاميات ، ويشبّط عزائمه تضارب المطامع فأصبح لذلك كله حشودا فوضوية على أهبة التمرد دائما . واضطر الأغالبة للتغلب عليهم إلى جمع كل قواهم وبعث حرس أسود يطمثون إلى ولائهم ولكنهم ما أن كسروا شوكة الجنيد وقضوا على حاميات الحدود وخاصة حامية بلزمة حتى وجدوا أنفسهم من دون جيش قادر على الوقوف في وجه الشيعة .

وتوفّق زيادة الله الأول إلى التخلص من شغب العساكر المتمردين بتوجيههم إلى محاربة النصارى في صقلية . وكان الأمراء يعيشون بإفريقية في أمن مع أجوارهم خاصة وأن الجنيد عبروا بوضوح عن إرادتهم في مسالمة البربر ، غير أن هذه الجزيرة الكبيرة التي قام العرب فيها بغزوات عديدة منذ أمد طويل بدت فريسة سهلة المنال . ولم تعد يبرزنة تهتم كثيرا بهذا الموضوع الذي أصبح بعيدا جدا عن مشاغلها وانصرفت إلى الدفاع عن صقلية معتمدة على الجمهوريات الإيطالية الصغرى بينما أنشأ الأمراء الأغالبة أسطولا وجعلوا من إفريقية دولة بحرية .

وفي سنة 827 أمر زيادة الله استجابة لنداء قائد يوناني متمرّد بفتح صقلية وأرسل جيشا من الجنيد والبربر تحت إمرة القاضي أسد بن الفرات الذي تفرّغ للجهاد . وبعد ذلك بأربع سنوات استولى العرب

على بلرمو وجعلوا منها عاصمتهم . ثم لأنهم أخذوا مسينا عنوة بعد أن منوا بخيسات كان منشؤها في الغالب خلافات بين جيوش إفريقية وإسبانيا وانتشار الأوبئة سنة 843 وأخيرا استولوا بعد مجهودات تواصلت ثلاثين سنة على « يلفيدير صقلية » مدينة يانا (كستروجيوفاني سنة 859) . وواصلت الجيوش الأغلبية زحفها في صقلية ثم توغلت في إيطاليا الجنوبية رغم جهود بيزنطة المتقطعة وتدخلات البندقية والجمهورية الصغيرة وحتى الإمبراطور لويس الثاني الكارولنجي . فسقطت سرقوسة في يد الأغالبة سنة 878 ثم تاورمينة (Toormina) سنة 902 ومن ذلك الوقت استوسق الأمر للعرب في صقلية باستثناء بعض المراكز الخالية من الأهمية . واضطرّ الإمبراطور ليون السادس أمام انتصارات الأغالبة إلى التخلي عن ممتلكاته في إيطاليا والاكتماء أثناء الفترة الثانية من ملكه بحصر طموحه السياسي في المشرق .

وحقّ لزيادة الله الثالث أن يعتبر في أوائل القرن العاشر صقلية في مأمن من أي خطر ذي بال . وبينما كان الأمراء يحققون في الخارج نجاحا مبينا استنزفوا قواهم في حرب بعيدة عن أرضهم أصبح من المتعذر أن يعتمدوا في إفريقية حيث قضوا على الجند وأضعفوا حاميات الحدود ، على قوى كفيلة بالصمود أمام حشود كتامة التي رمى بها الداعي أبو عبد الله الشيعي آخر الأمراء الأغالبة وأشدّهم غدرا .

(3) سلطان الفاطميين على المغرب

الشيعة :

إن أصل الدولة الفاطمية نحلة تدعو الى شرعية الخلافة . وتدعى الشيعة ، ومؤسسها عبيد الله ، وهو لاجيء من المشرق . وسندها كتابات ، وهي قبيلة بربرية من بلاد القبائل .

إن مسألة الخلافة هي السبب في ظهور الشيعة وكذلك الشأن بالنسبة للخوارج الذين يختلفون معهم في تعلقهم المطلق بأحفاد علي الذين تنافى وراثتهم الشرعية للخلافة مع آية صيغة من صيغ الانتخاب .

وبما أن علياً كان أحق الناس بالمبايعة بعد وفاة الرسول نظراً الى أنه ابن عمه وصهره فإنهم اعتبروا الخلفاء الثلاثة الأولين مغتصبين . أما الأمويون الذين دعموا حكمهم بمقتل الحسين بن علي وأقربائه في كربلاء سنة 680 والعباسيون الذين خلفوهم فإن الشيعة لم يعترفوا بحكمهم قط وظلوا متمسكين بالحقوق المقدسة لأحفاد علي وزوجته فاطمة .

وواجه الخلفاء محاولات الشيعة بالقمع الشديد ورغم ما منُّوا به من هزائم وقاسوه من سجون وآلوا اليه من تشتت جعل منهم جماعات قليلة العدد قصيرة اليد تعمل في السر بواسطة دعايتها الذين كانوا يستهوون الأفراد ويلقنون أصول مذهبهم للأنصار فإنهم وفقوا الى إقامة صرح مذهب الإمام المخفي فعزوا به عن مصائبهم . وكان هذا الإمام الطاهر المهدي آخر أحفاد علي ينتظر ، من دون أن تراه عين ، الساعة المناسبة للظهور ولسياسة الدنيا بهدي من الله وإنقاذها ونشر السلم وملء الدنيا

عدلا كما ملئت جورا وإضفاء الخير العميم على كافة المسلمين . وانقسم الشيعة إلى فرق كثيرة تنتسب كل واحدة منها إلى أحد أحفاد عليّ وتقف حياتها على انتظار عودته .

ويرجع الفاطميون إلى الإسماعيلية الذين اعتبروا إسماعيل الإمام السابع آخر من ظهر من الأئمة . وقد عاش أحفاد إسماعيل مختلفين يوجهون من مخابثهم دعائهم ينشرون في الجماهير مذهبا مليئا بالرموز يستهوي الناس بغرابة طرق تلقينه وتفاضل درجات المعارف التي يشفون بها غليل أتباعهم . وآلت هذه الدعوة الواسعة النطاق رغم كونها سرية إلى انفجار العقيدة الشيعية فساعد ذلك على ظهور المهدي المنتظر في شخص عبيد الله في أوائل القرن العاشر .

عبيد الله المهدي :

كان مقر قيادة المهدي في سلمية وهي مدينة صغيرة بالشام تقع قرب حمّاه في شرقي نهر العاصي وقد أصبحت حوالي سنة 864 مركز الدعوة الإسماعيلية .

ولست لدينا معلومات مضبوطة عن نسب عبيد الله وربما انحدر من ميمون القداح القرمطي الفارسي الشهير وأحد الشيعة المرموقين . وعلى كل حال فإنه كان يؤكد انتسابه للفاطميين واعترف له بذلك (ولم يشك خصومه في نسبه إلا بعد ذلك بزمان طويل ثم أصبح رأس الإسماعيلية وبثّ دعائه في العراق وفارس واليمن) .

غير أن بذرة الشيعة أخصبت في أرض المغرب إخصابا غير مؤمل ووجدت في كتامة سمادا لها .

كتامة :

استقرت قبيلة كتامة ببلاد القبائل الصغرى شرقي جبال بabor بين جيجلي وسطيف وقسنطينة وفي أقصى شرقي موريطانيا الرومانية وهي منطقة وسط بين وعورة الجبال وحضارة نوميديا التقليدية وهي إلى ذلك أرض ممتازة لبعث الأمبراطورينات .

وكان الأمراء رسمياً أسياد بلاد القبائل الصغرى غير أنهم قلما جازفوا بتأكيد حقوقهم الشرعية على البلاد . قال ابن خلدون : ولم تكن الدولة دولة الاغالبية تسومهم بهزيمة ولا ينالهم تعسف . ومعنى ذلك أن القيروان اعترفت بعجزها عن بسط نفوذها عليهم .

وكان بربر كتامة القاطنون على تخوم إفريقية يضمرون للفاتحين العرب عداوة تلقائية تبرز في احتضانهم للجند المتمردين فلما تمكنوا من صبغ هذه العداوة بصبغة المعارضة الدينية المتعمّصة في شخص زعيم ، تحوّلت الى صراع عنيف زالت معه دولة الأغالبية .

ويستبعد أن يكون مذهب الخوارج انتشر ببلادهم في القرن الثامن رغم زعم بعضهم أن فريقاً من كتامة ساند الإمام ابن رستم الإباضي أو مال الى النكارة و تولى نشر مذهب الشيعة بينهم منذ أوائل عهد ابراهيم الثاني داعيان إسماعيليان مسؤولان عن الدعوة في بلاد المغرب ولكن أبا عبد الله هو الذي قام بالعمل الحقيقي .

الداعي أبو عبد الله :

لم يكن لأبي عبد الله في أول الأمر شأن يذكر ثم أصبح محل ثقة المهدي من دون سابق معرفة له حسب ما يشاع ولا بدّ أنه تمتع بقدرة نادرة على التنظيم وفراصة نافذة وديبلوماسية نشيطة . ولقد كان له في مكة اتصال مع حجاج من كتامة استصحبوه الى بلادهم سنة 893 تقريبا واستقر بإيكجان وهي حصن منيع ببلاد القبائل الصغرى في مأمن من مجموعات الأغالبية ولا يبعد كثيراً عن موقع شوفري (Chevreuil) الحالي .

وليس لدينا تفاصيل مضبوطة عن مراحل دعوته ، ويظهر أنه لاقى معارضة من بعض قواد البربر فتخلص منهم بحدّ السيف غير أنه توصل في آخر الأمر الى جمع كلمة كتامة وجعل منهم جيشاً عتيداً يستمد عصبية من عقيدة دينية واحدة . وهجم به على إفريقية . فلما استولى على الميلة سنة 902 أدرك أن الثمرة قد أينعت وحن قاطافها . عند ذلك أسرع عبد الله الثاني الذي

بايعه والده إبراهيم الثاني أميرا إلى ملاقاته الداعي فهزمه، ولكنه مني بفشل ذريع عند ما سار بجيشه بين الجبال المغطاة بالثلج سعيًا إلى إيكجان. وسرعان ما أعاد أبو عبد الله الكرة إثر مقتل الأمير على يد زيادة الله الثالث واستولى على سطيف (سنة 904). واسترجع الميلة وهزم الجيش العربي قرب بـلـزـمـة شر هزيمة (سنة 905) وأخذ عنوة حصن طنبه وبـلـزـمـة واحتل كل الأماكن الحساسة على طول الطرق المؤدية إلى إفريقية (907-908) ثم إنه بعد أن شتت آخر جيش أغلبي قرب الأربس ولا شك، دخل في 27 مارس سنة 909 مدينة رقادة بينما فر منها الأمير في حالة يرثى لها. وكان أبو عبد الله يطمئن السكان حيثما حلّ ويعدّهم بإسقاط الضرائب غير المنصوص عليها في القرآن متوقيا بالخصوص جانب الفقهاء ورجال الدين لما كان يخشاه من خطر تأثيرهم على الناس. بينما أمر بتقتيل السود عن آخرهم ونشر الأمن بتسليط شديد العقاب على قطاع الطرق وضرب السكة. ولما رأى أن نفوذه قد تدعّم، عين قاضيا شيعيا وطلب من المؤمنين أن يحتضنوا تعاليم المنتصرين ثم مضى يبحث عن سيده المهدي الذي قام بالدعوة باسمه.

انتصار المهدي :

لما أدرك عبيد الله أن دعوته أصبحت تقض مضجع الخليفة غادر سـكـمـية ليلتحق بداعيه الذي كان أبلغه مدى انتشار دعوته (902) وكاد أن يلقي عليه القبض وهو يجتاز مصر متنكرا في زي تاجر، ولا شك أن والي طرابلس تهاون في إيقافه طمعا وغفل عن سجنه وكذلك الأمر بالنسبة لموظفي قسنطينة (الجريد) الذين بلغهم الأمر باعتقاله بعد رحيله. وأقلع عن الالتحاق بأبي عبد الله واحتمى ببني مدرار في سـجـلـمـاسة من دون أن نتبين سببا لذلك ولربما أودع السجن وعلى كل فإن جيش كتامة خلصه من الأسر بعد أن أطاح وهو في طريقه بمملكة بني رستم في تاهرت (26 أوت 909).

ولقد كانت عودة مظفرة إذ دخل عبيد الله يوم 15 جانفي سنة 910 مدينة رقادة في موكب بهيج وتلقب رسميا بلقب المهدي وتسمّى باسم أمير المؤمنين. وكان انتصاب المهدي بعاصمة الأغالبة إيذانا بانتصار الشيعة وخاصة قبيلة كتامة. فمنها تكون جيش الداعي، بفضل أبنائها غزا الفاطميون المغرب ومصر. وإن لفي هذا الانتصار رموزا ومعاني بعيدة الأثر، كما أكد ذلك

« أ. ف . قوتيبي » ، اذ وضع بذلك حدًا فاصلا للفتح العربي . وثأر المغرب لنفسه من الغزاة الأجانب .

ولم تعتمد الدولة التي أسسها الخليفة العربي عبيد الله على البدو الرحل بل على كواهل الفلاحين المستقرين ببلاد القبائل . على أن قبيلة كتامة التي أثخن فيها معارك المغرب ومصر وصقلية ، واستنزفت قواها نملذات السلطان ، دفعت بانقراضها ثمن مغامرتها العجيبة .

أوائل حكم المهدي :

كوّن الأمراء الأغلبية إطارات إدارية ، سهّل على المهدي استغلالها لحكم إفريقية . قال ابن خلدون : « ودون الدواوين وجبى الأموال وبعث العمّال على البلاد » .

أما المعارضون وكان عددهم بطبيعة الحال قليلا فقد هلكوا بحدّ السيف .

وما أن تقلّد عبيد الله الحكم حتى ظهر في مظهر صاحب الحزم والعزم لا يرضى بوصية داعيته أبي عبد الله الذي كان يوسوس له أخوه أبو العباس مزينا له التمرّد على المهدي وكان يقول له مرارا وتكرارا : « أنت الذي أسست أمبراطورية » وحاول أبو عبد الله بدون جدوى استدراج المهدي لاقتسام السلطة ثم مال الى الطعن في قرارات الدولة بل ذهب حتى إلى الشك في توفر صفة المهدي في عبيد الله . وبلغ الأمر إلى الأمير فبادر بقتل أحد قواد كتامة وخافه الآخرون ، فتأمروا عليه ، فلم يردّ عبيد الله الفعل في الحال لما لم يزل يحمله في نفسه ولا شك من عطف واعتراف بالجميل لمن وضعه على كرسي الحكم ولم يجد أخيرا بدا من الأمر بقتل أبي عبد الله وكذلك أخيه (31 جويلية 911) .

وتمردت كتامة وهم الذين تعلقوا بالداعي أكثر من تعلقهم بالمهدي وقد ساءهم كذلك أن منعوا من نهب إفريقية الغنية واستنزاف أموال أهلها . وفتّر حماسهم في أول الأمر لما واجههم به المهدي من حزم ثم التفتوا حول مهدي مزعوم وشقوا عصا الطاعة من جديد في ربيع 912 . وجروا معهم قبائل الزاب (جنوب قسنطينة) ولاقى عبيد الله في محاربتهم عناء كبيرا . ولم

ينتصر عليهم الا عندما عقد لابنه أبي القاسم على الجيش فأبلى البلاء الحسن وأسمًا يبلغ العشرين من عمره .

ولم تكن ثورة كتامة هي الوحيدة من نوعها. ففي خريف سنة 911 تمرد سكان تاهرت على نفوذ الشيعة تعاضدهم في ذلك قبيلة زناتة من مغراوة وفي آخر سنة 912 جاء دور سكان طرابلس الذين ضاقوا ذرعا بأعمال كتامة المعسكرين في تلك المدينة وأخيرا التف جانب من أهل صقلية حول أحد أمراء بني الأغلب واعترفوا بخليفة بغداد وظلّوا يذيقون جيش الشيعة الأمرين حتى سنة 915، إذا صدّقنا التواريخ التي لم تبلغ حدا من اليقين من شأنه أن يقينا مغبة الوقوع في الخطأ.

الحملة على مصر :

ما أن أحمد عبيد الله تلك الثورات الخطيرة حتى وجه جيشه نحو مصر ذلك أن المغرب لم يكن في نظره الغاية القصوى بل اعتبره مجرد نقطة انطلاق بوصفه الوارث الشرعي لكافة الامبراطورية الاسلامية، فما أن استقام له الامر بافريقية حتى حاول الاستيلاء على مصر التي اعتبرها بدورها مجرد مرحلة جديدة لا فتكك الخلافة.

ومنذ شتاء سنة 913-914 هيا عبد الله حملة على مصر أوكل أمرها إلى أحد قواد الشيعة ثم إلى أبي القاسم ولي عهده بالذات. فاحتل من دون كبير عناء الاسكندرية والفيوم وهدد الفسطاط، لكن الخليفة العباسي المقتدر تصدّى للفرقة وأرسل أحد قواده الممتازين، الخصي مؤنس الفتى.

واضطر أبو القاسم الذي كان منقطعا عن قواده إلى التفهقر والرجوع إلى رقادة يوم 26 ماي 915 بعد معارك كبيرة ودامية.

ولم تمض أربع سنوات حتى أعاد الجيش العبيدي الكرة بقيادة أبي القاسم كذلك..

واستسلمت الإسكندرية من جديد من دون أية مقاومة وأحرق الخطر ثانية بالفسطاط وأدركت جيوش الشيعة الجيزة. فواجهها مؤنس من جديد ودمّر الأسطول العباسي أمام مرسى الرشيد سفنا أرسلها عبيد الله لنجدة أبي

القاسم الذي صمد صمود اليأس (11 ماي 920) ثم اضطر في آخر الأمر إلى التقهقر بعد أن تألبت عليه جيوش مؤنس وأثخنّت فيه المجاعة والطاعون، ووصل المهديّة في نوفمبر سنة 921.

تأسيس المهديّة :

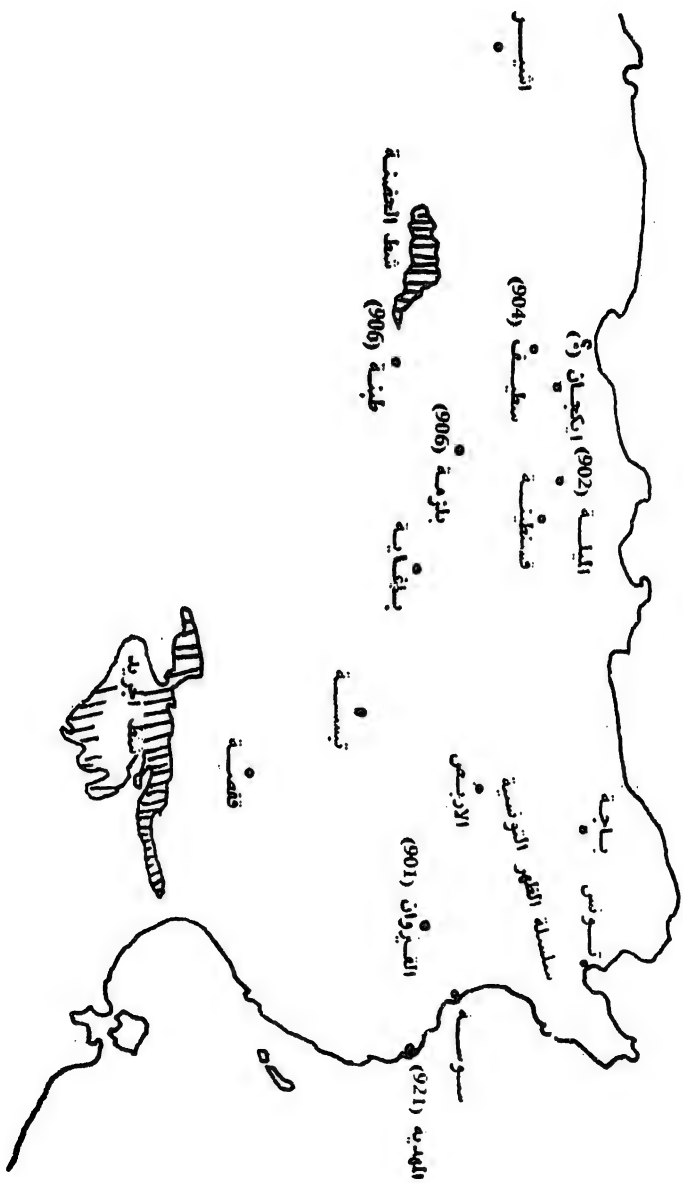
كان عبيد الله في تلك الأثناء قد أبدل القيروان بعاصمة أخرى ولقد جرت العادة منذ ذلك العهد أن تستبدل كل دولة إسلامية جديدة المدينة التي حكم فيها من سبقهم . ثم أن رقادة مدينة الأغالبة الواقعة وسط سهل محدد الأطراف لم تحطها الطبيعة بما يقيها شر أعدائها . ودلت الأحداث التي جرت في أول عهد الفاطميين أن أعداءهم كثر . وأخيرا انشغل عبيد الله ، كما رأينا ، بمصر وشرقي البحر المتوسط أكثر من انشغاله بالمغرب ، سعى منه إلى الانتصاب على السواحل حيث يمكنه الانطلاق منها لشن حملات بحرية .

وبعد البحث عن موقع ملائم في جهة قرطاج وتونس استقر رأيه على شبه جزيرة بين سوسة وصفاقس وجد بها فيما قبل مرسى روماني وربما فينيقي . وهنا أيضا تعوزنا التواريخ المضبوطة : فابن عذاري يرى أن تأسيس العاصمة الجديدة تم سنة 912 اثر الثورة المتدلعة في أول عهده ، أما ابن الأثير فإنه يحدد لنا هذا التاريخ في سنة 915 . ومهما يكن الأمر فإن عبيد الله استقر بعاصمته الجديدة سنة 921 وأضفى عليها الاسم الذي بقيت تحمله إلى اليوم وهي المهديّة مدينة المهدي .

وإن المعطيات الأثرية التي انكب عليها ج. مرسي بالدرس تجعلنا نؤكد أن المهديّة كانت قبل كل شيء حصنا منيعا ومرسى حريبا زيادة على كونها دار صناعة وبطبيعة الحال نجد فيها كذلك مسجدا وقصورا غير أنه كان أعوزها البهرج ذلك أن عاصمة الفاطميين الجديدة كانت مدينة حربيّة أكثر منها مقرا للأمراء .

الحملات في بلاد المغرب :

كانت مشاغل عبيد الله الأوليّة كما رأينا متجهة نحو مصر والمشرق ، غير أنه ربّما أدرك أن خياناته في المشرق مردّها بنسبة كبيرة إلى عدم رسوخ قدمه في إفريقيا .



ومن الثابت أن أول حملة وجهها إلى غربي بلاد المغرب تمت بعد خيبته الأولى في مصر وأنه توغل أكثر من ذي قبل بعد فشله الثاني وكأنه في كل مرة يستخلص العبرة من كبواته في المشرق .

وكانت الحملة الخاطفة التي قام بها أبو عبد الله لتخليص سيده في سجلماسة قد فتحت في وجه الشيعة سهول المغرب العليا الآهلة بزناة الخوارج ، حيث كانت سلطتهم مطعونا فيها أكثر من أي مكان آخر نظرا للخلافات القائمة بين الغالب والمغلوب ودي خلافت مأتاها المذهب والجنس ونمط الحياة ، فكان الخوارج ضد الشيعة وزناة ضد صنهاجة ، والرعاة الرحل او الظاعنون ضد المزارعين المستوطنين . وإذا نحن أنعمنا النظر شاطرننا رأي هـ . تراس (Terrasse) في أن جميع الاحداث الواقعة حتى أواخر القرن العاشر في الشطر الغربي من المغرب لم يكن محورها انتصار الشيعة أو الخوارج بل تفوق زناة أو صنهاجة ، وستضاف الى ذلك العداوة بين الامبراطورية الفاطمية والامبراطورية الأموية في قرطبة .

ورغم ذلك فإن عبيد الله هاجم أول ما هاجم إمارة نكور (الحسيمة) التي كانت لها علاقات حسنة مع إمارة قرطبة (917) ولئن قتل الشيخ المسن أمير نكور فإن عددا كبيرا من أفراد عائلته تمكنوا من الفرار إلى إسبانيا ولم تمر أشهر قليلة حتى عادوا واسترجعوا إرث أجدادهم بقوة السلاح ومعاودة قرطبة السافرة .

ولكن لم يتجاوز كل ذلك مجرد مناوشة ، إذ بدأ غزو المغرب الاقصى بصورة فعلية سنة 922 ، عندما تخلى عبيد الله مؤقتا عن مطامعه تجاه المشرق وتحركت جيوش الشيعة نحو الغرب تحت إمرة مصالة ابن حبوس شيخ مكناسة ولم تجد صعوبة في تخضيد شوكة يحيى الرابع الادريسي وفرض سلطة العبيديين عليه والاستيلاء على سجلماسة . وبعد ذلك بقليل طرد يحيى لأنه كان في نظر أسباده الجدد غير منقاد تمام الانقياد وأبدل بموسى بن أبي العافية أحد أمراء مكناسة ، فدخل بذلك جزء من المغرب الاقصى ، أي جهتا فاس وسجلماسة ، تحت حماية الفاطميين بو اسطة مكناسة .

ولم يكن صاحب قرطبة المنصرف آنذاك إلى قمع الثورات التي ورثها عن جده ليشغل رغم ذلك عما كان يجري بالمغرب الأقصى ولم يتدخل مباشرة ولكنه أثار على مكناسة إخوانهم في الجنس بني مغراوة من زناتة .

وظلت مكناسة ومغراوة طيلة عشرين سنة يأكل بعضها بعضا من أجل الاستحواذ على شمال المغرب . وفي بعض الأحيان كان الأدارسة يتدخلون في خصومتهم من ذلك أن عبد الرحمان الثالث الذي نصب نفسه خليفة بقرطبة سنة 929 وضع حاميات في مدينة مليلة سنة 927 وخاصة سنة 931 احتياطا لكل ما يمكن أن يحدث وما لبث أن توصل إلى كسب موسى بن أبي العافية . وقام الفاطميون سنتي 933 و 935 بعمليتين جريئتين هامتين من دون الوصول إلى نتيجة تذكر . وإذا جاز القول بأن الفاطميين ثبتوا أقدامهم بالمغرب الأقصى قبيل ثورة أبي يزيد فإنه لا يمكن الجزم بأن الأمر قد استتب لهم نهائيا .

طغيان الفاطميين :

كانت طرق عبيد الله في الحكم سببا في تعريض سلطان الفاطميين إلى خطر عظيم فقد كان المهدي على ما يظهر يدير شؤون دولته بلا شفقة ولا رحمة . ورغم وعود الداعي فإن ضرورة الحصول على ما تحتاجه الدولة من موارد أدت إلى إقامة نظام جبائي يعادل في جوره وشططه نظام الأغالبة ، قال ابن عذاري : « وفي سنة 307 هـ (919 م) كان بإفريقية طاعون شديد وغلاء سعر مع الجور الشامل من الشيعة والتعلل على أموال الناس في كل جهة » . وإذا أضفنا إلى ذلك ما للبربر المتمسكين أشد التمسك بالملكية من نفور إزاء نحلة سيد لم ير مانعا في التصرف فيها حسب هواه أدركنا كيف أثارت هذه الدولة الجديدة منذ عهد أول ملك لها حفيظة الناس فتجاوزت عداوتهم لها ما كان يلقاه منهم الأغالبة .

ويمكن أن نؤكد ظهور مقاومة حقيقية بإفريقية كرد فعل على المذهب الشيعي إذ ركنت إلى العمل السري ونظمت العصابات المسلحة

ولاقت ألوانا من التعذيب والاستشهاد وحظيت بتأييد يشوبه الحذر من برجوازية القيروان . وتزعم هذه المعارضة صنفان من الثقافة : فقهاء المالكية بالقيروان والزهاد والصلحاء العاكفون بالرباطات وعددهم كبير جدا ، وكان لأولئك وهؤلاء من المكانة عند السكان ما اضطر الشيعة إلى توخّي الحذر الشديد قبل التصدي لهم .

وانتقلت الثورة ضدّ استغلال الفاطميين الصبغة الدينية والاجتماعية للمذهب الخارجي المتطرف فقامت مرة أخرى في بلاد المغرب التي قلقلها الفتح ، وأثخنت فيها النزاعات المسلحة واستترتها النظام الجبائي .

أبو القاسم :

تأبى الأسطورة إلاّ أن تجعل المهدي يتنبأ بأنّ زوبعة الخوارج ستعصف بكامل المغرب قبل أن تتلاشى أمام أسوار المهديّة . وبعد اضطرابات منذرة بالويل عصفت في عهد ابنه أبي القاسم (934-946) . ولقد ساهم الخليفة الجديد مساهمة مباشرة في سياسة والده التوسعية فاستولى على قسنطينة وطرابلس وقاد حملتين ضد مصر وما أن اعتلى العرش حتى بادر بمحاولة ثالثة مكنته أول الأمر من الاستحواذ على الاسكندرية ولكنها آلت إلى خيبة جديدة . ورمى بقراصنته شواطئ بروفانس (Provence) وتمكّن من احتلال جنوة ردحا من الزمن .

أمّا في المغرب فبعد أن تخلّص أبو القاسم بسهولة ممن ادّعى أنّه ابن المهدي نفّض يديه من أمر موسى بن أبي العافية الذي مال إلى الأمويين وعهد بممتلكاته إلى الإدارة كما عهد لهم بتاهرت الثائرة .

ويظهر أنّ أبا القاسم كان أميرا شجاعا غليظ القلب ميّلا دائما إلى خوض المعارك وكان شيعيا مغرقا في التشيع صاحب حزم وعزم . قال ابن حمّاد : إنّ الرسائل والسجلات كانت تبعث من حياة أبيه باسمه ، كما أنّ المطالب والوفود كانت تأتي إليه . وسعيّا إلى فرض هيئته على

الناس سن عادة لم تكن مألوفة قبله في بلاد البربر فأمر بأن يمسك فارس من الفرسان بمظلة فوق رأسه « وهي شبه درقة في رأس رمح محكمة الصنعة رائقة المنظر [فيها] ظرف من الصناعة في الصياغة ونظم الأحجار الغالية ما يروق مرآه ويدهش من رآه » .

وأغلب الظن أن الإدارة الفاطمية تمادت آنذاك وربما بالغت في توخي القسوة المألوفة في عهد أبي القاسم عندما كان يشارك بصفة فعالة في شؤون الدولة بصفته ولي العهد فكانت يقظة المهوورين جبارة .

ثورة أبي يزيد صاحب الحمار :

وتزعّم الثورة أبو يزيد الملقب بصاحب الحمار ، وهو زناتي من الجريد . ولد حوالي سنة 885 بالسودان ولاشك ، حيث كان أبوه يتعاطى التجارة ، وكان هذا الأعرج الحقيير ذا مزاج عجيب كأنه فطر على الشعب فتمكن بفضل دعايته المحمومة من إثارة المغرب وجعل الدولة الفاطمية على قاب قوسين أو أدنى من السقوط ولم يكن جاهلا ، قال ابن حماد : « فلما كبر وشب قرأ مذهب الإباضية ففقه فيه ومهر في الجدل عليه » . وبطبيعة الحال انتسب إلى النكارة وهم أشد خوارج المغرب تقشفا وتطرفا .

وجرت حرارة الدعوة لرسائله مجرى الدم في عروقه فعندما كان يعلم الأطفال القرآن في توزر أثر فيهم وحملهم على مناهضة المهدي . وبلغت دعايته في الجريد من الخطورة حداً شغل السلط الشيعة واضطر إلى الرحيل نحو تاهرت معقل الخوارج حيث تمادى في بث تعاليمه .

ولم تنتشر دعوته إلا بعد موت المهدي . فكان يجب المغرب الأوسط منتطيا حمارة الأشهب مصحوبا بأبنائه الأربعة وزوجته وهي من مريديه ، لابسا كعامة الشعب جبة بسيطة ، ضاربا المثل بأشد ألوان الزهد ، محرضا البربر على طرد الفاطميين وتعويضهم

بمجلس من الشيوخ أي من الفقهاء حسب الطريقة المعمول بها ولا شك في دول الخوارج .

وسرعان ما حظيت هذه الدعاية الثورية بنجاح سريع وباهر خاصة في الأوراس لأنها أثارت آمال بروليتاريا بائسة وجعلتها تنرم إلى حكومة منبثقة منها تنادي بالكرامة وتنشر العدل ، وتدعوها إلى إقامتها بحدّ السلاح . وكانت صرامة أبي يزيد لا تمنعه من أن يدرك دقيق الإدراك مقتضيات السياسة فلقد قام بمساومات مع الأمويين أصحاب قرطبة لمناصرتهم ولكن بدون جدوى . واعتمد على المالكية رغم حيلتهم المعهودة لكسب أهل القيروان بصفة وقتية . ووجدت المعارضة الدينية أخيرا الفرصة سانحة للانفجار في وضح النهار .

وسرعان ما غزا صاحب الحمار إفريقية لا تحدوه في ذلك هو وجماعته شفقة ولا رحمة . روى أبو زكرياء من بين من روى ما اقترفه « عدو الله » من فظائع وأورد تفاصيل ضافية مشكوكا في صحتها نظرا لكونه إباضيا معتدلا مناوئا للمتطرفين .

ولم تستفطع الجماهير هذا العنف بل انتهواها ودفعها إلى الانقضاض على الغنيمة معتقدة أنها ستردّ الكيل كيلين إلى الفاطميين . وسلك هذا الموج العارم من البشر نفس الطريق التي سلكها قبل ذلك أبو عبد الله وجماعته من كتامة ، فعبروا وادي ملاق ومنه انتشروا في شمال البلاد التونسية حيث عبثا حاولت جيوش القائم الوقوف في وجههم وهزمها أبو يزيد قرب باجة ثم استولى على تونس بتواطؤ مع أهلها السنيين واجتاز سلسلة الظهر التونسية ودخل القيروان حيث نجحت مساعي فقهاء المالكية في وضع حدّ للنهب ثم انتصر على جيش أرسل من المهدية تحت إمرة أحد خيرة قواد الشيعة ووصل إلى أسوار المهدية وحاصرها وهي الرقعة الوحيدة من الأبراطورية الفاطمية التي بقيت في حوزة الخليفة (نوفمبر 944) وتخلل هذا الحصار هجومات عنيفة أوشك بها أبو يزيد أن يقتحم المدينة وهو المقدم الذي لا يتردد في مواجهة الموت فكاد أن يلقى حتفه مرات

عديدة . وبينما كان أهل المهديّة يعانون مرارة الحصار إذ أسعفتهم كتيبة فكّت الحصار عنهم ومدتهم بالمؤونة يقوده زيري بن مناد رئيس صنهاجة بمدينة أشير . ولعلّه بذلك أنقذ الدولة الشيعية .

وكانت مثل هذه المقاومة طويلة في نظر الجماعات التي أثار أبو يزيد حميتها فانطلقا حماسها بمثل السرعة التي التهب بها ، وإذ لم يبق شيء يمكن نهبه فقد عاد عدد كثير منها إلى ديارهم وأتتهم آخرون الشيخ الأعرج باستطابة مباحج الحياة . فاضطروا إلى التخلّي عن حصار المهديّة في سبتمبر سنة 945 . وحاول جمع شتات جيوشه حول القيروان ، ولم يلبث أن وجد نفسه أمام عدوّ جديد : فقد مات القوائم في 16 ماي 946 وخلفه ابنه أبو العباس إسماعيل المنصور الذي بذل كلّ طاقته في ملاحقة الشائر : ذلك أنّه بعد أيام قليلة من تقلّده السطة دخل القيروان واستحكم فيها رغم الضربات الشديدة التي وجهها إليه أبو يزيد . وأخيرا جرت معركة دامية تحت أسوار المدينة فكانت الفبّصل في أمر هذه الثورة (15 أوت 946) .

ودامت المطاردة القاسية عاما كاملا ولمّا قطع المنصور على أبي يزيد خط الرجعة عبر الصحراء التجأ إلى جبال الحضنة وبرهن للمرة الأخيرة عن طاقة عجيبة في الكفاح فصمد إلى الرمي الأخير محفوفًا بمن بقي من أتباعه .

ولم تنح للمنصور فرصة التمتع بتعذيب خصمه إذ مات متأثرا بجروحه رغم ما لقيه من إسعاف (أوت 947) . قال ابن خلدون : « فأمر (المنصور) بسلخ جلده وحشوه تبنا واتخذ له قفصا فأدخل فيه مع قردين يلاعبانه بعثا له » .

وحمد الخليفة الله على نعمته عندما أبصر جثة الشائر بين يديه وأراد أن يبرز فضله فخلع على نفسه لقب المنصور . وفي الواقع تجاوز نجاحه حدود الانتصارات العسكرية العادية إذ استأصل بهذا النصر نهائيا جذور المذهب الخارجي هذه القوة الثورية العظيمة في المغرب الإسلامي وفسح بذلك المجال لسكان بلاد القبائل المستوطنين الذين

تفرغوا إلى ضمّ شتات بلاد البربر في دولة موحّدة بعد أن اقتطعوا نصرهم من لحم البدو الرحل .

آخر عهد الفاطميين ببلاد المغرب :

إن أعظم ما حققه المنصور في عهده (946 - 953) تمثل في قمع ثورة الخوارج وقد بلغ استتباب الأمن حداً أمكن له معه ترك معقل المهديّة وتشييد مدينة جديدة في أحواز القيروان القريبة سمّاها صبرة أو المنصورية وجعل منها مركزاً تجارياً نشيطاً على حساب جارتها (947) . وفي الغرب كانت حملة واحدة كافية لإقرار النظام بعد تحرير مدينة تاهرت التي كان حاصرها ضابط قديم من جيوش الفاطميين أصبح فيما بعد والياً على المغرب من قبل خلفاء قرطبة .

غير أن الأندلسيين اغتتموا ثورة أبي يزيد للقضاء على تأثير الفاطميين السياسي في كامل المغرب الأقصى ، أما هم فقد بسطوا نفوذهم على طول السواحل حتى مدينة الجزائر حيث كانت تقام صلاة الجمعة باسم خليفة قرطبة .

وكذلك الأمر في صقلية فإن وضع الفاطميين كان صعباً إذ اندلعت فيها الثورة في ربيع سنة 947 عندما كان المنصور يطارد أبا يزيد في جبال الحضنة ، وهدأت ردحا من الزمن ثمّ عادت كأشد ما تكون لأنّ نصارى الجزيرة استجدوا بالبيزنطيين فأنجدوهم وتوصل والي الفاطمي في آخر الأمر إلى السيطرة على الموقف وأمکن له ، بعد أن هزم أعداءه الهزيمة الفاصلة تشييد مسجد عظيم في ريجيودي كلاير . قال ابن الأثير : « وإن أخرجوا حجراً منه هدمت كنائسهم كلها بصقلية وإفريقية » .

وبلغت دولة الفاطميين في بلاد البربر أوجها ونهايتها في عهد الخليفة المعز (953 - 975) ، وبني الخليفة في المنصورية قصوراً قد

تبدل أسماؤها الفارسيّة على بداية تأثير حضارة بلاد ما بين النهرين . وتمكن القائد جوهر مولى المنصور سابقا بإعانة جيوش صنهاجة التابعة لزييري من قهر ملك بني مدرار من سلجماسة . كان رجع إلى السنة وتلقب بأمر المؤمنين وضرب السكة باسمه ثم استحوذ على فاس ، وأذعن له كامل البلاد حتى طنجة وسبتة (958) . ونجح نجاحا مماثلا عندما شن بعد ذلك بتسع سنوات حملة ثانية تمكن بفضلها من طمس تأثير الأمويين وإقرار سلم داخلية لم يعرفها المغرب منذ زمان بعيد .

وهكذا أمكن للمعز أن يحقق مطامح الفاطميين في مصر ، وكان على علم بحالتها السياسية المتدهورة لذلك دخل جوهر بسهولة عاصمة مصر سنة 969 على رأس جيش يعد مائة ألف رجل كما يقال . واختط حيا جديدا أصبح نواة لمدينة القاهرة الحالية . ولما انتصر على جيوش عديدة أتت للنجدة دعاء مولاه الخليفة فالتحق به بعد أربع سنوات من انتصابه بالقاهرة القديمة (جوان 973) . وظلت مصر تحت نفوذ الفاطميين مدة قرنين كاملين .

ولم يصحب الخليفة معه عند مغادرته إفريقية التي سكنها أحفاد الرسول على مضض « كنوز الأباطورية » وأثاث القصر فقط بل اصطحب جميع موظفي دولته ونقل توابع أسلافه مؤكدا بذلك عزمه على الهجرة من إفريقية نهائيا . وأبقى بطبيعة الحال في مصر جيوش كتامة التي زحف بها عليها جوهر وجنت صنهاجة ثمار الانتصار الذي حققه لفائدة كتامة . وفعلا عهد المعز لبلكين ابن زييري بحكم المغرب باسمه .

(4) دول صنهاجة وزحفة بنى هلال

أشير زيري :

تنحدر دولة البربر التي ورثت سلطة الفاطميين في إفريقيا من رجل منهم امتاز بالإخلاص والنشاط . وكان لتدخلاته الدور الحاسم سواء في صراعهم مع جند أبي يزيد أو في تصديهم لرحل زناته . لذلك سمح له الخليفة القائم بتدعيم سلطانه الناشء فبنى عاصمة سمّاها أشير وجعل منها حصنا منيعا ومستودعا للعدة والعتاد (شرقي بوقاري على سفح الجبل الأخضر) .

وقد بين ج . مرسى الذي نقّب على معالم بني زيري بنفسه دلالتها على ما سجله مؤسس هذه الدولة من تقدم . ولا بد أن زيري اقتصر في أول الأمر على مساحة قليلة في أعلى صخرة تحيط بها مهاو ثم اتخذ قرية أكثر اتساعا أخرج منها سكّانها ونقل خيراتها عندما شيّد في آخر الأمر عاصمته على مساحة فسيحة الأرجاء تعد ولا شك 35 هكتارا .

وسرعان ما عظم شأن مدينة أشير في مرحلتها الثالثة . فلقد كانت بموقعها الجغرافي الممتاز على الحدّ الطبيعي الفاصل بين سهول التلّ الغربي وجبال القبائل الشرقية تتحكم في الطريق الرابطة بين السواحل والجبال وتراقب رحل السهول .

وعمل الخليفة على ازدهارها بل إنّه عجلّ بنائها فأرسل الفنين ووفر العدة ونقل زيري إليها سكان مدن أخرى . وربّما وجهه إليها كذلك غير المرغوب فيهم ممن لم يكونوا في مأمن

على أنفسهم ثم أحاطها بأسوار عريضة . روى البكري في أوائل القرن الحادي عشر : « أنه ليس في تلك الأقطار أحصن ولا أبعد متناولا ومراما ولا يوصل شيء منها بقتال إلا من موضع يحميه عشرة رجال » . لأن عشرة رجال كانوا كافين للدفاع عنها .



شكل 6 - موقع أشير بنى زيري « ثلاث عواصم متتابعة جمعت في مكان واحد . قيسارية ومدينة الجزائر على الساحل وأشير داخل البلاد . ويمتد من داخل البلاد إلى الساحل خط جبلي تبرزة مليانة ومدينة « (1 . ف . قوتبي) .

وسعيا إلى السيطرة على المواصلات أمر زيري ابنه بتأسيس أو ربّما ترميم ثلاث مدن وهي الجزائر العاصمة ومليانة والمدينة وأوكل إليه أمرها .

وكانت أشير عاصمة بحق فهي معقل منيع ومركز مبادلات نشيط بين التل والسباسب وقبلة الفقهاء والعلماء . واضطلع زيري بالسلطة على خير وجه يمسك بيد من حديد على أشدّ الجند تدويخاً ويشرف على المغرب الأوسط من أعلى قلعتيه ويضرب السكة باسمه .

لقد كانت أشير قلب سلطان صنهاجة النابض حتى أن بني زيري عندما جعل منهم نجاح الخليفة الخاطف أسبداً على إفريقية لم يفارقوا عاصمتهم إلاّ عن مضض ولئن لم يتأخر بلكين في الاستقرار بالمنصورية فإن الأمراء لم يجلبوا عائلاتهم إليها إلاّ شيئاً فشيئاً . ثمّ ضعفت الروابط التي تشدّهم إليها فعهّدوا بها إلى أقربائهم حتى أفلتت من أيديهم .

ملوك بني زيري :

غير أن بلكين وإن أطلقت يده في جميع أرض المغرب لم يتجاوز في الواقع منزلة وال تابع للفاطميين ، فقد كان يدفع الإتاوة ويبعث بالهدايا الثمينة إلى القاهرة محفوفاً بأشخاص تركهم الفاطميون ليكونوا في نفس الوقت عيوناً عليه وأعواناً له .

ولمّا تقلد بلكين الإمارة أعاد الكرة على زناتة بطردهم نهائياً من المغرب الأوسط وخرّب تيارت واستولى على تلمسان ونقل أهلها إلى أشير . وفي سنة 978 عهد له العزيز الخليفة الفاطمي الجديد بولاية طرابلس التي كانت إلى ذلك الوقت ولاية مستقلة بذاتها .

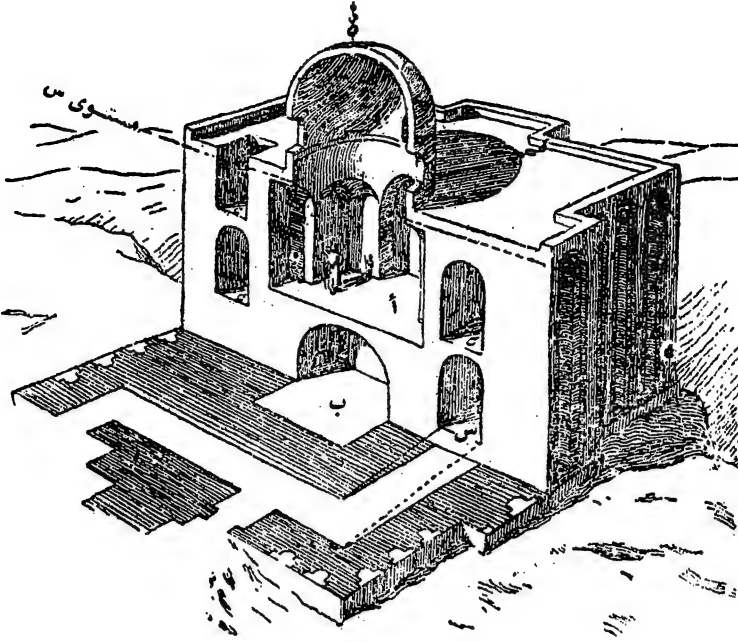
وفي سنة 979 عاد إلى مطاردة زناتة والأمويين الحامين لهم واستحوذ لا على فاس فقط بل على المغرب الأقصى بأكمله (980) غير أنّه لم يقو على الصمود أمام هجوم انطلق من سبتة حيث تحصن الوزير الأموي . ولم يكن لانتصاراته الأخيرة تأثير إذ ما أن توارت جيوشه حتى أرجعت زناتة الخطبة باسم خليفة قرطبة من الملوية إلى طنجة .

وكان ابنه وخليفته المنصور (984 - 996) أول من حاول زحزحة نير الفاطميين فما أن تقلد الحكم حتى صرخ أمام أعيان القيروان الذين جاؤوا لتهنئته قائلاً : « ما أنا في هذا الملك ممن يولى بكتاب ويعزل بكتاب لأنني ورثته عن آبائي وأجدادي » (ابن عذاري) . ولم يطل رد فعل الفاطميين ، ووجهوا من القادرة داعية رسمياً إلى بلاد كتامة لإثارة رجالها الأشداء على المنصور (986) ، ودامت الثورة عامين ثم أخمدتها زيري بمتهمي القساوة ومنيت الثورة الثانية التي اندلعت سنة 989 بنفس الفشل الذريع فانتهى بذلك أمر كتامة ، وبسطت صنهاجة أشير نفوذها على كامل الشطر الشرقي من بلاد المغرب .

غير أنهم تركوا سائر البلاد لزناطة ذلك أن المنصور بعد أن حاول بدون جدوى السيطرة من جديد على فاس وسجلماسة (985) انصرف عن غرب البلاد كله وخلاه لأعدائه القدامى ولطاغية الأندلس المنصور بن أبي عامر بل إنّه ربط معهم علاقات عادية . وحصل بعد رحيل الفاطميين الذين وجهوا طموحهم وجهة أخرى توازن نسبي بين زناطة وصنهاجة الذين تقاتلوا طيلة ثلاثة أرباع القرن . وجنحوا جميعاً في آخر الأمر إلى الاستئاع شيئاً ما بشمرات غزواتهم .

أمّا باديس (996 - 1016) فقد آثر الخضوع إلى سلطة الخليفة في القاهرة من دون أن يجني من ذلك فائدة تذكر . إذ هو لم يتلق عند انفصال عمّه حماد سنة (1014) أية معونة من مصر رغم أن المتمرد أعلن عن تبعيته للعباسيين .

أمّا ابنه وخليفته المعزّ (1016 - 1062) الذي اعتلى الحكم في الثامنة من عمره فإنه لم يسلك نفس السلوك فهل كان ذلك مأثاه تأثير تكوينه الأول برعاية معلم سني أم هي الرغبة في إرضاء الرأي العام المناهض للشيعَة أشد المناهضة في القيروان وفي سائر إفريقيا ؟ وعلى كلّ تخلص المعز شيئاً فشيئاً من نفوذ القاهرة وانتهى به الأمر سنة 1048 إلى إعلان ولائه لبغداد .



شكل 7 - قلعة بني حماد • البرج الرئيسي • للمنارة • هذا الرسم المنظوري بما فيه المقطع والخطوط من وضع جورج مرسى - أ • قاعة على شكل صليب - ب • مغارة نحتية - ج • منحدر « الجزء البارز فوق المستوى س هو تصور افتراض » (ج • مرسى) •

(عن جورج مرسى ، كتاب الفن الاسلامى • ج 1 ص 122) •

الدولة فى عهد بني زيري :

آل أمر إفريقية إذن إلى نفس الوضع السياسى الذى كانت عليه سائر بلاد البربر فبعد أن خضعت للخلافة وأطاعت أمراء شرقيين لا يربطهم رابط ببغداد وصل بها المطاف إلى الاستقلال على يد أمير بربري ذلك أنه يجب ألا ننخدع بولائهما للعباسيين . إذ هو يؤكد القطيعة مع القاهرة أكثر من دلالاته على ارتباط جديد مع بغداد .

غير أن إفريقية أخذت تتميز شيئا فشيئا على سائر بلاد البربر وحتى عن أشير حيث نشأت الدولة الزيرية لأن التأثير الشرقى كان فيها أعمق مما هو عليه في بلاد المغرب الأخرى .

فلم يلبث الأمراء أن تلاءموا مع خططهم كعمّالدين للخليفة وأصبغوا عليها أبهة الشرق فكان أحدهم يوزع آلاف الدنانير كأنته من النبلاء العريقين وكانوا شغوفين بالعلم والتحف الفنية مولعين بالشعر ميالين إلى البذخ . وكانوا يستطيعون الحفلات فيتباهون فيها بفواخر المنسوجات وأصنيل الجياد ونادر الحيوان ويقال إن مهر ابنة المعز « حمل في عشرة أحمال على البغال » وبلغت قيمته ألف دينار . وكان مرور الموكب وسباق الخيل مما « سارت به الربكان لمحاسن آثاره وامتألت البلدان بعجائب أخباره » .

ولقد أمر الأمير عند موت أمّه بأن يصنع التابوت من العود الهندي ويرصع بالجوهر وتكون مساميره من الذهب وأقام في المنصورية دارا فخمة محفوفة بالأشجار وبنى المعز قصورا عديدة .

ويرجع بذخ الأمراء إلى ما كانت تدرّه إفريقيا من خيرات ويظهر أن البلاد تمتعت في عهدهم بازدهار حقيقي فعمت المزروعات أمكنة هي اليوم قاحلة وتراصت القرى في بقاع ليست اليوم إلا قفرا ، وكانت باجة تحتاج في كل يوم إلى ألف من الإبل لحمل الحبوب ، وتهافت على هذه الأرض المحظوظة لا فقط التجار وأصحاب الصنائع الذين جلبهم النشاط التجاري والصناعي بل الأدباء والفقهاء النازحون من آسيا وخاصة بلاد ما بين النهرين وعن طريقهم تأثير فن بغداد .

ولئن دفعت البلاد ثمن بذخ ملوك بني زيري باهضا فإنها لم تستترف كما استترفتها حروب الفاطميين ومهما يكن فإنه ليس لدينا ما يشير إلى عسف بني زيري في الجباية اللهم إلا في أول عهدهم عندما كانت طابسات القاهرة المالية ثقيلة الوطأة ، ونظرا للرخاء الذي شمل البلاد فإنه يمكن أن نفترض أن الضرائب كانت تستخلص بدون عناء كبير وأنها على ضآلة نسبها كفاية لمواجهة مصاريف الدولة الحاكمة .

انقسام الوحدة الصنهاجية - قلعة بني حمّاد :

إن صنهاجة القاطنين بالغرب البعيدين عن ترف إفريقية بقوا على ما نشأوا عليه من شظف عيش وخشونة وأنفة . وتمادوا بنجاح في قيامهم بدور شرطة المغرب الأوسط . حتى أن الأمير باديس اضطر إلى منح عمه حمادا امتيازات هامة .

وبلغ زعيم هذه العصابات درجة من العظمة جعلته يأبى الخضوع للأمير فأكد عزمه على التخلص من وصاية المنصورية بتشيد عاصمة بدوره سميت قلعة بني حمّاد على منحدر جبل (كتامة) قريبا من المكان الذي دهمت فيه جيوش صنهاجة أبا يزيد (1007 - 1008) ..

ولموقع هذه القلعة الجديدة مزايا استراتيجية تفوق ما اختصت به أشير . فلقد سارع حمّاد بتحسينها وعمرها بسكان المسيلة وحمزة عندما خرب مدنها وازدهرت ازدهارا سريعا ، فجلبت بالخصوص الطلبة لكثرة مواردها وأصبحت بعد زحلة عرب بني هلال على إفريقية محط رحال سكان القيروان والمفلسين والتجار المشاركة . وإلى هؤلاء جميعا يرجع فضل تطويرها غير المتظر حوالي سنة 1065 .

وإن ما قام به بلانشي (P.Blanchet) ثم الجنرال دي بيلي (De Beylié) وج. مرسى (G.marçais) من تنقيب يعطينا اليوم صورة أقرب إلى الواقع عن معالم القلعة وأشير .

فلقد بقي من الجامع الأعظم صومعة علوها 25 مترا ومن قصر المنار لم يثبت إلاّ البرج بأسواره العالية المبنية فيه من أسفله إلى أعلاه كوى صغيرة (ج. مرسى) ، أما دار البحر فقد طمست معالمها ولكن أسسها تمكننا من تشخيص رسمها ، فهي عبارة عن مجموعة من البنايات والحدائق وقاعات للاستقبال وغرف خاصة وحمامات الأسباد أما اسمها فيرجع اختياره لوجود بركة فسيحة كانت مسرحا لألعاب بحرية .

ولا يمكن تصور قصر إسلامي بني في القرن الحادي عشر بمثل هذه الدقة .

ولقد طغت سواء في القلعة أو المنصورية أصول فن القاهرة وخاصة بغداد : من فسيفساء الخزف والنحت على الجبس ومقرنصات من طين مموه بالميناء وزينة نباتية منمنمة وزخرف هندسي إلا أنها كانت تعوزها جميعا الرقة وكثيرا ما احتفظت بخصائص الآفاق . وام يبق بنو زيري بطبيعة الحال مكتوفي الأيدي أمام استقلال بني حماد ، فحاصر باديس حمادا في القلعة ولكنه مات من غير أن يصل إلى مرغوبه ولم ينجح المعز كذلك بل اضطر إلى التسليم بالأمر الواقع (1017) . ومن ذلك الوقت قامت دولتان لصنهاجة مستقلتان الواحدة عن الأخرى على أهبة التناسح .

وبينما كانت صنهاجة شرقا كانت زناتة غربا في مأمن من خطر المنافس ، فلقد تلاشى كل تأثير سياسي لقرطبة على المغرب الأقصى من يوم أن انهارت الدكتاتورية العامرية في الأندلس ، أما زناتة وهم أتباع الأمويين منذ عهد طويل فقد أخذوا مكانهم بالطبع من دون أن يؤسسوا دولة متماسكة وانقسموا مثل مساسي الأندلس إلى ملوك طوائف متعادية في الغالب .

وكان تأثيرهم لا يشمل المغرب الأقصى باجمعه لانهم اصطدموا بمجموعات بربرية قوية وهي مصمودة في أعلى الأطلس وغمارة بالريف والجبل وبرغواطة في تامسنا . وكانت غمارة وبرغواطة من الزائغين عن السنة ، الضالين ضلالا كبيرا .

وبينما كان شرق بلاد البربر يتمتع بنوع من التلاحم تحت بني زيري وبني حماد فإن الغرب رجع إلى ما كان عليه من تمزق سياسي كان انقذه منه شيئا ما الأ دراسة .

زحفة بني هلال :

حرص امراء القلعة على تأكيد انفصالهم عن بني زيري فضربوا صفحا عن تبعيتهم للفاطميين ، ولما عزم المعز بدوره على قطع صلته

بالشيعية والفاطمين بادر بنو حماد بإعلان ولائهم للقاهرة وانتصروا ممثلين رسميين عنهم وهكذا غنموا وحدهم من الزخفة التي رمى بها الفاطميون المغرب .

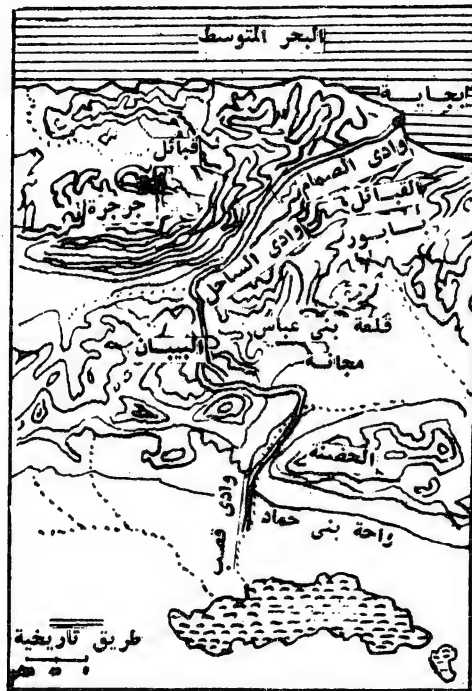
ولقد تلقى الخليفة بغضب شديد القطيعة التي أعلن عنها المعز فانتقم لذلك من إفريقية بعرب بني هلال النهاييين الذين كان اضطر إلى حشدهم في صعيد مصر عقابا لهم على نكباتهم بالناس وبذلك قد كسب كسيين بضربة واحدة إذ هو تخلص من ضيوف شديدي الوطأة وسلط عقابه على من تمرد عليه .

وسرعان ما استغل بنو هلال هذه التزهة التي أتاحتها لهم الخليفة وتبعهم بنو سليم بعد ذلك ولم يكونوا خيرا منهم فانقضوا على إفريقية وهزموا الأمير الذي طمع في مناصرتهم له على بني حماد وخربوا القيروان وعاثوا فسادا في البلاد فأصبحت أثرا بعد عين ، قال ابن خلدون ، متمثلا بآية قرآنية « كأنهم جراد منتشر » . (1050 — 1052) واضطر بنو زيري إلى الالتجاء إلى المهديّة (1057) ومنها حاولوا بدون جدوى استرجاع مدنهم الضائعة . وهكذا عمت الفوضى إفريقية فظهرت على أرضها بصورة عفوية مدن وإمارات ودويلات عربية .

وتدفق الرّحل بدون انقطاع ومعهم نساؤهم وأولادهم صادين من سبقهم من العرب ، فتحالف معهم بنو حماد وأمكن للناصر بفضلهم أن يقوم ببعض الغزوات في إفريقية ولكنه سرعان ما أصبح لعبة في أيديهم بعد أن كان سيدا عليهم .

وانتهى بهم الأمر من فرط مانهبوا أراضي بني حماد إلى الحصول على نصف المحاصيل من المنصور خليفة الناصر . وما لبث أن تخلى عن القلعة المهددة مباشرة ليستقر ببجاية عاصمته الأخرى وقد أسست قبل ذلك بثمانية عشرة سنة في المكان الذي تنتهي فيه إلى البحر الطريق الكبيرة المشرقة على القلعة من الجهة الجنوبية (1090) ، وفي بجاية بقيت دولته محتفظة بهيبتها حتى غزوة الموحيدين .

كانت زحفة بني هلال بلا منازع أهم حدث عرفته بلاد المغرب أثناء القرون الوسطى . فهي التي أثرت أكثر من الفتح الاسلامي تأثيرا طبع المغرب بطابع لم تمحه القرون . ذلك أن هذه البلاد كانت ، قبل مجيء الهلاليين إذا استثنينا الاسلام ، بربرية اللغة والعادات في أعماقها ، وكانت تسترجع شيئا فشيئا التقاليد السياسية البربرية كلما تخلصت من سلطان المشرق ؛



شكل 9 - الطرق الرابطة بين القلعة وبجاية • د تصل بين القلعة وبجاية عاصمتي مملكة بني حماد طريق تجارية وحريشة هامة بين قبائل جرجرة وقبائل بابور • • وهي طريق واسعة في العموم (الماجنة ، وادي ساحل الصومام) • وتضيف في نقطة تدعى ممر البيان (ابواب الحديد) كانت تهيئها قلعة بني عباس (أ ف • قوتي).

ورأينا الآن كيف انها حققت توازنا ربما لم يستقر نهائيا بين مجموعات الأجناس الكبرى القاطنة هناك منذ آماناد بعيدة .

ولقد أتى البدو بلغتهم التي يمكن بسهولة تمييزها عن لهجات أهل المدينة الموروثة عن الفاتحين الأولين . ومن لغة البدو تفرعت أغلب اللهجات العربية الريفية المستعملة اليوم في إفريقيا الشمالية .

وجاء بنو هلال ايضا بعاداتهم الرعوية ، ويظهر أن البربر المستقرين والرحل توصلوا قبل زحفة بني هلال بصعوبة إلى اقتسام الأراضي الضرورية لمعاشهم . وأفسد مجيء الهلاليين هذا الانسجام بين نمطين من الحياة يفرضها مناخ المغرب وتضاريسه . وبهم عمّت البدوة وتحولت الأراضي المعدة لزراعة الحبوب والخضر والأشجار المثمرة إلى غير ما جعلت له واختفت قرى ومدن صغيرة وخربت ، ولم تسلم إلا الأراضي الفلاحية الكثيفة على طول السواحل حول المدن الباقية ، أو داخل الجبال التي أحاط بها الزحف العربي دون أن يقتحمها ، والأمثلة عديدة في هذا الباب فلقد توارت الفلاحة بإفريقية نحو الساحل والوطن القبلي وبنزرت بينما أصبحت أراضي الزياتين في الوسط مرتعا للأغنام والإبل ، واضطرت مملكة بني حماد إلى التزوح إلى بجاية ، واستحالت القيروان إلى مدينة صغيرة بعد أن كانت عاصمة طيلة قرون وانطوت بلاد القبائل على نفسها تحوطها جبالها وامتنعت عن كل تأثير صادر عن القادمين الجدد .

ولم تكن نتائج زحفة بني هلال في الميدان السياسي بأقل أهمية ، فلقد دحر العرب شيئا فشيئا نحو الغرب بدو زناتة جميعهم أولئك الذين أسسوا قبل ذلك مملكة تاهرت . وفي إفريقية سرعان ما تفجرت مملكة بني زيري وقرعت عنها إمارات صغيرة عديدة تساند كل واحدة منها قبيلة عربية قد حطت رحالها قريبا منها . وأخيرا فإن مملكة بني حماد التي ظن زعماءها أنه في امكانهم استعمال العرب فقد انطوت على نفسها حول بجاية معتبرة بقاءها أخف الضررين ، ورأينا هذه الظاهرة الغريبة التي أشار إليها ج . مرسي ، وهي أن صنهاجة ، هؤلاء البرابرة الجبليين يحولون وجوههم شطر البحر ويؤسسون في المهديّة وبجاية إمارتين

بحزيتين ، ولكن فات القوت : لأن النرمان قد انتصبوا بعد في جنوب
إيطاليا وصقلية وسيتصدون لتحركات بني حماد وبني زيري البحرية .

والملاحظ أن كل هذه التغيرات كانت بطيئة في الجملة إذ لم تجسر
الأحداث مجرى السيل الجارف بل كانت بمثابة المد الذي يزحف من دون
توقف ، فلم يسجل التاريخ في تلك الحقبة معركة تذكر ولا حدثا ذا شأن ،
بل هو الدفع المنتظم في غير عنف ولكن من دون هوادة .

الباب الثالث

الإمبراطور طومنتيا ابن برتينا

المرابطون والموحدون

- 1 - المرباطون
- 2 - ابن تومرت ، مهدي الموحدين
- 3 - الإمبراطور طومنتيا الموحدي
- 4 - الحضارة الموحدية

في نفس الوقت الذي كانت القبائل العربية تطأ أقدامها أرض المغرب من الجهة الجنوبية الشرقية كانت مجموعة أخرى بدوية ، لكنها بربرية في هذه المرة ، تلثم شتاتها في الصحراء الغربية وتتهياً هي أيضا للانتشار في إفريقيا الشمالية من الجهة الجنوبية الغربية ، إنهم صنهاجة المابثمون الذين يذكرهم التاريخ باسم المرابطين ، فلقد تمكنوا في ظرف نصف قرن تقريبا من إقامة امبراطورية بربرية شاسعة الأطراف في الجزء الغربي من البلاد وفي إسبانيا .

وبعد ثلاثة أرباع القرن من ذلك تشاد حول قبيلة مصمودة وهم نواة من البربر المستقرين بالأطلس الأعلى امبراطورية أخرى أعظم اتساعا لأنها اشتملت على المغرب الإسلامي بأجمعه من طرابلس إلى كونكة (Cuenca) وأقادير وهي امبراطورية الموحيدين .

وهكذا توصل المغاربة بمحض قواهم طيلة قرنين تقريبا إلى اقامة صرح سياسي شامخ يبدو أن أهل المغرب لم يقدموا على تشييده من قبل .

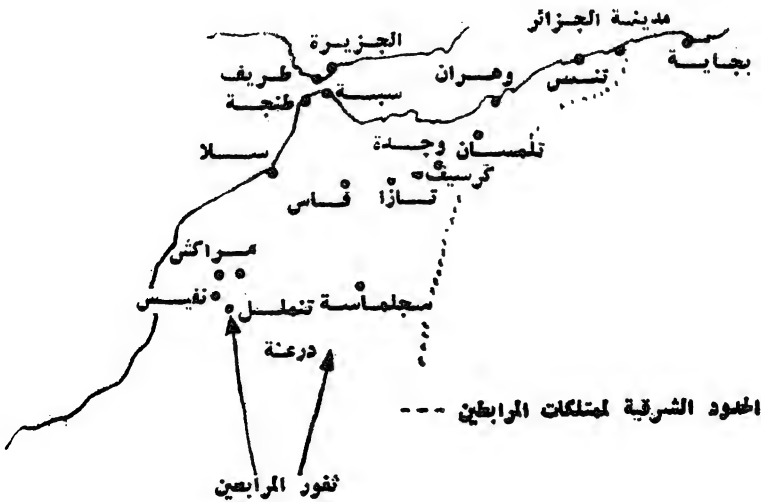
ولم تتوفر لدينا حتى سنة 1920 من المعلومات حول هذه الفترة الهامة من تاريخ المغرب إلا ما يرجع إلى قرن أو قرنين بعد الأحداث المعنية . ولم يعاصر الأحداث المروية إلا الجغرافيان البكري والإدريسي والإخباريان المراكشي وابن الأثير المشرقي .

ومن ذلك الوقت كشف المستعربون وعلماء الآثار ، خاصة في المغرب الأقصى مهد هاتين الأمبراطوريتين ، النقاب عن نصوص ومعالم تسمح بزيادة معرفة الرجال والأحداث وفهمهم فهما أحسن ، ولئن بقي الغموض يكتنف مسائل عدة وافقرنا ، ربما ، إلى اكتشافات أخرى فإنه يمكن ، ولو بصورة إجمالية ، تتبع تطور امبراطورية الموحيدين وأمبراطورية المرابطين والكشف عن بعض أسباب فشلها النهائي .

(I) المبرابطون

كانت الخلية الأصلية لامبراطورية المرابطين لمتونة القبيلة الصنهاجية العتيقة أصيلة الصحراء التي كان مهدها أدرار بموريطانيا ، وكان لمتونة يجوبون خاصة المناطق القاحلة الممتدة من واحات جنوب المغرب الأقصى إلى بلاد الزنج ولعلمهم كانوا يضعون اتفاقا من العين لثاما يحجب أسفل وجوههم فسموا لذلك بالملثمين ، وكانوا لا يفارقونه أبدا ويحتقرون ذوي الوجوه المكشوفة ويعتبرونها مصيدة للذباب .

ولقد أكد البكري أنهم لم يكونوا ليحذقوا لاحتراث الأرض ولا بذرها ، وانحصرت ثروتهم في تربية الماشية مصدر عيشهم . قال « ينفذ عمر أحدهم وما رأى خبزا ولا أكله إلا أن يمرّ بهم التجار من بلاد الإسلام أو بلاد السودان فيطعمونهم الخبز ويتحفونهم بالدقيق » .



شكل 10 - امبراطورية المرابطين بالمغرب .

وإلى جانب تربية الحيوان الضامنة لقوتهم ازدهرت تجارة القوافل في الصحراء الغربية ابتداء من أواخر القرن التاسع ولاحظ هـ . ترأس قائلا : « كانت صنهاجة الملتزمون سلاطين ملوك الزنج في السودان وأسياد الصحراء الأطلسية هم ولاشك أكبر المتفعين من تجارة القوافل سواء نقلوا البضاعة أو استخلصوا من القوافل إقاوات المرور والحماية » .

وقد دخل هؤلاء البدو الأجلاف في الدين الاسلامي أثناء القرن التاسع فصرفوا حماسهم ، وهم حديثو العهد بالدين الذي ما زالوا يجهلون تعاليمه جهلا تاما ، في الجهاد المقدس ضد الزنوج الكفار . وبعد أن بقوا يقاتلون تحت إمرة قائد واحد أصابهم داء الانقسام فمازالوا به أكثر من قرن حتى تزعمهم أمير حازم هو أبو عبد الله محمد بن طفاوة .

ابن ياسين :

وكان سيد لمتونة وجيرانهم جدالة حوالي أواسط القرن الحادي عشر خليفة أبي بكر عبد الله يحيى بن إبراهيم الجدالي الذي قام بفريضة الحج صحبة الأعيان فلاقي في القيروان وهو راجع من المشرق شيخا مشهورا من فقهاء المالكية أصيل المغرب الأقصى يدعى أبا عمران الفاسي . ولما أدرك مدى جهله طلب منه أن يشير عليه بأحد مريديه لتعليم قبائل صنهاجة الصخرافية القرآن ، غير أنه لم يرض ولو واحد من أبناء المدينة الملتفين حول أستاذهم بتعليم مثل هؤلاء الغلاظ الشداد فأشار أبو عمران على يحيى بعالم مغربي من السوس الأقصى كفيل بأن يجد من يبين طلبته إماما يجمع بين الكفاءة والإخلاص ، وفعلا تطوع أحدهم وهو عبد الله بن يس الإفريقي ورافق إلى الصحراء شيخ لمتونة .

وكان عبد الله بن يس حسبما يمكن استشفافه من نص البكري الذي كان معاصرا له تقريبا شخصا غريب الأطوار : فهو عالم في نظر سكان الصحراء الجهلة من دون أن يتجاوز مستوى أدب متواضع ، أي أن بضاعته كانت محدودة وكان شغفه بالنساء كبيرا . ولا شك أنه كان إلى ذلك ماهرا له من العصبية ما أتاح له مع طول الزمن السيطرة على بدو صنهاجة وفرض نظام شديد بالسياط . لقد كان رجل عمل محركا للجماهير

أكثر منه رجل مذهب . وفعلا فإنه لا وجود لمذهب عند المرابطين . وفي أول الأمر نفر منه البدو المفطورون على الحرية والحريصون على إرضاء ميولهم أكثر من التقيد بقواعد أخلاقية لذلك أقنع ابن يس عشرين من لمتونة وسبعة أعيان من جدالة بتأسيس رباط تحت إشرافه في جزيرة من جزر نهر (التيجر او السينغال) أو أغلب الظن في جزر تيدرا (Tydra) على الساحل الموريطاني بين خليج ليفريي (Lévrier) ورأس تيمريس (Timiris) على أن يتمسك المقيمون فيه أي المرابطون بمبادئ المذهب المالكي في مفهومه الصحيح وتعاليمه المضبوطة .

وطعام المرابطين من الثمار ومما يصطادونه برا وبحرا ومن صنف اللحم الجاف مطحونا يصب عليه الشحم المذاب أو السمن ، وشرابهم اللبن قد غشوا به عن الماء ، وكانوا يسعون الى نصرة الإسلام بقيادة زعيمهم الروحي الحازمة وفي كنف المساواة . ويذكر البكري أن المترشح لدخول هذه النحلة كان يتمحن امتحانا شديدا ليتطهر مما علق به من الأدرا ، فكان حد شارب الخمر أو المفترى ثمانين جلدة وحد الزاني مائة جلدة . وكان ابن يس في بعض الأحيان يتشدد في العقاب أما الإخلال بالواجبات الدينية فجزاؤه مضبوط حسب تعريفة : خمس جلدات لمن تخلف عن الصلاة ، عشرون لمن فاتته ركعة أو سجدة ومن رفع صوته في المسجد فأمره موكول إلى مشيئة القاضي وعلى المريد أن يعيد أربع مرات صلاة الظهر قبل الصلاة الجامعة تداركا لما فاته .

الغزوات الأولى :

إن ما اشتهر به المرابطون من صلاح وما أضفوه على نظام حياتهم من فضيلة سرعان ما جلب إليهم حوالي ألف رجل تدرّبوا على الحياة العسكرية وضح منهم العزم على فرض احترام الدين بحدّ السلاح على المترددين وضعاف الإيمان ، وما لبث هؤلاء الرهبان المسلحون أن أخضعوا قبائل صنهاجة لنفوذهم فأتاح لهم نجاحهم جمع ثلاثين ألفا من الأنصار تقريبا وهي قوة خارقة للعادة في مثل هذه البلاد الصحراوية . وكانوا حريصين على التفاني في نشر الإسلام وفي نفس الوقت إشفاء غليلهم من النهب ، ولئن ظل ابن ياسين زعيم المرابطين الروحي فإنه كان أدهى من أن يطمح إلى

الحكم الشخصي بجعل الجيوش تحت إمرة يحيى بن عمر وهو أحد أسياد
لمتونة من الرعيل الأول ، فأفلح في الحروب التي شنها بوادي درعة
شمالا والسودان جنوبا ثم سرعان مادعي للتدخل في سجلماسة وكان
بنو مدرار قد أطردهم نهائيا من تافلات (976 — 977) خزرون بن
فلفل المغراوي وهو قائد زناتي من أتباع السلطان الأموي في قرطبة
وأعلن أحفاده بعد ذلك استقلالهم . وكان استنجد بالمرابطين عدة علماء
لما لحقهم من صاحب سجلماسة من استهتار واضطهاد فأسرعوا لنجدتهم
وتمكنوا بذلك من القيام بواجبهم الديني واشفاء غليلهم من زناة أيضا ،
ولإطلاق العنان لغرائز النهب فيهم . واستولى ابن يس على المدينة واذن
بتدمير أماكن اللهو وتكسير آلات الطرب ، وغنم كثيرا بعد أن أباد
جميع من وقع في يده من مغراوة (1055 — 1056) .

ومن ذلك الوقت لم تتمتع سجلماسة باستقلالها ولكنها لم تخضع
لسلاطين المغرب خضوعا كاملا بل ظلت قبائل تافيلات وسكان المدينة
والولاية المحليون يثيرون الاضطرابات بلا انقطاع . وكان المرابطون
قبل استيلائهم بقليل على سجلماسة قد دخلوا مملكة الزنج بغانة حيث
استحوذوا على مدينة أودغسط (Aoudaghost) الهامة جنوب ثفانت (Tagant)
الحالية (1054)

ولمّا توفي يحيى سنة 1056 أسند ابن ياسين قيادة الجيوش إلى أخيه
أبي بكر بن عمر ووسّع تجاه الشمال رقعة غزواته . فاستهدف أول ما
استهدف السوس حيث استولى على عاصمته تارودانت (1056) وأمر
بإزالة إمارة شيعية كان أقرها الفاطميون من دون أن يتمكن المرابطون
قبل ذلك من تثبيت أقدامهم فيها . ثمّ نفذ إلى جبال الأطلس من دون
صعوبة على ما يظهر حتى وصل أغمات وفيها تزوج زينب أرملة الملك
الجميلة صاحبة العزم الملقبة « بالساحرة » التي ستلعب فيما بعد دورا هاما .

أمّا أهل البدع من برغواطة الذين هجم عليهم بعد ذلك المرابطون
فإنهم لم يعتنقوا بسهولة مبادئ السنة بل إن ابن ياسين هلك عند تفهقر
جيّشه (1059) ولم تخضد شوكتهم إلا هجمة عنيفة شنها من جديد
أبو بكر . وظهر في الشرق خطر آخر ، ذلك أن سلطانا من قلعة بني

حماد اسمه بُلُكَيْن بن محمد بن حماد سار بجيش عظيم حتى وصل فاس فاستولى عليها . ولكنه قتل عندما قُتِل راجعا : قال ابن خلدون : « وانكفأ راجعا إلى القلعة فانتهز منه الناصر ابن عمه الفرصة في الشار بأخته ومالاً قومه من صنهجة لما لحقهم من تكلف المشقة بإبعاد الغزو والتوغل في أرض العدو ... » ولم يكن في قدرة بني زيري أن يقدموا على غزوات في الغرب باهضة الثمن لا طائل من ورائها من دون أن يعرضوا وجودهم للزوال .

ولسنا نعرف هل أن المرابطين اصطدموا ببني زيري ، وقد تكون مشاغل أخرى صرفتهم عنهم حينذاك ، فكانت صنهجة الصحراويون يأكل بعضهم بعضا ، واضطر أبو بكر إلى الذهاب على عين المكان ليضع حداً لخلافاتهم وترك قيادة جيوش المغرب لابن عمه يوسف بن تاشفين وزيادة على ذلك سلم له زوجته التي ما لبثت أن أصبح لها تأثير كبير على زوجها الجديد (1061) .

وهكذا بلغت الدولة المرابطية فترة التحول ، ذلك أن هؤلاء الصحراويين معرضون إلى الإبادة بين عشية وضحاها لأن بني حماد يهددونهم ولأن نزاعات داخلية خطيرة ، ولا شك ، كانت تتأكلهم ، وأخيرا لأنهم استقروا في بلاد مازالت لا يؤمن جانبها ، وهذا هو رأي البكري عند ما قال : « وأمير المرابطين إلى اليوم وذلك سنة ستين وأربعمائة (1067 - 1068) أبو بكر بن عمر وأمرهم منتشر غير ملتئم ومقامهم الصحراء » إلا أن أسباب النجاح لم تعوزهم في الواقع فبنو حماد كانوا مشغولين عنهم وقبائل المغرب كانت أعجز من أن تتحد على الغاصب ، وكان المرابطون يتمتعون بهيبة دينية عظيمة الأثر في بلاد مثل المغرب الأقصى لما يتغلغل فيها الاسلام . وكانت فيهم زينب أصيلة البلاد التي تبدو لنا من خلال روايات الإخباريين قوية جدا . وكانوا يعملون على جيش قد جرب الحرب وعزز صفوفه بالمرتزقة النصارى والسود وأخيرا كانوا يعتمدون على رجل كان مغمورا قبل ذلك (إذ لم يذكره البكري ولو مجرد ذكر) ولكنه سيفرض نفسه كغاز عظيم ، ماهر في استغلال جميع الفرص .

ابن تاشفين :

كان سنّ ابن تاشفين في ذلك الوقت خمسين سنة وكان صحراويا بأتم معنى الكلمة ، وتلك كانت صفته من خلال وصف ابن أبي زرع له في القرطاس « كان أسمر اللون نقيه ، معتدل القامة ، نحيف الجسم ، خفيف العارضين ، رقيق الصوت ، أكحل العينين ، أفتى الأنف ، له وفرة تبلغ شحمة أذنيه ، مقرون الحاجبين ، أجعد الشعر . وكان رحمه الله بطلا نجدا ، شجاعا حازما ، مهابا ، ضابطا لملكه ، متفقدًا للموالي من رعيته و [ما] بيلاده من ثغور ، ومواظبا على الجهاد ، مؤيدا ، منصورا ، جوادا ، كريما شيخا زاهدا في زينة الدنيا ، لباسه الصوف ، لم يلبس قط غيره وأكله الشعير ، ولحوم الإبل وألبانها مقتصرًا على ذلك لم ينتقل عنه مدى عمره إلى أن توفي » . وتطورت الأمبراطورية المرابطية بفضل تطلعاته السريعة لا سيما له من صفات القيادة فقط بل أكثر من ذلك بتمسكه الشديد بالدين مما ضمن له أنصارا مقتدرين من بين تقات المسلمين رعايا مغراوة بفاس . ولما علم أبو بكر بغزوات مساعده في المغرب الأقصى والمغرب الأوسط عاد فطالب بتسلم القيادة ولكنه لم يظفر إلاّ بهدايا ثمينة أشارت زينب بتسليمها له واضطر إلى الرجوع إلى الصحراء . وعندما قضى نحبه أمكن لابن تاشفين أن ينعم بالسلطة المطلقة من دون أن ينازعه منازع (1087 - 1088) .

وسرعان ما ركز سلطته وشيّد على السفوح الشمالي من الأطلس في أعلى مجرى واد تنسفت معسكرًا لم يكن يتوقع آنذاك أن عاصمة كبرى اسمها مراكش ستنبثق منه (1060) ، ولم يبخل علينا المؤرخون العرب بتفاصيل متتحلة في أغلبها حول تأسيس مدينة كان لها فيما بعد مستقبل زاهر جدًا وكانت أرضها وهي على ملك عجوز من مصمودة معروفة بأنها مخبأ لقطاع الطريق . ولقد دفع ابن تاشفين ثمنها من ماله الخاص وضرب فيها خيام المرابطين وشارك بنفسه في بناء المسجد . وذكر في القرطاس : انه كان : « يحترم ويعمل في الطين بيده مع الخدمة تواضعا منه وتورعا » .

ويظهر أن هذا الوصف منسجم مع طبع هذا الولي الصالح . وإلى اليوم لا يزال موضع هذا البناء يدلّ إليه في الشمال الغربي من الكتبية . وعلى كل فإن مراكش ظهرت من يوم تأسيسها بمظهر المدينة الصحراوية بواجباتها الموجودة في مناخ لا يناسب زراعة النخيل ، غير أن سكان الصحراء لم يكونوا ليرضوا بالنخلة بديلا .

ومن هذه القاعدة حيث تقوم الشجاعة والإقدام مقام الأسوار كان ابن تاشفين يوجه الحملات نحو غرب المغرب وأوسطه . فاستولى على فاس (1069) ووضع حدا بذلك لسيطرة زنّاة على شمال المغرب الأقصى ودخل الريف واجتاز وادى الملوية وأخضع بني سنان ووجدة ولما أصبح سيد المغرب الأقصى ولّى وجهه شطر الشرق فاستحوذ على تلمسان ووهران وتونس والونشريس وضرب الحصار على مدينة الجزائر (1082) ولكنه لم يهاجم بلاد البربر الشرقية ولا حتى كتلة بلاد القبائل . وبعد ان وطّد سلطانه في البلاد المغزوة أوكل أمرها إلى ضباط مرابطين ، وقفل راجعا إلى مراكش وكأنه اعتبر نفسه قد أدّى واجبه كاملا ، ولكن سرعان ما أجبرته أحداث هامة على التدخل في إسبانيا .

ملوك الطوائف :

لم يكن الخليفة الأموي بقرطبة رغم هيئته ليصمد أمام الصراع القائم بين المسلمين في الجزيرة فكان عرب المشرق وبربر المغرب المرتدون الأندلسيون والعبيد النصاري المعتقون يتربصون بالسلطة الدوائر فيستغلون كل الفرص لحسم خلافاتهم بحدّ السلاح . ولم يقدر عليهم إلا الوزير ابن أبي عامر المنصور المشهور بطول باعه وقوة شكيمته وذلك بالاعتماد على جند البربر ، ولما مات ابنه المظفر (1008) لم تعد أية سلطة بقادرة على الحيلولة دون تداعي الخلافة فظهر طيابة ربع القرن الذي تسع طرد آخر خليفة أموي أكثر من عشرة أدياء ثم اختفوا .

واستغل ولاة المتطاعات وأعيانها هذه الفوضى فأسسوا شيئا فشيئا 23 إمارة مستقلة تسع أرضا شاسعة تمتد من الارغون [رغون] عند العرب (Aragon) شمالا وبلنسية شرقا إلى الأندلس ومرسية جنوبا ولوزتانيا

سابقا غربا ، ولقد سموا ملوك الطوائف (Reyes de taifas) بالاسبانية . وفي بَطْلَمَيْسُوسْ أسس ضابط بربري من مكناسة كان يدعي أنه عربي الأصل دولة بني الأفطس (1027 - 1094) . وفي الجنوب فعل بالمثل ملوك صغار برابرة وهم بنو حَمُود بمالقة (1016 - 1057) وبنو زيري بغرناطة (1012 - 1090) وفي الجنوب الشرقي كان عبيد مُعْتَقُونَ قائمين على ما سمي بالممالك الصقلبية ببلنسية والمرية ، وفي الأرغون (في التخوم العليا) سيطر على سرقسطة (Saragosse) بعد انقراض دولة التجيبين المزدهرة (1019 - 1039) بنو هود وهم أحلافهم بِلَارْدَة من أصل عربي مثلهم (1039 - 1180) وأعظم هذه الممالك مملكة إشبيلية (1023 - 1091) التي كانت بيد بني عباد وأصلهم من الشام وقد وسعوا رقعة نفوذهم في اتجاه البرتغال الحالي ومالقة وفاس وبطليوس بالجزء الجنوبي الغربي من الخلافة سابقا ، واستولوا في آخر الأمر على قرطبة ، وأصبحت بذلك أشبيلية أول مركز سياسي وفكري وفني بالجزيرة .

وانتهز النصارى فرصة تشتت قوى المسلمين والخلافات المزمنة بين أمرائهم ليعملوا على استرداد ارضهم (Reconquista) وبعد أن وجد فرديناند الأول (فرذلند الطاغية عند أهل الأندلس) جليقية (Galice) وليون (Léon) مع قشتالة (Castille) أمسك عن ضم نافار (Navarre) (1054) إلى ملكه وأقام بذلك الدليل على صرف جهوده في مقاومة المسلمين . ولم يزل يهاجمهم ويتنصر عليهم حتى اضطر ملوك اشبيلية وبطليوس (Badajoz) وطليلة (Tolède) وسرقسطة (Saragosse) إلى دفع الجزية ووسع حدود ملكه في جميع الجهات ، وفي سنة 1063 قرر البابا الأسكندر الثاني منح مغفرة خاصة لكل من يشد الرحال لقتال المسلمين في اسبانيا ، فهب عدد كبير من فرسان فرنسا لمعاودة إخوانهم في ما وراء الجبال ، وفي نفس الفترة دخلت مملكة الأرغون في صراع مع ملكي سرقسطة ووشقة (Heusca) وكان من الممكن أن يكون سعي بطلي المسيحية حاسما إلا أن ما نجم عن خلافة فرديناند من اضطرابات (1065) حال دون نيل الأرب .

وكان ان جمع الملك الفنس السادس (الفنش وأذفنش عند أهل الأندلس) من جديد كامل أراضي اسبانيا الوسطى والغربية شمال تاجو

(Tage) ليستأنف سياسة والده (1072) ، وأثناء هذه المعارك الغامضة التي واجه فيها النصرى أقوام الموريسك (Maures) وتناسحر فيها ملوك الطوائف قام الفارس رديق (ديازدي فيفار) (Diaz de Vivar) الملقب عند الاسبانيون بالبطل (Campiador) وعند جنده المسلمين بسيدى (بالاسبانية Miciocid) بدور سياسي فاصل فكان يضع سيفه مرة في خدمة ملك قشتالة ومرات في خدمة دولة بني هود بسرقسطة وكان في أكثر الأحيان يخدم مطامحه الشخصية . ومن المحتمل انه لولا الخلافات والضغائن الواقعة بين « ألفونس » و « السيد » لتحقيق النصر ، لاختصر المسيحيون الآجال طالما أن قوى ملوك الطوائف كانت محدودة .



شكل : II - اسبانيا المسلمة في عهد المرابطين والموحدين

وفرض ملك قشتالة إتاوة مضاعفة على المعتمد ملك اشبيلية الذي كان وقف موقفًا مناوئًا له في صراعه من أجل الملك. كما أجبر ملك طليطلة على أن يكون تابعًا له وفي سنة 1083 شن حملة واسعة النطاق على البلاد الإسلامية ثم استغل تمرد أهل طليطلة ليستولى على مدينتهم ويجعل منها قاعدة هامة لعملياته الحربية (1085) فأمكنه بذلك أن يتوسع في ممتلكاته من تاجو إلى توريه وأن يترك مرسية تحت رحمته وأن يجبر ملوك الطوائف جميعهم من الشرق إلى الجنوب على دفع الإتاوة ، أمّا في الشمال فإن ملك سرقسطة كان يلاقي عناء كبيرًا في الصمود أمام ضربات ملك الارغون وكونتات برشلونة .

وكان على ملوك الطوائف أن يختاروا بين الخضوع لألفونس السادس أو الهجرة ، ويروى أن المعتمد أكد أنه يؤثر أن يكون جملاً في إفريقيا على أن يبقى بواباً في قشتالة ، إلا أن هناك حلاً ثالثاً كان كفيلاً بالخروج من المأزق وهو الاستنجاد بمسلمي العدو لمواجهة النصارى . وكان للعاطفة الدينية المتأججة في نفوس الطبقات الشعبية المسلمة صداماً بعيداً في إسبانيا ، واستحالت العلاقات الودية بين النصارى والمغاربة إلى عداوة دينية أكثر منه سياسي ولم يعد في إمكان الملوك أن يتجاهلوا ميول الجماهير الدينية فالتجأوا دفاعاً عن العقيدة إلى نفس المحاربين البربر الذين كانوا وجهوا ضدهم ضربات الثورة التي أدت فيما سبق إلى سقوط الخلافة وقرروا الاستغاثة بالمرايطين وآثروهم على بني هلال في آخر الأمر .

تدخل المرابطيين :

كان يوسف بن تاشفين منذ سنة 1074 كثيراً ما يتلقى الدعوات الملحة للتدخل في إسبانيا سواء لنجدة المسلمين الذين اشتدت عليهم وطأة النصارى لنصرة أمير مسلم على آخر (مذكرات عبد الله) وكان يأبى جبهة المجازفة فترث في الأمر حتى استوثق من سيطرته على مضيق جبل طارق : فلَمَّا استولى على سبتة سنة 1083 اشترط قبل أن يستجيب لطلبات المعتمد الملحة أن يستبقى تحت سلطته الجزيرة الخضراء ، ويظهر أنه لم تكن له فعلاً مطامع في احتلال إسبانيا التي كان يجهل عنها كل شيء ، إنما

كان همه الجهاد في سبيل الله استجابة لإخوانه في الدين وتوفيرا للظروف الملائمة .

ونزل بالجزيرة الخضراء في جيش عظيم وجعل منها مركزا محصنا ثم اتصل بالمعتمد في إشبيلية وزحف نحو طليطلة بما وصله من مدد إشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية وبطليوس ، وتقابل الجيشان في فلاة قرب الزلاقة قريبا من بطليوس (Azagal ou Sacralias) ودعا ابن تاشفين الفونسو إلى الإسلام فاحتكم إلى السيف وجال المرابطون جولة باغتوا بها العدو من خلف وكان معها النصر العظيم وكاد ملك قشتالة ان يقع في الأسر فاضطر إلى الانسحاب من جهة إشبيلية والكف عن محاصرة سرقسطة (23 أكتوبر 1086) وكان لهذا الانتصار الصدى العظيم في العالم الإسلامي بأجمعه لا يماثله إلا أخذ طليطلة من الفونس السادس ، واعتبر ابن تاشفين من ذلك الوقت واحدا من عظماء أبطال المنافحين عن الإسلام الذي كان محفوقا بالمخاطر .

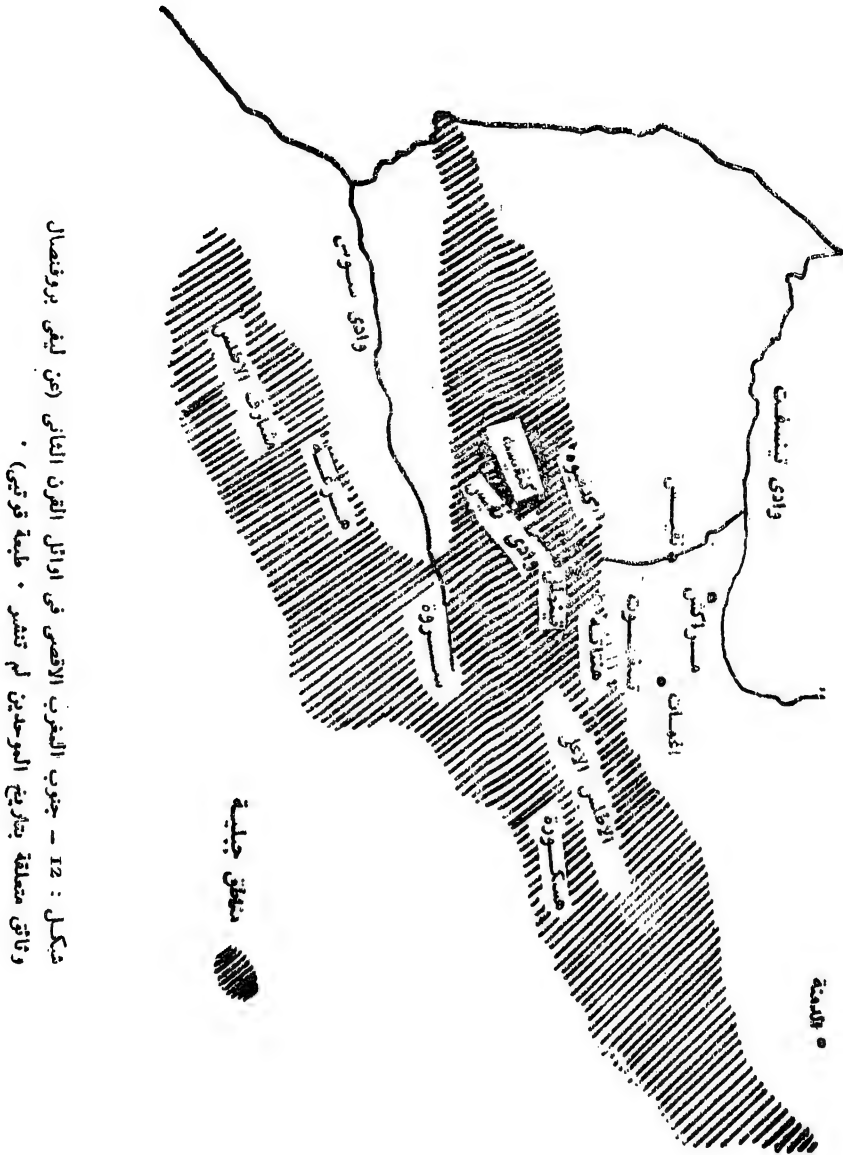
وتوقف توغل الجيوش الإسلامية عندما التحق ابن تاشفين بالمغرب بسبب وفاة ابنه ولم يترك للمعتمد إلا ثلاثة آلاف من البربر ، فأعاد النصارى الكرة نحو مرسية والمرية فلم يجد المعتمد بدا من الذهاب بنفسه إلى ابن تاشفين يناشده أن يتدخل مرة أخرى (1088 أو 1090) فخرّب ابن تاشفين قاعدة أليط العسكرية المنيعه (في الجنوب الغربي من مرسية) التي عجز عنها ملوك الطوائف وأرجع الأمور إلى نصابها . وكان كل شيء ينبيء بأن الهجوم العظيم لقوى المرابطين والمغاربة المتحالفة قد آن أوانها ، غير أن الممالك الإسلامية بإسبانيا كانت أضعف من أن تقدم لابن تاشفين إعانة فعالة وبلغت حدا من التفرقة أغرى القائد البربري بتعزيز سلطانه على حسابها . ولم يلبث أن سلك سلوك السيد لا الحليف ، وإذا كان ملوك الطوائف وهم الأدباء الخليعون يحتقرون هذا المغربي المتقشف ويعتبرونه من الأجلاف فإن عامة الناس الذين كانوا عرضة لانتقام النصارى وكذلك الفقهاء كانوا يميلون عن أمراء الأندلس المتخاذلين في دينهم إلى هؤلاء البربر المتمسكين بشديد التمسك بالمالكية وكانوا يعتبرونهم رسل الله .

وأمكن لابن تاشفين بهذا التأييد المزدوج أن ينصب نفسه حكما يفصل الخصومات وينفي الملوك ويفتك مملكاتهم وكان الفقهاء يفتون في هذه التعديلات لإكسابها الصفة الشرعية ، وهكذا نجح في توحيد المسلمين من جديد باسبانيا (1094) إلا أنه ترك مملكة سرقسطة وشأنها واعتبرها دولة فاصلة بين النصراني والمرابطين ولم يستول على بلنسية التي كانت بيد السيد ثم خلفته عليها ارملة يمنة ، (Chimène) إلا في سنة 1102 ولما توفي يوسف وقد ناهز المائة حسب ما يقال خلف لابنه علي الذي أنجبته جارية نصرانية والبالغ من العمر آنذاك 23 سنة ، أمبراطورية شاسعة كانت تضم إسبانيا الاسلامية الممتدة حتى افراغة (Fraga) (في الجنوب الغربي من لاردة) شمالا وجزر ميورقة (Majorque) ومنورقة (Minorque) وإليسة (Ibiça) (1106 — 1107) .

علي والدفاع عن المالكية :

تقلد الملك المرابطي الجديد الحكم بدون صعوبة تذكر ، رغم شبابه وهو دليل آخر على ما كان يتمتع به يوسف من هيبة عظيمة ، وكان علي أشد تقوى من والده فقد بلغ به الورع حدا أصبح معه آلة طيعة في يد الفقهاء ، ثم إنه لم يعرف في شبابه صعوبة الحياة في الصحراء بل أنه ترعرع في إسبانيا وتربى تربية أهل الحضرة بعيدا عن خصائص الحياة القبلية وعاداتها وأخيرا فقد كان ابن شيخ مسن تعوزه الحيوية . قال المراكشي : « وكان حسن السيرة ، جيد الطوية نزيه النفس ، إلى أن يعد في الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يعد في الملوك والمتغلبين ... وقنع باسم إمرة المسلمين ، وبما يرفع إليه من الخراج وعكف على العبادة والتبتل فكان يقوم الليل ويصوم النهار ، مشتهرا عنه ذلك ، وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال » . فلا غرابة إذن كما ذهب إلى ذلك المراكشي نفسه أن يتصرف في عهده عظماء الأمبراطورية بما فيها النساء حسب مشيئتهم من دون مراعاة للصالح العام .

لهذه الأسباب لم يدم سلطان المرابطين إلا قليلا فقد كان الدين سببا في سقوط دولتهم كما كان سببا في قيامها ، وكان علي على سنة أبيه مالكيًا متشدداً وكان هذا المذهب في إسبانيا كشأنه في كامل



شكل : 12 - جنوب المغرب الأقصى في أوائل القرن الثاني (من ليفي بروفصال وناثق متعلقة بتاريخ الموحدين لم تنتشر * طبعة قديمة) *

المغرب يقتل المجهود الفكري ويطفئ العاطفة الدينية ويمنع تأويل الآيات القرآنية وكل بحث شخصي لمعنى القانون ولا يقر القياس كأصل من أصول الدين ، فكان يعتبر مجرد السؤال عن معنى أحاديث الرسول

بدعة ويعرض عن دراسة القرآن والحديث مما يؤول به إلى ضرب من التجسيد الفاحش والإغراق في الشك . وكان يؤثر التفرغ مستندا إلى كتب أهل السنة المروية عن الطبقة الثانية حول فقه المعاملات أي المتعلقة بالأحكام الوضعية في مختلف فروعها ولم يكن هذا الجدل الشكلي المستفرغ من كل محتوى ديني سوى ذريعة لمناقشات قانونية وفقهية لانهاية لها . فكان كل واحد يأنس في نفسه الكفاءة لإصدار فتوى في أي موضوع كان ولقد أنكر هذا الاتجاه الغزالي في شكه وهو أعظم أئمة الإسلام وأكثرهم طرافة (1058 - 1112) فيبين في كتابه « إحياء علوم الدين » أن الفقه كما يراه المالكية المتشدقون إنما هو شغل دنيوي لا صلة له بالدين ، وشهر بتدخل الفقهاء في السياسة لغاية في أنفسهم وفضح تعلقهم بالشهرة وعاب عليهم زعمهم النجاة بالنفس بمجرد رياضة فقهية غير مجدية بينما الدين هو قبل كل شيء إيمان بالقلب فلا غرابة أن أثارت تأليفه حفيظة المالكية لا لأسباب عقائدية بل لما احتوت عليه من صارم الأحكام على الفقهاء لذلك حملوا عليا علم اللاهوت ، على احراق التكاليف وتهديد كل من ملك جزءا منها باستصفاء أمواله وقتله ، وكان في هذا الاعتداء على الفكر القضاء المبرم على المرابطين كما دل على ذلك نجاح الحركة الموحدية .

المعالم المرابطية في المغرب :

رغم ما كان عليه المرابطون من تقوى فانهم لم يحكموا إسبانيا بالاعتماد على البربر السنيين وحدهم ، فلقد وجدوا أنفسهم في وسط اشتدت فيه وطأة التقاليد وركت الحضارة بحيث لم يعد ممكنا فسخ الماضي فسخا وبما أنهم لم يبسطوا سلطانهم على سكان الصحراء فقط بل على جميع مسلمي المغرب كما يدل على ذلك لقبهم وهو أمير المسلمين فإنهم استعانوا برجال البلاد الموقين فلم يستغنوا لآعن الأدباء ولا عن رجال الفن بل قصدتهم على حد قول مؤرخ عربي عدد عديد من ألمع الكتاب ورجال الأدب ما لم يره أي عهد قبل ذلك . ظل ابن باجة (1138) وهو الفيلسوف والموسيقار الشهير معاً ، طيلة عشرين سنة ، وزيرا لوالي غرناطة وسرقسطه صهر علي المرابطي . وأخلد هؤلاء الرجال الشداد الملتزمون

إلى البيئة الإسبانية شيئاً فشيئاً فحدّ ذلك من نقشفهم وكشف لهم عن لذات أخرى غير التي تتيحها مقارعة السلاح . وبواسطتهم انتشرت في المغرب الحضارة الأندلسية التي كانت دخلت قبل ذلك مدرستي سبتة وفاس ولئن تقبلت إسبانيا من إفريقيا جند الإيمان فإنها زودتها بمقابل ذلك بعدد من المعماريين وأرباب الصنائع وأضفت عليها حضارة وصات إلى عدة مدن على الأقل .

ولقد تطوّر الفن الإسلامي بالجزيرة في حرية تامة بعد انفصال الأمويين عن الخلافة العباسية ، فتأثر المرابطون بالفن المعماري الموجود بقرطبة وغرناطة نظراً إلى أنهم لم يجدوا حولهم نماذج قديمة وكانوا لا تربطهم بالشرق روابط مباشرة . لهذا فإنهم استعملوا في المعالم التي أقاموها بغربي بلاد البربر دعائم سمكية عوضاً عن الاسطوانات من جهة ومن جهة أخرى أقواساً نصف دائرية حدوية كانت نقلتها إسبانيا عن إفريقية حيث جرى القوم على استعمالها منذ قرنين وأقواساً ذات قويسات عوضاً عن الأقواس المكسورة الحدوية الموجودة بالقيروان .

وللأسف لم يبق شيء من جامع مراکش ولا من مصليات فاس التي أقامها ابن تاشفين إلا أننا نجد في عهد الأتراك الجزء الهام من الجامع الكبير بالجزائر بمضلاه الذي يحتوي على إحدى عشرة بلاطة وخمسة صفوف ممّا يذكر بجامع تلمسان رغم الزيادات المحدثّة في القرن الرابع عشر ، وكان علي هو الذي زاد في جامع القرويين بفاس الذي أسس في أواسط القرن التاسع وأصبح بعد ذلك أضيق من أن يسع جماهير المؤمنين وهو الذي أسس أيضاً الجامع الكبير بتلمسان وهو أعظم أثر مرابطي .

وهو مبنى يتراوح طوله بين خمسين وستين متراً في مدخله صحن مربع ضلعه عشرون متراً تحيط به شرقاً وغرباً وفقاً لخصائص الفن المرابطي بلاطات تتصل ببلاطات المصلى . ولهذه القاعة ثلاث عشرة بلاطة ذات ستة صفوف كما هو الشأن في الجزائر وفاس وهي محفوفة بدعائم مبنية تحمّل أقواساً نصف دائرية حدوية أو مكسورة أو ذات قويسات . وفي الوسط شيّدت قبة ذات تعاريق . وأقيمت تجاه المحراب قبة أخرى

مخزومة الزوايا فكانها نوع من « التخريم الفاخر الفضائي الذي بَسَط من فوق فقرة العمود ». وإن وضع الثريا البارزة من البناء بأحجامها المتراكبة الواحدة فوق الأخرى يمكننا من أن نتبين أول أنموذج مغربي للقبة المقرنسة مضبوط التاريخ .

أمّا فيما يخص الزخرف فإن رسم الزهور هو الغالب بشكله النهائي المتمثل في سعفات النخيل المفردة أو المزدوجة المعرّقة في رقّة والمختلطة بالأقنثا (Acanthe) أشدّ الاختلاط . ويمتاز المحراب بزخرفة أنيقة تذكّرنا بمحراب قرطبة .

أما القصور المشيدة في مراكش وتاغرارت (Tagrat) ، فقد انطمست آثارها وكان عليّ هو الذي بنى الأسوار الأولى في مراكش (1120) فبقيت ماثلة إلى اليوم آثار حصني بلاد ورغة وأعاللي مراكش وهما أمرغو (Amergo) وتاسغيموت (Tasghimout) ومنها كان يسكن مراقبة أهل الريف والمصامدة . ويستبعد أن يكون المرابطون قد أكثروا من الأشغال ذات المصلحة العامة غير أن القوم ينسبون إلى علي حفر القناة التي كانت تمكن من ريّ حدائق فاس وبناء جسر تنسفت بالاعتماد على الفنيين الأسبان . قال ج . مرسي في هذا الصدد « كان المرابطون أداة وصل بين إسبانيا وإفريقيا فلعجّوا في كل ما أسسوه إلى مهندسي الري الصحراويين والمعماريين الأندلسيين معا » (ج. مرسي) .

انحطاط دولة المرابطين وسقوطها :

بلغت دولة المرابطين بإسبانيا أوجها في عهد ابن تاشفين ، ولقد تمادى ابنه علي في محاربة نصارى قشتالة إلا أنه رغم انتصاره في أقليج (Uclés) (قرب طرنيان في جهة كوناكة) فإنّه لم يتوصّل إلى الاستيلاء على أي جزء من أرض العدو (1108) ، وبلغت قواه من الضعف ما لم يمكنه معه استغلال الاضطرابات التي انجرت عن موت الفونسو السادس (1109) بقشتالة وليون ، وقصارى ما وصل إليه احتلال سرقسطة طيلة سنوات معدودة (1110 - 1118) ورغم تخلي قشتالة عن المعركة بسبب ما دهاها مؤقّتا من الفوضى فإن الارغون وبرشلونة واصلا الغزو من جديد

فاستولى الفونسو المقاتل ملك الأرغون على سرقسطة (1118) ووسّع حدوده إلى ما وراء نهر الأيبرو وزحف على جهات بلنسية ومرسية والأندلس الشرقية ثم أدرك لأول مرة البحر في شلوبانية (Salobrena) (جنوب غرناطة) قبالة بلاد البربر (1126) وبعد أن نجح نجاحا باهرا بـآرنسول (Arnisol) قرب اللسانة ، على بعد ستين كيلومترا تقريبا من الجنوب الشرقي من قرطبة وطّن 14.000 من النصارى المعاهدين (Mozarabes) (نصارى الأندلس الناطقين بالعربية) في الأراضي التي انتزعت من جنوب الأيبرو ، ثمّ واصل زحفه شمالا ولكنه انهزم أمام إفراغة ولاردة . وفي تلك الأثناء كان كونت برشلونة يتوسع على حساب لاردة وطرطوشة ويفرض على والي الجزائر الشرقية (Iles baléares) دفع الإتاوة . أمّا الملك الفونسو السابع فقد تمكن من التغلب على الصعوبات التي نجمت عن موت الفونسو السادس فوالى غزواته الكبرى في الأندلس وعاث في البلاد فسادا حتى حدود المرية (1144 - 1147) .

وعندما مات علي (1143) كان النصارى يدحرون في كل مكان أمراء قرطبة وإشبيلية بينما كان الموحدون يحتلون غالب أرض المغرب الأقصى وعند ذلك بدأ المسلمون في إسبانيا يتمردون على ابنه تاشفين ، وربما كانوا يتألمون ممّا أصبح عليه أمراؤهم من فساد تحت تأثير الوسط الأندلسي ويتذمرون من الحماية التي كان يتمتع بها حرس فاس النصارى بقيادة الرّبرّتر (Réverter) النصراني ويشكون من غير شك العجرفة التي كان يعاملهم بها الأمراء المرابطون .

ومهما يكن من أمر فإنهم استغلوا ما كان بين تاشفين بن علي والموحدين في المغرب من صراع للشورة في غرب الأندلس (Algarve) بقيادة أحد مريدي الغزالي ثمّ في بلنسية ومرسية وقرطبة والمرية ، فعرفت إسبانيا المسلمة من جديد نظاما شبيها بنظام ملوك الطوائف بعد سقوط الخلافة ، وكان أن طلب أحد القواد المتمردين ، أثناء الصراع بين المرابطين ومسلمي الأندلس تدخل الموحدون فكان ذلك سببا في انهيار السلطان المرابطي في إسبانيا وفي بلاد البربر أيضا .

الخلاصة :

إن أهم ما يبقى في الأذهان بعد استعراض طور قصة المرابطين هو أنها كانت عبارة عن نار تبين وهاجة تبدد رمادها بسرعة ولم يبق منه شيء .

فكانت الخيبة الكاملة من الناحية السياسية ، ذلك ان الأمبراطورية المرابطية تمزقت بنفس السرعة التي التأمت بها بينما كان الأهالي في لامبالاة مطلقة وكأنهم لم تصدر عنهم مقاومة جدية ضد الموحدين ، أما اسبانيا فإنها أصبحت في سنة 1145 في نفس الوضع الذي كانت عليه عند تدخل يوسف بن تاشفين أي ممزقة لآحول لها ولا قوة لرد هجوم النصاري . وأخيرا فإن المؤرخ لايسعه الا أن يلاحظ أن سلوك المرابطين ومستشاريهم لم يتوصلوا الى إرساء جهاز حكومة حقيقي ، وكل ما في الأمر هو أنه تمخض عن المؤسسات الصحراوية الاصلية والتقاليد الاندلسية على ما يظهر مزيج غريب خال من كل متانة وفاقد لصفة الدوام ، غير ان اسياء الصحراء عودوا قبائل المغرب الأقصى بالانقياد إلى نفوذ سياسي واحد فيسروا بذلك لخلفائهم مهمة الحكم .

أما من الناحية الدينية فإن علامات الخيبة أقل وضوحا رغم الظواهر ولئن أعوز التفكير المرابطي الغزارة ولم يبرز الفقهاء الا في الجدل الصوري فإن الذي لايمكن نكرانه هو أن المرابطين اقتلعوا جذور البدع العديدة التي ازدهرت ابتداء من القرن الثامن في ربوع المغرب الأقصى وحققوا لهذه البلاد وحدة دينية لم تتصدع اركانها فيما بعد .

وحوصلة الأمر هو أن الحركة المرابطية تركت أبقى آثارها على الدهر في دنيا الحضارة - وهو أمر غريب اذا نحن رجعنا إلى أصل هؤلاء الملتزمين المنحدرين من الصحراء وتذكرنا كساد بضاعتهم في حقل الخيال الخلاق . والواقع فإن المرابطين لم يعيشوا حضارة طريفة ولكنهم كانوا في غرب بلاد المغرب بأكملها رسلا ينشرون الحضارة الأندلسية ، ولعل مدينة فاس التي اقترن اسمها بالمرينيين تدين ليوسف ابن تاشفين وإلى ابنه أكثر مما هي مدينة إلى ملوك القرنين الثالث عشر والرابع عشر وكذلك الأمر بالنسبة لتلمسان والجزائر ومراكش . والمراجع

ان الرأي السائد هو أن هذه الحضارة المعمارية الناشئة مقتبسة في معظم جوانبها من اسبانيا المجاورة وليس معنى هذا أن أي اتصال لم يحدث من قبل بين الاسبان والمسلمين والمغاربة غير أن التأثير المتبادل الذي تم بينهم في عهد المرابطين لم يحدث من قبل البتة ، وهنا أيضا تعوزنا الوثائق .

وإذا نحن عرفنا كيف كانت تعيش إشبيلية في أوائل القرن الثاني عشر (ليني بروفنصال ، إشبيلية المسلمة في القرن الثاني عشر) فأننا لانملك شيئاً مضبوطاً عن الحياة اليومية في فاس أو مراكش فليس لنا إذن إلا أن نسجل التأثير الأندلسي من دون أن نقدر على دراسة أطواره .

وفي الجملة فمهما سطع نجم المرابطين فإن عهدهم لم يكن إلا تمهيدا للموحدين الذين سيجنون ثمرة ما بذله أسلافهم من جهود هامة وإن كانت عديمة الفعالية .

(2) ابن تومرت ، مهدي الموحدين

ابن تومرت :

بينما كان ما يسلطه علي من اضطهاد يرجح في الظاهر كفة المالكية المتطرفة ، كانت طائفة الموحدين تنظم صفوفها على أساس مقاومة المدرسة الفقهية العتيقة مما سيؤول إلى تقويض سلطان المرابطين ، ولم يكن انتصار هذه الطائفة انتصارا لنحلة علي أخرى فقط بل كان فوز القبائل الجبليين على الرجل الصحراويين وانتقاما متأخرا حققته زناتة المستوطنون بالمغرب الأوسط على صنهاجة .

ذلك أن ابن تومرت مهدي الموحدين نشأ بين جبال جنوب المغرب وبأطراف الأطلس على أغلب الظن وذلك في أواخر القرن الحادي عشر ، فقد كانت قرية ايقليز الصغيرة التي ربما أصبح أبوه سيّدا عليها مبنية في تراب قبيلة هـرّغة المنتشرة في المنحدرات الشمالية لجبال تلك الجهة في اتجاه وادي السوس ، وكانت عائلته المنتسبة إلى ارسقراطية القرية معروفة بالتقوى والورع ، لذا أظهر القوم فيما بعد براعة فائقة للرجوع به إلى نسب الرسول عن طريق الإدارة خاصة .

ولفت ابن تومرت الأنظار منذ نعومة أظفاره بتأجج عاطفته الدينية ، وكان ملازما للمسجد وأحاط بالعلوم في سن مبكرة مما قد يكون أضفى عليه لقب الصفو ، ولا بد أن ذلك أكسبه نفوذا أدبيا لدى أقرانه . وطبعاً كان سفر هذا العالم الشاب إلى المشرق حيث كان يروم مواصلة دراساته (بين 1105 و 1110) حدثاً عظيماً في القرية وحتى في القبيلة نفسها ويظهر أن مراکش لم تستوقفه طويلاً وليس لدينا ما يثبت أنه أقام بإسبانيا

فترة قيل إنه اطلع أثناءها على كتابات الفقيه القرطبي ابن حزم (المتوفى سنة 1064) ، وعلى كل فإنه يوجد بين الفقيه الظاهري ومهدي الموحدين وجوه شبه ليست ولا شك عضوية ، فكلاهما كان كارها للاجتهاد الشخصي الناتج عن الرأي وكلاهما كان لا يستند إلا إلى الكتاب والسنة والإجماع .

وفجأة نجد ابن تومرت في الشرق من دون أن تكون لدينا نصوص تسمح بمعرفة مراحل سفره . ولا نعرف لماذا لم يؤد فريضة الحج ، إلا أننا متأكدون من أنه أتم ثقافته ببغداد وربما في دمشق ، وهناك وطن نفسه على دراسة علم أصول الفقه الذي كان المالكية المغاربة لا يسألون به إذ كان همهم التفرغ إلى فروع الفقه .

وإذا كان ابن تومرت قد طالع كتب الغزالي فإنه ليس من الثابت أنه التقى بالامام كما أكدت ذلك الأسطورة فيما بعد ، غير أنه أكب بالخصوص على دراسة فقه الأشعري (873 - 935) مؤسس علم الكلام السنّي وقد وفق بفضل طريقة التأويل إلى تجاوز التناقض المقلق بين الإيمان بروحانية الله وتنزيهه وبين التجسيم الذي قد توحى به بعض الآيات القرآنية لذلك اعتنق ابن تومرت مذهب أبي الحسن الأشعري اعتناقا كلياً وانتصر له في المغرب .

وبعد عشرة أعوام من رحيله عن ايقليز أخذ طريق العودة إلى المغرب الأقصى وتوقف بالأسكندرية التي كانت آنذاك مركزاً نشيطاً للدراسة الأشعرية ولربما وصل إلى تونس عن طريق البحر ونزل بالمهدية . وستروي الأساطير أنه كسر دنان الخمر التي وجدها في المركب ووعظ البحارة فأقنع أشدهم تنظماً وذلك بعد أن هدأت عاصفة هوجاء استجابة لدعائه . ولا يستبعد أنه لم يجمع بين آراء ابن تومرت حينذاك نسق فكري متكامل وأنه لم يعتبر نفسه إلى ذلك الوقت الامام المعصوم وإنما كان يحصر واجبه في النهي عن المنكر ولاشك أن ثقته في فصاحته بلغت درجة أصبح معها مدفوعاً إلى الوعظ والإرشاد طوال مسيرته ولقد روى مريده البيذق أنه أنحى باللائمة على فقهاء تونس وعلم فقهاء قسنطينة أنه لا يمكن تسليط

عقابين مختلفين جزاء ذنب واحد ، ووبخ أعنف توبيخ أهل بجاية المبالين شديد الميل إلى تقليد مسلمي اسبانيا في فرط ترفهم وانحلال أخلاقهم .

وقد أثارت تدخلاته العنيفة من ردود الفعل ما حمله على الرخيل عن عاصمة بني حمّاد إلى ضاحية صغيرة تدعى ملالة ، وكانت خلوته مشمرة من ناحيتين ، ذلك أنها مكنته أولا من ضبط مذهبه عند اتصاله بطلبته وتوضيحه إياهم الغاية من رسالته ولأنها أتاحت له ثانيا فرصة الاتصال بالرجل الذي أرسله القدر لتحقيق مقاصده وهو عبد المؤمن .

عبد المؤمن :

إن الرجل الذي سيصبح خليفة المهدي أنجبه خراف بسيط من ندرومة وتوجد قرية تافرا مسقط رأسه في تراب قبيلة كومية الزناقية البربرية ، وتنسب الأساطير إلى هذا الطفل كرامات عجيبة منها أن خشارم من النحل وقع عليه من دون أن يلمسه وأن فقيها من تلمسان تنبأ له بأنه سيغزو بلاد الله جميعا .

وتعلم القرآن في مدرسة القرية ثم "بجامع تلمسان . وكان حسب البيدق شديد الذكاء يفهم عشرة مسائل في نفس الوقت الذي يقضيه الناس عادة لفهم مسألة واحدة وتعلقت همّة هذا الطالب الشاب باستكمال معارفه لدى مشاهير الشيوخ فيمسم شطر الشرق مزفوقا بعمه الا أنه لم يتجاوز بجاية ، واذا نحن نظرنا إلى اللقاء الذي تم بين ابن تومرت وعبد المؤمن من خلال تعاقب القرون وجدناه بمثابة المعجزة فكان عبد المؤمن تغشاه أحلام احتار في تفسيرها أما ابن تومرت فقد كان يحس بقرب ظهور المختار لقد تنبأ بالنصرواستشهد بقوله تعالى : « وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم » وأشار إلى القوم أنه سيجيئهم غدا رجل طالبا للعلم فمن صدقه نال السعادة والويل لمن كذبه . وما أن دخل عبد المؤمن حتى نطق الإمام المعصوم باسم أبيه واسم قريته ودعاه إلى العدول عن السفر إلى المشرق طلبا لمعارف بإمكانه أن يجدها في بلاده .

وإن قصة اعتناق عبد المؤمن لمذهب ابن تومرت كما يرويها صاحبه رائعة مؤثرة رغم بساطتها قال : « فلما جن الليل أخذ الإمام المعصوم

بيد الخليفة وسارا فلما كان نصف الليل ناداني المعصوم يا أبا بكر ارفع لي الكتاب الذي فيه الوعاء الأحمر فدفعته له وقال لي : أسرج لنا سراجا فكان يقرأه على الخليفة من بعده وأنا يومئذ ماسك السراج أسمعهم يقول لا يقوم الأمر الذي فيه حياة الدين الا بعبد المؤمن بن علي سراج الموحدين فبكى الخليفة عند سماع هذا القول وقال : يا فقيه ما كنت في شيء من هذا إنما أنا راجل أريد ما يطهرني من ذنوبي فقال له المعصوم : إنما تطهيرك من ذنوبك صلاح الدنيا على يديك ثم دفع الكتاب وقال طوبى لأقوام كنت أنت مقدمهم وويل لقوم خالفوك أولهم وآخرهم .

مذهب المهدي :

ولاشك أن هذه القصة جمعت محادثات جاءت مقتضبة بسبب ما كان لابن تومرت من نفوذ على مريديه ، ومهما يكن فإن عبد المؤمن عدل عن مواصلة سفره وبقي طيلة أشهر عديدة يتلقى العلم ليل نهار من المهدي الذي كان قد أكمل مذهبه آنذاك .

وفعلا فإنه يمكن ان نتبين من ذلك العهد نظرية أخلاقية وعقيدة دينية تبلورت بعدها بقليل آراء سياسية وتتميز النظرية الاخلاقية التي بدأ بها ابن تومرت حركته الإصلاحية بشدتها البالغة وحرصها الأكبر على الرجوع إلى المنابع الأصلية دون سواها ، أي القرآن وأحاديث النبي المدنية ، من ذلك أنه يأمر باجتناّب الاختلاط بين الرجل والمرأة ، والكف عن شرب المسكرات والابتعاد عن مختلف ضروب اللهو (الموسيقى واحد منها) ومقاومة تبرج المرأة الخ ... وإن شيئا من ذلك لا يعد جديدا من الناحية المذهبية ، غير أنه إذا صدقنا ما رواه البيهقي مما ذكره الاخباريون المتأخرون فإن سيرة أهل المغرب من تونس إلى مراكش كانت مغايرة لذلك ، ومعنى هذا أن ابن تومرت كان يدعو إلى اصلاح أخلاقي جذري يمكن تبين آثاره إلى اليوم في سكان إفريقيا الشمالية .

وترتكز عقيدته الدينية أساسا على التوحيد ولذلك سمي معتقو هذا المذهب بالموحدين أي الذين يقولون بوحداية الله وبما ان الله روح وجب تأويل ما ورد في القرآن من نسبة السمع والبصر إلى الخالق ، وكان من

الحتمي الحكم على المجسمين الذين يفسرون النصوص القرآنية بظاهرها وعلى المشركين الذين يصفون على الصفات الالهية (الرحمة والكرم والحلم) من الأهمية ما يجعل الله الواحد الصمد يبدو كأنه مجزأ إلى قوى عديدة مستقلة الواحدة عن الأخرى ، وأخيرا فإن وحدانية الله توجب الإيمان بقدرته المطلقة المفضية بدورها إلى القول بالقضاء والقدر فكل ما خلق إنما هو بعلم منه وقضاء وقدر ... وكل مخلوق ناله ما كتب له .

وليس في هذا كله ما يمكن ان نعتبره طريفا . وفي الواقع فإن ابن تومرت يجتنب الطرافة ويحتاط من الرأي ولا يعتمد الا أصول الدين المعروفة أي القرآن والسنة واجماع العلماء وفي ذلك ترديد لصدى الاتجاهات الفكرية الاسلامية السائدة في المشرق وخاصة منها مذهب الأشعري الذي قدم أفكارا تقليدية في ثوب جديد ، وفعلا فإنه يمكن أن نجد في كتاب ابن تومرت سلسلة من الاستدلالات المنطقية والمجردة القرية من أسلوب الأشعري ، الا أن الذي يتميز به ابن تومرت عن الفقهاء المشاركة ويجعله من المجددين حقا هو نشر مذهبه ، ذلك أن الفقهاء المشاركة ومن بينهم الغزالي نفسه كانوا مفكرين يعيشون في برجهم العاجي ولا يدور بخلداهم أن الجماهير في إمكانها أن تنتفع من تأملاتهم ، أما ابن تومرت فقد كان يرمي إلى نشر مذهبه على نطاق واسع فكان كثيرا ما يستعمل لهذا الغرض اللغة البربرية لأن العربية كانت قليلة الانتشار في المغرب الأقصى آنذاك ، ومن جهة أخرى كان يؤلف باللغة البربرية دائما رسائل صغيرة أو تأليف وصلتنا منها عينات ماسي (Massé) : شهادة المهدي وأيمته الروحانيون . لوسيانني : كتاب ابن تومرت (Luciani) .

وأخيرا فقد كان ابن تومرت يستعمل وسائل آلية للحفاظ قد تبدو لنا اليوم ساذجة ولكنها في الواقع ، تقرأ حسابا للمادة البشرية التي كانت تروم صنعها من ذلك أنه كان يسند إلى كل فرد من مجموعة ما كلمة من جملة تكون بمثابة الاسم له ويطلب بحفظها ، وفي كل يوم تقع مناداة جميع الأفراد فيفوه كل واحد منهم باسمه في ترتيب لا يتغير حسب نظام الكلمات. في تلك الجملة ولا تضي أيام قلائل حتى تكون الجملة محفوظة عن ظهر قلب ، اما آراؤه السياسية المركزة على

فكرة المهدي الشيعية والامام المعصوم فإنها لم تظهر إلا فيما بعد عندما رجع ابن تومرت إلى المغرب الأقصى واصطدم بسلطة المرابطين . ويظهر أنه حاول في أول الأمر جلبهم إلى الطريق المستقيم ثم إنه عندما تبين له إمعانهم في الخطأ لم يكتف بالتشهير بهم بل أورد حكم الرسول فيهم بالاستناد إلى أحاديث يكتنفها الغموض (كتاب ابن تومرت) ثم جاهر بالمهدوية .

تلك هي الدعائم الرئيسية لتفكير ابن تومرت كما تبدو من خلال النصوص الموجودة بين أيدينا اليوم ، وما لبث ابن تومرت أن جعل الدولة في مقام الأخلاق والتوحيد أو أكثر : فأصبح بذلك بطلا لقضية سياسية ودينية في آن واحد . أما في عهد خلفه عبد المؤمن فإن السياسة ستكون لها الأولوية .

تأسيس الطائفة الموحديّة :

لم يكن في الإمكان أن تتواصل الإقامة بملالة إلى ما لا نهاية له ولا بد أن ابن تومرت مثل جميع سكان الجبال كان يصغى لنداء المعالي ، واتفق أن مرّ من ذلك المكان حاجان من الأطلس في طريقهما إلى المشرق . فسألتهما بلغتهما لأنهما كانا يجهلان اللغة العربية ، ولا شك أنه تبين من أجوبتهما ما كان في نفوس بربر الأطلس من غضب دفين على المرابطين في البسائط ، روى البيهقي قائلا : « ولما جنّ الليل قال لنا عولوا على السير غدا إن شاء الله » وبذلك كان بدء السلطان الموحدي . وسارت القافلة الصغيرة التي لم يتجاوز عدد أفرادها أصابع اليدين في اتجاه الغرب مروراً بالونشريس وتلمسان ووجدة واجرسيف وفاس . وحيثما حلّ ابن تومرت أخذ ينهي عن المنكر من دون أن يظهر في مظهر المهدي . وكثيراً ما كان يفرض نفسه ويوفق إلى نصرة تعاليمه إلا أنه كان يلقي أحيانا معارضة سافرة مثلما حدث له في قرية بجهة تازا حيث هدده القوم بالضرب إذا هو لم يسارح المكان حالا . وفي مثل هذه الحال فإن ابن تومرت كان لا يتعنت بل يواصل سيره . أمّا في المدن حيث لا تشوب التقوى شائبة التعصب فإنه كان يجد مساندة من ذوي النفوذ المبهوريين بعلمه وفصاحته ولا شك أن حماية أحد أعيان فاس جنبته ما استهدف له

من عقاب عندما خرب دكاكين تجار آلات الطرب . وسرعان ما نزل المعصوم بمراكش مارا من مكناش وسلا .

واتفق أغلب الاخباريين على ان سنة 514 للهجرة (1120 - 1121) هي السنة التي وصل فيها ابن تومرت إلى مراكش وإلى حدّ هذه السنة فإنّه يصعب ضبط أي تاريخ في حياته : فلنا خمسة أو ستة تواريخ ولادة تتراوح بين سنة 1075 و 1097 وليس لنا ما يدلنا دلالة قاطعة على سنة رحيله إلى الشرق ولا على مدّة إقامته فيه وتاريخ عودته منه ولا على أهمية الفترة التي قضاها متنقلا عبر بلاد المغرب من المهدية إلى مراكش ، وأن البيذق صاحب المخلص الذي زودنا بمعلومات هامة عنه كان يجتنب في مهارة الدقّة في ذكر التواريخ . وهكذا نتيبن إلى أي حدّ يستعذر التمييز بين الأسطورة المشحونة تقوى وبين التاريخ الموضوعي . وفي مراكش تجلت في ابهى صورة خصال ابن تومرت كمصلح أخلاقي . فلقد روي أنّه لعن أخت الأمير نفسها لسفورها وانتقد الأمير لأنّه كان يحمل حجابا . ويؤكد كل المؤرخين أنّه دخل مع فقهاء المالكية في جدال كساد أن يؤول به إلى السجن .

ويبدو من الثابت أن ابن تومرت التقى بعلي بن يوسف الملك المرابطي وأنّه أخرج هذا الرجل الورع أيما إحراج فقد كان علي يرى بوضوح تام في ابن تومرت المشوش الذي يمكن أن يصبح خطرا عليه والذي عرف كيف يجعل لنفسه عيونا حتى في البلاط المرابطي ولكنه من جهة أخرى كان لا يملك عن الانبهار بتبحّره في علوم الدين وأصالة فضائله ، ثمّ إنه كان يشعر بتأثير شخصية هذا المتشرد العجيب وجاذبيتها فلم يتخذ قراره الحاسم في شأنه إلا بدافع من بعض مستشاريه . إلا أن ابن تومرت أخبر بذلك في الوقت المناسب .

ومرّة أخرى وجب استئناف الرحلة الطويلة . وتوغّات القافلة في الجبال يتعقبها أتباع الأمير . واضطر المهدي أيضا إلى مغادرة أغمات بعد إقامة قصيرة بها ولكنه أمكنه في آخر الأمر أن يحط الرحال في مسقط رأسه ويشرع في بثّ دعوته بين القبائل (1121 - 1122) ؟ ومضى يصلّي ويدعو إلى مذهبه طيلة ثلاث سنوات غير أنّه كان زعيما سياسيا بقدر ما كان

رجل دين . وما لبث نواب قبائل عديدة أن نادوا به إماما وأقسموا ألا يخذلوه ابدا في حربه المقدسة ضد المرابطين. ولما تقبل أيانهم أعلن أنه المهدي الإمام الظاهر المعصوم الذي بعثه الله ليقاوم الزيغ وينصر الإيمان الحق . وأضفى على مريديه المتصلين به مباشرة لقب الطلبة لأنهم كانوا يتلقون من لدنه العلم الصحيح ، أما الذين رضوه قائدا روحيا فقد تسموا بالموحدين . وفكر ابن تومرت في طريقة لإحكام دعوته بين سكان الجبال ونهضة هجومه على المرابطين فاستقر بتتمل (1125) وهي بلدة واقعة بمدخل سهل كالواحة في حصوبته في أعلى وادي نفيس وكانت تمتاز أولا بكونها في قلب قبائل مصمودة وثانيا بأنها موقع استراتيجي ممتاز (1125) .

نظام الطائفة :

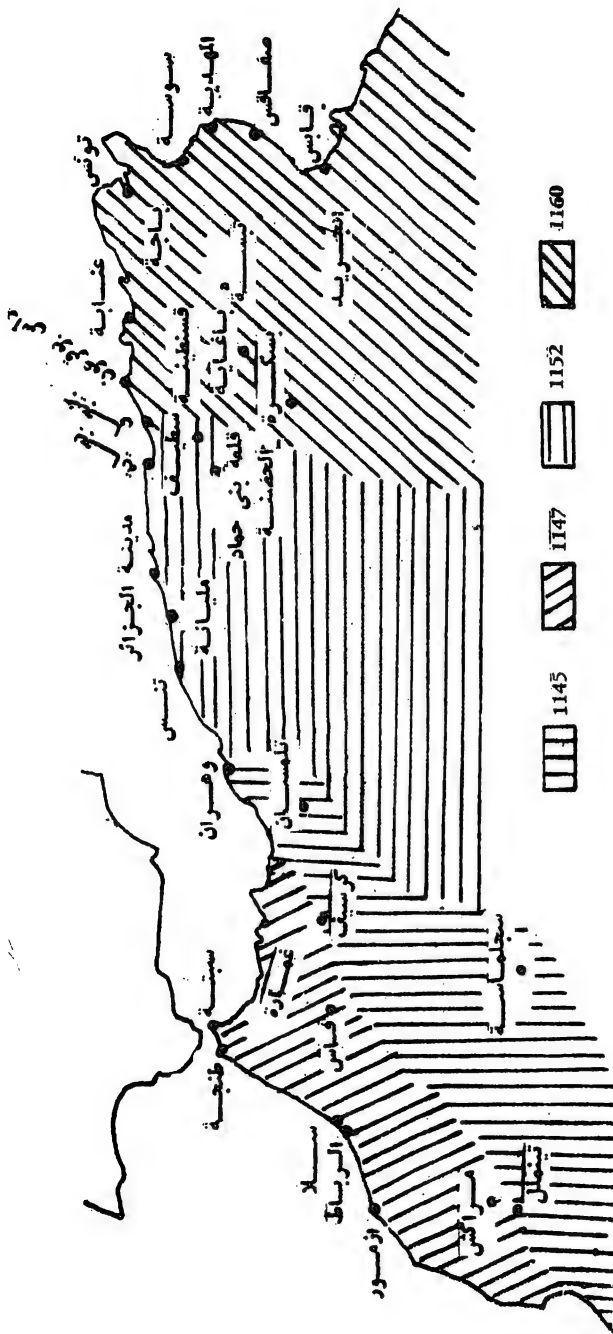
وفي تتمل سار ابن تومرت في حياته وتنظيم طائفته سيرة الرسول والصحابة بالمدينة ، فكان مثل الرسول ، الزعيم الروحي والقاضي والقائد للجيش ، إلا أنه سلك أيضا مسلك الزعيم البربري الذي يعرف أفراد عشيرته أحسن معرفة وينفذ إلى عقلياتهم ويفهم عاداتهم الاجتماعية والسياسة .

وفعلا فإنه وجب على ابن تومرت خلافا لما درج عليه يوسف بن تاشفين من اعتماد على مجموعة قائمة الذات من القبائل المرابطية أن يمارس خليطا من القبائل الغيورة على استقلالها المرهقة الحساسية ، الشديدة البنية في هيكليها الاجتماعي وميولها السياسية على نحو ما وصفه ر. مونتانيو في كتابه « البربر والمخزن في جنوب المغرب الأقصى » .

(R. Montagne - Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc)

فكيف السبيل إلى جعل هذه العناصر المتناثرة تحيا حياة سياسة مشتركة وتكون قوة لها من التماسك ما ييسر لها زعزعة السلطان المرابطي ؟

واستنبط ابن تومرت لحل هذه المشكلة نظاما اجتماعيا ليس لنا فيما يخصه الا معلومات قليلة وربما يظهر لنا لهذا السبب معقدا الى درجة قصوى ويمكن أن نبتين فيه العناصر الآتية :



شكل I3 - مراحل الغزو الموحدة

(1) أهل الدار وعددهم عشرون شخصا تقريبا (منهم إخوة ابن تومرت الثلاثة) وهم عبارة عن أركان حربيه ولا يرجعون بالنظر الا اليه .

(2) مجلسان مجلس العشرة ومجلس الخمسين ونظامهما مقتبس بطبيعة الحال من مجالس الأعيان التي تقوم بدور كبير في « الجمهوريات البربرية » فمجلس العشرة يتكون من أصحاب ابن تومرت العشرة الذين كانوا أول من بايعوه مهديا . ولئن لاحظنا بعض الاختلاف فيما وصلنا من قوائم الأسماء فإننا نجد فيها دائما اسماء عبد المؤمن وأبو حفص عمر الهنتاتي وهو من أول أعيان سكان الجبال الذين انضموا اليه بعد الهروب من مراکش وكذلك عبد الله بن البشير الونشريسي وهو من أول المريدين وقد انتخب من المغرب الأوسط . ويتكون من هذه الشخصيات العشرة شبه مجلس خاص كان المهدي يستشير في كل المسائل الهامة .

أمّا مجلس الخمسين فيتكون من نواب يمثلون أهم قبائل الجبال ويتفاوت عددهم بحسبها . وكان نشاط هذا المجلس دون نشاط مجلس العشرة بكثير فهو بمثابة مجلس استشاري .

(3) كانت القبائل تتفاضل حسب نظام ترتيبي مضبوط على الأقل بمناسبة الاستعراضات العسكرية وربما كذلك في مكانها من ساحة الوغى . وكانت قبيلة هرغة التي يتنسب اليها المهدي تأتي في المرتبة الأولى ، وقد انضم اليها عن طريق الولاء فيما يظهر بعض الشخصيات منها عبد المؤمن ، ويليها أهل تنملل ثم سائر قبائل الجبال الأخرى وأخيرا العبيد وهم في أغلب الظن من السود .

(4) وكان يوجد في صلب هذه المجموعات نظام ترتيبي آخر مرتكز لا على الانتساب إلى القبيلة بل على الوظائف التي يضطلع بها كل فرد . فكان المحتسب يأتي في المرتبة الأولى ولئن بقي دوره مجهولا لدينا فإننا نعلم علم اليقين أنه كان يعتبر رأس الجماعة . ونجد في المرتبة الثانية مزوار بالنسبة للرعيّل الأول من الموحدين ومزوار بالنسبة للتابعين ثم يأتي في المرتبة الثالثة السكاكون المكلفون بضرب السكة وربما بالجباية أيضا ، ويليهم الجند والمؤذنون والمجاربون (جيوش الرديف في أغلب الظن) والحفظة وأهل الحزب (المتربصون) وأخيرا الرماة وهم من المعتقين أو العبيد .

وكان هذا المجتمع المنظم على أساس تفاضل أصنافه خاضعا لقواعد مضبوطة وقد سيطر عليه المهدي سيطرة مطلقة . فكانت المواظبة على الرياضة الروحية إجبارية وكان كل من يزيع عن التعاليم الدينية يستهدف إلى الضرب بالسياط وحتى الموت . وحقا فإن خطب المعصوم كانت هدفها أن ترسخ في عقول البربر التشريع الإسلامي المناقض في بغض الأحيان لقانونهم إذ كان ، في دعوته ، رجل دولة بقدر ما هو رجل دين . وكان كل من لا يخلص كسامل الإخلاص للقضية يعامل معاملة الكافر وعلى هذا الأساس قام المهدي في « يوم التمييز » بتطهير جنزري في صفوف العناصر المشبوه فيها وأمر بإعدامهم جميعا وقضى بنفس الطريقة على قبيلة لا يؤمن جانبها . فكسب بهذه الأعمال الحازمة نفوذا على سكان الجبال .

وليس من المستبعد أن يكون ابن تومرت قد توخى سبلا أخرى للهيمنة على أتباعه ولقد بين لنا ابن أبي زرع في كتابه روض القرطاس وابن الأثير وكلاهما مناهض للموحدين كيف أن ابن تومرت وعبد المؤمن كانا يستغلان سذاجة العامة بضروب من الشعوذة الصيبانية . وأغلب الظن أن هذه الأخبار وقع تحريفها والمبالغة فيها لغاية في النفس . ولكنها ليست كاذبة بالضرورة لأننا نعرف من جهة أخرى أن ابن تومرت كالعديد من بربر الجنوب كانت قدمه راسخه في فنون الكهانة وأن لعمليات السحر مكانة كبيرة كما هو الشأن في وقتنا الحاضر في حياة الشلوح اليومية .

ومهما يكن فإن ابن تومرت توصل إلى إقامة دولة منظمة في جبال الأطلس بفضل موارد حاصلة من الضرائب وجيوش متعصبة ومستعدة لمحاربة المرابطين من دون هوادة فقد كان نصيب أول محاولة قام الصحراويون بها ضد الموحدين الفشل الذريع (1122) لذلك حصنوا مراکش وأغامت خوفا من هجمة سكان الجبال وحسنا فعلوا إذ أنهم دُحروا إلى عاصمتهم عندما قاموا بحملة ضد تنملل وضرب عليهم الحصار طيلة أربعين يوما وانتهى الأمر لصالحهم عندما خرجوا لمطاردة جيش الموحدين فهزموه وتقبل المهدي نبأ هذه الواقعة بجلد

كبير وعندما علم بنجاة عبد المؤمن أمر البيدق قائلاً : « ارجع اليه وقل له : الأمر باق ولا تجزعوا » (1128) .

ولمّا احسّ ابن تومرت بعد ذلك بأربعة أشهر بتداعي صحته تعلّل بحاجته إلى عزلة طويلة واعتكف بمنزله ولم تمض عليه أربعة أشهر (1127 - 1128 أو ديسمبر 1129) حتى قضى نحبه وأخفى القوم موت المهدي أكثر من عامين حسب تأكيد ابن خلدون خوفاً من أن يقصي الموحدون ، غداة الهزيمة ، عبد المؤمن الذي كان يعتبر رغم كل شيء غريباً عنهم ، ونفذ اتباع ابن تومرت وصيته بكل أمانة وحتى أبو حفص عمر وهو سيد بطن من أعظم بطون مصمودة ومن ساهم انضمامه منذ الساعات الأولى مساهمة كبيرة في نجاح الطائفة فإنه لم يعترض سبيل الخلف المعيّن بل إنه قام بعد موافقة مجلس العشرة ثم مجلس الخمسين بحملة دعائية بين الموحيدين فرضوا أن يقدموا يمين الولاء بين يسديه (1129 - 1130) .

(3) امبراطورية الموحدين

غزو المغرب الأقصى :

تلقب عبد المؤمن بخليفة ابن تومرت على غرار أبي بكر خليفة محمد . ويظهر انه ما ان تقلد الحكم حتى أضفى على نفسه لقب أمير المؤمنين أولقبه بذلك أصحابه . واستبقى التنظيم الذي سنه المهدي وسار على استشارة المجالس ولكنه لم يتمتع بما كان يتمتع به المعصوم من نفوذ أدبي على قبيلة مصمودة بل إنه اضطر إلى إحباط المؤامرات وإلى إحاطة نفسه فيما بعد بحرس منتخب من انصاره .

وبادر عبد المؤمن بتطبيق خطة الجباليين المعهودة التي كان أوصى بها المهدي لمساعدته بقوله « لا تنزلوا إلى السهل واتركوا العدو يصعد إليكم بنفسه » ثم قام بغزوات خاطفة مكنته من الكشف على نقاط ضعف الخصم . وقرر في آخر الأمر الهجوم على أعدائه فاحتل أولاً المقاطعات الجنوبية في المغرب الأقصى وتحول شيئاً فشيئاً إلى الشمال من دون أن يغادر الجهات الجبلية لأن جيش المرابطين لم يزل على خطورته ثم توغل حتى بلغ وادي ورغة والريف واحتلها من دون مقاومة وترك سبته جانبا ثم استغل الصراع القائم بين القبائل فتابع سيره نحو الشمال الشرقي . وحاول العاهل الجديد تاشفين بن علي التصدي له بالاعتماد على الكتائب المرابطية والجرس النصراني الذي كان يقوده الربرتير وبعض حلفائه من زناقة بالمدد الموجه من بني حماد . غير أن الربرتير هلك في إحدى الوقائع ويقال إن سرور الموحدين كان عظيماً عندما صلبوا جثة الكافر (1144 - 1145) . وبموت هذا القائد فقدت جيوش المرابطين انسجامها إذ أعوزتها القيادة بحيث إنها قصرت عن الصمود في وجه

الكتائب الموحدية التي جمعت بين الحماس والانضباط والوقوف عند ارادة عبد المؤمن المتبصرة ، ولما اندحر تاشفين إلى سهل وهران بعد انهزامه قرب تلمسان لم يتمكن من الهروب عن طريق البحر . وبينما كان يسير ليلا تردى به فرسه من بعض الحافات فقطع الموحدون رأس جثته وحنطوه وبعثوا به إلى تلمل وانتهت بنهاية آخر ملك مرابطي جدير بهذا الاسم هيمنة الصحراويين القصيرة وذلك تحت ضربات قبائل الأطلس . ومرة أخرى ينتهي الصراع الدائم بين البدو والحضر بانهيار أمبراطورية والتمهيد إلى قيام أخرى (22 فيفري 1145 ؟) .

ولم تنته الحرب بموت تاشفين حتى في غرب بلاد البربر ذلك أن القوم نصبوا ابنه في مراكش وهو لا يكاد يبلغ سن المراهقة وترك الخليفة لأحد أعضاده مهمة فتح تلمسان فهجم على فاس واستولى عليها بعد حصار دام تسعة أشهر ثم تحول إلى مراكش فدخلها عنوة وحكم فيها السيف (1146) .

ولما انتصر الموحدون ناشد العاهل المرابطي الشاب عبد المؤمن أن يرحمه وكاد أن يعطف عليه لولا أن صاح أحد رفقاته في وجهه قائلا : « أيها الموحدون هذا عبد المؤمن يقف ضدنا . إنه يريد تربية اولاد الأسود » . وفي الأثناء كان أحد الأمراء المرابطين يبصق في وجه الأمير الشاب ويوبخه قائلا : هل إنك تناشد أباك أو من هو أدعى إلى الرحمة بك ؟ كن شجاعا مثل الرجال » . وكان هذا الموقف آخر مظهر تجلت فيه شهامة المرابطين قبل انقراض دولتهم .

إلا أن استيلاء عبد المؤمن على مراكش لم يكن حاسما في كسب النصر : ذلك أن ثورات خطيرة ما لبثت أن اندلعت في السوس أولا ثم على طول سواحل الاطلسنيق حيث حملت فلول برغواطة السلاح وأشعلت نار التمرد بين جيرانها بني دكالة . ومن حسن حظ الموحيدين أن هذه الثورات لم تكن منسقة ولا حدثت في وقت واحد ، وما أن شارفت سنة 1148 على النهاية حتى أصبح المغرب الأقصى بأكمله تحت نفوذ الدولة الجديدة .

دخول الموحدين إلى إسبانيا :

دعي الموحدون إلى اسبانيا قبل استيلائهم على مراكش من طرف من ثاروا على المرابطين . ولم يجلدوا كبير عناء للانتصاب في الجزء الغربي من الأندلس ولم تكن لهم خطة مسبقة لأنه حتى لو سلمنا كما هو محتمل جدا بان عبد المؤمن كان راغبا في طرد المرابطين من اسبانيا كما فعل في المغرب فإنه كان أكثر حذرا من أن يطلب هذه الغايات في نفس الوقت . واقتصر على ارسال بعض الجيوش بامرة أخوين لابن تومرت فسلكا في إسبانيا سلوك الغزاة بحيث أثار الموحدون عليهم حفيظة جميع أهل الأندلس واضطروا إلى التخلي عن جزء من مواقعهم ولم يدعوا من جديد لنجدة الأراضي الإسلامية الا عندما شن عليها الفسوس الثامن القشتالي حملته الشعواء وكانت نجدة الموحدين في الوقت المناسب إذ كان الملك النصراني محاصرا لقرطبة . واقتبل عبد المؤمن وفدا من أعيان غرب الأندلس جاؤوا لمبايعته ملكا عليهم (1150) ، غير أن الأمر لم يتجاوز أن كان نوعا من الحماية الغامضة المحدودة .

الاطاحة بمملكة بني حماد :

توغل الموحدون في تلمسان ووهران في أول حملة قاموا بها فيما وراء نهر الملوية . وبعد ذلك بسبع سنوات توّجت حملة ثانية بالاطاحة بمملكة بني حماد وكانت بجاية العاصمة الجديدة التي أسسها الناصر (1062 - 1063) قد أصبحت منذ أن استعاض بها خلفه المنصور عن القلعة (1090) من بين أعظم مدن بلاد البربر . قال الإدريسي إبان صولة الموحدين : « ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة الغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد والسفن إليها مقلعة وبها القوافل من محطة والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع بها نافقة واهلها مياسير تجار وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد . وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق وبها تحل الشذوذ وتباع البضائع بالأموال المقنطرة ولها بواد ومزارع والحنطة والشعير بها موجودان كثيران والتين وسائر الفواكه بها منها ما يكفي لكثير من البلاد وبها

دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن والحرايب وبها معادن الحديد الطيب » .

وكانت بجاية كذلك في مستوى عاصمة ثقافية فقد أحصى مؤرخ من مواليدها تراجم مائة وأربعة من مشاهيرها في الفقه والطب والشعر وعلوم الدين .

ومعلوم أن الذي صدم ابن تومرت في أهل بجاية خلاعتهم ، إذ كانوا يرتدون أزياء خاصة ويتبرجون مثل النساء ويحبسون الموسيقى ويشربون الخمر . وكانوا نساء ورجالا يختمون شهر رمضان بالاختلاط في ساحة المدينة ولم تكف هيبته المهدي ولا سياطه لتقويم أخلاقهم . وكانت مملكة بني حماد قد ازدهرت بالرغم من توغل الهلاليين ازدهارا كبيرا في عهد المنصور . فقد عزز السلطان كتائبه الصنهاجية والزناقية بالمرتزقة العرب لمقاومة المرابطين واستحوذ على تلمسان فوضع حدا لزعجهم نحو الشرق كما استطاع أن يفتك عنابة وقسنطينة من زيري ويقمع ثورات البربر .

وأخذ نجم بني حماد في الأفول بعد موت المنصور ولئن تمكن العزيز (1104 - 1121) من احتلال جربة ودحر العرب من جبال الحضنة فان ابنه يحيى (1122 - 1152) الذي كان يقضي حياته بين القنص والنساء لم يقدر على صدّ هجوم شنه جند من جنوة على بجاية (1136) . وكان طبعاً أعجز من أن يوقف زحف الموحيدين .

أما عبد المؤمن الذي تعززت جيوشه فقد قرّر بعد أن أمسك بزمام الأمر في إسبانيا مؤقتاً أن يضرب ضربته الحاسمة في المغرب الأوسط فاتجه بسرعة وفي كنف السرية نحو بجاية ودخلت طلائع جيشه بدون عناء مدينة الجزائر وبجاية وكان يحيى قد فرّ منها ثم استولى ابنه على القلعة وخرّبها (1151) .

صمود الهلاليين :

أدرك العرب الخطر . فلقد وجدوا أمامهم « القبائلية » منظمين أحكم تنظيم ، قادرين على أن ينتزعوا منهم ما كسبوه من منافع بسبب

ضعف الحكومات القائمة . وتجاوز مشايخ إفريقية خصوماتهم إلى حين ووجدوا صفوفهم لحر العدو إلى وطنه الأصلي بمحض قواهم فتجمعوا قرب باجة واتجهوا في غير نظام نحو بجاية . وكان عبد المؤمن قافلا إلى المغرب الأقصى فانقلب على عقبيه في متيجة واستدرج العدو حتى استشرى سطيف . وكان الهلاليون شاعرين بأن الصدام سيكون مصيريا فأخذوا معهم نساءهم وأولادهم ليكونوا رهان المعركة وقيدوا إبلهم حتى لا تحدثهم أنفسهم بالرجوع القهقري ودامت المجزرة أربعة أيام تمكن بعدها الموحدون بفضل انضباطهم من الانتصار ولذا العرب بالفرار يتعقبهم اعداؤهم إلى أن بلغوا تبسة (1152) ولم يجنح عبد المؤمن إلى أعمال انتقامية ووزع الغنائم على أصحابه ولكنّه ردّ إلى المهزومين عائلاتهم وعامل مشايخهم عند استقبالهم بمراكش بما يفرضه مقامهم .

من الموحيدين إلى بنى عبد المؤمن :

وإذا جاز لنا الاعتماد على التواريخ التي لا يزال يكتنفها الغموض فإن عبد المؤمن اختار ذلك الظرف بالذات للاستئثار بالحركة الموحدية لفائدة عائلته . فهل صدرت المبادرة منه أو من بعض الشخصيات الموحدية أم هل أوحى له بذلك قواد من العرب أصبحوا يخضعون لسلطانه ؟ وعلى كل فإن عبد المؤمن قبل بدون تردد تعيين ابنه أبي عبد الله محمد خلفا له عوضا عن الشيخ أبي حفص عمر الذي سبق تعيينه من قبل . وبعد ذلك بقليل أي في سنة 1156 (راجع رسائل رسمية عدد 13 و 14) وزّع عبد المؤمن على بقية أبنائه أهمّ ولايات الأمبراطورية . وكان كل واحد منهم محفوا طبعاً بشيخ من الموحيدين مكلف بتكوينه . ومن ذلك التاريخ تم التمييز رسمياً بين الأسياد أي سلالة عبد المؤمن والمشايخ أي سلالة سائر كبريات العائلات الموحدية .

والغالب على الظن أن المؤسسات التي استنبطها المهدي بقيت من دون أن يطرأ عليها تغيير في الظاهر إلا أنها أصبحت في الواقع بدون محتوى . فقد حلّ نظام ملكي موقوف على عائلة واحدة لا يستسيغه البربر محل ما استنبطه ابن تومرت من نظام طريف يتمثل في جمهورية

فيديرالية ارسقراطية يظهر أنقها نالت استحقاق هؤلاء البربر . وققتصر معلوماتنا حول ما أدخله عبد المؤمن من تغييرات في نظام المهدي على كتاب «الحلل الموشية» المجهول المؤلف والمتعلق بصنف الحفظة الذين لم يبقوا في عهد عبد المؤمن . مجرد حفظة للقرآن بل وصفهم لنا المؤلف وهم يتعلمون ركوب الخيل ويتمرنون على السباحة والرماية ويتلقون تكويننا عاما شاملا ، ممّا يوجي الينا بوجود مدرسة لإطارات . ولقد أدرك معاصرو عبد المؤمن تمام الإدراك مغزى الاجراءات التي اتخذها . ولئن تقبل أبو حفص عمر وأغلب مشايخ الموحدين الأمر الواقع بين الرضى والسخط فإن عددا منهم لم يخفوا تمردهم وخاصة أخوي المهدي عبد العزيز وعيسى اللذين فرّا من فاس حيث كانا في الإقامة الجبرية وحاولا الاستيلاء على مراكش (راجع البيدق ورسالة رسمية عدد 1) ولكن عبد المؤمن كان رجل الحزم فلم يلبث أن توصل إلى فرض النظام الجديد .

حالة بلاد البربر الشرقية والوسطى - النصارى والهلالين :

لم تكن هزيمة سطيف النكراء لتضع حدا لزحف الهالين . فلقد اكتفى الخليفة بتسمية وال على بجاية ثمّ قفل راجعا إلى المغرب الأقصى . ولئن لم يصب كتلة زناقة بالمغرب الأوسط أذى كبير فقد دها طرابلس وإفريقية من المصائب ما يصعب تلافيه . ففي طرابلس تمكن الغزاة من تعريب قسم من البربر ولكنهم ظلوا عرضة لهجمات قبائل الجمالة التي كان من العسير ملاحقتها . وأوشكت الفلاحة حول المدن ان تنقرض وكسدت سوق التجارة خاصة وتناقص نشاط المواني بسرعة وخلت برقة من أهلها أو كادت . ولم تسلم إلاّ المدن المحصنة مثل لبدة أو المدن التي ربطت نفسها بمواثيق مع البدو مثل اوجلة (جنوب برقة) التي أبقى عليها العرب للاستفادة من نشاطها البحري وأصبحت البلاد من طرابلس الى الجريد أثرا بعد عين . غير أن المواني الموجودة في الساحل الشرقي من إفريقية عرفت كيف تدافع عن نفسها وهضمت قابس اسيادها الجدد من بني جامع الهالين (1099) الذين ساروا حتى غزوة الزمان سيرة رؤساء الحضرمهم ضمان الازدهار الاقتصادي لممتلكاتهم ، وغايتهم تحسينها . وظلت زراعة النخيل على عنفوانها واستبقت التجارة المحلية حيويتها وبقيت

المدن الساحلية المحصنة في مأمن من الخطر العربي إلى أن وقعت في أيدي النصارى . وكان روجر الثاني الكونت النورمانى صاحب صقلية المتولى آنذاك على مسينا حاول أن يتمركز بسواحل إفريقية للسيطرة على التجارة بالبحر المتوسط . ولكنه لم يفلح (1118 - 1127) ولقد ذهب به الأمر إلى محاولة تنظيم حملة صليبية إفريقية بالتعاون مع كونت برشلونة ومدينة سافونة ، ولكن رغبته في الاستيلاء على الدول النورمانية الأخرى بجنوب إيطاليا وخصومته مع البابا صرفتاه مؤقتا عن ذلك . فلما منحه البابا لقب ملك (1130) صح منه العزم على تنفيذ مشروعه الذي لم يزل منشغلا به . وعهد من حسن حظه بقيادة حملاته إلى أمير البحر جورج الانطاكي الذي كان انصرف هو وأخوه عن خدمة الأمير الزيري بالمهدية ووضع تحت تصرف روجر معرفته الواسعة للغة العربية وخبرته بالسواحل الإفريقية واستغل روجر ما كانت عليه إفريقية من اضطراب لفرض حكمه على المهدية والاستيلاء على جربة (1134) . ومن هذه الجزيرة سدد أسطوله ضرباته على جيجالي (1143) (Djiddjelli) وعلى الموانىء الصغيرة الموجودة بين شرشال وتونس وكذلك على جزر قرقرنة وطرابلس (1196) . ولقد دفعه تمكنه من طرابلس إلى ارساء احتلاله على قواعد دائمة فركز حامية في كل ميناء . واستولى اثناء السنتين التاليتين على قابس والمهدية و صفاقس وسوسة فوضع بذلك حدا لسلطة بني زيري . وامتد سلطانه من طرابلس إلى تونس . وظلت صفاقس تعيش بصيد الأسماك وبما تبقى لها من زياتين أما سوسة فكان موردها التجارة والمنسوجات . وحصر ملك « الصقليين » همه في بسط نفوذه للاستحواذ على إفريقية تاركا للاهالي في الجهات المحتلة أمر إدارتهم محترما لعاداتهم من دون أن يتدخل في خصوماتهم الدينية .

ولئن احتفظت المدن الساحلية بشيء من أبهتها القديمة فإن القيروان كانت في حالة احتضار . فكان الحضر الذين ارهقتهم ضرائب البدو يفارقون مدنهم . وأصبحت المنصورية و رقادة أثرا بعد عين . وخرب العرب سهول الوسط وغربي إفريقية واستولوا على قرطاج وسهول باجة الخصبة . أما تونس فإنها استطاعت رغم خلافاتها الداخلية وعدم استقرار حكوماتها أن تنظم مع القبائل القوية المجاورة لها مبادلات تجارية

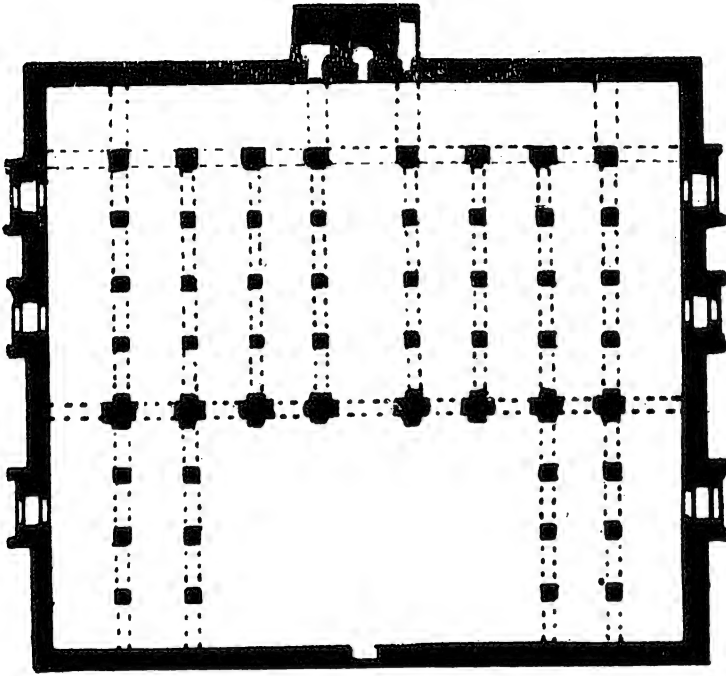
وتنمي بذلك ثروتها . وكان تزويد الجريد بالقمح رهن مشيئة البدو الذين فرضوا هيمنتهم على باغاية واستحوذوا على أراضي الزاب بعد أن اطرادوا منها ملاكيها البربر . وكان الناس لا يخرجون من المدن من دون أن يعرضوا بأنفسهم إلى الخطر غير أن هذه الزحفة لم تتجاوز الحضنة والبابور ورأس بوقرعون .

وكانت مدن نوמידيا أقل تعرضا للخطر من مدن إفريقية بل إن قسنطينة أبرمت اتفاقا مشمرا مع البدو غير أن انخام الأمن تفاقم في البلاد كلها .

ولم يقم من طرابلس إلى الحضنة نظام موحد فكانت العلاقات بين البربر والعرب تتغير بحسب القوى المتقابلة . فإن سيطر البدو على سهل باجة سيطرة كاملة وجعلوا من الملاكين القدامى عبيدا فإنهم فرضوا على أهل باديس (على سفح الاوراس) وباغاية حماية باهظة الثمن وقتية إلا أنها تيسر للتجارة والفلاحة بعض النشاط . وفي المدن المنيعه الواقعة شمالي القلعة فإن المصالحة التي تفرض دفع الدية لأهل القتل لاتنفذ إذا كان القاتل من العرب . ولم تقدم على التعاون التجاري والفلاحي مع البدو من دون محاربة جديّة سوى تونس وقسنطينة لما كانتا تتمتعان به من وضع ممتاز .

احتلال إفريقية :

كان الهالبيون مسؤولين بصفة غير مباشرة عن هجوم النصارى . لذلك لم يبقوا مكتوفي الأيدي . ولئن بدا شعورهم الديني فاترا إذا هو قورن بتدين المرابطين والموحدين فإنه على كل حال تأجج عند احتكاكهم بالكفار حتي أنهم رفضوا الاستعانة بروجر الثاني على الموحدين سنة 1151 . ثم إنهم حاولوا مساندة الاضطرابات التي أثارها الضباط في أرض النصارى عندما أمروا بالتمرد على الموحدين غير أن حماسهم لم يصل بهم إلى درجة الاستغناء عن المنح التي كان يغدها عليهم الزمان وسواء أيدوا مرامي الموحدين أم خشوا كارثة جديدة كالتى نكبوا بها في سطيف فإنهم على كل حال لم يقفوا في وجه الحملة



شكل : I4 رسم مسجد تنملل يبهر الناظر من اول وهلة تناسق المبنى ونظامه •

التي قام بها عبد المؤمن لغزو إفريقية بل إن أهم قوادهم انضموا إلى الموكب حسب ما رواه مؤرخ عربي .

وإذا صدّقنا ابن الأثير فإن غزو إفريقية قد تمّ إعداده منذ وقت طويل وبالفعل فإن دخول النرمان إلى المهديّة كان سنة 1156 . وسرعان ما أرسل سكان عاصمة بني زيري القديمة المسلمون ، بعد أن لجؤوا إلى زويلة المجاورة لهم ، وفدا إلى عبد المؤمن يلتمس منه إعانتهم على الرجوع إلى مدينتهم . وحظي مطلبهم لديه بكل عناية لكن انقضت أكثر من سنتين لإعداد العدة قبل أن يشن عبد المؤمن هجومه الذي صمم على أن يكمله بالنصر وغادر مراكش على رأس جيش عظيم بينما كان أسطوله يمتلئ بالبحار صوب الشرق (1159) . وكان قد وضع على طول الطريق أكواما من الحبوب لتموين جيشه . وبهر السكان بانضباط جيوش الموحيدين . ووضع وصولها إلى إفريقية حداً للفوضى وأخضع عبد المؤمن الإمارات التي ظهرت على أنقاض امبراطورية بني زيري بين تونس وسوسة ثمّ ضرب الحصار على المهديّة . ومرت شهور طويلة ولم تجنح المدينة إلى استسلام مشرف (22 جانفي 1160) إلّا بعد حصار شديد وبعد انهزام أسطول جاء من صقلية لنجدها . وبسقوطها انتهى الوجود النرمانى بإفريقية ولم يحاول ملك صقلية ردّ الفعل البتة وكان القوم في بلرم يرون من الحكمة عدم المجازفة بالدخول في حرب مع السلطان الموحيدي في وقت كانت فيه المملكة أحرص ما تكون على الاحتفاظ بكامل قواها لمجابهة الأمبراطور بربروسا الذي كان يهدّد وجودها بالخطر .

وكان فتح عبد المؤمن لإفريقية حدثا بالغ الأهمية في تاريخ المغرب : ذلك أن هذه هي المرة الأولى التي تعرف فيها هذه البلاد منذ أحقاب وأحقاب وربما منذ فجر التاريخ الوحدة السياسية تحت سلطة زعماء أنبتتهم تربتها وأن هذا التوحيد الذي كان شرع فيه الفاطميون بفضل قبائل كتامة صنعه سكان الجبال الحضر ، غير أن عبد المؤمن اتخذ في نفس الوقت الذي أنجز فيه هذا العمل العظيم قرارا سيّساهم في خسارته . لقد كان شاعرا بقوة العرب البدو في إفريقية فأراد أن يكسر شوكتهم ويحشد الحشود في الوقت ذاته لفتح اسبانيا ولربما كان

يرغب في الاعتماد على رجال مخلصين له يحتاجهم عند الحاجة لتدعيم دولته الفتية . لذلك حوّل بالقوة إلى المغرب الأقصى عددا من القبائل العربية ووطنها في السهول الاطلنطية التي خلت من أهلها بعد إبادة قبائل برغواطة ودكالة التي كانت تمردت قبل ذلك باثنتي عشرة سنة .

وهكذا فإن عبد المؤمن في الوقت الذي حقق فيه انتصار البربر الحضري مكّن العرب البدو من غربي البلاد فنشروا في تلك الربوع نمط حياتهم وأشاعوا فيها عاداتهم الفوضوية .

القلاليل باسبانيا ، ابن مردنيش :

وضعت الاخبار الواردة من اسبانيا حدا لإقامة الجيش الموحدّي بإفريقية .

ولاشك أن الحماية الموحدية على غرب الأندلس كانت تدعمت ، غير أن سائر البلاد وخاصة شرق الأندلس (Levante) كانت خارجة عن سلطة عبد المؤمن وكانت تكون دولة مستقلة يحكمها منذ زمن يصعب ضبطه إسباني من أصل نصراني يدعى ابن مردنيش (? Martinez) وكل ما يمكن تأكيده بدقة هو أن عبد المؤمن كان دعاه منذ سنة 1153 إلى الاستسلام (رسالة رسمية عدد 10) . وعوض أن يدخل ابن مردنيش في طاعة الموحدين ناصبهم العداء فعقد المعاهدات مع جيرانه ملوك النصارى واستغل انصراف الخليفة إلى فتح إفريقية للتوسع في ممتلكاته نحو الغرب وتهديد قرطبة . وما كان عبد المؤمن وهو في أوج عظمته ليسمح بمثل هذا الموقف فعبر بنفسه لأول مرة المضيق ومكث شهرين في جبل طارق لإصدار تعليماته على عين المكان (1161) .

وتمكن الموحدون بعناء من دحر ابن مردنيش نحو الشرق وافتكالك غرناطة التي كان استحوذ عليها على حين غرة من دون أن يستطيعوا القضاء عليه (1162) . وأبى عبد المؤمن أن يرضى بهذا النجاح المنقوص : فاستعان بابنه أبي يعقوب يوسف بعد أن أمر القوم بمبايعته عوضا عن محمد الذي اعتبره غير جدير بالحكم وتمركز في أول سنة 1163 بحصن رباط الفتح الذي كان أمر ببنائه منذ سنة 1150 وحشد فيه جيوشا جرارة

وجمع اسطولا عظيما (راجع روض القرطاس) استعدادا للانقضاض على اسبانيا ، ولكن موته حال دون ذلك اذ ختمت أنفاسه برباط الفتح في شهر ماي 1163 .

حكم الخليفة :

لم يقصر عبد المؤمن طموحه على الفتوحات بل أراد دائما أن ينظم البلاد التي يتم استيلاؤه عليها . وجاء في القرطاس أنه قام سنة 1159 « بتكسير (Arpentage) بلاد المغرب وافريقية من برقة إلى بلاد نول من السوس الأقصى بالفراسخ والأميال طولا وعرضا » واستثنى من هذه المساحة الثلث المتكوّن من الجبال والأنهار والسبخات والمسالك والقفار ، أمّا الثلثان الآخران فقد وظف عليهما الخراج وضبط لكل قبيلة ما يجب عليها دفعه من الحبوب والأموال . وكانت هذه بدعة في بلاد البربر .

وإن هذا المسح لبلاد المغرب الذي يعد استنباطا وفق اليه رئيس دولة حريص على ضمان مداخل الجباية كان يستمد شرعيته من تصور الخليفة للدين ، فقد كان عبد المؤمن يعتبر الطائفة الموحدية دون سواها مسلمة بحق ويكفر ما عداها من المسلمين ، وحتى الموحدين المتهمين بفتور عقيدتهم فكانت الطائفة تعتبر نفسها محقة في انتزاع أملاكهم وجعلها أحباسا وجبر المقيمين فيها على دفع الخراج . وكانت الدولة تستأثر بجزء كبير من هذا الخراج الذي كان كافيا مع بقية الضرائب الشرعية لسد حاجات الخزينة .

غير أن كل القبائل لم تكن مطالبة بالخراج . ولم يكتف عبد المؤمن وخلفاؤه بحشر البدو في الجيوش المقاتلة بإسبانيا بل استعملهم شرطة في بلاد البربر . وهكذا انتصب قسم من بني هلال على أراضي الطائفة بالمغرب الأقصى وأسند لبني عبد الواد من زناقة جزءا من البلاد الواقعة بين مينا والملوية ، ونزلت قبيلة أخرى في جهة بجاية ولم تكن هذه القبائل « المخزنية » معفاة من الخراج فقط بل كانت هي التي تستخلصه من بعض القبائل الحضر وكانت تملك عبيدا يخدمون أراضيها وتتصرف في

المراعي بكل حرية . إلا أنها كانت مقابل ذلك مطالبة بالخدمة العسكرية ، ومنها تكون جيش الموحدين .

أبو يعقوب يوسف :

ومهما كان نفوذ عبد المؤمن فإنه كان يقرأ حسابا لحساسية المشايخ وتأثيرهم للاطمئنان على خلافته . واضطر إلى التراجع في القرار الذي اتخذه لفائدة أحد أبنائه ولتعيين ابنه أبي يعقوب يوسف خلفا له . وترك لنا الاخباريون روايات كثيرة متضاربة حول تولي أبي يعقوب الخلافة . وقد أورد ابن خلدون نفسه روايتين مختلفتين لهذا الحدث : فمنهم من يقول إن العاهل الجديد بويح من دون صعوبة تذكر ، ومنهم من يؤكد أنه اصطدم بمعارضة كادت تكون سافرة من أبي حفص عمر وعدد عديد من مشايخ الموحدين وأنه لم يتلقب بلقب خليفة إلا بعد خمسة أعوام من وفاة والده إثر انتصاره على بني غمارة المتمردين . وتؤيد الرواية الثانية تأييدا كبيرا الرسائل الرسمية الموحدية التي نشرها ليفي بروفنسال (Levy Provençal) (انظر الرسالة عدد 24) .

لقد كان عبد المؤمن ملكا عظيما فاتحا نشيطا ذا آراء طريفة وصارمة في الشؤون الإدارية وكان صائبا في أحكامه . وترك لابنه أمبراطورية ممتدة الأطراف تشمل كافة بلاد المغرب وجزءا كبيرا من إسبانيا المسلمة .

وآبى أبو يعقوب (1163 - 1184) أن يترك هذا السلطان يتدهور بل انتصح بنصيحة أبيه واستمد جيوشه من القبائل العربية التي كانت تمثل طاقة لم تقل منها صروف الحرب وبفضلها أعاد الكرة على مردنيش الذي رجع إلى مناوشة الموحدين بالاعتماد على ملوك أرغون وقشتالة وبرشلونة النصارى (1170) . وذهب ابن مردنيش ضحية خيانات عائلته ولقي حتفه أثناء حصار مرسية ومهد ذلك إلى انتصار أبي يعقوب . ودخل أولاد المتمردين خدمة الخليفة وانضوت إسبانيا الإسلامية بأجمعها تحت سلطة الموحدين (1172) .

اندلاع الثورة في بلاد المغرب :

لم يظهر أبو يعقوب حزمه في إسبانيا فقط بل أتيحت له الفرصة كذلك في بلاد المغرب . وفعلا فإنه ما أن مات عبد المؤمن حتى تمردت غمارة في شمال المغرب الأقصى وجرّوا وراءهم جارتهم صنهاجة . ولم يتمكن أبو حفص عمر من اخماد نار الثورة التي انتشرت من سواحل البحر المتوسط إلى ورغة . واضطر أبو يعقوب في آخر الأمر إلى الاشراف بنفسه على سير العمليات فتم قمع سكان الجبال سنة 1167 (رسالة رسمية عدد 24).

وما كاد الأمر أن يستتب له في هذه الجهة حتى اضطر إلى صرف اهتمامه إلى الطرف المقابل من المغرب : ذلك أن سكان قفصة الذين استنزفهم اسيادهم الموحدون شقوا عصا الطاعة وأمروا عليهم رجلا من سلالة الدولة التي كانت تحكمهم قبل الفتح الموحد . وفي هذه المرة أيضا كانت المواجهة ضعيفة جدا في أول الأمر : ثم إن المتمردين كانوا يجدون تشجيعا من مغامر أرمني الأصل يدعى قراقوش استقر بطرابلس ابتداء من سنة 1172 وكان ينوي ولا شك الاستيلاء على إفريقيا . وام تخمد نار الثورة إلا بعد أن حاصر أبو يعقوب قفصة واستحوذ عليها (1180) . ورغم أن الخليفة نقل إلى المغرب الأقصى عددا من العائلات العربية من قبيلة رياح المتمردة فإنه ترك بلاد البربر الشرقية وهي تعاني مرارة المجاعة وتشكو انخرام الأمن بسبب قطاع الطريق وتستعد دائما لاحتضان القواد الذين كانوا يدعون إلى التمرد .

الجهاد في إسبانيا :

وما كاد أبو يعقوب ينتصر على ابن مردنيش حتى اتفق مع النصاري على هدنة تدوم سبع سنوات . وتم في الجملة احترام هذه الهدنة طيلة بضعة أعوام ثم خرقها النصاري الذين أصبح يتزعمهم ألفونسو التاسع صاحب ليون . وكان أبو يعقوب منشغلا بشؤون إفريقيا فلم يرد الفعل في أول الأمر ، وفي سنة 1184 قام بهجوم على مدينة شنترين حيث استشهد وهو في السادسة والأربعين من عمره وقد خلفه ابنه أبو يوسف يعقوب من دون صعوبة ولم يتجاوز سنه الخامسة والعشرين تقريبا وقد لقب فيما بعد بالمنصور .

ثورة بني غانية :

كان شرقي بلاد المغرب وأوسطها يعانيان ويلات البدو الذين ما انفكوا يوالون هجماتهم . وكان زمام الأمر يفلت فيهما شيئاً فشيئاً من أيدي الموحدين فكانت المغامرة العجيبة التي قام بها فارسان من ميورقة عاملاً جديداً من عوامل الانحلال . ولم يكتف بنو غانية المرابطون بإنشاء إمارة في الجزائر الشرقية (Les îles Baléares) لفرض غرامات على النشاط التجاري بالبحر المتوسط . ولم يكونوا ليجهلوا ما كانت تستهدف له إفريقية من ثورات ولا ما كان يساور سكان عاصمة بني حماد القديمة من غضب أو ما كانت تشكوه الحاميات الموحدية من ضعف . وفجأة نزل علي بن غانية على رأس أربعة آلاف من المثلثين قرب بجاية واحتل البلدة بدون عناء (13 نوفمبر 1184) ولم يجد صعوبة في كسب تأييد أمراء بني حماد المخلوعين وخاصة قبائل بني هلال . وما لبث أن دخل عنوة الجزائر العاصمة ومليانة وقلعة بني حماد بمعونة العرب ثم ضرب الحصار على قسنطينة . وكان على الخليفة الجديد أن يبذل مجهوداً جباراً في المغرب الأوسط بعد أن عاد الأمر إلى نصابه في إسبانيا لاسترجاع هذه المدن وفك الحصار على قسنطينة واضطرار علي وأخيه يحيى إلى اللوذ بالجريد . وشاءت الأقدار أن تدفع ببني غانية إلى جهة كانت متهتة أكثر من غيرها لتحقيق مطامحهم . ذلك أنهم وجدوا قبائل مناوئة للوجود الموحي واستطاعوا أن يربطوا الصلة مع جند قراقوش التركماني الذين سيطروا بعد علي فزان وطرابلس بالاعتماد على بني سليم وهي قبيلة كبرى من البدو لم تدخل من قبل بلاد المغرب .

وقد احتل علي وقراقوش إفريقية باستثناء تونس والمهدية وذلك بمقتضى سلطات استثنائية عهد لهما بها الخليفة العباسي . وتمكن المنصور على رأس جيش صغير منضبط من إلحاق الهزيمة بهما قرب فاس والاستيلاء على قفصة التي سيطر عليها شديد العقاب لتورطها مع المرابطين ثم نقل إلى المغرب الأقصى عائلات القبائل العربية الثلاث جملة ولم يدم هذا الانتصار طويلاً . فقد كانت وضعية إفريقية الشاذة تحول دون اعتماد أسياذ المغرب الأقصى على ولائها . وظهر بالجريد يحيى

الذي خلف أخاه عليا واستعان ببني سليم للتخلص من جند قراقوش التركماني وكان التحالف معهم شديداً الوطأة عليه ثم دخل المهدية وكان يحكمها أمير موحدي استقل عن الخليفة وحصن قابس التي جعل منها عاصمة له ، واحتل باجة وبسكرة والقيروان وعنابة وافتك في آخر الأمر مدينة تونس (1203) . وهكذا استقام له ، بالاعتماد على جيش معظمه من كتائب بني سليم وبني هلال العربية ، أن يؤسس في بلاد البربر الشرقية أمبراطورية مرابطية تمتد من عنابة إلى جبال نفوسة وتوغغل جنوباً حتى بسكرة.

الأرك (Alarcos)

واكتفى المنصور بأن قام بحملة محدودة في الزمن بإفريقيا . والواقع أن المغرب الأقصى وخاصة إسبانيا كانا شغله الشاغل . ولقد وجد عند اعتلائه العرش الوضع بإسبانيا صعباً إذ أن الفونس الثامن ملك قشتالة نجح بمعية ملك أراغون في اغتصاب كونكة من الموحيدين بعد حصار طويل (1177) بينما كان ملك ليون بضد التوغل في إسترمدورا (Estramadure) وكانت هذه الانتصارات مدعاة إلى شن هجوم شامل على المسلمين . واكتسح أسقف طليطلة (Tolède) القائد الحربي والشخصية الكنسية معا مقاطعتي قرطبة وجيان (Jean) على رأس فرسان القنطرة الذين تأسست جمعيتهم منذ قليل وقد أذنت كارثة شنترين (Santerem) بانتهاء عهد أبي يعقوب . واقتصر الخليفة المنصور على تدارك الموقف بسرعة . ثم لما انتهى من إفريقية أعدّ العدة للأخذ بالثأر . فحاول الفونس درء الخطر وطلب من المجالس الاعتمادات لمواجهة المعركة القادمة واستنجد بليون ونافار غير أنه لم يتصل بالإعانات التي كان يعول عليها بل إنه لم يستطع استغلال إمكانيات قشتالة العسكرية كلها . ورغم ذلك فإنه لم يتردد في الرمي بجيشه الذي كان يعوزه التنظيم والانضباط في وجه الجيوش الموحدية التي ألحقت به هزيمة نكراء بالأرك غربي موقع سيوداد (Ciudad réal) الحالي فيسير للمنصور حينذاك أن يواجه حملاته ضد طليطلة ومجريط (مدريد) والقلعة وكونكة .

الامبراطورية الموحدية في عهد المنصور :

يعتبر غالب الاخباريين العرب عهد يعقوب المنصور أزهى عهد الامبراطورية الموحدية. ومنذ سنوات قليلة أي في سنة 1941 خصه محمد الرشيد مولين وهو مؤرخ مغربي بدراسة باللغة العربية عنوانها «عهد المنصور الموحدي». وإذا استثنينا تمرد بني غانية الذي سرعان ما تم إخماده بصورة مؤكدة على الأقل فإن عهد المنصور امتاز في الواقع بالهدوء، فلم تشر القبائل حتى في الوقت الذي كان فيه المرابطون يحاولون استعادة سلاسلهم ولم يكذب ينشب خلاف بين أفراد العائلة الحاكمة ولم يصدر من مشايخ الموحدين أي رد فعل وكأنهم اعتبروا تفوق بني عبد المؤمن أمرا واقعا، وانتشرت ألوية السلام «وكانت فترة تستطيع فيها امرأة أن تسافر من برقة إلى وادي نون من غير أن يضايقها أو يكلمها أحد».

وكانت كذلك فترة ازدهرت فيها حركة تشييد المعالم الموحدية التي بدأت في عهد عبد المؤمن وكانت مساجد كبيرة تشيد وأخرى تدهش. وقامت مدينة جديدة عملاقة حول حصن رباط الفتح. وأنجزت بمراكش أشغال ذات مصلحة عامة : من قنوات لجلب المياه وبناء مستشفى وتعبيد طرقات. وكان الأمير واسع الثقافة مولعا بشؤون الفكر فعج بلاطه بالشعراء والعلماء والفلاسفة وسطع فيه نجم ابن رشد قبل أن يتنكر له الدهر إلى حين. وبينما كانت الامبراطورية الموحدية في ازدهار اعترتها تغيرات جذرية عجلت بزوالها، وليس لنا عن ذلك سوى معلومات ناقصة وغير دقيقة في بعض الأحيان مما يضطرنا إلى الاكتفاء بالفرضية دون اليقين. غير أنه من الثابت أن يعقوب المنصور انشغل أيما انشغال بالمذهب الموحدي الذي كان فقد من حيويته عندما صار في عهد أبيه وجده «المذهب الرسمي» وأرجع له عفوانه. فأمر اليهود بحمل زي خاض واضطهد المالكية وأحرق كتبهم (أورد المراكشي قائمة المؤلفات المالكية التي رآها بنفسه تتآكلها النيران بمدرسة فاس) وضايق الفلاسفة. ولم يقف الخليفة عند هذا الحد بل نادى بوجوب الرجوع إلى أصلي الدين : القرآن والسنة دون سواهما بما في ذلك المهدي نفسه كما لاحظته المراكشي. بل أكد الخليفة المأمون الموحدي فيما بعد

ضمن رسالة وردت في كتاب « الحلل الموشية » المجهولة الكاتب أن المنصور كان ينفي في سرّه نظرية ابن تومرت وأنه لو لم يعاجله الموت لصدع برأيه . ولئن أعوزتنا الحجج لتأكيد ذلك أو نفيه جاز لنا على كل حال الاعتقاد بأن شيئاً من التملل ساد مراکش في السنوات الأخيرة من عهد المنصور وأن مقومات المذهب الموحدّي لم تسلم من الطعن .

الخليفة الناصر :

ولم يكن خليفة المنصور في مستوى يؤهله لمعالجة مثل هذه الأزمة الخطيرة . ويمتاز وصف المراكشي لمحمد الناصر (1199 - 1214) بما درج عليه الاخباريون المغاربة من وصف دقيق موح للموكلهم : فانظر كيف تحدث عن هذا الملك الشاب وهو في الثامنة عشرة من عمره : « كثير الإطراق شديد الصمت ، بعيد الغور . كان أكبر أسباب صمته لثغا كان بلسانه ، حلما شجاعا ، عفيفا عن الدماء ، قليل الخوض فيما لا يعنيه جدا » . ويمكن أن نضيف إلى ذلك ما جاء بالقرطاس لابن أبي زرع : « لاتكاد تصله الأمور الا بعد الجهد [معجب] برأيه مستبد في أموره وتديبر مملكته بنفسه » . وهكذا فإن امبراطورية ممتدة الأطراف ، أشد ضعفا وأقل انسجاما مما تدل عليه الظواهر ، ورثها شاب خجول ميّال إلى العزلة

خضوع إفريقية - وحكم أبو محمد بن حفص :

لقد نال انتصار الموحدّين في الأرك مؤقّتا من طاقة النصارى على الصمود . فاغتنم الخليفة الناصر الفرصة لتركيّز جهوده على مقاومة المرابطين ببلاد البربر الشرقية التي ضاق سكّانها ذرعا بطغيانهم . واسترجع أسطوله مدينة تونس ودخل جيشه قفصة ثمّ المهديّة . ولاد يحيى بالصحراء بعد أن انهزم في واقعة حامية الوطيس .

ورأى الناصر أنه لايمكن لإفريقية أن تصمد في وجه المرابطين من جديد الاّ إذا أسندت مقاليدها إلى أيّد من حديد . فلم يختر من بين أفراد عائلته الوالي الذي كان يريد أن يضعه في مقام نائب الملك بل

عين الشيخ أبا محمد الذي علا شأنه أيما علو بعد انتصاره على الفونسو القشتالي وعلى يحيى . واكتسى هذا الاختيار أهمية بالغة نظرا إلى أن أبا محمد هو ابن لأبي حفص الذي لولا ولاؤه لما تيسر لعبد المؤمن أن يصبح خليفة . ويؤكد مؤلف عربي أن الناصر لم يظفر بموافقة الشيخ إلا عندما صرح له أنه يعتبره ندا له وأنه لا يتأخر عند الاقتضاء في التخلي عن الحكم بمراكش لفائدته . ومعنى هذا أن الحفصيين كانوا يتمتعون بمرتبة ممتازة جدا ضمن الطائفة مما حفز الخليفة على خصمهم بمكانة مرموقة في الامبراطورية . ولم تكن المسؤولية التي اضطلع بها أبو محمد هينة . فقد وجب التصدي إلى الهجومات المتوالية التي كان يوعز بها يحيى المتدفع نشاطا وحيوية ، وكذلك مواجهة عرب جيش الموحدين بعرب من قبائل معادية وعندما خفق انتصاره بشيرو (قرب تبسة) بإعانة بني سليم التجأ يحيى إلى المغرب الأوسط فعاث عرب جيشه وزناقة معا في البلاد فسادا بعد أن تخلصوا من وطأة الصنهاجيين . ولم تقم لتلك الجهة قائمة بعد ذلك . ولا حظ ابن خلدون بعد مرور قرنين بقوله : « فلم تبصر بها نار ولا لفحت لها بنافخ ضربة ، ولا صرخت لها آخر الدهر دبكة » . ولم يلعب يحيى ورقته الأخيرة ببلاد البربر بل في طرابلس حيث طارده أبو محمد . وقد انضم إليه مشائخ القبائل العربية التي كانت تخشى أن يحول الحكم الحازم بإفريقية دون الانتجاع والنهب . وكانت واقعة جبل نفوسة يوما من أخطر أيام العرب ببلاد البربر . ووضع بدو جيش المرابطين عائلاتهم وأموالهم رهانا للمعركة : فخسروا كل شيء ولم يجدوا بدا من أن يسلوذوا بالفرار نحو الجنوب (1209) غير أن يحيى لم ينته أمره . فلما أطرده من إفريقية وطرابلس تمكن من صلب حليفه السابق قراقوش والاستيلاء على ودان (في واحة جفرة) والواحات المجاورة (1212) في انتظار الفرصة المؤاتية للظهور من جديد ببلاد المغرب التي كان أبو محمد حينذاك حائلا دونها .

وهكذا أصبحت إفريقية في مأمن من خطر المرابطين إلا أن الثمن كان يتمثل في استقلال الوالي استقلالاً يكاد يكون كاملاً . واتضح أكثر من ذي قبل أن هذه المقاطعة كانت بعيدة جدا عن مراكش وأن مراسها من نوع خاص بحيث كان يتعذر أن يكون للخليفة عليها سلطة حقيقية .

ومن جهة أخرى أكد تعيين حفصي على رأس تونس أن نفوذ مشايخ الموحدین ظل قويا وأنه كان يتعزز ولا شك بضعف شخصية الخليفة .

العقاب Las navas de tolosa

كان الخليفة يعتمد كل الاعتماد في مقاومته للمرابطين على الشيخ الحفصي خاصة وأنه كان مشغلا كليا بشؤون إسبانيا . وكان الفونسو يعد العدة للأخذ بالثأر بعد هزيمته بالأرك . فاستنجد بكل ملوك إسبانيا وبملك البرتغال وحتى بالبابا الذي دعا إلى حرب صليبية ضد الموحدین .

ولبى الدعوة فرسان ومغامرون أتوا من كل صوب وحذب . وأدرك الناصر خطورة الموقف فغادر مراکش وترأس بنفسه اركان الجيش (فيفري 1211) . ودامت الحرب مدة طويلة وكانت الكارثة في النهاية ذلك أن جيش النصارى الجرار الذي ساهمت فيه إسبانيا كلها ما عدا ليون ، عبر جبال قرطبة (Sierra morena) وألحق بالموحدين في العقاب هزيمة حاسمة (16 جويلية 1212) ولم يتوقف النصارى عن زحفهم الكاسح نحو الجنوب الا بسبب انتشار وباء الطاعون . وحاول اللواء أبو سعيد تدارك الموقف فحالفه التوفيق أول الأمر ولكنه مني بهزيمة جديدة (1213) وبعد عام مات ألفونسو بينما أخذت دولة الاسلام في إسبانيا في التصدع .

تصدع الأمبراطورية :

لم يكن الخليفة في مستوى يمكنه من السيطرة على الموقف . فرجع إلى المغرب وتنازل على العرش لفائدة ابنه يوسف المستنصر ولقي حتفه في ظروف لاتزال إلى اليوم غامضة طالما ان روايات الاخباريين تختلف الواحدة عن الأخرى (ديسمبر 1213 أو جانفي 1214) . وكان المستنصر (1214 - 1224) في السادسة عشرة من عمره غارقا في ملذاته فئات كنفاه بثقل المسؤولية ولئن خفت عنه وطأة إفريقية بإسنادها إلى أبي محمد فقد افلت زمام المغرب الأوسط من يديه عندما أصبح مرتعا لزناتة ، بل إن بني مرين الخاضعين حتى ذلك العهد إلى سلطة الموحدین، تطاولوا

في المغرب الأقصى ذاته فوجهوا عصابات لنهب البلاد بلغت التل . وزاد موت أبي محمد (1222) الطين بلة ، وعين مجلس الحكومة ابنه خلفا له ولكن الخليفة كان يتوجس خيفة من استقلال الحفصيين فاستقدمه وأحل محله واليا عاجزا . واستغل يحيى الظرف فظهر من جديد في ربوع المغرب الأوسط وظل يناوش السلطة طيلة عشر سنوات واقتصر نشاطه في آخر الأمر على مجرد أعمال ارهايية (1226 - 1237) .

وحدثت حزازات بين المشايخ في أواخر العهد الموحيدي (1224 - 1226) فتمسكوا بالتقاليد واشتروا في الخليفة بيعة الخاصة وبيعة سلالة عبد المؤمن معا ، ويجدر أن نذكر أن المتهافتين على السلطان كانوا يكسبون ود القبائل العربية المستقرة بالمغرب الأقصى مما جعلها بالرغم عنها تقوم بدور متزايد الأهمية في الحياة السياسية التي كان يكتنفها الغموض حينذاك وهكذا تبسر شيئا فشيئا لهؤلاء العرب الذين لم يكذب يمر على وجودهم بالبلاد ثلاثة أرباع القرن أن يصبحوا قوة سياسية لها تأثير حاسم أحيانا على الأحداث وسبقي كذلك حتى مطلع القرن العشرين .

وقضى أبو محمد عبد الواحد خنقا (1221) ومات خلفه العادل غرقا في بركة بالقصر (1227) وطالب بالخلافة في الأندلس المأمون أخو العادل وفي مراكش يحيى بن الناصر مرشح المشايخ . وأتاحت الحرب الأهلية للنصارى التدخل في شؤون المغرب . فزود الملك فريديناد الثالث (Ferdinand III) المأمون باثني عشر ألف فارس لفتح مراكش (1130) وكان انتصار المأمون إيذانا بشن حملة شعواء ضد الموحدين . إذ أمر بتقتيل المشايخ وعائلاتهم واتخذ قرارات سياسية مناقضة لما سنه أسلافه وتبرأ من أعلى منبر القصبية من مذهب المهدي ولم يتردد في لعنه وأعلن عن اعتناقه مذهب السنة .

ودفع المأمون ما كان بذمته من دين نحو ملك قشتالة فسمح بتأسيس كنيسة نوتردام حيث تمكن النصارى من إقامة شعائهم على مرأى ومسمع من المسلمين . ولئن هدمت هذه الكنيسة منذ سنة 1232 فإن الأسقفية بمراكش بقيت على نشاطها حتى القرن الرابع عشر ما وجدت قوات مسيحية متمتعة بحق أداء واجبها الديني على الأقل بصورة خاصة . بل إنه تعهد بالحيلولة دون ردّة النصارى المنضوين تحت لوائه بينما كان لا يمانع

في اعتناق رعاياه للمسيحية عند الاقتضاء . وهل من دليل أقوى على ما دها الدولة الموحدية من تهافت منذ سنة 1228 من قبول عاقلها لمثل هذه الشروط؟

وغنم فرديناد الثالث غنما ثانيا من هذه الأزيمة إذ أنه لما أصبح ملكا على قشتالة وليون معا ، لم يواجه دولة موحدية متكاملة بل إمارات إسلامية صغيرة بيلنسية ومرسيي وأرجونة (في الشمال الغربي من جيان قرب أندو جر) . فأعلن صاحب مرسية عن تبعيته (1241) مع العلم أنه أعظم ملوك هذه المدن الثلاث والحاكم على كامل جهة الجنوب الشرقي (من لقت (Alicante) إلى الحامة (El Hama) والتمس ملك أرجونة (Arjona) التحالف معه وكان اتخذ غرناطة عاصمة له (1246) . ولم تمض ستان حتى سقطت إشبيلية وأصبح فرديناد سيدا على أسبانيا المسلمة كلها باستثناء مملكة غرناطة ، حيث أمكن للدولة بني نصر أن تدوم قرنين ونصف وأن تسطع فيها الحضارة الأندلسية بآخر أنوارها ومات فرديناند في الوقت الذي كان يتهيأ فيه للتزول بالمغرب الأقصى (1252) وبه انتهت الفترة البطولية من « استرداد » (La reconquista) الممالك الإسلامية بإسبانيا

واستهدف السلطان الموحي في بلاد البربر إلى ضربات لا تقل قساوة عما دهاه بالأندلس فقد اغتنم يحيى غياب الخليفة الذي كان مشغولا بحصار سبتة كما استغل ما أثارته آراؤه تجاه المذهب الموحي من معارضة فاستولى على مراكش . ولقي المأمون حتفه وهو في طريق العودة إلى عاصمته (1232) واضطر ابنه الشاب الرشيد (1232 - 1242) إلى مواصلة الحرب ضد يحيى ولم يسترجع عاصمته إلا بعد اغتيال منافسه .

ونتيجة للثورة التي أحدثها النزاع على الحكم تصدعت وحدة الامبراطورية التي كانت أخذت الهزائم بإسبانيا منها مأخذا . فقد أعلن أمير تلمسان يغمراسن بن زيان عن استقلاله وأسس مملكة بني عبد الواد الزناقية (1235 - 1236) في إفريقية فقد قطع الوالي الحفصي أبو زكريا صلته بالخليفة (1228) ثم تلقب بالقب أمير واتخذ مدينة تونس عاصمة له (1236 - 1237) .

وفي سنة 1238 اعترفت إشبيلية بالرشيد خليفة. وبعد أشهر أبرم ابن الأحمر من بني نصر صاحب غرناطة اتفاقا مع عاهل مراکش . ويتبين من كل هذا مدى الغموض الذي كان يسود أشلاء الامبراطورية الموحدية . وتفاقم الأمر في عهد السيد (1242 - 1248) إذ وإلى الحفصيون هجوماتهم حتى بلغوا تلمسان بينما تسرب بنو مرين حتى مكناس وجمعوا الضرائب حيثما استقام لهم الأمر وحينئذ بذل السيد أكبر مجهود وآخره للرجوع بالامبراطورية الموحدية إلى ما كانت عليه من شأن على الأقل في بلاد المغرب . وقرر أن يواصل السير إلى تونس وأجبر بني مرين على مصالحته وحتى على تزويده بكتيبة رزية ، وكان في الحسبان أن يسحق بني عبد الواد سحقا ولكنه وقع في كمين وقتل . وولى الجيش على أعقابهم نحو المغرب الأقصى وكان بنو مرين في انتظاره عند مروره من الملوية إلى أجرسيف : فقصوا عليه القضاء المبرم وما لبثوا أن استولوا على فاس ولم يسبق من الحكم الموحيدي إلا شبحه .

واضطرب عمر المرتضى (1248 - 1266) الذي كانت ممتلكاته يحدّها من جهة الشمال أم الربيع إلى دفع إتاوة لانقاذ مراکش (1262) وبينما كان الموحدون يتخبطون في خضم كل هذه المخاطر زادت خلافاتهم العائلية الطين بلة . فلقد انضم أبو دبوس ابن عم المرتضى إلى العدو وخلع الخليفة وحلّ محله (1266) فتعلل المريني بخيانة حليفه وبادر باحتلال مراکش وبذلك دالت الدولة الموحدية (سبتمبر 1269) .

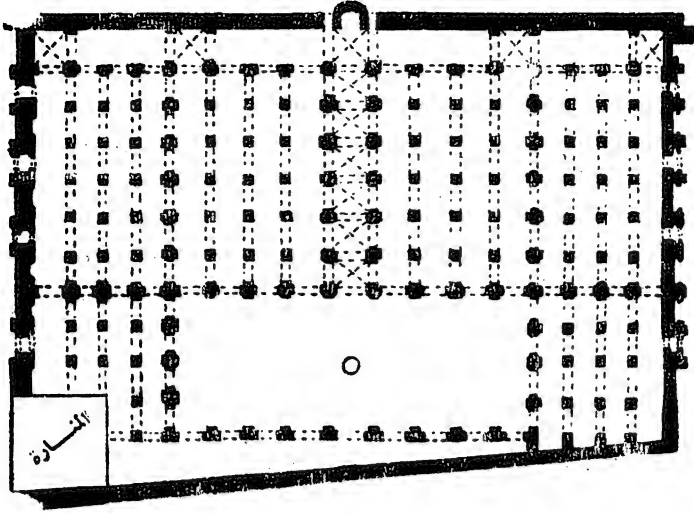
(4) الحضارة الموحدية

الخلفاء :

بدا سلطان الموحدين خطرا على الحضارة ذلك أن المهدي كان لا يتسامح في مجال العقيدة الدينية وينكر الاستهتار في اللباس ويأمر بتحطيم آلات الطرب . وقد جاء في « القرطاس » أن أول ما قام به عبد المؤمن عند دخوله فاس تجميع الزخارف المنحوتة والتذهيبات الموجودة في الجامع الكبير . ومن الممكن أن يكون الموحدون في أول عهدهم قد جرموا زخرفة المعالم لأنها لا تتماشى مع نزوعهم إلى التقشف على أنه لو فرضنا أن ذلك كذلك فإن مثل هذه المشاعر سرعان ما تضاءلت أمام مقتضيات السلطة وخاصة عند الاحتكاك بالوسط الأندلسي .

فلقد أذن عبد المؤمن ببناء عدّة مساجد كثيرة الزخرف ومنها بناؤه مرآتين للكتبيين إذ هدمت الأولى بأمر منه نظرا لوقوع خطيئ في وجهتها وكذلك مسجد تنمل . ولم يحظ الشعراء بدعوة عبد المؤمن الا في أواخر أيامه بينما كان مقيما في إسبانيا .

وابتداء من عهد « أبو يعقوب » أصبح من المتعذر فصل إسبانيا عن المغرب أو بالأحرى المغرب عن إسبانيا التي أصبحت مقبرهم المفضل فقد نزع ابن عبد المؤمن عنه ثوب التعصب الديني . وأصبح يؤثر اشيلية عاصمة الملذات على قرطبة كعبة رجال الفكر . وكان رغم ذلك ولوعا بالثقافة حتى أنه أثار بتجره في الفلسفة تعجب ابن رشد عند اجتماعه به أول مرة وكان يأنس بمجلس ابن طفيل إلى حدّ أنه كان يبقى بالقصر في مجلس السلطان أياما وليالي من دون أن



شكل 15 - رسم جامع الكتبية بمراكش .

يظهر للناس حسب ما رواه أحد مريدي هذا الفيلسوف . وأمر ببناء الجامع الكبير بإشبيلية ووضع أسس منارته جيرلدا الشهيرة وخط بمراكش موضع القصبة وأقام أسوارها وشيّد فيها قصرا وقد عفا أثرهما اليوم .

وكان المنصور مثل والده متشعبا بالثقافة الأندلسية ، ولم يكن قائد جيوش فقط بل كان بناء يرجع إليه الفضل في تشييد مسجد القصبة بمراكش ومجموعة الأسوار والأبواب العظيمة الموجودة بالرباط ومسجد الحسن الممتد الأطراف بالرباط أيضا الذي لم يقع إتمامه . وانتشر الفن الأسباني الموريسكي في بلاد البربر بفضل الخلفاء الموحدين . أما البربر والعرب الذين تكونت منهم جيوش الاحتلال بمدن إسبانيا فإن التأثيرات الأندلسية وجدت اليهم سبيلا هم أيضا .

النشاط الاقتصادي :

لمعت الحضارة الأندلسية حينذاك لمعانا زاد تألقا باستتباب الأمن الذي حققه الموحدون عند ممارستهم للحكم . فقد وضع الخلفاء حدا للفوضى

المالية التي سادت في عهد ملوك الطوائف وشجعوا الزراعة في « بلاد البركة » كما وصفها كاتب عربي من القرن الثاني عشر . وظلت الصناعات مزدهرة ونفقت تجارة دود الحرير في جيان . وعمرت لقنت بعدد من دور الصناعة ، وبلغ عدد مناسج الحرير ثمانمائة بالمرية التي كانت تنتج كذلك آلات من النحاس والحديد .

وكان لهذا النشاط الصناعي أثره في المغرب فكانت سبتة مثل شاطبة (Jativa) مشهورة بصناعة الورق المعروف بالسبتي وعلى غرارها كانت فاس عامرة بالطواحين لنفس الإنتاج .

وكانت التجارة نشيطة جدا واشتهرت لقنت والمرية وقرطبة بأسواقها ولم تقتصر اسبانيا على تزويد المغرب الأقصى بما تنتجه غاباتها من خشب بل كانت تصدر اليها كذلك الحبوب والمصنوعات والكتان والمتوجات الشرقية وأدخل الموحدون تغييرات على نظام السكة الذي سنه المرابطون ورسموا « في دائرة الدينار شكل مربع في وسطه وملىء من أحد الجانبين تهليلا وتحميذا ومن الجانب الآخر كتباً في السطور باسم المهدي واسم الخلفاء من بعده » ، واختاروا وحدة سكتهم ضعف ما كانت عليه لثمانل في وزنها الدينار القديم .

ولم تناجر بلاد المغرب مع اسبانيا فقط بل إن تونس وبجاية وقسنطينة ووهران وتلمسان وسبتة (حيث كان يوجد فندق مرسيللي سنة 1236) كانت تتبادل البضائع مع بيز (Pise) وجنوة (Génes) والبندقية (Venise) ومرسيليا . وكشفت لنا النصوص التي شرحها أ. أ. سايوس (E - A - Sayous) عن الطرق التي كان يتوخاها تجار افريقية في المضاربات التي كانوا يعقدونها مع النصارى .

كان المسلمون أول من نظموا أساليب تجارتهم حسب مقتضيات السوق العالمية فلما جاء عهد الموحدين حسّنوا طرقهم فاقبسها منهم النصارى . ولم تنفك الروابط والمبادلات بين النصارى والمسلمين في اطراد رغم فوارق الدين بل رغم تكاثر القرصنة التي أفلت زمامها من الملوك الأفارقة ولم يقتصر التجار النصارى في القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث

عشر على المجيء إلى تونس والمتاجرة بها بل استقروا فيها . وكانوا يشترون من بلاد المغرب خاصة جلود الضأن والمز والشمع ويبيعون بها الأقمشة والمنتجات الشرقية وحتى الخمر .

وكان تجار بيز أكثرهم نشاطا إذ تمكنوا من إبرام اتفاق لتأمين أشخاصهم وبضاعتهم بعقد اتفاق بسيط (1157) . وخصص لهم فندق لإيداع منتوجاتهم وغوملوا معاملة حسنة .

وفي مطلع القرن الثالث عشر كتب تجار من مدينة تونس رسائل ودية وحارة لتاجر من بيز كان غادر المدينة إثر عقلة وأعطوه كبل التطمينات . كتب له في إحداها ترجمان قائلا : « لا تردد في الرجوع وستجد حيث حللت الترحاب انت ومن معك . فسوق البضائع نافقة وفي وسعك أن تقوم بكل الشراءات التي ترومها » وأردف دباغ مسلم في رسالة أخرى قائلا : « إن الحالة والتجارة على ما يرام أحسن مما كانتا عليه عند رحيلك ستزل مكرما مبحلا مثلما كان ذلك في السابق » وهذه الرسائل تدل على ما كان بين تجار بيز وتونس من العلاقات الشخصية الطيبة . وهكذا كان لأهل بيز في إفريقية تجارة نافقة . وكانوا يبادلون بالخصوص الحبوب بالصوف والجلود والشب والشمع . وكانت ثقة المسلمين بهم كافية حتى أنهم يمولونهم أحيانا في الدفع .

وكان أهل جنوة ومرسيليا يستعملون الطرق المعروفة في الأسواق الأوروبية . ومنها القرض المتداول الذي ليس فيه ربا مبدئيا والقرض البحري الباهض التكاليف إذ يتحمل صاحب المال وحده ما قد ينجر عن أخطار البحر ومنها العقد الذي يساهم الدائن بمقتضاه في أرباح التاجر ، ومنها الشركة التي تقضي بتوزيع المايهج بين العمل وأسهم المشتركين . وكان تجار جنوة هم أول من استعمل عقود المبادلة مع تونس ، كما أن تجار مرسليليا رصدوا أموالا كثيرة في حقل التجارة والنقل . وتدل العقود العشرون التي أمضاها أصحاب رؤوس الأموال التجار المسمون مندووال (Manduel) (بين 1212 إلى 1246) على أنهم باعوا ببجاية وسبتة ووهران وتلمسان بواسطة بعض اليهود نقودا عربية (قيمة نصف درهم) كانوا يضرّبونها في مونيبلية (Montpellier) قصد التصدير .

أما أهل البندقية فإنهم لم يحتلوا مكانة مرموقة في مدينة تونس إلا في حكم الحفصيين .

الجيش والاسطول :

أنشأ الموحدون جيشا محكماً التنظيم سعيًا لبسط نفوذهم على بلاد البربر وإسبانيا بالخصوص فانتدبوا الجنود من بين القبائل البربرية في أول الأمر ثم من بين العرب الرحل ولم يتأخروا في تجنيد أسرى الترك الذين وقعوا بين أيديهم أثناء حربهم مع قراقوش واستعملوا قوات من النصارى أيضا . وبقدر ما كان عدد هؤلاء الأجانب يزداد ويتناقص جند المصادمة كان الجيش الموحدى يفقد حماسه الأول - وقد يصح أن نقول روحه الوطنية ليصبح جيشا محترفا وكان لحرس الخليفة شأن كبير إذ وجب على الأوفياء منهم الذين اختيروا لحراسة سرادق الخليفة أن يموتوا دونه حتى لا يدخله أحد . وكانت الجيوش تهاجم على كرات متوالية حاملة الرماح والسيوف والنبال والمقالع . وتستعمل أحيانا لتخطي الأسوار أبراج الحصار التي تبلغ ستة طوابق في بعض الأحيان .

ولمّا احتل الموحدون فاس أمكنهم الاعتماد على أسطول بني ميمون الخطير . فجعل يوسف البربري من قوة الخليفة البحرية أول عمارة في البحر المتوسط بعد أن اشتغل في بحرية ملك صقلية روجر الثاني وعينه أبو يعقوب أميرا للبحر . لذلك استنجد صلاح الدين الأيوبي سنة 1190 بالخليفة لصدّ الملوك النصارى عن طريق الشام . ولاشك أنه لم يستجب لندائه إذ لم ينس « أبو يعقوب » تواطؤه مع قراقوش .

وكان لسلطان الامبراطورية الموحدية وزن كبير بفضل ثرواته الواسعة وسمعة جيشه وأسطوله . ويؤكد كاتب عربي أن من بين المسلمين في القاهرة والاسكندرية من كان يتمنى دخول « أبو يعقوب » مصر . وأن سعي صلاح الدين يقيم وحده الدليل على أنه كان يعتبر أن عاهل بلاد المغرب أقدر رؤساء المسلمين على درء ما كان يهدد الاسلام من مخاطر .

فلسفة ابن طفيل وابن رشد :

إن الثقافة الإسبانية المغربية عززت ما كان يتمتع به الموحدون من هيبة في كامل البلاد الإسلامية وكان ابن طفيل وابن رشد وهما أكبر فلاسفة العرب في القرن الثاني (1110 - 1185) من المقرين عند الخلفاء . فابن طفيل كان كاتباً لأحد أبناء عبد المؤمن في سبتة وطنجة ثم أصبح الطبيب الأول لأبي يعقوب الذي كثيراً ما انتصح بنصائحه . وحلّ ابن رشد (1126 - 1198) محله لدى الخليفة ولم يتغير عليه إلا المنصور لمدة محدودة . وكلاهما طبع بطابعه فلسفة القرون الوسطى مما كانت له آثاره في العالم المسيحي نفسه . وكان ليبنتز (Leibnitz) لا ينفك يثني على قصة ابن طفيل الفلسفية حي بن يقظان حسب اقتباسها إلى اللاتينية من طرف (Pococke) وقد وصف فيها المؤلف طفلاً وحيداً في جزيرة قفراء وهو يتشامى عن المدكرات الحسية التي استطاع بفضلها أن يصنع بكل دقة ما هو ضروري لسدّ حاجاته إلى الصور المجردة للأجسام ثم إلى تصوّر العلل الكبرى : أي السماء التي يراها على شكل كرة والعالم حيواناً كبيراً وأخيراً الله المريد الحكيم العليم الرحيم الذي تتجلى صفاته من خلال دراسة الكائنات الطبيعية . وقد حاول حي بن يقظان الدعوة إلى فلسفته في بلاد مجاورة لكنه لم يجد آذاناً صاغية فقفّل راجعاً إلى جزيرته صحبة مريد له بقي كان اعتنق مذهبه قبل ذلك وانقطع إلى التأمل المجرد تاركاً الشعب يعيش في صوره ورموزه . وبذلك ضبط ابن طفيل فصل المقال فيما يوجد بين التصوّف والدين من مفارقات .

استجاب ابن رشد لنصيحة ابن طفيل وأقدم على كتب الفلسفة اليونانية التي كانت ترجمتها تبدو للخليفة غامضة ولم تصلنا كل كتبه بالعربية ووصلنا بعضها مترجماً إلى اللغة أو اللاتينية بينما فقد البعض الآخر . وكان ابن رشد محللاً مفسراً أكثر منه فيلسوفاً مبدعاً . وكان لشروحه الثلاثة لأرسطو المتلازمة مع درجات التعليم الثلاث تأثير كبير . ولم يخالف ابن رشد من الناحية الفلسفية ابن سينا وابن باجة إلا في مسائل ثانوية وكان مجدداً في نقطتين : أولاهما نظريته الخاصة بخلق الصور الجوهرية المخالفة لابن سينا . والثانية في نظرية العقل التي ردّها بها على

الاسكندر الا فروديزي . وصرف اهتمامه بالخصوص إلى ما بين الحكمة والشرعية من واجب الاتصال بـو صفهما مرحلتين من مراحل العقل . وكان يرى أنه يجب على العامة الاكتفاء بالظاهر بينما يحق للفيلسوف التأويل حتى يمكنه الكشف عن الحقيقة بل إن في تعرفه عليها ضربا من العبادة .

وليس من الغريب إذن أن تكون هذه الفلسفة التوفيقية التي ترى أن حقيقة واحدة قد تظهر في صور مختلفة أثارت قلق الفقهاء الرسميين وألصقت بصاحبها تهمة الكفر

الموسيقى :

لم يهتم الوسط الأندلسي والمغربي الذي فيه عاش ابن طفيل وابن رشد بالفلسفة فقط بل ولع كذلك بالموسيقى والفن . فعن طريقة المغرب انتقلت نظرية الموسيقى والفواصل والمقامات من المشرق ، حيث تكونت ، إلى اسبانيا وكادت تبقى هناك على حالها . وكان أهل إشبيلية ولوعين ولعا كبيرا بالموسيقى على حد قول ابن رشد وتجادل الفلاسفة في جمالية الموسيقى ، وفي وقع الأصوات في النفس البشرية وقوتها التعبيرية — وكان ابن رشد يُنكر الألحان الباكية ، المزعجة ، ويرفض التقليد الأعمى لكل ما يتنافى مع المعقول ولا يليق بالإنسان مثل صراخ الحيوان وأصوات الطبيعة لوقعها السيء على السامع وكان يحرم كل موسيقى صادرة عن آلات مختلفة وحتى المقامات الموسيقية جميعها . وكانت الغاية من الموسيقى بالنسبة إليه أخلاقية : من واجبها حمل البشر على القوة والاعتدال . لهذا كان يحتقر الألحان العربية الذائعة في مدن المغرب والأندلس على السواء . ولا يزال عدد هبوة « موسيقى غرناطة » في بلاد البربر كبيرا ويعتبرونها أرقى وأروع موسيقى وبينما اختص أهل المدن بهذه الموسيقى فإن البربر احتفظوا في الأرياف بغنائهم ذي الألحان الجادة والنبرات الخشنة البسيطة الذي يعتمد من حيث الآلات المزممار البدائي أو المزود وهو آلة ذات أسطوانة لها عروة من خشب متحركة .

الفن المعماري :

كانت النزعة الفنية في إقامة المباني متصلة بحياة المدن . وكما كان الشأن بالنسبة للفن المعماري المرابطي فإن الفن المعماري الموحداني ازدهر عندما انفردت عائلة واحدة بالحكم . فبلغ أوجه حالها بسط عبد المؤمن نفوذه على المغرب الأقصى . فكانت أزهى فترات الفن في الجناح الغربي من العالم الإسلامي .

وأقام عبد المؤمن حمدا لله مساجد بتازه ومراكش حيث أمكن ضبط الرسم الأول لجامع الكتبيين الذي تهدم وكشف اليوم عن أسسه وكذلك بتنمّل تخليدا لذكرى المهدي . واجتمعت في هذه المساجد التقاليد الأسبانية المغربية والعناصر الشرقية والتأثيرات المحلية . وشيد كذلك حصن قلعة رباط الفتح التي كانت تحتل الموقع الحالي لقصبة الوداية في الرباط . وأذن ابنه أبو يعقوب ببناء الجامع الأعظم باشبيلية وقصبة مراكش . وأشرف أبو يعقوب المنصور حسب تقاليدهم على الأشغال الأولى لبناء جامع حسان في الرباط وعلى تشييد جامع قصبة مراكش وكذلك على نهاية أشغال جيراندا باشبيلية ومنارة جامع الكتبيين . وكان جامع حسان جليل المظهر ، إذ كان يحتل مساحة كبرى طولها 183 م ، 10 عرضها 139 م ، 40 وله 16 بابا . ولم تبق منه إلا المنارة المبنية بحجارة ورديّة اللون والمائلة في وسط واجهة المسجد .

ومن بين المنارات الموحدية المربعة الشكل والتي يعلوها في الوسط برج صغير لم تثبت كاملة أمام طوارق الحدّثان إلا منارة جامع الكتبيين . وهي تتكوّن من ستّة طوابق يحتوي كلّ واحد منها على قاعات متراكبة تفتن المعماريون في تنويع أشكال أقبائها . وكان بشابة بروج صغيرة وهو مغطى بقبة مضلعة وفي آخره منارة تنتهي بثلاث كرات من النحاس المذهب وكان طول هذا المبنى يتجاوز 67 مترا .

وعفت القصور الموحديّة كلها واندثر المارستان الكبير الذي أقامه بمراكش الخليفة المنصور أشهر بناء دولة الموحدين وأضفى عليه من

الفخامة ما لم يكن معهودا . وشيّد هذا الخليفة اسوارا كثيرة وبني بالخصوص مدينة الرباط وقلعتها . وكان السور العظيم المبني بالتراب المدكوك (الطائبة) والذي تتخلله أبواب كثيرة أحسنها وأبقاها إلى اليوم باب الرواح يمتد على طول خمسة كيلومترات ونصف . وكان على مجموع المباني العسكرية التي يتألف منها رباط الفتح والتي أصبحت قصبة الوداية ، أن تحرس مصب واد بورقراق وان تكون مركز تجمع للجيش المعدة لغزوات الأندلس . وكان مدخل القلعة العجيب المبني من حجارة تميل في حمرتها إلى المغرة على شكل قوس حدوي منكسر ويحتوي على ثلاث قاعات مربعة

وفي مراكش حيث شيّد الموحدون أسوارا من « الطائبة » تتخللها أبراج مربعة الشكل يشبه باب أقناو في فخامته مدخل الوداية . وكان الخلفاء الموحدون هم الذين أقاموا أسوار فاس البالي التي لا تزال موجودة إلى اليوم وخاصة في الجهة الشمالية من خارج المدينة السفلى .

ويمتاز عهد الموحدين على عهد المرابطين بما توفر فيه من حرص على التوازن وتوخي الرقة في تزويق المباني . وتطور الزخرف النباتي تطورا جديدا فاستمد من سعف النخيل شكله النهائي . قال تراس وهينو (Terrasse) و (Hainaut) : « كانت كل سعفة يُعنى بها على حدة ويعنى بتصوير حافاتها . وتعظم الأشكال وتتداخل الحافات الممتلئة اليانة القوية كالعضلات وتنحني في حركات عنيفة وقد استوحى القوم من الفن الشرقي بإفريقية صورة جديدة للسعفة : فكأن سعفات النخيل تنبثق من كؤوس متوالية . وفي الجص المنحوت تقطع الحافات لتحدث ظلالا وافية . أمّا في الزخرف المتشابك فإن السعفة الملساء تظهر في الموضع الذي لا يُصرف فيه النظر إلى غير المطاوي المتشعبة للقوسات » .

ولا يقل تزويق الهندسي أناقة ولا قوة من دون أن يؤول إلى تعقد في الخطوط . قال تراس وهينو : أمّا الأقواس ذات الحنيات التي كثيرا ما يتكون ظاهرها من مشبكات افقية متشعبة إلى فروع عديدة فإنها تعد بمنحنيات العتيدة وأطرافها الطويلة مزيجا فريدا في بابه من الأناقة

والقوة وإن الميل إلى استعمال المشبكات في الأطر يصل إلى حدوده القصوى وتغطي واجهات المنارات المشبكات المعمارية .

وكان همّ الفنانين في القرن الثاني عشر التلوين فتحلّت المنارات بالزليج المختلف الألوان وهكذا توجّ الزليج الأزرق الفيروزي منارة جامع الكتبيين بأكليل من الحجارة الكريمة الواجعة كلما ألقت الشمس عليها أشعتها .

وكان الفن الموحدّي الذي انكبت على دراسته في المغرب الأقصى مدرسة قادها وتزعمها المأسوف عليه هنري باسيه (H. Basset) وهنري تراس تنويجا لجهود دامت قرونا . فقد مزج هذا الفن بين ما استمده من التقاليد الأندلسية وما استلهمه من المشرق . وكوّن من هذه العناصر كلها جمالية فريدة من نوعها ، جليلة ، قويّة مثل ملوك الموحدين . ونجد هذه العظمة في المساجد الكبيرة بقبابها العديدة ومناراتها الشامخة . كما نجدها أيضا في مواد البناء القويّة وحتى في « الطائبة » التي تبنى بها الأسوار ، وكذلك في الزخرف المنسجم أشد الانسجام مع الفن المعماري والمتميز برحبته وتساميه واختصاره وحرصه على الترتيب والوضوح . وهذا ما دعا البعض إلى القول بأن هذا الفن هو « منتهى الضبط المتكامل المتوافق » (فزال) ولقد عرف الفن الموحدّي أوجه في عهد الخلفاء الأولين . وبدأ الانحطاط منذ القرن الثالث عشر فلم يكتب لمنارة جامع حسان أن يتم بناؤها . وانهارت الامبراطورية العظيمة ولم تبلغ قط الدول التي تقاسمت أشلاءها ما بلغته من عظمة سياسية وفنية .

الخاتمة :

لئن كان عمل الموحدين يماثل في تألقه عمل المرابطين على الأقل ، فإنه خلف آثارا أبقي على الدهر .

وكانت الخيبة واضحة من الناحية السياسية : ذلك أن بلاد المغرب انقسمت كما هو الشأن في أوائل القرن التاسع ، إلى ثلاثة أجزاء لم يكتب لها إلى اليوم الالتئام : فكان للحفصيين إفريقية ولبنو عبد الواد

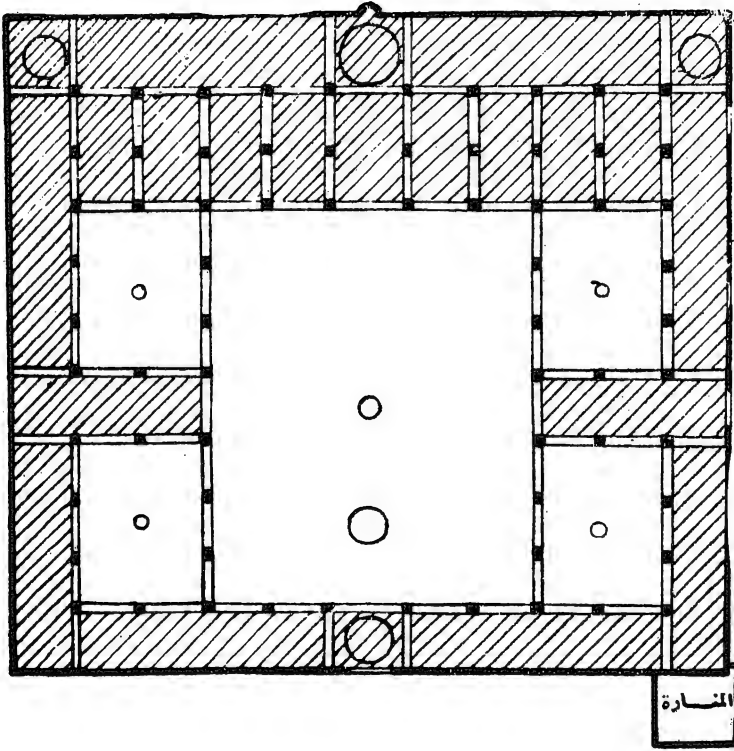
المغرب الأوسط ولبنى مرين المغرب الأقصى . ولم يتوفق المصاعدة وبنو عبد المؤمن إلى انشاء وحدة بربرية دائمة وهذا الفشل ناتج عن أسباب عديدة حللها هنري تراس بتعمق كبير في كتابه تاريخ المغرب الأقصى .

وأول ما نلاحظه هو أن محاولة الوحدة جاءت متأخرة عن أوانها . ذلك أنه لما أخذ الموحدون السلطة كانت الدودة قدحلت بالثمرة منذ زمان بعيد ونخرتها إلى أبعد حد .

ففي أواسط القرن الثاني عشر كان عرب بني هلال قد بسطوا نفوذهم الكامل على إفريقية وتوغلوا كثيرا في المغرب الأوسط . ومن جهة أخرى كان عرب بني معقل وهم آخر من دخل بلاد المغرب بصدد التسرب إلى المغرب الأقصى عن طريق مشارف الصحراء . وكان هؤلاء وأولئك قد تحالفوا بعد مع البربر الزناتيين وأصبحوا بذلك جموعا بدوية قوية جدا قادرة على الحيلولة دون كل محاولة يقوم بها الحضر لفرض هيمنتهم . ونحن نعلم أن العرب سرعان ما يوالون السلطة المركزية عندما تكون في عنفوانها ولكنهم ينتفضون عليها كلما سنحت الفرصة . وكانوا عنصر تخريب للامبراطورية الموحدية . وخاصة أثناء مغامرة بني غانية الطويلة ثم ابتداء من سنة 1224 عندما أخذت الدولة في الانهيار . غير أن نتائج أعمالهم قد تكون من الناحية الاقتصادية أبعد أثرا ، ذلك أن هؤلاء الرعاة الذين لا يرضون أبدا بنمط حياتهم بديلا حولوا جهات فلاحية كثيرة إلى مواضع للانتجاع شاسعة تعاطوا فيها تربية الماشية على نطاق واسع ، وجعلوا المزارعين في غيرها من الأماكن عبيدا أجروهم منقوص وأملهم مفقود . وعطلوا أخيرا وهم النهابون جبلة المبادلات التجارية التي كانت مزدهرة جدا في أول عهد الموحدين .

وأدرك خلفاء مراکش تمام الإدراك مشكلة هؤلاء العرب الرحل وظنوا أن الحل ينحصر في جلبهم إلى المغرب الأقصى ولكنهم لم يتوقفوا إلى احلال السلم في إفريقية فكان أن انتشر الداء في المغرب الأقصى الذي بقي إلى ذلك الوقت سالما منه ..

ثم إن هؤلاء البربر سكان الجبال لم يعرفوا كيف يقعدون نظرياتهم السياسية على قعد امبراطوريتهم التي توصلوا إلى إقامتها . فلقد أبى المصامدة وهم الرعيل الأول من الموحدين أن يشركوا في أعمالهم ، أي في حكمهم ، سكان الأمبراطورية الآخرين : وساروا سواء في إسبانيا أو إفريقية أو المغرب الأوسط سيرة الغزاة : مما أدّى إلى قيام الثورات بدون انقطاع والتصدع النهائي حالما ضعفت شخصية الخليفة .



شكل 16 - رسم جامع القصبة بـمراكش .

وإذا نظرنا إلى الفئة الحاكمة نفسها وجدنا أن بني عبد المؤمن قد خصّوا أنفسهم بنصيب الأسد على حساب العائلات الموحدية الأخرى . وأثارت سياسة احتكار السلطة حفيظة هذه العائلات التي اغتمت أول فرصة لاسترجاع ما كانت تعتبره حقها المشروع . وإنها لسياسة قصيرة

النظر كان مآلها الانهيار التام باستثناء إفريقية التي مسك أمرها بنو حفص . وهكذا فإنه لم تمض على الامبراطورية البربرية بضعة عقود حتى تقطعت أوصالها بدون رجعة .

أما إذا نحن اعتبرنا الناحية الدينية فإن حصيلة ما قامت به دولة الموحدين مخالفة جدا لما سبق . ولئن لم يبق مذهبهم فإنهم أتموا ما بدأه المرابطون من عمل توحيدي ونجحوا في ذلك إذ اعانوا على نمو الحركة التصوفية الإسلامية التي كانت كامنة في بلاد المغرب من دون أن يتيسر لها قط الازدهار من قبل . كتب تراس قائلا : « إن الجدير بالملاحظة هو أن أعظم أئمة المتصوفين ببلاد المغرب الذين سيتفردون من بين أولياء هذه البلاد بأكبر شعبية عاشوا جلهم في عهد الموحدين وماتوا في أواخر القرن الثاني عشر : مثل سيدي حرازم (ابن حرزهم) (1173) ومولاي بوشايب (1174) ومولاي بوعزة (1176) وسيدي بومدين . ومولاي عبد السلام بن مشيش وسيدي بلعباس السيتي (1188) » . ومن ذلك الوقت بدأت الخلافات الدينية وساد المسلمين الوثام تحت راية المذهب المالكي . ولا ننس من جهة أخرى أن تشدد المغاربة في دينهم كعزل النساء عن الرجال والتمسك الشديد بالصوم واجتناب المأكولات المحرمة اجتنابا كليا يستمد أصوله من تعاليم ابن تومرت الأخلاقية .

وأخيرا فإنه لا مجال إلى إنكار ما خلفه الموحدون من حضارة حق إذ أنهم لم يكتفوا مثل من سبقهم بنقل الحضارة الأندلسية وإشاعتها . وإنها لحضارة لم تخل من طابع التزم وصفة القوة إذ طغت فيها الحصون والمساجد على القصور والحدائق وتعلبت الفلسفة على الشعر إلا أنه لا سبيل إلى نكران ما توفر لها من طرافة وعظمة .

لذا فإنه يمكن اعتبار نصف القرن الواقع بين 1160 و 1240 الفترة التي جاد فيها المغرب البربري بأنفس ما عنده .

الباب الرابع

عَوْدَةُ إِلَى الْمَمَالِكِ الْبَرْبَرِيَّةِ

- 1 - مملكة بني حفص بنونس
- 2 - مملكة بني عبد الواد بتلمسان
- 3 - مملكة بني مدين بفاس
- 4 - دولة بني وطاس وحفظة الاسلام

ما أن ظهرت على الأمبراطورية الموحدية أولى علائم الوهن الخطير حتى سارت بلاد البربر نحو الانقسام إلى ثلاثة أجزاء مثلما وقع زمن الاحتلال الروماني ثم في القرنين الثامن والتاسع وبعد ذلك في القرن الحادي عشر عندما انفصلت صنهاجة أشير عن زناقة إفريقية .

لقد أعلن والي إفريقية عن استقلاله سنة 1236 م بعد أن قطع الصلة بمراكش ابتداء من سنة 1229 . وكان بذلك تأسيس الدولة الحفصية . وأقامت قبيلة بني عبد الواد سنة 1235 بقيادة يغمراسن بن زيان حكما مستقلا بتلمسان وبالجبهة المجاورة التي طالما وضعها الموحدون تحت رعايته .

وأخيرا استحوذت سنة 1248 قبيلة بربرية أخرى نعني بني مرين على مدينة فاس ، وأقامت فيها دولة سرعان ما توطدت أركانها .

وزيادة على ذلك فإن إسبانيا المسلمة كانت هي أيضا قد انفصلت عن الأمبراطورية الموحدية . وتولى بنو نصر أمراء غرناطة حكم البقية الباقية منها .

وهكذا فإن الأمبراطورية التي أسسها عبد المؤمن انقسمت إلى ثلاثة أجزاء حكمت كل جزء منها عائلة أو قبيلة بربرية ، ودام هذا الأمر عشرين سنة قبل انهيارها الكلي ، ومرت على كل جزء من هذه الأجزاء أطوار مختلفة وعرفت الامبراطورية فترات من المجد والازدهار النسبي . غير أنه لا يمكن أن ننظر إلى هذه الممالك إلا بوصفها تابعة إذ لم يتوفر فيها ما يذكر بحوية رجال المهدي وقوة شكيمنتهم . وكانت جميعها تعيش في كنف الموحدين لاغاية لها سوى ضم شتات امبراطورية السلف وجعلها تحت سيطرتها . وأوشك بعض ملوكها بلوغ هذه الغاية إلا أن ذلك لم يتجاوز شهورا معدودات .

وان تاريخ المغرب ، إلى زوال الدول الثلاث الحفصية والوادية والمرينية ، أي إلى أواسط القرن السادس عشر كان في آخر الأمر سعيها ضائعا إلى إحياء الماضي وركودا طويلا ثم انحطاطا بطيئا .

ومن حسن الصدف أن هذا الانحلال لاحظته ووصفه مؤرخ عبقري هو ابن خلدون 1332 — 1406 م. ولولا تأليفه لما أمكن لـ ج. مرسني (Georges Marçais) ضبط مراحل زخفة بني هلال ولتعدر على أ. ف. قوتيبي (E. F. Gautier) أن يسلط الأضواء على القرون المظلمة التي عاشتها بلاد المغرب حينذاك .

ولقد دخل ابن خلدون أثناء حياته السياسية في خدمة بني حفص وبني مرين وبني نصر وبني عبد الواد . ثم تنكر لهم مدفوعا بما كانت توعد به إليه مصلحته الخاصة لا بما يمليه عليه ضميره ، ثم عاش بين العرب لتجيش الجيوش . وحيثما حلّ هذا الرجل الفذ تقلد مناصب مرموقة تمكن بفضلها من تتبع الأحداث وتقييم الرجال . وكان يمكن أن يستمد ابن خلدون معلوماته من تراكم الأخبار الفجة كما هو الشأن بالنسبة إلى القُرطاس ، ولكن الرجل كان يتمتع بروح نقدية وتطلع علمي بلغا حدا من القوة جعل أ. ف. قوتيبي لا يتردد في اعتباره في مستوى حنبعل والقديس أغسطينوس .

وفي تونس تتلمذ ابن خلدون لأبيه وأشهر الشيوخ بها فأخذ عنهم النحو وفقه اللغة ، والفقه ، والشعر ثم قصد علماء المغرب الذين ظهروا في عهد المرينيين فحذق بفضلهم الفلسفة وعلوم الدين . ولكن ابن خلدون كان في الواقع مجددا استمد مبادئه وطريقته من ذات نفسه ووضع لمؤلفه في التاريخ الذي سمّاه كتاب العبر، المقدمة التي احتوت على تأملات حول مواضيع متباعدة يمكن رغم ذلك أن تستمد منها فلسفة التاريخ في معناها الكامل .

وكان ابن خلدون خلافا للإخباريين (chroniqueurs) المسلمين حريصا على التحري في قيمة المصادر لا بالاعتماد على المعايير الدينية بل بالاستناد إلى أحكام العقل . ولم يكتف بسرد الأحداث بل كان يحاول دائما فهمها وبيان عللها ما أمكن ذلك . وإن له حول القيمة المحتملة للوثائق أو أهمية الشغل بوصفه عاملا من عوامل الثروة اعتبارات أصبحت مألوفة عندنا اليوم بفضل المؤرخين وعلماء الاقتصاد في القرن التاسع عشر إلا أنها مدعاة إلى الاستغراب عندما يخطها رجل عاش في القرن الرابع عشر . وإنه ليدكرنا بمعاصره فرواسار (Froissart) بل بمكيافيل (Machiavel) وفيكو (Vico)

وأكثر من ذلك فإن لابن خلدون تصوّراً للتطور التاريخي استمدّه من ملاحظة الأحداث المعاصرة له . لقد أثار انتباهه تواجد مناطق صحراوية يتجمع بين كثبانها البدو وجهات خصبة يسكنها الحضر فاستنتج أن حياة الحضر تتبع حياة البدو وتتولّد عنها . فالبدو الرحل العاشقون على الفطرة والطهارة والمنقطعون إلى مصالح العائلة والقبيلة يسجلون بفضل خصالهم الحربية فتوحات يستمدّون منها ثرواتهم ولكنّها تحمّل بذور فسادهم ، ثمّ هم سرعان ما يتغلب عليهم شعب آخر شيمته الغلظة والشجاعة . فالبدو هم المحتفظون أكثر من غيرهم بروح التضامن والتفاني في سبيل المصلحة الجماعية وهو ما يسمّيه ابن خلدون بالعصبية التي هي قوة الدول الأساسية . وإنهم على خلق عظيم خلافا للحضر الذين أخذ منهم الفساد والانحلال مأخذا عظيما .

ويدلّنا التاريخ على أن الممالك تنشأ وتتطور ثمّ تفنى مروراً بخمس مراحل وعلى أيدي ثلاثة أجيال أي في ظرف 120 سنة . وأكد أ. ف. قوتسي على ما كان يضمّره ابن خلدون من احتقار للأرض والفلاح والمواطن كما نبّه إلى النظريات البيولوجية والوراثية التي كان يحمل لواءها هذا المؤرخ العبقري والذي بقي مفهوم الأرضية الجغرافية للتاريخ غريباً عنه تماماً .

وإن بلاد المغرب هي التي أوحّت إليه قبل الجزيرة العربية بهذه الفلسفة التشاؤمية حول العلاقات القائمة بين البدو والحضر ، لذا فإن الجزء الذي اقتطعه دي سلان (De Slane) من كتاب العبر ونقله إلى الفرنسية تحت عنوان وضعه هو نفسه نعني « تاريخ البربر » يبقى المصدر الأساسي خاصة بالنسبة إلى القرن الرابع عشر حيث تكوّنت الممالك الوارثة للسلطان الموّحدي . وإلى جانب ما أظهره ابن خلدون من ذكاء جدير بالإعجاب وما اتصفت به نظرياته من طرافة نافذة فإننا نظفر لديه بوثائق كتبها شاهد عيان إذ كان مؤرخاً وفي نفس الوقت العضد المسموع الكلمة لعدد كبير من الملوك الذين روى تاريخهم .

I - مملكة بني حفص بتونس

أبو زكرياء 1229 - 1249 م .

من بين الدول الثلاث التي تقاسمت بلاد البربر وتصارعت من أجل الانفراد بها كانت دولة بني حفص هي التي فرضت نفسها بوصفها الوارثة الأولى لسلطة الخلافة الموحدية المنهارة والحافضة لتقاليدها . ولقد تمتعت هذه المملكة الجديدة خلال القرن الثالث عشر خاصة بهيبة حقيقية ولكنها لم تقدر على حماية إفريقية من الانحطاط . وقد كانت خصومات القبائل العربية وثوراتها تغذي الاضطرابات وتزيد في تفاقم الخراب . ولقد درس تاريخ هذه المملكة ر. برنشفيك (R. Brunschvig) دراسة مرموقة ومستفيضة في مؤلف ذي جزأين سماه «بلاد البربر الشرقية على عهد بني حفص ، من البدء إلى أواخر القرن الخامس عشر» .

ومعلوم أن الخليفة الموحدّي الناصر لمّا هزم الناصر يحيى ابن غانية في الجنوب التونسي عهد سنة 1207م . بحماية إفريقية إلى أحد أبناء الشيخ أبي حفص عمر الهنتاتي ، فمارس هذا الوالي السلطة وهو في طاعة الموحدين حتى توفي سنة 1221 م . ثمّ حلّ مكانه بعض الولاة من عائلة بني عبد المؤمن . وفي سنة 1226 عيّن الخليفة الناصر من جديد على إفريقية واحداً من بني حفص : ولما رفض هذا الوالي مبايعة المأمون الخليفة الجديد عزل وقدم أخوه أبو زكرياء يحيى الذي كان آنذاك والياً بقابس .

وكان هذا الشاب الذي لم يبلغ السادسة والعشرين من سنه ابن أول الولاة الحفصيين على إفريقية وحفيد الشيخ أبي حفص المعروف . وقد جمع بين صيت عائلته وهيبة أبيه عندما حمى إفريقية من عمليات

ابن غانية الحربية ، ولقد زاد على هذه المزايا الموروثة ثقافة مرضية وضبطا للنفس بالغا وإقداما لا يخلو من تقدير للعواقب .

ولم تمض بضعة أشهر على تعيينه بتونس حتى وجد نفسه تحت إمرة الخليفة المأمون الذي أنكر علانية مذهب الموحدين إزاء يحيى بن الناصر المتنازع للمأمون في الخلافة والعاجز عن تدعيم سلطته . وبعد أن انحاز إلى يحيى بن الناصر فترة لم تتجاوز أسابيع قليلة قرر أن تقع خطبة الجمعة باسم « المهدي والخلفاء الراشدين » وأطلق على نفسه لقب الأمير وكان ذلك بمثابة إعلان محتشم عن استقلال أكمله بعد ذلك بسنوات قليلة (1236م. أو 1237م) عندما أمر بأن تكون الخطبة باسمه. وفي أثناء ذلك كان يوسع من رقعة ملكه : ففي سنة 1230 م على الأرجح وقعت قسنطينة وبجاية في جوزته وطرده بصفة نهائية يحيى بن غانية من ممتلكاته ، وفي سنة 1235م. ألحق بملكه مدينة الجزائر وتمكن من إخضاع أعظم قبائل وادي شلف عنوة أو عن طيب خاطر . وبذلك تكوّنت من جديد مملكة بنسي زيري القديمة كما كانت في أواخر القرن العاشر . ولم تخطئ كبرى دول النصارى الحساب : فعقدت البندقية سنة 1231م. ويز سنة 1234م وجنوة سنة 1236م معاهدات حسن جوار واتفاقات تجارية مع العاهل الجديد، بينما أرسل إليه فريدرىك الثاني صاحب صقلية قنصلا سنة 1239 وربط معه ملك الارغون علاقات دبلوماسية . ومن جهة أخرى كان أبو زكرياء يظهر في غمرة فوضى الموحدين الدعامة الحقيقية للقوة الإسلامية في نظر مسلمي المغرب المهددين بحركة الاسبان الرامية إلى استرداد اراضيهم كما كان يظهر الممثل الوحيد الأصيل للسنة الموحدية : فكان القوم ببلنسية وإشبيلية وشريش وطريف وغرناطة يخطبون خطبة الجمعة باسم أبي زكرياء ابتداء من سنة 1238م. ، وكذلك في طنجة وسبتة والقصر الكبير ، وحوالي سنة 1245 م اعترف بنو مرين بدورهم بسلطة الحفصي الذي أرجع إلى الصواب الأمير يغمراسن صاحب تلمسان المتعنت في مساندته للخليفة الموحي الرشيد وذلك سنة 1242م. . وأخيرا توّصل أبو زكرياء بسياسته الحكيمة مع القبائل العربية إلى الحد من تأثيرهم وجعل بعضها أعوانا له صالحين .

ولمّا توفي إثر مرضه سنة 1249 كان قد قام بعمل جليل به كوّن مملكة متينة الأركان محفوفة بدول تابعة أو صديقة وعود أهل إفريقية بالخضوع إلى دولة حاكمة جديدة .

المستنصر :

غير أن الوضع الذي تركه لابنه أبي عبد الله (1249 - 1277م.) لم يكن خالياً من الأخطار . فلقد وجد الأمير الشاب في صلب عائلته مناوئين مستعدين دائماً لشق عصا الطاعة على رأس القبائل العربية . فاضطر إلى قمع أربع ثورات وتعقب الدواودة الرّحل - وهم أشد القبائل بأساً - حتى تخوم الصحراء ، والرمي بنفلولهم نحو الغرب ، وتقتيل رؤسائهم .

ولم يمنعه هذا من تسمية نفسه بأمير المؤمنين سنة 1253م. والتلقب بلقب - المستنصر بالله - الذي عرف به - وقد توخى سياسة العظمة فأحسن تهيئة القصبة بتونس العاصمة وأوجد « حدائق رائعة » تنوسطها « برك في جهة تونس » وجلب إلى بلاطه الأدباء والشعراء .

ودخلت مملكتنا تلمسان وفاس في طاعته وكان يتلقى السفارات لا من المدن الإيطالية وأغلبية دول البحر المتوسط الغربي فقط بل كذلك من جهات نائية كالنرويج (1262) وكانم وبرنو (1257) التي كان ملوكها يرسلون إليه الهدايا الثمينة . وحتى شريف مكة فقد بايعه خليفة سنة 1259م وتبعه في ذلك ممالك مصر (1260م.) . وفي الواقع فإن هذه المبايعة لم تدم طويلاً إذ عمد بيبرس سلطان مصر الجديد إلى إحياء الدولة العباسية سنة 1261 . وكانت الدولة الحفصية إذن قوية جداً عندما ظهر سنة 1275 أمام قرطاج أسطول القديس لويس .

وكان بنو حفص يدفعون بصورة تكاد تكون منتظمة حتى اعتلاء شارل صاحب أنجو (Anjou) عرش صقلية (1266) إتاحة صغيرة إلى النّorman ثم إلى هوهنستوفن (Hohenstaufen) تلافياً لقرصنة الصقلّيين وحرصاً على بيع حبوبهم بمواني الجزيرة في حرية تامة . ورفض المستنصر الاعتراف بحقوق شارل صاحب أنجو

واقبيل خصومه وكفّ عن دفع الإتاوة . وكان ذلك حسب ما يراه بعضهم سببا حاسما في قيام الحرب الصليبية الثامنة التي يظهر أن القديس لويس أنساق إليها انسياقا من جراء مناورات أخيه .

ولا سبيل إلى الشك في مدى تأثير المشاكل الاقتصادية على العلاقات بين الدول أثناء القرن الثالث عشر . ولم يكن ابن خلدون مخطئا طبعاً عندما أكد على ما كان يقوم به تجار بروفانس من مساع لاستخلاص ديونهم التي وقع التراجع فيها بمجرد إعدام وزير سابق بتونس . ذلك أن الروح الصليبية التي كانت الدافع لحملات جوستينيان والقديس لويس وشارل العاشر عرفت كيف تتلاءم في حاشية الملوك مع الروح التجارية . لكننا لا نفهم ما الذي حمل شارل صاحب أنجو على التخلي عن مشاريعه ضد القسطنطينية في الوقت الذي ترك له شغور البابوية المجال فسيحاً . بل إننا نعلم أنه أعرض عن ذلك بأمر من أخيه والتحق بتونس على رأس جنده منضمين إلى جيش الصليبيين الذين أبحروا من مكان قريب من إيق مورت (Aigues-Mortes) في الرابع من جويلية 1270م . ولم تكن هذه الحرب الصليبية انتصاراً لديلوماسيته بل إخفاقاً لسياسته .

أما تصميم القديس لويس المستوحى من الراهب ريمون مارتان (Raymond Martin) أستاذ العبرية والعربية بدير الدومينيكان بتونس وصديق الخليفة فإننا نجد ما يبرره فقد بلغ إلى علم ملك فرنسا أو خيل إليه أن المستنصر عازم على التنصر .

وعزا المؤرخون من دون أن يكون لهم في ذلك أية حجة سذاجة القديس لويس النبيلة إلى نفاق المسلمين . فقد تحمس الملك عندما تصور أنه في الإمكان أن تصبح إفريقية قاعدة منيعة للمسيحية أو على الأقل منطلقاً للهجوم على بيارس سلطان مصر الذي أصبح نشاطه يندب بالخطر .

ومهما يكن فإن الاستعدادات العظيمة التي كانت مهية لتخليص الأماكن المقدسة وجهت لاكتساح بلاد البربر وذلك بعد تردد كبير . وأرسي الأسطول بكالياري (Cagliari) ثم أشرف على

قرطاج بعد ستة أيام (18 جويلية) وكان الخليفة قد حصّن مدينة تونس واستنفر القبائل الخليفة ، واكتست المقاومة صبغة الجهاد المقدس الذي نادى به « الأتقياء الصالحون والفقهاء والأولياء » ، وضمّ الجيش الموخدين والجند والمتطوعين ولم يكن القديس لويس ليتصور إلى أي حدّ شارب النصر .

وبينما كان المستنصر يفكّر في نقل عاصمته إلى القيروان تفشت الحمى والاسهال في معسكر الفرنسيين وأوديا بالملك (25 أوت 1270) .

وعندما أرسى أسطول شارل صاحب أنجو ولم تمرّ على وفاة أخيه إلاّ ساعات معدودات أصبح رأس الصليبيين ولم يعتبر منذئذ سوى مصالحه الخاصة . وسرعان ما أبرم مع الخليفة معاهدة فيها غنم كبير لمملكة صقلية . وإنّما أقدم المستنصر على ذلك لأنّ انتجاع العرب لأراضيهم في الجنوب كان يهدّد بتعذر صمود الجيش الإسلامي . لذا رضي بدفع ضعف الإتاوة التي كان يسلمها إلى هُهنستوفن (Hohenstaufen) زيادة على ما تخلّط بدّمته وغرامة حربية كما رضي بتسليم الهاريين الصقليين وضمان امتيازات تجارية لرعايا مالوك فرنسا وصقلية ونفّار (5 نوفمبر) ولم يظفر المستنصر بمقابل ذلك إلاّ بتهديم أطلال قرطاج التي كان يحتمي بها النصارى

ولئن لم يكن هذا الحلّ مشرفاً فلأنّه كان في صالح إفريقيا ، ويظهر أن السكّان كانوا واعين لذلك إذا استثنينا بعض المعارضين المتعنتين إذ أن المستنصر لم يجد صعوبة في جمع الأموال التي تعهّد بدفعها . وأمكن له بدون عناء إرجاع العلاقات التجارية التي كان ربطها مع الأرغون (1271) وبيز ، والبندقية (1271) وجنوة (1272) كما تمكّن من تمتين الروابط بينه وبين شارل صاحب أنجو جاره بصقلية . ولم تميّز أواخر أيامه إلاّ بالاستيلاء من جديد سنة 1275 على عاصمة الجزائر التي كانت أعلنت عن استقلالها قبل ذلك . وتوفي إثر مرض في 17 ماي 1277 والبلاد تعيش في كنف السلم وعزّة السلطان .

انقسام الوحدة الحفصية :

كانت الامبراطورية التي تركها المستنصر تظهر متينة الأركان . غير أنها ما لبثت أن تدهور أمرها على أيدي خلفائه . فقد انقاد ابنه الواثق الذي تولي الخلافة بعده لأحد مقرييه وهو من أصل أندلسي فألّـب على الحكومة شق الموحدين بأكملهم . ونافسه في الحكم عمه أبو إسحاق الذي كان متمردا على المستنصر منذ سنة 1253 . وعلاوة على اجتماع كل الغاضبين بإفريقية حوله فقد مدّه بالعون العسكري بيار الثالث ملك الارغون الجديد (1276 - 1285م) . وكان لهذا الملك مـطامـح في حوض البحر المتوسط وخاصة صقلية التي كان يحكمها شارل صاحب انجو . وكان يرى أن وجود عاهل موال له في إفريقية من شأنه أن يعينه على تحقيق غاياته . وبعد أن استولى أبو إسحاق على بجاية في أفريل 1279 دخل تونس في شهر اغسطس وتولى حكمها .

ولم يكن حظّ العاهل الجديد الذي اقتصر على لقب أمير أحسن من حظ سلفه المنكود . فسرعان ما خيّب ظن حاميه النصراني الذي أرسى بالقالية (Collo) في جوان 1282 لنصرة أحمد المتمردين ثم أقـلـع نحو صقلية حيث نال قـتـيل الفرنسيين (Vêpres Siciliennes) . من سلطان شارل صاحب انجو (30 مارس 1282) . وما أن زال هذا الخطر حتى دعم أبو إسحاق موقفه بتزويج إحدى بناته لولي عهد تلمسان . ليكن سياسته الداخلية « المتأرجحة بين الضعف والقوة » أغضبت بعد قسما كبيرا من السكان ، وخاصة عرب الجنوب ، الذين وجد لديهم ابن أبي عمارة وهو مغامر مقدم آذانا صاغية فأوهمهم أنه ابن الواثق وبسط نفوذه باعانة البدو على كافة الجنوب التونسي منذ خريف 1282 . ثم دخل تونس في جانفي 1283 ودحر في شهر جوان جيوش الحفصيين الذين لاذوا ببجاية وحاولوا استرجاع عاصمتهم .

ولم يتمتع ابن أبي عمارة بشرة نجاحه طويلا فقد أغضب بدوره العرب الذين سرعان ما التفوا حول أبي حفص عمر ، وهو أخ للمستنصر ، كان ينشد الحكم . وزحفوا على تونس ودخلوها وبايعوا الخليفة الجديد ولقبوه بالمستنصر بالله (جويلية 1274) .

وكان أبو حفص (1284 - 1295) مدينا في نجاحه لبني سليم - فأغلق عليهم من نعمه الشيء الكثير فبينما امتنع أبو زكرياء والمستنصر من إقطاعهم مدنا واقتصروا على منحهم جراية ، مكسهم أبو حفص من ثلاث أو أربع أباكن بجهتي صفاقس والجريد كهبه بما في ذلك محصول الأراضي واستخلاص الضرائب (1284) .

وعجلت التنازلات التي أقدم عليها بنو حفص بانحطاط المملكة . من ذلك ما لاحظته الرحالة العبدري سنة 1289م. من أن جميع المدن باستثناء تونس التي بقيت مركزا نشيطا للتجارة والعلم أخذت تتدهور تحت ضربات النصاري والبدو . فقد استسلمت جزيرة جربة بعدما توالى عليها ما توالى من هجمات أسطول صقلية والأرغون بقيادة روجاردي لوريا (Roger di Loria) (1284م) . وكذلك جزر قرقنة سنة 1287 . وتداعت قسنطينة من جراء تطاحن السكتل . وعم الخراب مدينة باجة . وبلغ خوف سكانها من هجومات العرب حدا جعلهم يدفنون موتاهم وهم في سلاحهم .

وكانت الفوضى التي تغذيها القبائل العربية سببا في ظهور أدعياء متهافين على الحكم يجدون دائما شقا من البدو يساندهم في تحقيق طموحهم وانفصمت وحدة السلطان الحفصي أثناء إحدى هذه الأزمات فقد أسس أبو زكرياء الثاني في بجاية مملكة منافسة لتونس شملت جزءا كبيرا من مقاطعة قسنطينة (1284) . ودام الصراع بين هذين الأميرين 23 سنة تساند كليهما قبائل عربية - ولولا نفوذ شيوخ الموحدين لما أمكن لأبي عصيدة (1295 - 1309) خليفة تونس وأبي البقاء سلطان بجاية أن يتفقا على جمع حكم المملكتين فيمن يطول عمره منهما .

والتأمت الوحدة الحفصية لمدة قليلة تحت إمرة أبي البقاء (1309 - 1311) . وسرعان ما تمكن ابن اللحياني (1311 - 1318) ، وهو دعي لم ينل كبر سنه من دهائه ، من تجاوز نفوذ الخليفة وأعطى البدو زمام الامور بينما استولى على بجاية أبو يحيى أبو بكر حفيد أبي زكريا (1318 - 1346) وتوحد النفوذ الحفصي مرة أخرى على يد أبي بكر من سنة 1315 إلى سنة 1318 واستقام له الأمر رغم الصعوبات . ولم يقتصر

العرب على تحريض الأديعاء بل عملوا على تدخل بني عبد الواد أصحاب تلمسان الذين لم يبقوا مكتوفي الأيدي إزاء الخلافات التي كانت تمزق شمل شرقي المغرب وكانوا يطمعون في الاستحواذ على بجاية . ولم ينج الخليفة من تضافر جهود بني سليم والدواودة وبني عبد الواد إلا بحمل بني مرين على القيام بهجوم معاكس على تلمسان . وأطرد من عاصمته أثناء المعارك أربع مرات . وتمكن بفضل حماية بني مرين وانضمام الشيخ حمزة أكبر شيوخ بني سليم من استرجاع مملكته مقاطعة بعد مقاطعة والانتقام من البربر المتمردين . وحمل الولاة والمشايخ المستقلين على الدخول في طاعته واستخلاص الزكاة من البدو . بل إن الحظ أسعفه فتمكن من طرد النصاري من جزيرة جربة (1335) ؟ .

غزو بني مرين لافريقية :

ما أن توفي أبو بكر (1346) حتى تأزمت الأمور من جديد . فقد قتل ولي العهد الشرعي بايعاز من أخيه كما قتل ثلاثة من أبناء الشيخ حمزة . واضطر البدو ، وقد رجعت لهم صولتهم ، إلى مبايعة السلطان المريني أبي الحسن الذي انساق رغم نصيح مستشاريه إلى غزو شرقي المغرب استجابة لدعوة الحاجب ابن تافراكين .

ولم يجد صعوبة في الاستيلاء على قسنطينة وبجاية ودخل تونس في موكب بهيج (15 سبتمبر 1347) . فلاذ الخليفة بالفرار ولكن ألقي عليه القبض قرب قابس وقطع رأسه . ومنذئذ بسط أبو الحسن نفوذه على كامل بلاد المغرب كما كان الأمر في عهد بني عبد المؤمن واعتبر نفسه خليفة لهم .

ولكن كان عليه أن يقرأ حسابا للبدو إذ منفعتهم بالنسبة الى من يدعي الملك تساوي خطرهم على صاحب السلطان لذلك حاول أن يجعل من الإقطاعيين موظفين اتقاء لشرهم . وأمام هذا الخطر تألّبت عليه القبائل وهزمته قرب القيروان (10 افريل 1348) . ولم يتمكن أبو الحسن من استرجاع نفوذه رغم الخلافات التي ظهرت في صفوف أعدائه بعد انتصارهم وأسلمت قسنطينة وبجاية أمرهما إلى أحد أولاد بني حفص

وتلاشت الامبراطورية جزءا بعد جزء . وانتهى به الأمر إلى أن لاذ بمدينة الجزائر ومنها التحق بالمغرب الأقصى - (ديسمبر 1349 - جانفي 1350) .

ولم يقدر أحد أبنائه على حكم تونس طويلا رغم حماية إحدى القبائل العربية التي تزوج منها .

وما لبثت خلافات إفريقية المزمنة أن مكنت بني مرين من الهجوم على مملكة بني حفص من جديد . وأكمل السلطان أبو عنان احتلاله لاراضي بني عبد الواد بالحاق بجاية حيث استمال البدو بإغداق الهبات عليهم (1353) ثم استحوذ رغم خيبة مرة على قسنطينة وعنابة وتونس (1357) . وواجه مثل أبي الحسن من قبله مشكل نفوذ السلطة المركزية على العرب . ومنيت محاولاته لقمعهم بنفس الخيبة . وبذلك انفض مسن حوله حلفاؤه واضطر إلى الالتحاق بالمغرب على جناح السرعة . وكانت له حملة أخرى وأخيرة اقتصررت على مسيرة عسكرية بين عنابة والأوراس (1358) .

عودة سلطة بني حفص :

وكان الحفصي أبو العباس الذي تقلد أمر قسنطينة لصداقة بينه وبين السلطان المريني هو أحد الأمراء الثلاثة الحاكمين لتونس وبجاية وقسنطينة بعد رحيل بني مرين وتمكن من أخذ بجاية وتونس وعنابة بإعانة الداوودة (1366) ثم تونس (9 نوفمبر 1370) وبقي بها إلى سنة 1394 .

وفي الواقع كان الرجل الذي جمع بين يديه مرة أخرى كامل المملكة الشرقية جديرا بهذا النجاح الذي حالفه فهو قائد بحق ذو عزم وحزم وقوة ومع ذلك نوه المؤرخون بعدله . وما كان ليرضى أن يحصر البدو نفوذه في تونس وأحوازها . لذلك تراجع في الإقطاعات الخليفة وحال دون تطاول القبائل وأحمد الثورات وأخضع لسلطته مشايخ الجريد وقفصة وقابس . إلا أنه كان يدرك مساوي الصرامة فيجئح إلى الدبلوماسية ويعرف متى يجب الإحسان وينفع العفو . وأمكنه بفضل هذه المهارة السياسية البقاء في الحكم . فلم يستطع العرب المنقسمون على أنفسهم أن يلحقوا بالخليفة الحفصي ما الحقوه بأبي الحسن وأبي عنان المرينيين .

وفي عهده انتظمت حركة القرصنة واستهدفت مراكب النصارى وكانت بجاية المنطلق الرئيسي لها - وردت الدول النصرانية الفعل وشنت بالخصوص هجوما على المهديّة (1390) قامت به قوى من فرنسا وجنوة ولكن من دون جدوى .

القرن الخامس عشر الحفصيّ : أبو فارس وأبو عمرو عثمان

بينما كانت الدولتان المغزبيتان الأخريان بتلمسان وفاس في انحطاط متواصل طيلة القرن الخامس عشر استرجعت المملكة الحفصية في نفس الفترة شيئا من سلطانها ومجدها بفضل عاهلين لم يعدما القيمة الذاتية وعمرا طويلا وهما : أبو فارس (1394 - 1434) وأبو عمرو عثمان (1435 - 1488) .

أما أبو فارس فقد اعتلى العرش من دون صعوبة عندما مات أبوه أبو العباس ولم يكّد يتجاوز الثلاثين من عمره وسبق أن فرض نفسه قائدا عسكريا أثناء هجوم النصارى على المهديّة واشتهر بالقوى وعرف كيف يستميل إليه إخوته ، فلم يجد كبير عناء للقضاء على بعض من حدثتهم أنفسهم بالتمرد . ووفق إلى تأليف قلوب الموحدين والأندلسيين والعرب لفائدته وهم أهمّ الكتل بالمملكة .

واستقام له بفضل ما وفرّه لحكومته من قوة أن يخضع لسلطاناه الواحدة بعد الأخرى الإمارات الكائنة بجنوب البلاد التي كادت أن تكون مستقلة بعد أن اضطر أبوهم إلى غض الطرف عنها وهي طرابلس (1398) وتوزر وقفصة (1400) وبسكرة (1402) ونجح حتى في الاستيلاء على مدينة الجزائر (1410 أو 1411) ، وكسب أبو فارس من استرجاع الدولة الحفصية لسابق عزّها نفوذا أدبيا كبيرا زاده إشعاعا تعلّقه بالدين إذ أنه قرّب إليه العلماء والأشراف وأقام المواكب البهيجة بمناسبة الأعياد الإسلامية ، ويسر أداء الفرائض وتمسك قدر المستطاع بأحكام القرآن الكريم ، وتجاوزت سمعة أبي فارس حدود مملكته كما تشهد بذلك السفارات وما كانت ترسله إليه غرناطة وفاس ومصر وحتى البقاع المقدسة من هدايا وما تقدمه من آيات التبجيل وتسابقت الدول النصرانية

من جهتها إلى عقد المعاهدات مع عاهل في مثل هذه القوة يمسك بزمام مملكة مزدهرة ، غير أن أعمال القراصنة كانت تعكّر أحيانا صفو مثل هذه العلاقات الطيبة : من ذلك أنه على إثر استباحة تربلانكا (1397) (Torreblanca) هاجمت أساطيل بلنسية وميورقة معا تدلس (1398) ثم عناية (1399) ، كما خرب أسطول ألفونس الخامس صاحب أرغون جزر قرقنة وتصدّى لجرية دون جدوى سنة 1432 .

وإن أسطع برهان على النهضة الحفصية ما أظهره أبو فارس مبن اهتمام بشؤون الغرب بينما تحمل الحفصيون طيلة قرن كامل ضربات فاس أو تلمسان من دون ردّ فعل أو هم اكتفوا بالاستنجاد باحدى المدينتين على الأخرى ، وتحرك أبو فارس كرتين على تلمسان (1424) - (1431) حيث كان عدد من بني عبد الواد يتنازعون على الحكم وفي كل مرة وضع على العرش ملكا مواليا له . وذهب به الأمر إلى توجيه جيوشه إلى مدينة فاس (سنة 1424) إلا أن السلطان المريني الشاب ووصيته من بني وطاس هادناه ففعل راجعا ولم يتدخل ببلاد المغرب الأقصى إلا لحمايته بأسطوله من غارات المراكب البرتغالية . واهتم كذلك اهتماما كبيرا بما كان يمزق مملكة غرناطة من صراع على الحكم وذلك من سنة 1427 إلى سنة 1430 ، ولما توفي كانت الدولة الحفصية قد بلغت أو كادت ما كان لها من شأن في عهد المستنصر .

وخلفه في الحكم حفيده المنتصر الذي هدّاه المرض فمات بعد أربعة عشر شهرا (16 سبتمبر 1435م) من توليه الملك . واعتلى العرش بعده أخوه أبو عمرو عثمان الذي كان فرض نفسه رغم أنه لم يتجاوز حينذاك من سنه ست عشرة سنة ونصفا .

ولم تخل أيام ملكه الأولى من اضطرابات خطيرة ذلك أن أحد أعمامه أبا الحسن أقض مضجعه في جهتي قسنطينة وبجاية . فما زال به طيلة أحد عشر عاما حتى ضربه ضربة قاصمة بهذه المدينة (1446)

ولم يقض عليه القضاء المبرم إلا سنة 1452 . على أنه يجدر التنبيه إلى أن هذه الاضطرابات لم تتجاوز حدودا معينة فلم تحل دون قيام

الخلافة بحملات هامة ضد نفطة (1441) وتوقرت (1449) ، ولم يختل الأمن في كامل المملكة الحفصية كما يشهد بذلك نص رسمي مصدره فاسورانس بتاريخ 1446 ذكره برنشفيك . واضطر أبو عثمان بعد ذلك إلى قمع بعض القبائل العربية التي تمردت لأسباب مالية (1463) . وهو أمر طبيعي في البدو ولم يكتس خطورة كبيرة ولأنال من سلطان الحفصيين . ولدينا فيما يخص إفريقيا في ذلك العهد وثيقة نشرها ر . برنشفيك فيها يروي شاهد عيان وهو أدورن أصيل الفلاندر (le Flamand Adorne) ما رآه أثناء إقامته بتونس وسوسة من 27 ماي إلى 25 جوان 1470م . ويبدو أبو عثمان من خلالها عاهلا يجمع بين القوة وطيبة النفس ، يحبه ويهبه رعاياه وقد أمسك بزمام مملكته في حزم كامل .

ويؤيد ما سبق طبيعة علاقاته مع الدول المجاورة : ذلك أن عددا كبيرا من كبريات البلدان النصرانية أبرمت أو جددت معه معاهدات تجارية من بينها بروفنسا وفرنسا في عهد لويس الحادي عشر اللتين لم يكن لهما إلى حد ذلك التاريخ دور يذكر . فقد لاحظ برنشفيك : « أغلب الظن أن جمهوريات إيطاليا البحرية وجهت حركتها التجارية نحو إفريقيا الشمالية بعد أن صدها الجيوش التركية الزاحفة عن جهات كثيرة من شرقي البحر المتوسط » . وكانت الدولة الحفصية في بلاد المغرب تظهر في عهد عثمان وأبي فارس في مظهر الدولة الكبرى الأولى . ففي سنة 1468 و 1466 قام الخليفة بحملتين على تلمسان لتدعيم النفوذ الحفصي بعد أن نالت منه خلافات العائلة الحاكمة . ونحن نعلم أن محمد الشيخ صاحب فاس ومؤسس دولة بني وطاس أعلن سنة 1472 عن ولائه للخليفة عثمان . وكانت العلاقات مع مصر وغرناطة ودية ونكاد نجزم بان تونس عينت سفيرا لها لدى السلطان التركي في اوائل سنة 1454 .

نهاية بني حفص :

لقد عين عثمان خلفا له أحد أحفاده هو أبو زكريا يحيى وما أن اعتلى العرش حتى تصدى إلى مقاومة عدد كبير من أعمامه وإخوته كانوا ينازعونه الحكم ، وكان قاسيا ، لم يتورع من استعمال العنف مع انصاره وأعدائه على السواء . وسرعان ما تخلت عنه ذووه فما زال يقاتل حتى

قتل (1489) ولم يكن ابن عمته المنتصر عليه باسعد حظاً منه ، إذ خلفه أحد أبناء ضحيته أبي يحيى زكرياء (1490) وبينما كانت الدلائل تبشر بمستقبل زاهر لهذا الشاب الذي لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره إذ بالطاعون يختطفه في ربيع 1494 . فخلفه أحد أبناء عمومتته أبو عبد الله محمد وهو وطيء الجانب متهاك على اللذات غير قادر على علاج ما داهم الدولة الحفصية من انحطاط ولا على مواجهة ما سينجر في إفريقيا من نتائج الصدام بين الاتراك والاسبان .

الدولة الحفصية :

ومهما واجهت الدولة الحفصية من صروف الدهر فانها استطاعت أن تصمد في الشطر الشرقي من المغرب طيلة ثلاثة قرون ونصف وإن ترك في البلاد أثراً عميقاً . الأمر الذي يبرر عمل ر . برنشفيك الذي خص أكثر من نصف تأليفه القيم لدراسة البلاد ومؤسساتها .

وإن أول سؤال يتبادر إلى الذهن هو التعرف إلى الحال الديموغرافية ، فقد توافد على إفريقية - أكثر من غيرها من اجزاء المغرب الأخرى من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر - عدد كبير من العرب الرحل . فكيف تمكن هؤلاء القادمون الجدد الذين نجهل عددهم من الاستيطان ببلاد لازيب انها كانت عامرة بالبربر ، انهم استقروا بصفة عامة ومن دون أن يكون ذلك قاعدة مطردة في المنبسط من الارض المتلائم مع عاداتهم الرعوية بينما نرح البربر نحو السواحل أو اتجهوا إلى المناطق الجبلية . على أنه من العسير ان نميز ابتداء من العهد الحفصي بين الجهات البربرية والجهات العربية لأن الحدود اللغوية لم تعد متطابقة مع الحدود العرقية ، نتيجة لتغلغل اللغة العربية تغلغلا عميقا حتى في المناطق التي يسكنها البربر . ولا نستثنى من ذلك الا الجماعات التي كانت في مأمن بفضل عزلتها النسبية مثل القبائل وسكان اوراس وجربة وجبال الجنوب التونسي وطرابلس الذين بقوا على لغتهم البربرية . ويجب أن نضيف إلى أن العقيدة الدينية ساهمت في بعض المناطق في استبقاء اللهجة البربرية ذلك أن سكان جبال نفوسة وجربة وجزء من جفارة تمسكوا بالمذهب الخارجي واللغة البربرية معا . وكان لتضافر هذين العاملين أن حالا دون تسرب

المؤثرات الخارجية ، أما سائر البلاد التونسية الحالية فانها تعربت تماما منذ العهد الحفصي .

ومن جهة أخرى فان توزع المدن في البلاد دخل عليه ولاشك شيء من التغيير تحت تأثير هجومات البدو فمعظم المدن الجديرة بهذا الاسم استقرت في السواحل التي لم يعرها البدو اهتماما كبيرا بينما كانت تفسح المجال أمام السكان الجدد لاقامة علاقات اقتصادية نشيطة مع الدول النصرانية . وإذا استثنينا المواني فاننا لانكاد نجد الا الواحات والمراكز الصحراوية . واخيرا القيروان وقسنطينة وهما المدينتان الوحيدتان داخل البلاد اللتان احتفظتا بمركزيهما - ولو بصورة منقوصة - نظرا إلى اتساعهما وإلى موقع احدهما الاستراتيجي ومنزلة الثانية الدينية : وإن علم الآثار يشهد بذلك على الأقل بالنسبة للقيروان - وهكذا فإن توازن البلاد تغير تغيرا جذريا منذ عهد بني زيري . ويظهر أن بني حفص ساهموا بفضل مرونتهم السياسية في إقرار التوازن البشري الجديد بافريقية .

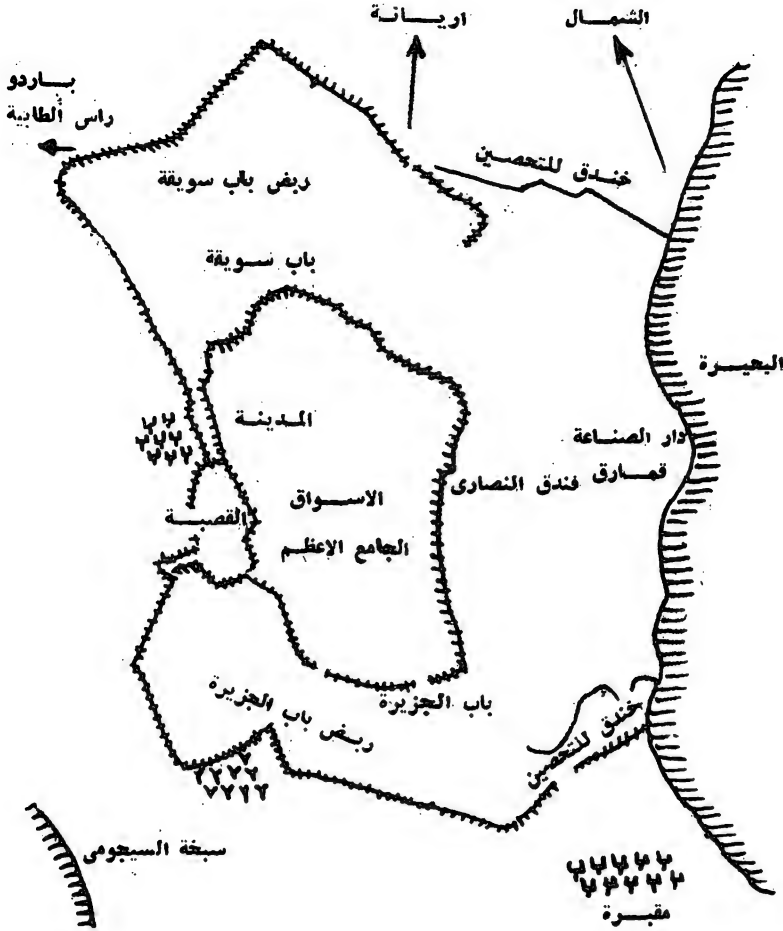
وكان يعيش إلى جانب المسلمين نصارى ويهود . ولئن ضايق الموحدون الاسرائيليين فقد تمكنوا من العيش والتحق بهم عدد من يهود اسبانيا على اثر ما نالهم من اضطهاد سنة 1391م . نتيجة قرار الطرد الذي سلط عليهم بعد استيلاء النصارى على غرناطة . ولم يقم يهود إفريقيا بالدور السياسي الذي كان من نصيب اخوانهم في الدين بالمغرب الأقصى في عهد المرينيين ولكنهم ساهموا مساهمة فعالة في الحركة الاقتصادية بالبلاد وشملهم ملوك بني حفص بالرعاية والعناية . فهل كانوا يعيشون في حارات خاصة كما كان الشأن في المغرب الأقصى ابتداء من القرن الخامس عشر ؟ ان ما لدينا الآن من الوثائق لايسمح بالتيقن من ذلك .

اما النصارى فانهم كانوا جميعا من أصل أوروبى إذ أن آخر ماتبقى من آثار المسيحية الافريقية قد اندثر منذ القرن الثاني عشر تحت تأثير الحركة الموحدية . وكان منهم التجار الذين يعيشون غالبا في المواني مجتمعين « بحسب قومياتهم » في فندق حيث يسكنون ويتاجرون تحت اشراف قنصل معتمد لدى العاهل الحفصي - ولئن كانوا عرضة للتقلبات السياسية فان وضعهم كان في الغالب مرضيا . وكان إلى ذلك يوجد

بالبلاط الحفصي - حرس نصراني متركب من بضع مئات من الرجال كادوا جميعهم في بعض الأوقات ان يكونوا من القطلانيين (Catalans) يقومون بحراسة شخص الأمير ويعيشون في حي خاص بهم وبقوا في الجبلية على نصرانيتهم .

وكان يوجد إلى جانب هؤلاء من تنكر لدينه وأكثرهم كانوا من العبيد رجالا ونساء اختطفهم القراصنة ، وأخيرا كان يوجد عدد من رجال الدين في خدمة كنائس المجموعات النصرانية منهم المكلف بدفع دية الأسرى ومنهم المبشر سواء انتسب إلى نحلة الدومينكان أو الفرنسيسكان يسعون جميعا إلى شراء الأنفس في سبيل الإله .

واستبقى الحفصيون بافريقية في حكمهم لهذه المجموعة من السكان المختلفة الأجناس النظام الذي وضعه الموحدون بل ان اسم المهدي ابن تومرت ظل إلى أوائل القرن الرابع عشر يدعى له في الخطب الجمعية الأمر الذي يدل دلالة قطعية على أن الخلفاء الحفصيين كانوا حريصين على الظهور بمظهر الوارثين للموحدين والمواصلين لرسالتهم ، وان المعلومات التي اوردها العمري في كتابه « المسالك » والتي استنفذ «قودو فروا دي مونين» لبابها كاملا لتشهد بأن هذا النظام بقي ماثلا حتى أوائل القرن الرابع عشر ولكنه كان يتطور بمفعول مؤثرات عربية وأجنبية .



شكل 18 : - تونس في عهد بني حفص .

وكان الملك يستأثر بجميع السلطات حسب تصور الناس لمفهوم الملكية في ذلك العهد وكان محل التبجيل والاحترام حسب مراسم مضبوطة في شيء من الدقة ، غير أن هذا الحكم المطلق لا يعني ان الملك الحفصي كان يحيا على غرار خلفاء بني العباس بعيدا عن رعاياه بل كثيرا ما يظهر اليهم مثل سلطان المغرب اليوم ويستقبلهم من دون صعوبة تذكر .

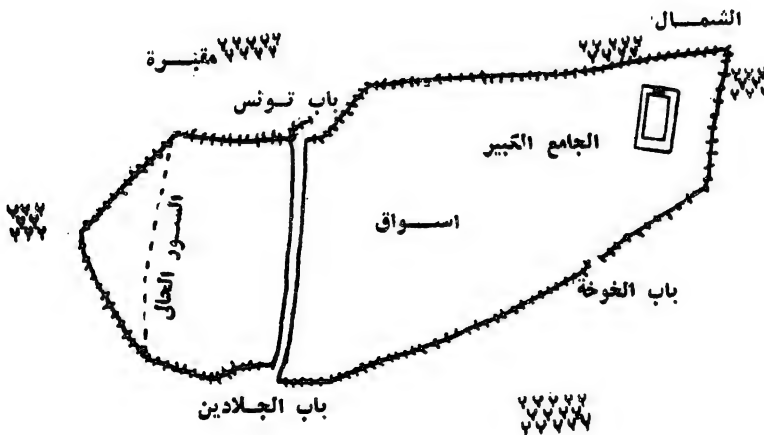
وهو إلى ذلك يحكم باعانة عشرة مشايخ من الموحدين فشيخ الموحدين وهو رأس الارستقراطية بحق كان يمارس أسمى المهام . ولقد بقي المجتمع الموحدى كعهده في زمان ابن تومرت منظما تنظيما عموديا اذ نجد في أعلى السلم كبار مشايخ أهل العشرة ثم صغار المشايخ أهل الخمسين وأخيرا المشايخ العاديين . وقد رتب هؤلاء المشايخ حسب أصناف يراقبهم مزوار كان في أول الأمر محتسبا لاغير ثم تطورت وظيفته فاصبح حاجبا للأمير ومنفذا لأحكامه .

وتناقص تأثير المشايخ بصورة ملحوظة منذ النصف الأول من القرن الخامس عشر . وكان المرموقون منهم اعضاء ولاشك في مجلس الشورى الذي كان يستشير به الملك وأغلب الظن انه كان يضم كبار الموظفين الساهرين على حظوظ الادارة . وكان لأبي زكرياء ثلاثة وزراء ولقد اشار « ليون الإفريقي » إلى وجود « عشرة ضباط كبار ببلاط ملك تونس في أول القرن السادس عشر » . أمّا الوزراء الثلاثة فهم صاحب الجند وهو الوحيد من المشايخ وهو قائد الجيش والمكلف بالعطايا ، ووزير المال الماسك للحسابات ، صاحب الجباية ، والملاحق للمحتالين وصاحب ديوان الرسائل والشرطة ، وعندما تلقب المستنصر بلقب خليفة أنشأ حجابة كبرى وحجابة صغرى لكلتيهما نظامها الخاص وترجعان بالنظر إلى صاحب ديوان الرسائل . وأكد ابن خلدون على أهمية وظيفة الحاجب الذي كان في أول الأمر كبير الخدم ثم أصبح همزة الوصل بين السلطان وموظفيه وأخيرا رئيس الحكومة الحقيقي . ويذكر مؤلف كتاب المسالك خططا أخرى لحسبان المال والنظر في حوائج المتظالمين ويذكر صاحب الشرطة والمحتسب بتونس والولاة الذين يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر على غرار المحتسب .

وكان ملوك بني حفص يبرزون سلطانهم بما وضعوه من مراسم أثناء استقبالاتهم العمومية وخاصة مواكبهم إذ كانوا يمتطون متن جواد ويمرون في أبهة محفوفين بالمشايخ والحرس الذي أصبح فيما بعد من الأجانب وسط نقر الدفوف وقرع الطبول وحفيف البنود الحريرية المطرزة المتعددة الألوان يعلوها علمهم الأبيض في جو من الاحتفالات

الشعبية . وإننا نجد فيما دونه أدورن (Adorne) وصفا ، حيا للغاية ، لأحد هذه المراكب .

وكان الجند يتكوّن في معظمه من الموحدين ولا يقتصر على البربر المرتبّين طبقات بل كان يوجد فيه الأتراك والأندلسيون والعرب وحتى مسلمة النصارى والزنوج ويتكوّن منهم ومن المرتزقة المسيحيين حرس الخليفة الوفي . وكان للجند امتيازات ويتمتع المشايخ حسب مراتبهم باقطاعات وحتى بحق استخلاص الجباية لفائدتهم . وكان لكل موحد جباية يتسلمها عينا اربع مرات في السنة علاوة على الهبات التي يبادر بها السلطان . وقد لاحظنا أن المقتضيات العسكرية اضطرت الحفصيين إلى أن يقطعوا العرب إقطاعات . ولم يعدم هذا الجيش القيمة بل يمكن اعتباره في نفس المستوى الذي بلغته الجيوش الأوروپية حينذاك رغم افتقاره إلى السلاح الثقيل . ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة للقوات البحرية التي كانت منذ أواخر القرون الوسطى دون مستوى الأساطيل الأروبية بالبحر المتوسط ، ولم تبرز المراكب الحربية التابعة لجنوة أو غيرها مراكب الحفصيين فحسب بل ان التجارة الخارجية لبلاد البربر كانت تعتمد في معظمها على المراكب النصرانية لقلة وحدات أسطولهم التجاري ، واحتل القراصنة وحدهم مرتبة مرموقة في غربي البحر المتوسط نظرا لسرعة حركتهم وقدرتهم الفائقة على مباغاة العدو .



شكل 19 : - القيروان في عهد بني حفص .

وكان للادارة الجهوية ثلاثة اشكال متميزة سواء تعلّق الأمر بقبايل « مدن الجنوب » او المدن والجهات الراجعة بالنظر إلى سلطة الملك المباشرة وكانت القبائل العربية في معظمها تخضع للمشايخ المعيّنين منهم من دون قاعدة مضبوطة ، فاذا كانت علاقاتها طيّبة مع السلطة المركزية قام مشايخها بدور مزدوج من جهة كأعوان للحكومة ولدى منظورهم ومن جهة أخرى كممثلين لهؤلاء لدى الحكومة - واضطر الضعفاء من ملوكهم في مدن الجنوب إلى غض النظر عن ضغط بعض الجماعات او البيوتات المحلية . أمّا اشدّاؤهم فانهم لاقوا صعوبات في القضاء على هذه الحركات الاستقلالية الشديدة الشبه بما طرأ فيما بين سنة 1050 وسنة 1060 عند زحفة بني هلال . وأخيرا كان يمثل السلطان وال في الجهات التي يمارس فيها الخليفة سلطته مباشرة وكان هذا الوالي في غالب الاحيان أحد اقربائه وكثيرا ما كان من أبنائه يعضده موظف مجرب يتمتع مثل الخليفة بمشمولات واسعة جدا .

تونس والتجارة في حوض البحر المتوسط :

أصبحت تونس في عهد الحفصيين عاصمة بلا منازع . واشتملت على المدينة القديمة يلاصقها شمالا ربض باب سويقة وجنوبا ربض باب الجزيرة يحوط بهما سور شيد في أول القرن الرابع عشر بشرقي القصبة وهو من عمل الموحدین ادخل الحفصيون عليه بعض التغييرات وأكملوه ، وأخيرا كان يوجد بشرقي العاصمة فنادق للمسيحيين ودار الصناعة على حافة البحيرة . وان ما لانزال نجده بها إلى اليوم من مختلف التجهيزات يعود الفضل فيه إلى الحفصيين من ذلك مدرستان ماثلتان إلى اليوم يرجع عهدهما إلى أبي زكرياء . أمّا المدرسة الثالثة التي عفت رسومها فقد أقيمت بالأسواق في آخر القرن الثالث عشر . كما ينوه كتاب المسالك بأهمية حماماتها وأسواقها . وفعلا فقد بني سوق العطارين والقماش في القرن الثالث أو الرابع عشر بسككها الثلاث المبنية طاقاتها بالآجر وبدكاكينها المغطاة أيضا بطاقات عمودية بالنسبة للأخرى .

وكان لا بد من بناء اسواق جديدة نظرا إلى أن حركة التجارة التونسية في نشاط مستمر ، وكانت تونس تصدّر الحبوب عند توفر المحاصيل والتّمور ، وزيت الزيتون ، والشمع ، والحوت ، والملح ، والأقمشة ،

والزرابي، والمرجان، وبعض الأسلحة وخاصة الصوف والجلود ولربما كانت تصدر كذلك العبيد السود . وكانت تورّد الحبوب عند الاضطراب والخمور وبعض طيور القنص والبلور والخشب المصنوع والمعادن ، والأسلحة والتوابل والحشائش الطبية ، والعطور والخشخاش ، والكتان والحبر ، والقطن ، وأقمشة متنوعة ، والحلي ، وكانت البضاعة الموردة تخضع إلى ضريبة قدرها 10 في المائة من قيمتها وكانت تونس تضرب سكة من ذهب (دينار والدوبلون) ومن فضة (درهم) هي أكثر اعتبارا من سكة البلدان النصرانية .

وكانت المدينة تتاجر مع المشرق برا بواسطة القوافل وبحرا ، وكان التجار النصارى يتوافدون على مينائها . فعلاوة على المنحدرين من جنوة وبيز فإن الآتين من البندقية وفلورانس والأرغون كانوا يقومون فيها بدورهم في القرن الرابع عشر ، فكان لآل أكسياولي (Acciaiuoli) وبروجي (Perruzzi) من فلورانس الذين فتحوا في تونس وكالات قارة وأقدموا على تقديم تسبقات للخليفة ، تأثير سياسي بعيد الأثر ، وكذلك سمح تقدم التقنية التجارية وتطور التأمين على المراكب بتنمية النشاط الاقتصادي . وأبرمت معاهدات خاصة لحماية الأجانب في اشخاصهم وممتلكاتهم ، وتعتبر المعاهدات التي تمت مع البندقية سنة 1231 وبيز سنة 1234 أو جنوة سنة 1236 مثالا يحتذى . « فهي تقضي بضمن الملاحه للأطراف المتعاقدة ... وتضبط قواعد التجارة وشروط استيطان النصارى الأجانب في دار الاسلام » . وتجددت هذه المعاهدات في فترات كادت أن تكون منتظمة وزيد فيها أحيانا . من ذلك أن بيز تحصلت سنة 1353 على ضمانات جديدة لأمن رعاياها وحرية متاجرتهم واعتبار مسؤولية التاجر المعني بالأمر في حالة نشوب خلاف عوضا عن ادانة مواطني هذه المدينة بصورة جماعية ، وكان لكل أمة قنصل يرعى مصالح جاليتها وفندق تبودع فيه البضائع ويلاذ به عند حدوث الاضطرابات ووجدت كذلك فنادق نصرانية بعناية وبجاية وصفاقس وقابس وجربة ، ولم تكن التجارة في أمن دائم إذ كان النصارى ينافسون المسلمين في سوء النية - وكثيرا ما كان الدفع بالتقاضي (à crédit) وترد البضائع إمّا عن طريق التمارك

بضممان أدبي من السلط وتباع غالبا بالمزايدة وعن طريق ترجمان أو تأتبي مباشرة بما في ذلك من مخاطرة بالنسبة الى التجار .

واستفحل امر القرصنة وتجاوزت سلطة الخليفة فاضطرت المراكب إلى أن تبهر متجمعة وتكررت الأزمات من ذلك احتلال «روجار دي لوريا» لجربة وتركيز هذا الاحتلال من قبل مغامر قطلاني يدعى رامون مونتنيير (Ramon Montaner) (1311 - 1314) ثم استرجاع المسلمين لها سنة 1335 وهجومات أهل جنوة والصقليين غير الموفقة وكانت النتيجة ان توترت العلاقات وانتهى التنافس بين البحارة النصارى وقرصنة المهدية إلى قدوم أسطول من البندقية وجنوة سنة 1390 تعززه مراكب فرنسية للاستيلاء على هذه «المدينة الافريقية القوية» بحمايتها الأشداء (عن المؤرخ فرواسار) وفشل الهجوم ولكن قد تكون المهدية اضطرت إلى دفع اناوة . ولاشك أن نمو قرصنة المسلمين كان من العوامل التي حملت الإسبان على مهاجمة جربة وتونس في القرن السادس عشر .

الحضارة الحفصية :

وكما كانت الدولة الحفصية نشيطة في الميدانين السياسي والاقتصادي فانها احتلت كذلك مرتبة ممتازة في دنيا الفكر بحيث يمكن الجزم بوجود حضارة حفصية . وامتازت هذه الحضارة من الناحية الدينية باحياء المذهب المالكي بعد أفول نجمه في عهد الموحدين وذلك بفضل مدارس الفقه التي ازدهرت بتونس وبجاية والقيروان وبالخصوص بفضل العالم الشهير ابن عرفة (1316 - 1401) وفي نفس الوقت تقريرا انطلقت الحركة الصوفية ببلاد المغرب نتيجة لدروس أبي مدين المتصوف الكبير ببجاية ، (سيدي بومدين المتوفى قرب تلمسان سنة 1197 أو 1198) وانتشر التصوف بافريقية انتشارا كبيرا منذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر على أيدي رواد ظهوروا في القرن الثالث عشر أمثال أبي سعيد الباجي (سيدي بو سعيد) وأبي الحسن الشاذلي (سيدي بلحسن) وعائشة المنوبة (للا المنوبة) . وكان سيدي بن عروس اشهر مشايخ الصوفية «مولى البلاد» إلى جانب عدد قليل من امثاله وقد قدسه الناس في حياته وسار أهل تونس قاطبة في جنازته سنة 1463م . ، وطراً على العلوم

الوضعية في إفريقية ما طرأ عليها من انحطاط. في سائر العالم الاسلامي ، فلم يوجد بها في العهد الحفصي أي عالم في الرياضيات او الفيزيا ، ولا أي طبيب ممتاز ، بينما كثر الإنتاج الأدبي وتعددت التراجم الهادفة ، فالى جانب ابن خلدون العبقرى يمكن ان نذكر مؤلفات تاريخية ذات قيمة مثل رحلة التجاني (القرن 14) والفارسية لأبن قنفذ والادلة للهتاتى وتاريخ الدولتين المنسوب للزركشى وهي آثار ظهرت كلها في القرن الخامس عشر ، فاذا أضفنا إلى ذلك النثر الفنى الذى تنمق به الرسائل الرسمية والشعر الذى توحى به المناسبات فى غالب الأحيان تصورنا تقريبا ما كانت عليه الحياة الفكرية فى المملكة الحفصية : لقد كانت حياة فكرية فاترة تتجاذبها مؤثرات اندلسية لم تخل من اعراض الانحطاط ومؤثرات شرقية باهتة ، انها فترة انتظار وركود نسبي لها الفضل على كل حال فى الحفاظ على تراث ثقافى عريق وممتاز .

وكان سلاطين بني حفص ايضا بناة وجدوا فى المدن معالم كثيرة تذكر بالفن المعماري الأغلبى والصنهاجى ولكنهم لم يتأثروا بالتقاليد العتيقة ولا انساقوا مع المؤثرات المعمارية الشرقية بل تعلمذوا للفنانين الاندلسيين الذين توافدوا على بلاط تونس ، فقد كتب ابن سعيّد فى رسالة إلى احد الأعيان المهاجرين من اسبانيا ما فحواه : إن السلطان الحالى (أبوزكرياء) شيد المعالم وبنى القصور واغترس الرياض والكروم على نمط أهل الأندلس ، أما المهندسون والبنّاءون والخشّابون وصانعو الآجر والدهانون والبستانيون فهم من أهل هذه البلاد والأندلسيون هم الذين وضعوا أمثلة هذه المباني أو نقلوها عن المعالم الموجودة فى بلادهم (ترجمة فاينثوس ذكره جورج مرسى) كما كان لاشعاع الثقافة المرينية على نحو ما عبر عنها العلماء الذين عاشروا أبا الحسن أثره كذلك فى الفن بافريقية .

وبادر أبو زكرياء بتشيد جامع القصبة فى تونس طبقا لتقاليد إفريقية قديمة إذ تذكر صومعته المربعة الشكل والمبينة بالحجارة بصومعة قصبة مراکش مع الفارق فى الحجم . ولاشك ان المستنصر شيد مسجدا بالمنستير كما أذن الخليفة أبو حفص بالقيام بأشغال هامة فى الجامع الكبير بالقيروان (1294) . ولئن عفت آثار قصور المستنصر وحدائقه

التي كانت تثير اعجاب ابن خلدون فاننا لانزال نحفظ بباين بالمنستير يرجع تاريخ أحدهما إلى عهده لهما مشارف مستوحاة من الشرق . وكانت في إحدى حدائق هذا السلطان بركة عظيمة يتمتع نساؤه بالتفسيح في مياهها على متن قوارب واضطر لتزويدها بالماء إلى ترميم حنايا أدريانوس القديمة وإقامة توابع لها وبنى الحفصيون كذلك في تونس صهاريج « وسبالات » لانزال حنيفياتها باقية إلى اليوم ، واحتفظ المعماريون في إفريقية بالميل إلى استعمال المواد المتعددة الألوان ، وأخيرا فان احواز تونس التي تضيفي على هذه المدينة طابعها المميز هي من إنشاء بني حفص . من ذلك أولا قصر رأس الطابية المشيد سنة 1225 في الجهة الشمالية الغربية من المدينة ، وقد أكمله المستنصر ثم الحديقة التي خططها هذا الملك قرب بلدة اريانة الحالية وقصر باردو الذي بناه أبو فارس ويرجع تاريخه إلى السنوات الأولى من القرن الخامس عشر على أغلب الظن ، وأخيرا دار للنزهة أقامها أبو عبد الله محمد بالمرسي حوالي سنة 1500 .

وهكذا فإن بني حفص لم يكونوا من عظام البناة أي انهم لم يخلفوا مباني جديدة بالاعجاب كما فعل الموحدون من قبلهم بحيث قد لايجوز أن نتحدث عن فن معماري حفصي ولكنهم رسموا المدينة مثل تونس طابعها الذي احتفظت به قرونا ونجحوا في الابقاء على مجموعات عمرانية استطاعت ان تصمد أمام زحفات البدو مثل القيروان .

وصفوة القول أن فضل بني حفص يتمثل في حفاظهم على حضارة كانت مساهمتهم الطريفة فيها متواضعة واذا تذكرنا انهم كانوا مضطرين دائما إلى كبح جماح القبائل المشاغبة ، واليقظ إلى خطر النصارى المتزايد من دون أي أمل في عون خارجي سلمنا بان عملهم على تواضعه جدير على الأقل بالاحترام .

2 - مملكة بني عبد الواد بتلمسان

نهوض زناتة . بنو عبد الواد :

لئن وفق شرقي بلاد البربر ، حيث بقيت التقاليد الحضرية والادارة حية ، إلى المحافظة على السلطنة رغم اعتداءات العرب فان المغرب الأوسط أصبح من جديد أرض انتجاع فخربت مدنه واضمحلت مزارعه . واستغلت زناتة انهيار سلطان صنهاجة الشديد فاستعادت قواها شيئا فشيئا قبل قدوم البدو المنشغلين بنهب إفريقية وتدخلهم الحاسم مرة أخرى في الصراع من أجل الحكم وطبع قبائل البربر الرحل بطابعهم .

ونتج عن استرجاع زناتة لسالف قوتها ظهور دولتين في المغرب الأوسط وغريبه يفصل بينهما مضيق تازة وهما من أرومة واحدة ولكنهما متنافستان مثلما كان الشأن في السابق بالنسبة لمغراوة وبني ايفرن وهاتان الدولتان هما بنوعبد الواد بتلمسان وبنو مرين بفاس .

وأضفى مؤسس دولة بني عبد الواد أو بني زيان يغمراسن بن زيان على هذه العائلة البدوية هبة كبيرة وان كان ماضيها متواضعا جدا وإن ادعى العرب عكس ذلك واكتفى بنو عبد الواد عندما دحروا إلى حدود المغرب الأقصى في أواسط القرن الحادي عشر من جراء زحفة بني هلال بأن عاشوا طيلة قرن كامل في فلك عائلات زناتة القوية . وجازاهم عبد المؤمن على انضمامهم اليه فأقرهم في الجزء الغربي من جهة وهران حيث بقوا أتباعا في غالب الاحيان للموحدين .

ولم يكن لانحطاط بني عبد المؤمن انعكاس سيء على بني عبد الواد بل إن الحظ جاد عليهم بزعيم حازم استطاع أن يستغل الفرصة السانحة لبعث دولة مستقلة صمدت أكثر من ثلاثة قرون (1235 - 1554)

تلمسان :

أصبحت تلمسان عاصمة للمملكة المغربية الجديدة . وان لهذه المدينة من دون شك ماضيا كبيرا . فقد شيّد الرومان في النجد المجاور لها حيث توجد اليوم أكادير معسكر بوماريا الذي تحول فيما بعد إلى مدينة تحمل نفس الاسم ولربما فتحها أحد قواد عقبة ، إلا أن الذي لاشك فيه هو أنها صارت فيما بعد مركزا لجماعة صغيرة من الخوارج بامامة أبي قرّة ثم فتحها إدريس الأول (790) وظلت تابعة لفاس . ولما سقطت دولة الادارسة استولى على أكادير أمراء مغراوة وهم بنو خزر ثم بنو يعلى الموالون للأمويين بقرطبة . وأشار البكري في القرن الحادي عشر إلى ما توفر لها من ازدهار .

وإن الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين هو الذي شيّد في أوائل القرن الثاني عشر تآكرارت التي سميت بتلمسان الحالية . وذلك في النجد الذي عسكر به شرقي أكادير . وسرعان ما نمت هذه المدينة الجديدة على حساب سابقتها وضممتها إليها في آخر الأمر . وحصّن الموحدون المدينتين وكانت احدهما مقرا لرجال الدولة والأخرى لكافة الناس . وكان يغمراسن هو الذي جعل منها كما قال ابن خلدون : « قاعدة المغرب الأوسط وأمّ هؤلاء الأحياء من زناة المغرب » .

ويبين « أ. ف. قوتيي » أن الجغرافيا قضت ، على ما يظهر ، بتأسيس عاصمة غربية لبلاد الجزائر في جهة تافنا ذلك انه اذا تأملنا في الفجوة الكبيرة الواصلة بين توات على طول الممر الذي يشق التلّ وجدنا تشابها بين الخط الذي يصل تلمسان بمصّيب تافنا حيث شيدت سيقا عاصمة « سيفاكس » وبين خط أشير - مديّة - مليانة - مدينة الجزائر ، ومهما يكن فان موقع مدينة بني عبد الواد يجعل المقام بها مستطابا ويساعد على نشاطها التجاري . فقد بنيت في منتصف منحدر (806متر) بين الحدائق التي

استمدت منها اسمها اللاتيني وبلغ جمالها حدا جعل احد الكتاب العرب يشبّوها « بفتاة مخطوبة على فراش العرس ». وكانت تسيطر على ملتقى طرق كبرى كثيرة وخاصة منها تلك التي تربط بين ميناء حنين الذي يبعد 36 كلم عن شرق نومور (Nemours) وميناء وهران وبين تافلاّت.

ولم ينقطع عنها التجار حتى في الاوقات العصيبة اذ كانوا يتزودون فيها بمنتجات بلاد السودان أي العاج والذهب والعبيد الذين تأتي بهم القوافل مرورا بمسالك حفرت على طولها آبار . وكانت تلمسان تصدر مقابل ذلك الصوف والاسلحة والكتب، وهي الى ذلك ممر للبضائع الإفريقية والأوروبية يتاجر فيها بحبي قيصارية القديم وقد نوه ليون الإفريقي في أول القرن السادس عشر بما اشتهر به تجار تلمسان من ثقة .

وعلى عكس ذلك كان موقع تلمسان رديئا من الناحية السياسية فكأنها بين شقي رحي تحاصرها مملكتا بني حفص وبني مرين فاستهدفت خاصة الى ضربات جيرانها بفاس الذين اعتبروها تابعة لهم والى هجمات بني هلال البدو المستعدين دائما لمساندة الغزاة . فلم يستقر لها حال منذ حكم يغمراسن ولم يستقم لها أن تحكم امبراطورية عظيمة

يغمراسن بن زيان :

ومن حسن حظّ هذه الدولة أن طال حكم مؤسسها يغمراسن (1235 - 1283) فبعد أن ظل الحكم مستقرا فيها طيلة خمسين عاما داهمتها احداث خطيرة اضطرتها الى محاربة اعدائها فقد هاجمها الحفصيون وانتصروا عليها سنة 1242 وجعلوها مؤقتا تحت حمايتهم . وتسلب عليهم الموحدون ولكنهم ردّوا على اعقابهم (1248) وحسدت زنّاة، بني عبد الواد على نعمتهم فتحالفت عليهم مع اعدائهم وتطاول عليها بنومرين وتابعوا هجماتهم لاختضاع مملكة زنّاة المنافسة لهم إلى سلطة فاس وأخيرا أغارت عليها القبائل العربية وخاصة المعقل من ذوي عبيد الله النازلة بغربي أرض بني زيان ممّا اضطر يغمراسن إلى القيام باثنتين وسبعين حملة على مايقال لكسر شوكتهم .

وعندما سعى يغمراسن الى استقرار بني عبد الواد لم يتخل عن ارتباطه بالبدو ولا استغنى عن مساندتهم . وواجه صف العرب وزنّاة

المتكون من بني عبيد الله وبني مرين بصف آخر يعتمد عرب بني سويد من قبيلة زغبة . وصار بنو سويد مخزنا له ولم يكتف بإعطائهم العطايا بل أقطعهم الإقطاعات فاستقر أكثرهم بها . وذهب به الأمر إلى استقدام بطون أخرى من بني زغبة أي بني عامر وبني حميان رغم بعد دارهم لمزيد القدرة على الاحتماء من بني عبيد الله الذين كانوا يسلطون ضغطا على جهة من حدود مملكته ، وتمكن يغمراسن بفضل وحداته المتكونة من بني زغبة من قهر دوي عبيد الله وحاول حتى الهجوم على بني مرين . ولكن سرعان ما ضاق ببني زغبة ذرعا فتركهم يرحلون عن تلمسان وكذلك الأمر بالنسبة لبني سويد أنفسهم . فقد أصبح هذا الأمير الحضري يأنس في نفسه القوة على قهر المخزن المتكون من البدو بعد أن اعتمد عليه في وقت الشدة .

ولم يكن بنو عبد الواد وبنو مرين على اتفاق رغم انحذارهم من أصل واحد . وقد يكون لهذا العداء المتبادل علاقة بالخصومات حول المراعي أو الصف . إلا أن الذي لا شك فيه هو أن الموحدين نفخوا في ناره ذلك أنه بينما تحالف بنو عبد الواد مع المنتصرين حوالي 1145 وغنموا من ذلك غنما لبي بنو مرين طاعة رجال الجبال الظافرين وانسحبوا إلى تخوم الصحراء حيث عاشوا عيشة غير مستقرة . فلما هوى ملك الموحدين استشرى أمر الخصومات القديمة بظهور منافسات سياسية . فقد حاول الخليفة السعيد في أول الأمر أن يمحق بني مرين بإعانة بني عبد الواد (1245) فلما لم يستقم له ذلك رضي بمساعدة بني مرين على تلمسان (1248) فكان الصراع المستمر بين الجارين إلى أن مات يغمراسن . فلما شجع المرحدون هذا الملك لأنهم وجدوا فيه حليفا غير منتظر ، حاول مرات كثيرة مساندة السلطان المريني المتعاضم إذ أدرك عاقبة تقارب بني حفص مع بني مرين على قومه . ولم يفلح في ذلك فأوصى أبناءه وهو على فراش الموت بالتخلي عن المغرب الأقصى والتوجه شطر البلاد الحفصية المجاورة . وكانت الفرصة سانحة إذ أضعف موت المستنصر المملكة الشرقية ضعفا كبيرا . فما انفك بنو زيان طيلة قرن كامل يحاولون دون جدوى إخضاع بطون زناقة المستقرين بوادي شلف والاستحواذ على بجاية . وتدارك بنو حفص الخطر بصرف بني مرين إلى محاربتهم .

غزوات بني مرين :

قضى أبو سعيد عثمان الزياني ملكه (1283 - 1304) في المعارك .
واندحر على ظاهر مدينة بجاية بعد أن عاث فسادا في ضواحيها (1287)
واستهدف لاربعة هجومات قام بها السلطان أبو يعقوب المريني . وحالت
أسوار تلمسان ثلاث مرات دون نجاحه فعزم سلطان فاس حيثنذ على اهلاك
المدينة جوعا (1299) . فضرب عليها سياجا من الأسوار وفتح فيه أبوابا
مداخل لحربها قال ابن خلدون « حتى لا يسكاد الطيف يخلص منهم ولا
إليهم » . « ودام الحصار ثمانية أعوام . وإقام أبو يعقوب تجاهها قصرا
ومسجدا ومباني لإدارته وجنده وحمامات وفنادق وأسواقا أحاطها بالأسوار
وهكذا أبت همة بني مرين إلا تأسيس مدينة منافسة لعاصمة بني زيان
هي المحلة المنصورة أو تلمسان الجديدة . واستبحرت في العمران وغصت
أسواقها بالبضائع وامتألت فنادقها » بتجار رحلوا إليها من الآفاق « أما
أهل تلمسان فقد نالهم الجوع واضطروا إلى أكل الكلاب والثعابين
ولم تفر عزيمتهم بموت ملكهم المفاجيء (1304) . ويقال انه بينما
كان ابنه أبو زيان يستعد للخروج بهم للاستماتة هلك أبو يعقوب على
يد أحد خصيائه (1307) . وسرعان ما أبرمت السلم وقلدت جيوش بني
مرين راجعة في سرعة إلى فاس . ولم يدم احترام أهل تلمسان للمدينة
المنافسة لهم فهدموا مبانيها وأطاحوا بأسوارها حالما رجع الخلاف
مع بني مرين .

واغتمم العرب عجز بني زيان لا ليتحدوا مع أبي يعقوب الذي لم
يقم وزنا لغرضهم بل لتوسيع رقعة نشاطهم على الأقل وخاصة في
سرسو . فلما تخلص أبو زيان (1304 - 1308) إلى حين من خطر بني مرين
حرص على تنظيم الأمور في مملكته وغزا القبائل البربرية بشرقي البلاد وهي
التي عاضدت المرينيين وأطرد العرب من السرسو . إلا أن أي عمل ناجع
لا يعتمد البدو يكون من باب المستحيل . وقد أدرك السلطان هذه الحقيقة
واعتمد على بني يعقوب فارجع المخزن إلى سالف عهده بعد أن تسرع
يغمراسن بازائه .

ولما هلك أبو زيان لم تزل آثار هجوم أبي يعقوب ماثلة للعيان
فاجتهد أخوه أبو حمو موسى الأول (1308 - 1318) في سد ثلم الأسوار

وحفر الخنادق وتكديس المؤونة في المخازن وملء خزائن الدولة . وكانت ترمي هذه الاجراءات جميعها إلى وضع المدينة في مأمن من حصار جديد ووُفِّقَ حتى إلى منع بني مرين من تجاوز وجدة وتوسع مرة أخرى في وادي شلف وبلغ قسنطينة وبجاية . ثم اغتيل بايعاز من ابنه (1318) .

ولم يتجاوز أبو تاشفين (1318 — 1337) حينئذ الخامسة والعشرين من عمره . وكان بشهادة الاخباريين الذين لايشك في حسن نيتهم رجلا منصرفا إلى اللذات كلها بالأبهة ، أدبيا قليل الورع ، واستجاب لنداء قبائل العرب المتمردة على الخليفة الحفصي أبي بكر فحاصر بجاية وقسنطينة ثم بنى في وادي صومام حصن تامز يدكت على مسيرة يوم من بجاية بنية قطع الطريق عنها — وبينما كان ينوي ضم الجزء الغربي من مملكة بني حفص إليه تمكن أبو بكر من حمل بني مرين على مهاجمته . فاضطر أبو تاشفين إلى الوقوف موقف الدفاع عندما داهمته الجيوش شرقا وغربا في آن واحد ، ومما زاد في تدهور أمره تخلي بني سويد وبني يعقوب بن عامر عن نصرة بني عبد الواد . وضرب الحصار من جديد على تلمسان ودام مايقرب من سنتين ثم اقتحمها عنوة أبو الحسن سلطان فاس . وسقط في ساحة القتال الملك وثلاثة من ولده والقائد الأعلى لجيشه (1337) .

احتلال بني مرين لتلمسان وضمها إلى مملكتهم :

كان من نتائج انتصار سلطان فاس ضم مملكة تلمسان إليه . ورفع بنو مرين من شأن المنصورة وحسنوا معالمها وشيدوا أجمل المباني بسيدي بومدين الذي صار قبلتهم دون غيره . ولاشك أنه تم في هذه الفترة إقامة الجامع وبناء قصر النصر . وحكموا البلاد مباشرة ما يقرب من ربع قرن (1337 — 1359) وحتى عندما افلتت مملكة تلمسان من أيديهم فانهم ابقوا امراء بني عبد الواد في قبضتهم وأثاروا عليهم الاعداء كلما حاولوا التخلص من ربقتهم .

ولما انهزم أبو الحسن سلطان فاس شر هزيمة في سهول القيروان ذهب ملكه اشلاء . وتخلت عنه قبائل العرب بالمغرب الأوسط

وانضمت إلى أميرين من بني زيان هما أبو ثابت وأبو سعيد فدخلوا تلمسان بدون مشقة ولكن نجاحهما لم يدم طويلا . فقد دحر جيش مريني عتيد كتائب أبي الحسن العربية الزناتية في وادي شلف (1352) ووقع أبو سعيد في الأسر فأعدم مع أبي ثابت الذي سلمه والي بجاية إلى أعدائه . وكان السرسو من نصيب بني سويد الذين آزرُوا المرينيين ، أما بنو عامر بن حميد وشيخهم صغير الذين قاتلوا إلى جانب أبي ثابت فقد اضطروا إلى اللياذ بالصحرَاء . وهكذا وقع حضر التل وبدوه مرة أخرى في قبضة سلاطين فاس ودام ذلك ستة أعوام .

ويرجع الفضل في رجوع دولة بني زيان إلى تدخل العرب فقد نصب الدواودة الثائرون على السلطان المريني أبي عنان في تلمسان ، بإعانة قوم صغير بن عامر عم أبي حمو موسى الثاني وهو ابن أخ للسلطانين الأخيرين وكان حينئذ لاجئا بتونس (1359 - 1399) .

أبو حمو الثاني :

اضطر هذا الأديب المؤثر للدبلوماسية على الحروب إلى قضاء ملكه في قمع الثورات ومقاومة الأعداء يؤازرهم العرب وبنو مرين وفي إحباط مناورات ابنه ومؤامراته . وبلغت سيطرة بني مرين على بعض قبائل بني هلال حدا مكن أبا حمو من تأليف كتلة من العرب لمناصرته . واعتمد خاصة على بني عامر بن حميد بزعامة شيخهم صغير الذي بقي دائما على إخلاصه لبني عبد الواد كما اعتمد على معظم قبائل المعقل التي انحازت إليه بفضل دهاء وزيره ابن مسلم . ولكنه اضطر إلى إخلاء عاصمته مرتين بعد أن خذله بعض أتباعه وقضى صغير نجه .

وتقرر مصير الملكية بالمغرب الأوسط . فقد منيت إحدى هجمات سلطان بني زيان على بجاية بهزيمة نكراء كانت لها أبعاد العواقب (1366) فلم يجد العرب صعوبة في الانتشار بالسهول الخصبة التي كانوا ممنوعين عنها . وهكذا استوطن بنو حسين في تيطري حيث أخذوا في استخلاص الضرائب لفائدتهم وحاول السلطان المهزوم رد الفعل بالاعتماد على الدواودة ولكنه اصطدم بوحدة الصف بين العرب وبني

مرين التي أحكمها بنو سويد واضطر إلى مغادرة عاصمته واللجوء إلى الزّاب (1370) .

وطورد حتى توغّل في الصحراء ولم ينج من الهلاك إلاّ بموت سلطان فاس فتمكن من دخول تلمسان (1372) وعقد هدنة مع دولة بني مرين بعد مفاوضات قام بها في مهارة ، مستشار هذه الدولة وصديقها ونزمار فعاضده بنو سويد واسترجع بعض سلطته . وازدهرت مملكة بني عبد الواد طيلة عشرين شهرا ازدهارا لن يتوفر لها فيما بعد . إلاّ أن الاخطار لم تزل محدقة بها ممّا حمل أبا حمو على التفكير في نقل عاصمته إلى مدينة الجزائر (1378) . ولما أساء التقدير فتطاول على مملكة فاس فسدت علاقاته بوزمار وبني مرين وانفتح من جديد باب الحروب . ووقف في وجه أمير تلمسان عدو لدود وهوابنه بالذات أبو تاشفين الذي تغلب عليه في آخر الأمر باعانة سويد وبني مرين وطارده في الجبال فلم يزل يقاتل حتى هلك (1389) وبموته عاشت مملكة تلمسان في ظل فاس أو تونس حياة طويلة بلا مجد . وتعاقب عليها المملوك وقصرت عهودهم وكثرت عليهم الاضطرابات وظلت دولة بني زيان تواجه ضربات المرينيين والحفصيين ثم خضعت إلى الهيمنة الاسبانية وطال احتصارها قبل أن تسقط تحت ضربات الأتراك (1554) .

تعريب زناتة :

اغتنمت قبائل بني هلال الاضطرابات المزمنة التي كانت تنتاب المغرب الأوسط فانتشرت في ارجاء التلّ واستقلت بأمورها . وكان الأدعياء يعتمدون على نصرتها ويجازونها بالاقطاعات وحق الجباية . وان الحالة التي وصفها ابن خلدون لم تزدها الأيام إلاّ تفاقم فقد كتب سنة 1380 م . ما فحواف : بسط العرب نفوذهم على البسائط ومعظم المدن ؛ وأصبح سلطان بني عبد الواد لا يصل الى الأماكن القاصية عن مركز الدولة ولا يعتدّ حدود الأراضي الواقعة على البحر والتي مملكوها في أوّل أمرهم . فلقد ضعف نفوذهم أمام سطوة العرب ؛ وكانوا ساهموا في تقوية هذا العنصر البدوي بمنحه الأموال الطائلة وإقطاعه الجهات الواسعة وتسليمه موارد عدد كبير من المدن .

غير ان البلاد التي كان العرب يتوسعون في ربوعها مثل ما يمتد الظل الذي تعكسه الجبال عند انحسار النهار حسب عبارة ابن خلدون لم تكن خالية من أهلها وذلك أن قبائل زناتة بقي لها من القوة رغم الحروب وما استتبع ذلك من خراب ما مكنها من مشاغبة سلاطين زناتة والحد من سرعة توسع البدو . إلا أن زناتة سرعان ما تواروا عن مسرح التاريخ . فهل طردهم العرب ؟ وكيف قدروا على ذلك بينما لم يتجاوز عددهم حوالي مائتي ألف ضائعين في ملايين من البربر وكيف نفّس أن تكون القبائل العربية الموجودة اليوم انحدرت جميعها من الغزاة الهلاليين أليس من الأرجح أن يكون قد حصل الانصهار اثناء القرن الخامس عشر بين بدو زناتة والعرب الرحل بفضل تشابه عاداتهم ؟ بحيث يمكن القول بأن عرب المغرب ليسوا في الغالب سوى قبائل زناتة قد تعربت ونتيجة لذلك حل محل العداوة القديمة بين البربر الحضرة والبدو الذين كانت اللغة مع ذلك عامل وحدة بينهم ، فقد أشد ضراوة يباعد بين شعبين متنافرين كأعمق ما يكون التناظر أي بين العرب او زناتة المستعربين الذين ذهب بهم الظن انهم عرب وبين البربر الصامدين في وجه التعريب . وبذلك ظهر في بلاد البربر سبب آخر من أسباب الاضطرابات زاد الطين بلة . وتلك هي على كل الفرضية التي قدمها «أ. ف. قوتيي» وهي من أخصب ما قدم من الافتراضات لتبديد ما خيم على القرون الوسطى المغربية من سحف الظلام .

حضارة بني عبد الواد وفنهم :

حرص عدد من امراء بني عبد الواد على مجالسة العلماء والفنانين . واشتهرت تلمسان بأنها مدينة ثقافية وأكد ابن خلدون الذي عاش فيها طويلا أنها « نفقت بها اسواق العلم والصنائع فنشأ بها العلماء واشتهر فيها الأعلام وضاهت أمصار الدول الاسلامية والقواعد الخلافية » ومال شعراؤها إلى مدح الملوك مدحا تقليديا وبرعوا في ذلك « تصنعوا . وكان المجتمع فيها « رقيقا ، متدينا ، مثقفا » حسب عبارة ج. مرسى .

وكانت تلمسان مركزا للدراسات الاسلامية اشتهرت مدارسها الخمس شهرة كبيرة وهي مشبعة في اعماقها بذلك التصوف الشرقي الذي سبكت له النصر كرد فعل تجاه الغزو الأجنبي . وكان القوم يقصدون سيدي

وهاب صاحب الرسول الذي قدم بعد عقبة ودفن في هذه المدينة حسب اعتقادهم ، وسيدي الداودي الولي الصالح الكبير الذي عاش في القرن العاشر (توفي في 1011) وخاصة سيدي بومدين المتصوف الأندلسي الشهير (آخر القرن العاشر) ، صاحب البلاد الذي كان يجلب قبره الزائرين من كافة بلاد المغرب مما ساعد على نمو قرية العباد الفوقي .

ولا تزال بعض منشآت بني عبد الواد باقية إلى اليوم . فقد أعاد يغمراسن بناء صومعة مسجد أكادير وصومعة مسجد تلمسان أما صومعة أكادير المشرفة على مسجد الادارسة فهي بمثابة برج من الأجر مربع ضلعه يساوي أربعين مترا ، وشكله تقليدي أنيق ، وهي مقامة على أسس أخذت حجارتها من أطلال رومانية ، تزين واجهاتها الأربع أعمدة صغيرة وأطر مزخرفة بازهار من فخار مطلي . وأما صومعة المسجد الكبير فطولها 34 م. وهي على نفس الشكل . وقد تكون شيدت في عهد يغمراسن وأكبر الظن في فترة سابقة ، القبة الجميلة المبنية من الأجر على رسم ذي ثمانية أضلاع والمقامة على اقواس مكونة من أقواس صغيرة عديدة منفتحة خشبها من سيدي عقبة .

وما كان يمكن لمؤسس هذه الدولة ان يكتفي بقصر تآكرارت الموحدى القديم المجاور للمسجد الكبير فقد أمر بوضع أسس قصر أرادته في نفس الوقت قلعة وهو المشوار الذي لم يبق له اليوم أثر يذكر . واتخذ امراء بني زيان المشوار مقرا رسميا لاقامتهم ففيه مساكنهم ومسجدهم ومستودعاتهم ، وفي بيوته يقيم الحشم ويتزل الامراء الاجانب ويعلن أرجائه تنظم حفلات الاستقبال الكبرى . وكان أبو حمو الثاني يحتفل بالمولد النبوي جالسا على عرشه في قاعة المشوار الكبرى يحف به كبار القوم بحضور عامة الناس .

وكانت الشمعدانات العظيمة وثيراب الحرير ، وإنشاد الشعر ومأدبة العشاء ثم صلاة الصبح تضيء جميعها البهجة على المهرجان . ولم تبق الا ثلاثة مساجد ترجع إلى بني عبد الواد فراوية سيدي بلحسن التي بناها أبو سعيد عثمان في آخر القرن الثالث عشر صغيرة ولكنها رائعة . ان أقواسها الحدودية المقامة على ثمانية إسطوانات من الجزعر (Onyx) التي

اندثر منها عمودان فقط تجعل لها ثلاث بلاطات كل واحدة منها ذات ثلاثة صفوف . وتغطي فجوة المحراب ذات الزوايا المسطحة قبة مقرنسة مقامة على اسطوانات صغيرة ، زخرفت حافاتهما بأطر من الجص المنقوش كان قد دهن من قبل أمّا التوريسق الموجود فيها فهو يدل على مهارة وأناقة لامثيل لهما . واستطاع الفنيون الحفاظ على اجزاء فقط من السقف المصنوع من الارز والمزخرف بشتى الألوان . أمّا مسجد اولاد الامام بصفيّه وبلاطاته الثلاث فهو أصغر منه . وقد ضاعت كل زخارفه الجصية واندثرت جميع المعالم التي بناها أبو تاشفين . وازيلت منذ أقل من نصف قرن آثار مدرسته . ولم يبق من حركة أبي حمو الثاني المعمارية الا المسجد وقبر سيدي ابراهيم اللذان أعدا لاحتضان رفات والد السلطان واعمامه وهما يشهدان بالانحطاط السريع الذي طرأ على الفن التلمساني .

ولئن عدت تلمسان المركز الوحيد للفن المعماري الاسلامي بالجزائر فالفضل يرجع إلى بني مرين الذين حملهم تقديسهم للأولياء الصالحين الموجودين فيها على تشييد معالم بالمنصورة وسيدي بومدين يعتبر بعضها من أجمل ما بني في بلاد المغرب .

خاتمة :

إذا تمثل تاريخ مملكة بني حفص في الابقاء على تراث حضارى تألق نجمه في بعض الفترات فان تاريخ مملكة تلمسان يعد بلا منازع تسجيلا لخيبة كادت تشمل جميع السلاطين . والحال انها انبعثت في ظروف مناسبة لأن بني عبد الواد لم يضطروا إلى خوض غمار الحرب للاستقرار في عاصمتهم كما كان الشأن بالنسبة لبني مرين ولأن الحظ اسعفهم كذلك فأتاح لهم قائدا مسك بزمام أمرهم طيلة خمسين سنة نعي يغمراسن ، وأخيرا لأن جيرانهم انشغلوا عنهم فترة طويلة لبعد الدار بينهم وبين الحفصيين وانصراف بني مرين إلى اقامة ملكهم ورغم كل هذه الظروف المساعدة فان تلمسان لم تصبح عاصمة لدولة كبيرة ، ذلك أن العرب الذين امتدت جذورهم في ربوع المغرب الأوسط أكثر منها في المغرب الأقصى يتحملون القسط الاوفر من مسؤولية هذه الخيبة

وكذلك بنو مرين الذين صمدوا أولا في وجه يغمراسن ثم عرفوا كيف يبعدون من حلبة السباق عائلة عبد الواد طيلة سنوات عديدة : إلا أنه قد يحسن بنا أن نقرأ حسابا للمقتضيات الجغرافية القاهرة ، فقد لوحظ أن جهة وهران وشرقي المغرب الأقصى تمتازان من بين جهات إفريقيا الشمالية الأخرى بنجاحها العليا المساعدة على الحياة الرعوية القريبة من السواحل ، وهناك تكونت من التل والمناطق الزراعية حاشية قليلة العرض ظلت لقمة سائغة لمختلف الغزاة . بحيث لم يكن لمملكة بني عبد الواد قاعدة تعتمد على كتلة قوية من المزارعين كما كان الشأن بالنسبة لجيرانها شرقا وغربا ، ولعلنا نجد فيما سبق أحد الأسباب الرئيسية التي حالت دون استقرار هذه الدولة ونجاحها ، فانها لم تظفر بتوازنها قط ، فلم يُتَح لها أن توزع مجموعاتها البشرية المتنافسة في أغلب الأحيان من أجل المراعي ولا أن تنوع اقتصادها .

3 - مملكة بني مرين بفاس

أصل بني مرين :

ينحدر بنو مرين من زناقة مثل بني عبد الواد ، وكانت مجالات ظعنهم بالزاب وهي جهة بسكرة الحالية ، حتى دحرتهم قبائل بني هلال نحو الغرب في القرن الحادي عشر ، ولما أقام عبد المؤمن ملكه في أواسط القرن الثاني عشر كانوا يجوبون سهول جهة وهران العليا وتكثرت مع زناقة في حربهم ضد الموحدين . وعندما انهزموا أبسوا الخضوع لخلفاء بني عبد الواد بنسي عمومهم ولاذوا بتخوم الصحراء بعيدا عن ولاية الموحدين وجباتهم ، ولم يعرفوا في حياتهم الاستقرار ولكنهم عاشوا احرارا ، ولم يخرجوا من عزلتهم الا سنة 1195 للمشاركة في الجهاد المقدس الذي توج بانتصار ألبين في الارك (Alarcos) وجرح قائدهم محيو ، حينذاك ، جروحا بليغة في ساحة الوغي وسرعان ما لفظ النفس الأخير فخلفه ابنه عبد الحق الذي لم يكن أول مؤسسي الدولة المرينية فحسب بل كان أيضا شخصية فذة في تقواها ، أشارت المصادر الكثيرة إلى ما كان يتمتع به من بركة .

وكان بنو مرين في ذلك الوقت أي أوائل القرن الثالث عشر يعيشون فيما نسميه اليوم شرقي المغرب الأقصى بين الفكيك ووادي صا والملوية ، وفي فصل الصيف يتوجهون نحو الشمال ويبلغون وطاط الحاج وحتى أجرسيف لينتجعوا بماشيتهم ويتزودوا بما فيه قوامهم في فصل الشتاء وهناك يأنسون بقبائل زناقة القاطنين في مناطق الريف والجهة السفلى من الملوية ، ولاشيء في هؤلاء الظواعن المتواضعين رعاة الغنم ، كان ينبيء حينذاك بأنهم سيصبحون أسلاذ المغرب الأقصى .

ولمّا مات الخليفة الناصر أتيحت لهم غزوة . فقد كان الخليفة الجديد المستنصر غلاما « قد شغلته احوال الصبا وجنونه » وقد أحدثت هزيمة (Las Navas de Tolosa) العقاب ثلثة عميقة في سلطان الموحدين ، وشعر بنو مرين ان الفرصة سانحة فانقضوا على مناطق التل الزراعية التي لم يتجاسروا من قبل على مهاجمتها ، ويظهر ان عبد الحق وذويه لم تخامر أذهانهم حينذاك أية فكرة سياسية البتة (1215 أو 1216) .

وأرسل الموحدون جيشا بعد عشرة آلاف مقاتل لمحاربة هؤلاء النبهة ، والتقى الجمعان أولا بالجهة الساحلية بوادي نكور جنوب خليج الخزامى وكانت وقعة غير حاسمة ثم يضاوح تازى حيث هزم بنو مرين جيوش الموحدين شر هزيمة (1216) فلمّا كانت السنة الموالية غير الموحدون خطتهم وواجهوا المرينيين الذين لم يرجعوا بعد إلى فقرهم ببط من بطون بني مرين خارج عنهم وبقبيلة بني رياح العربية ، وكان في ظنهم ولا شك ان هذه المجموعات من الطواغن أقدر من الجند النظاميين على صد امثالهم . ودارت أهم واقعة بينهم قرب وادي سبو ومدينة فاس (26 سبتمبر 1217) ، وهلك فيها عبد الحق لكن قومه انتصروا بقيادة ابنه عثمان وفرضوا الإتاوة على بني رياح ، وكان هذا الانتصار انطلاقا لاضطرابات خطيرة حسب ما ذكره ابن خلدون : فتعرّضت الضاحية إلى الفوضى بينما اعتصم الولاة والحاميات بالمدن الا أن بني مرين أوجبوا شيئا فشيئا على قبائل غربي المغرب الأقصى دفع المغارم حسبما يمكن ان تسمح به من تدقيق النصوص الغامضة التي ادينوا وفرضوا حتى على أمصار المغرب ضريبة معلومة على أن يصلحوا سابلتهم . وما أن نجحت الغزوات حتى تحول أمرها إلى مغامرة سياسية ، غير أن قواد بني مرين لم يكن في نيتهم بعد غزو المغرب الأقصى اذ هم لم يستغلوا البتة ، ابتداء من سنة 1224 ، انتفاضات الامبراطورية الموحدية ، ليقدموا على أي شيء ضدها ، وعلى عكس ذلك بادر الخليفة الموحد الملقب بالسعيد بالهجوم سنة 1244 وهزمهم شر هزيمة قرب فاس وهلك في الجولة محمد بن عبد الحق المريني الذي خلف أخاه عثمان سنة 1239 . ولحقت فلول جيوشه أول الأمر بجبال غياثة من نواحي تازى ثم خرجوا إلى تحوم الصحراء ، وقد يتبادر إلى الذهن أن مغامرة عبد الحق وخلفائه قد انتهى أمرها .

أبو يحيى :

أبو يحيى أبو بكر (1244 - 1258) قائد بني مرين الجديد ابن عبد الحق هو أيضا غير مجرى الأمور ، فلمّا ولي الأمر كان سنه سبعا وثلاثين سنة وكانت قسمته من المحاسن متساوية ، قيادة رجال ، ومهارة سياسية .

وما أن لم شعث قومه قرب الصحراء حتى قسم بلاد المغرب الأقصى إلى اقطاعات « تسوغها سائر الايام طُعْمَةً » أكبر عشائر بني مرين وهي عملية لا تخلو من جسارة ومجازفة ، ولكنها أيقظت الغرائم وجعلت لها غرضا مقصودا . وسرعان ما توجه أبو يحيى وقومه إلى طريق الشمال وخطّوا في جهة مكناس وهي مدينة ثانوية ولكنها حسنة الموقع ، وعند ذلك نجح الخليفة السعيد في اغراء يغمراسن وبني عبد الواد (اواخر سنة 1244) ، ولن يغفر لهم بنو مرين هذا الموقف . وتمكن أبو يحيى الذي تعقبه القوم في أول الأمر حتى انتهوا الى جهة ورغة من الفت في عضد الحلف الذي نسجه ضده السعيد . وبينما كان الخليفة يخدم نار الثورة في جهة أزمور أمكن له أن يستحوذ على مدينة مكناس وهي أول مدينة تسقط في أيدي المرينيين . وقرئت الخطبة باسم أبي زكرياء الحفصي : وهكذا ينقلب قائد عصابة إلى منافس سياسي للدولة الموحدية (1245) ولم يعترف السعيد من جهته بالهزيمة فجهز جيشا جرارا لاسترداد ملك أجداده . ويقال إن أبا يحيى وصل إلى معسكر الموحدين بوادي بهت متواريا ، فأدرك أن لاطاقة له بهم فأسرع بالرجوع إلى مكناس وجمع حامياته المنتشرة وتراجع نحو شرقي المغرب الأقصى ، وبينما كان هناك في مأمن من أية غائلة حربية دخل في مفاوضات مع الخليفة سائلا إياه أن يستكفي بنفسه في أمر يغمراسن ، وقبل السعيد أن يمدّه بنو مرين باعانة رمزية بخمسمائة مقاتل وهم في الواقع رهائن قبل أن يكونوا محاربين ، ومعلوم أن السعيد لقي حتفه في كمين قرب تلمسان وأن جيشه انفض متسابقا نحو الغرب ، وأرصد أبو يحيى له بأجرسيف على نهر الملوية وأباده ، وانتقلت الكتائب الموحدية المتكوّنة من المرتقة الترك والنصارى إلى صف المرينيين . وقويت شوكة أبي يحيى وأصبح أقوى من ذي قبل على مواجهة يغمراسن وبسط نفوذه على شرقي المغرب الأقصى فدخل

فاس في العشرين من أوت 1248 واستحوذ بسرعة كبيرة على تازي ومكناس وسلا والرباط والبسائط إلى أم الربيع ، ويمكن أن نجعل نهاية سنة 1248 بدءا لانبعاث مملكة بني مرين التي يعتبر أبو يحيى هو الصانع الاول لها بدون منازع .

ولم تنته مصاعبه بمجرد انتصابه بفاس فقد اضطر طلبا لأمن عاصمته إلى اخضاع الأطلس الأوسط فوجّه حملة نحوه وسرعان ما تأمر عليه بعض اعيان فاس بإعانة قائد كتيبة النصارى وعدد من الموحدين كان أبو يحيى أسعفهم بالحياة . ونجحت المؤامرة ودخلت فاس مرة أخرى في حكم الموحدين (جانفي - فيفري 1250) وما أن علم أبو يحيى بذلك حتى زحف على فاس ، وبينما هو في طريقه إليها أجبر على أن يواجه هجوم يغمراسن ، وهزم خصمه القديم على ضفاف واد ايسلي وأمكن له في آخر الأمر وبعد متاعب جمّة استرجاع عاصمته . وكان القمع شديدا وضربت الرهبة على قلوب أهل فاس عهدا بعيدا .

وكان على أبي يحيى كذلك ان يصمد لبعض محاولات الخليفة الموحدي المرتضى ، واضطر إلى التخلي مؤقتا عن سلا سنة 1252 أو 1253 (650 هـ) ولكنه استرجع قواه في السنة الموالية وهزم الجيش الموحدي هزيمة نكراء في جهة فاس واغتنم فرصة هذا الانتصار لغزو تادلا ثم سجلماسة عاصمة تافلات ونخيل منعطف واد درعة (أقد ، زقورة ، تقونيت ، الخ) (1255) ومنع يغمراسن من أن يحل محله في هذه الجهات المتاخمة للصحراء ، ولما مات أبو يحيى حثف انفه في جويلية 1258 كان بنو مرين إذن قد بسطوا نفوذهم على كامل شرقي المغرب الأقصى وشماله والسهول الغربية إلى أم الربيع وتادلا والأطلس الأوسط وأخيرا واحات تخوم الصحراء ، ولم يبق للموحدين الا الأطلس الأعلى ، والسوس وجهة مرادش والجهات الساحلية الكائنة جنوب أم الربيع ، وان تعداد هذه الاسماء ليسمح بمعرفة مدى المجهود الذي قام به بنو مرين وأهمية نجاحهم بقيادة أبي يحيى .

أبو يوسف :

يظهر أن نزاعا من أجل الخلافة استتبع لأول مرة ولكنها لن تكون الأخيرة ، موت أبي يحيى . وقد استولى أحد ابنائه على الحكم في فاس لكن نفسه فيه عمه أبو يوسف يعقوب (1258 - 1286) والي تازي وتمكن ، بعد صعوبات من فرض سلطته والحصول على البيعة بكامل البلاد المحتلة من بني مرين (أكتوبر 1258) . وكان رابع أولاد عبد الحق هو الذي تسلم أمرة القبيلة . وتقلد الملك وهو في السادسة والأربعين أو الثامنة والأربعين من سنه ولم يصفه لنا الاخباريون محاربا ، مقاتلا حياته كلها في بلاد المغرب واسبانيا فحسب بل كذلك ملكا ورعا قائما بالليل معتبرا بحياة الصالحين مواظبا على الصيام حاميا مقام الأولياء .

وواجه في أول عهده نزاعات جديدة من أجل الملك فاستولى أحد أبناء اخوته على سلا التي تمكن الموحدون من دخولها مرة أخرى (أوائل 1260) فاستغل هذه الخلافات النصارى الاسبان من قشتالة على أغلب الظن وأخذوا سلا غرة في شهر سبتمبر 1260 ولم يقدر أبو يوسف على طردهم منها إلا بعد حصار دام أربعة عشر يوما ، وإلى هذا العهد لم يجد بنو مرين الفرصة للمساهمة في الجهاد المقدس باسبانيا . وقد عقد أبو يوسف العزم على ذلك حوالي سنة 1245 في الوقت الذي احتل فيه أخوه أبو يحيى مكناس ، إلا أن حكمة أخيه السياسية حالت دون تحقيق ما انطوت عليه نفسه من أمان كريمة ، فلما هوجمت سلا وكانت غزوة أكثر منها محاولة حقيقية للاستقرار بأرض إفريقيا ، صح عزم العاهل الجديد ولا شك ، على مقاومة النصارى . إلا أنه كان من الواجب عليه قبل كل شيء ان يتم فتح المغرب الأقصى . لذلك اكتفى بإرسال بطن من بطون بني مرين كان تمرّد عليه في جهة شفشاون ، فوفق بذلك بين غاياته الدينية وبين مقتضيات أمن سلطانه (1262) وتفرغ عند ذلك في اطمئنان تام إلى فتح ما تبقى من مملكة الموحدين وباءت محاولة أولى في منازلته مراكش بالفشل سنة 1262 بعد معارك طاحنة أمام أسوار المدينة نفسها .

فغیر أبو يوسف الخطّة : وقبل عروض أبي دبّوس الموحدي وأمهه بالجيوش والمال على أن يشركه في نصف الغنيمة ونصف ما يفتحها

من البلاد - وفتح أبو دبوس مراکش في خريف سنة 1266 ولكنه سرعان ما نقض العهد الذي يربطه بالمريني . ولما ضرب المريني الحصار على مراکش كان يغمراسن الذي استهواه أبو دبوس قد دخل أرض بني مرين . فانقلب أبو يوسف ضد هذا العدو الجديد وهزمه قرب الملوية شر هزيمة في أوائل سنة 1268 ولما نقض يده من هذا الأمر نازل مرة أخرى مراکش وهزم جيوش أبي دبوس ودخل المدينة في الثامن من سبتمبر سنة 1269 . وهكذا تم على أحسن وجه ما كان شرع فيه أبو يحيى بفضل خليفه . وبذلك ورث بنو مرين ملك الموحدين في المغرب الأقصى . وسرعان ما تلقب أبو يوسف بلقب أمير المسلمين على غرار المرابطين . ومعلوم أن لقب أمير المؤمنين كان منذ حوالي عشر سنوات من هذا التاريخ من خصائص العاهل الحفصي المستنصر . ولم يكن في نية أبي يوسف أن ينافسه فيه بل إنه قبل حتى أن تقرأ الخطبة باسم خليفة تونس .

وبينما كان اثنان من ابنائه يقومان بحملة في بلاد السوس وجبال غمارة (في مدخل الأطلس) لاخذ البيعة للمرينيين كان أبو يوسف مقيما بمراكش حيث كانت تتقاطر عليه الوفود من كامل جنوب المغرب الأقصى تباعه أمام المال واثرا للموحدين وتقدم له التهانى والهدايا . ولم تشذ عن ذلك سوى القبائل العربية من المعقل المستقرة بجهة وادي درعة وخرج أبو يوسف بنفسه للانتقام منها في ربيع 1271 وبذلك أصبحت بلاد المغرب الأقصى بأكملها خاضعة لسلطة بني مرين باستثناء العدو الإفريقية بمضيق جبل طارق التي أذعنّت سنة 1273 وسجلماسة التي دخلت في طاعة يغمراسن سنة 1265 تحت تأثير عرب المعقل ثم اضطرت إلى الخضوع إلى المرينيين سنة 1274 بعد حصار دام أشهرا طويلة قد يكون أبو يوسف يعقوب استعمل اثناءه المدفعية لأول مرة .

الحملة الأولى على اسبانيا وتأسيس فاس الجديدة :

كان مسلمو اسبانيا طلبوا من أبي يوسف أن يمدّهم سريعا بالنجدة سنة 1272 بينما كان في طريقة إلى الانتقام من يغمراسن بساندته أبا دبوس . و تفيد المصادر التي لدينا ان العاهل المريني جنح إلى السلم مع خصمه الذي لجج في ذلك واستكبر فاضطر أبو يوسف إلى

منازلته مرجثا أمر اسبانيا إلى ما بعد - فهزم مرة أخرى بني عبد الواد قرب واد ايسلي (16 فيفري 1272) وحاصر تلمسان بدون جدوى وقد شيد قلعة مواجهة لها في تاونت قرب نومور (Nemours) الحالية بالذات وبذلك كسرت شوكة بغمراسن إلى حين - إلا أن أبا يوسف حرص قبل الزّج بنفسه في اسبانيا على احتلال طنجة وسبتة (1273) ثم استرد سجلماسة (1274) . وما أن فرغ من أمرها حتى وفدت عليه بعثة من غرناطة تناشده الغوث . ولا شيء كان يمنعه هذه المرة من الاعلان عن الجهاد المقدس والسير على سنة الموحدين وهو الذي كان يعتبر نفسه وارثا لهم . وكانت الظروف سانحة . إذ لم يواصل ابن فرديناند الثالث عملية الاسترداد (Reconquista) بنفس القوة بعد أن كادت تتم في عهد أبيه . وكان للملك الفونسو العاشر الحكيم (1262 - 1284) مناقب ممتازة ولكنها كانت أدبية وعلمية أكثر منها سياسية . ولئن تملكه الأسى لتغيبه يوم أن بعث الكون ليجمعه على أحسن تقويم فإن الحزم اعوزه في تنظيم شؤون دولته على خير الوجوه . فقد عمل بوصية أبيه وجهز الأساطيل وجيش الجيوش لطرد بني نصر ومحاربة المسلمين في المغرب الأقصى باعانة البابا إلا أنه غير رأيه قبل الشروع في تنفيذ خطته . وقد أحدثت الاجراءات الجبائية التي اتخذها غضبا كبيرا بين طبقات الشعب ونالت سياسته الخارجية من هيئته .



شكل 20 : - مدينة فاس في عهد بني مرين .

وكان المسلمون أعجز من أن يستغلوا مثل هذه الظروف اذ كان الأمراء يقاتل بعضهم بعضا بلا انقطاع في الرقعة الضيقة المحاطة بجبل شلير (Sierra Nevada) وجبل رندة (Sierra de Ronda) فكان بنو نصر لا تنام لهم عين في غرناطة . واضطر الأمير ابن الأحمر إلى الدخول في طاعة ملك قشتالة . الا أنه كان يدرك ان عليه الاختيار عاجلا او آجلا بين الخضوع للنصارى او الاستنجاد بالمغاربة واطهر احتلال القشتاليين لبادس (1262) وكذلك حملة جام (Jayme d'Aragon) صاحب الأرغون بمرسية ان خطر النصارى أعظم ، غير أن ما كان يضمه ابن الأحمر من عداوة لابي يوسف جرّه إلى الملك ألفونسو جرّا . وغير ابنه وخلفه محمد الفقيه رأيه بإيعاز من بعض اللاجئين القشتاليين واغتنم فرصة غياب الملك ألفونسو ليلتمس تدخل بني مرين .

وتمكن طلائع المرينيين بفضل سفن سبتة من اجتياز المضيق من دون أية صعوبة في افريل 1275 وسجلت بعض الانتصارات في جهة شريش واستولت على الجزيرة الخضراء (Algésiras) التي سلمها صاحب غرناطة إلى الأفارقة بينما كان أبو يوسف في مفاوضة مع يغمراسن توجت بصلح مرضي . بحيث تمكن بدوره من دخول اسبانيا على رأس أهم جيوش بني مرين (16 أوت 1275) .

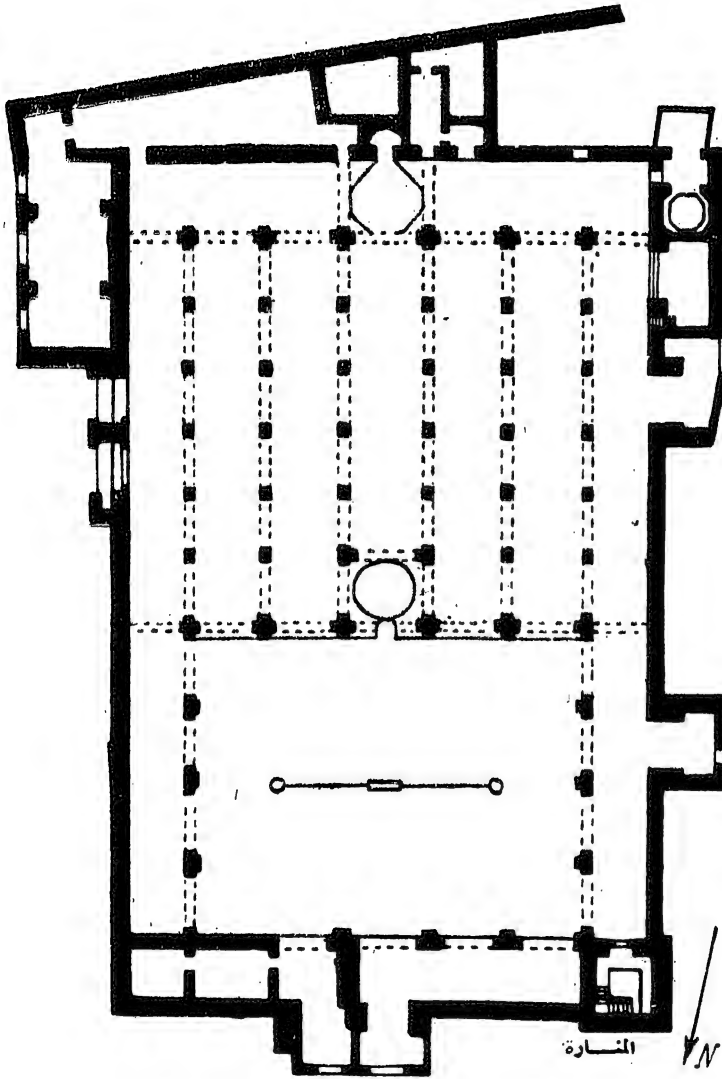
وشرع في خوض المعارك ، وغزا جهات وادي الكبير السفلي وقرطبة ثم اصطدم بجيش قشتالي عظيم اتى للنجدة بامرة القائد القشتالي الشهير دنتة (دون نونيو كونزاليس دي لارا Don Nuno gonzales de Lara) وكان نصراً للمرينيين مبينا احتفلوا به ككأثر لعام العقاب (8 سبتمبر 1275) .

وبينما كان أبو يوسف يحارب باسبانيا كان والي مراکش المريني ينازل تينملل حيث التحأت صباية الموحدين وفاتهم . ولم يجد عناء في تطهيرها منهم وابادة البقية الباقية من بني عبد المؤمن . وهكذا جادت سنة 1275 على بني مرين بسلسلة من الانتصارات الباهرة . وعقد أبو يوسف العزم على الاحتفاء بازدهار دولته فأذن ببناء عاصمة جديدة كما فعل قبله سيدي عقبة بالقيروان ومولاي ادريس بفاس وعبيد الله بالمهدية والمنصور بالمنصورة وحماد بقلعة بني حماد ويوسف بن تاشفين بمراكش ويعقوب المنصور

بالرباط . فاختار موقعا لمدينته الجديدة على مرتفع ينحدر بلطف ويشرف على غربي مدينة فاس ويمر منه وادي فاس قبل أن ينصب على منحدرات المدينة القديمة . وكان هذا المكان يساعد على تطور مدينة كبرى مثل فاس ويتيح كذلك مراقبة سكان هذه المدينة المشاغبين الذين تركت ثورتهم سنة 1250 ذكرى مريرة في نفس ملوك بني مرين . وبدأ اختطاط المدينة على حسب السنة المعهودة في 21 مارس 1276 واستنجزت الأشغال : وسرعان ما أقيمت الأسوار وبني المسجد الكبير والقصر والسوق والحمام ومنازل اعيان الدولة وذلك على حسب مثال ضبط من قبل وفتح المسجد للعبادة في جانفي 1279 وسميت المدينة في أول الأمر المدينة البيضاء ثم جرى على اللسان اسم فاس الجديد تمييزا بينها وبين فاس البالي .

ويمكن التساؤل من أول وهلة هل ان الشأن كان يتعلق باحداث مدينة بأنتم معنى الكلمة ام لا ؟ اذ أن المدينة الجديدة المبنية لصق القديمة ورثت عن الاولى بطبيعة الحال سمعتها واستفادت من نشاطها التجاري وكسل المرافق التي تواجدت في عهد المرابطين وخاصة الموحدين حسبما يبدو . والواقع فان الذي بناه أبو يوسف بلد طريف من حيث السكان على الأقل ذلك اننا بازاء مدينة مريية ادارية وحربية بقيت حتى في العصر الحديث ورغم التغييرات التي أدخلت عليها متميزة جدا عن فاس البالي .

وفي نفس الوقت أوعز أبو يوسف ببناء قصبة مدينة مكناص بقصرها ومسجدها الكبير وامر بتشييد مدرسة في فاس البالي كائنة جنوب جامع القرويين وصالحة لسكنى الطلبة الوافدين من الضاحية . وظهر العاهل المنتصر في مظهر المشيد العظيم وفقا للسنن المغربية السمحاء .



شكل 21 : رسم الجامع الكبير بفاس الجديد .

حملات جديدة بإسبانيا :

واجتاز أبو يوسف المضييق ثانية سنة 1277 ، وكان غرضه في هذه المرة جهة اشبيلية التي نسفها نسفا : فقد قيل انه كان يقطع في بعض الاحيان بنفسه الاشجار المثمرة ليقبض به غيره . كما أنه استعرض قواته

أمام اشبيلية ليلة المولد النبوي (11 أوت 1277) على ضوء الحرائق المشتعلة بالضحاحية . ولم تمر بضعة أسابيع حتى نال جهات شريش وقرطبة ما نال غيرها . إلا أن الرياح لم تجر بما كان يشتهي المسلمون رغم نجاحهم الباهر ، ذلك أن مدينة مالقة كانت بيد عائلة منافسة لبني نصر أصحاب غرناطة فجئحت إلى المرينيين منذ حملة أبي يوسف الأولى بل خطت خطوة سنة 1278 فوهبت إليهم مدينة مالقة ، وقبل أبو يوسف عرضهم مما أغضب محمد الفقيه ملك غرناطة غضبا شديدا ، وكان من الضعف بحيث لم يقوَ على مواجهة المرينيين بقوة السلاح فركن إلى المفاوضات : ولم يجد عناء في جعل الملك الفونسو العاشر صاحب قشتالة في صفه ووفق من جهة أخرى إلى الاتصال بوالي مالقة المريني الذي نزل له عن البلد (فيفري 1279) وأخيرا أبرم اتفاقا مع يغمراسن الذي التزم بأن يأخذ بأذيال أبي يوسف في إفريقية حتى يمنعه من النهوض إلى الحرب بإسبانيا . غير أن أبا يوسف كان ماضيا في تحقيق ذلك على جناح السرعة لو لم تحل دون تحركات جيوشه أمطار غزيرة ولم تشده إلى المغرب الأقصى ثورة خطيرة قام بها عرب سفيان في جهة مراکش . وفي الاثناء ضرب الفونسو العاشر الحصار على الجزيرة الخضراء برا وبحرا ، وبذلك طفح الكيل اذ أصبح هذا الملك خطرا على محمد الفقيه فالتفت إلى أبي يوسف من جديد ومده بالسفن وبفضلها تمكن الأسطول المريني من فك الحصار . وحشر أبو يوسف من جهته كل المراكب الموجودة في المغرب الأقصى وأوكل قيادتها إلى ابنه أبي يعقوب . ودارت معركة بحرية بخليج الجزيرة الخضراء في 21 جويلية سنة 1279 وانتهت بانتصار المسلمين : وتوارى بذلك خطر الفونسو العاشر . ولم يبق في وجه المريني سوى يغمراسن : فانهزم بنو عبد الواد مرة أخرى في البسائط وحوصرت تلمسان مرة أخرى فصمدت أمام جميع الهجومات (1281) .

وقام أبو يوسف بحملة جديدة بإسبانيا سنة 1282 بإلحاح من الفونسو العاشر : ذلك أن ملك قشتالة استنجد بالعاهل المريني على ابنه شانحة (دون سانش Don Sanche) الذي خرج على طاعته لخلاف معه في شأن وراثة الملك واجتاز أبو يوسف المضيق بدون تردد : فلم يجن على ما يظهر من حركته سوى الغنائم وتاج قشتالة الذي تسلمه رهنا لديه (1283) .

وتوفي يغمراسن في ربيع سنة 1283 بعد أن نصح خلفه بالاقلاع عن الصراع العقيم الذي نهض به هو نفسه ضد بني مرين ، كما مات الفونسو العاشر في ربيع سنة 1284 واعتلى العرش ابنه المتمرد شانجة . فلماً أصبح أبو يوسف في مأمن من خطر تلمسان عزم على اغتنام فرصة هذا التغير في عرش اسبانيا للهجوم عليها . ولم يتمكن من ذلك الا سنة 1285 اذ اضطر إلى القيام بحملة في السوس ودرعة السفلى لتأديب عرب المعقل الذين عاثوا فيها فسادا ونهباً .

وهكذا فان أبا يوسف لم يجتز المضيق للمرة الرابعة الا في السابع من افريل 1285 . ولم تكن العمليات العربية ذات بال باستثناء المعارك التي خاضها الأسطول القشتالي لمحاولة السيطرة على المضيق ولكن بدون جدوى . ولما اعياى شانجة الأمر ، جنح إلى السلم فاغتنم أبو يوسف الفرصة لوضع حد لحملة لأطائل تحتها ، وقبلت شروط المريني القاضية بأن يعامل تجار المسلمين في أرض النصارى معاملة أحسن وأن يمسك شانجة عن التدخل في الشؤون الخاصة للممالك الاسلامية بالجزيرة وأن يرجع إلى المسلمين المخطوطات العربية التي وقعت في أيدي النصارى إثر حرب الاسترداد وكانت من الكثرة والأهمية بحيث بلغت 13 حملاً من البغال ورضي المريني مقابل ذلك بدفع غرامات عما ألحقه جيشه من ضرر بأرض النصارى . واحتفل بنو مرين بهذا الصلح واعتبروه انتصاراً (21 أكتوبر 1285) . واستلهم الشعراء هذا الحدث واحتفظ القرطاس بما جادت به قرائحهم في هذه المناسبة ، ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى اعتل أبو يوسف وقضى نحبه بالجزيرة الخضراء يوم 20 مارس 1286 . ونقل جثمانه إلى الضريح الذي كان أذن باقامته في شالة .

واذا اعتبرنا أبا يحيى مؤسساً للدولة بني مرين فان أبا يوسف كان صانع عظمتهم . فعلى يديه تمت وحدة المغرب الأقصى في ظل الدولة المرينية وبفضله شيدت المباني الجديدة واستؤنفت سنة الغزوات المغربية في اسبانيا . وقد أصبح أبو يوسف أعظم ملك بحق في بلاد المغرب إثر موت المستنصر الحفصي وما تبعه من اضطرابات من أجل الخلافة وبعد هلاك يغمراسن وما طرأ على سياسة تلمسان من تغير . غير أن سلطانه

كان معرّضا للاخطار : ذلك ان عددا كبيرا من أمراء بني مرين لم يرضوا بسلطة العائلة الحاكمة وكان العرب سواء منهم من وطنهم الخلفاء الموحدون بالمغرب الأقصى أو من المعقل الذين لم يمر على قدومهم إلى الجنوب وقت طويل ، على أهبة دائمة لشق عصا الطاعة في وجه الحكومة . وكان أحفاد الموحدين وصنهاجة الأطلس الأعلى يضيّقون ذرعا بحكم المنتصرين عليهم ، ويحقّ لنا أن نتساءل مع «هـ . ترانس» هل أن الجيوش المرينية كانت كافية للاضطلاع بالمهمات التي كلفهم بها ملوكهم ، ولا سبيل إلى نكران ما كان لهؤلاء الفرسان من قيمة حربية غير انه من الدلالة بمكان أن نلاحظ ان أبا يوسف كان عاجزا عن مواجهة الجبهتين بنجاعة ، ثمّ إن سياسة بني مرين على نحو ماضبطها أبو يوسف كانت متجهة قبل كل شيء إلى الماضي اذ كان يرمي إلى بعث الأمبراطورية الموحدية من جديد بعد أن أزالها رغم اقتقاره إلى ما استقام للموحدين من وفرة الجند وعلو المنزلة الدينية .

أبو يعقوب يوسف :

كان ابنه أبو يعقوب يوسف (1286 - 1307) وليا للعهد منذ زمن طويل ولم يجد مشقة في مبايعته من قبل الأوساط الرسمية غير أنّه سرعان ما اضطر إلى مواجهة ثورات خطيرة كشفت عما كانت تشكوه الدولة المرينية من مرض الايام . فلقد تمرد عليه أحد أفراد عائلته قرب وادي درعة وعين أبو يعقوب أحد إخوته على رأس جيش صغير لكنه عوض ان يؤدب المتمرّد تحالف معه عليه . وتقبض أبو يعقوب على الثوار حينما كانوا يحاولون اللياذ بتلمسان وقتلهم بتازى (1286) . وتمردت في نفس الوقت إحدى القبائل بالجهة الجبلية من جنوب فاس فكسر شوكتها بسرعة . ولم يمض وقت طويل حتى استنهب عليه أحد أقربائه قبيلة من المعقل بدرعة ففتك به في جويلية 1287 وانتقم من المعقل في أكتوبر الموالي . ثمّ جاء دور ابنه بعد مرور عام أي نوفمبر 1288 فحمل السلاح في وجه أبيه بمراكش . وأخمدت الثورة بسرعة هذه المرة ايضا . وتمكن الأمير الثائر أبو عمرو وشريكه الأول في هذه الفعلة من الفرار والالتجاء إلى تلمسان . وعمّ الهدوء البلاد طيلة أربعة أعوام أعلن اثرها بنو وطاس العصيان وهم بطن من بطون

بني مرين استقروا بالريف وأسسوا في القرن الخامس عشر دولة بالمغرب . وقضى أبو يعقوب ما يناهز ستة أشهر في حربهم قبل اخماد ثورتهم . (ربيع 1293) وأخيرا ثار ابنه المتمرد أبو عمرو من جديد بعد أن عفا عنه وظلّ يقاوم في جهة غمارة من سنة 1295 إلى سنة 1298 بينما كان أبوه ينازل تلمسان .

وكانت شؤون اسبانيا في المقام الأدنى من مشاغل أبي يعقوب . وفعلا يظهر أن هذا الأمير المعتر بأرائه والمتحلل من التقاليد أدرك أن النضال في جبهتين قد يكون ونخيم العواقب على الدولة المرينية فانهصر سعيه في إيجاد حل مشرف لدرء الخطر الاسباني . وما أن مات أبوه حتى أرجع إلى محمد الفقيه معظم المعامل التي سلمها هذا الأمير إلى المرينيين وجدد الصلح المبرم مع شانجة سنة 1285 . كما أقدم على تنازلات لبني نصر بمناسبة زفافه من أميرة مرينية من غرناطة .

غير أن شانجة اضطره إلى الحرب اضطرارا عندما كفّ سنة 1291 عن احترام بنود معاهدة 1285 في ظروف غامضة . فنادى أبو يعقوب بالجهاد المقدس واجتاز المضيق بعد عناء كبير إذ كان أسطول قشتالة له بالمرصاد وخاض معركة سريعة لم يكسب منها مجدا وتحالف أثرها محمد الفقيه مرة أخرى مع القشتالي ضد المريني . وتعهد شانجة بالرجال ومحمد الفقيه بالأموال . وضرب الحصار على حصن طريف فاستسلم أهله بعد أربعة أشهر (سبتمبر 1291) واحتفظ به شانجة رغم ما جاء في الاتفاق الذي أبرمه مع الفقيه الذي رجع إلى ما اعتاده من تارجح بين القوتين المتقاتلتين وتخلص من حايقه النصراني خوفا من طموحه المفرط وسعى من جديد إلى التحالف مع المرينيين . واضطر إلى دفع الثمن لأن أبا يعقوب أعياه تذبذب صاحبه وكان زاهدا في الزج بنفسه في اسبانيا . وتنازل له عن بعض الجهات واهداه إحدى النسخ الأربعة من المصحف العثماني الذي احتفظ به بنو أمية في قرطبة وتحصل عليه بنو نصر وأمر أبو يعقوب بضرب الحصار على طريف لكن جيوشه منيت بالفشل فلم يشا بر إذ كان منشغلا بكليته بحرب تلمسان (1293) .

وعمل عثمانف الزياني في أول الأمر بوصية المرحوم والده فوجه عنايته لغزو ممالك بني حفص . غير انه استدرك سنة 1289 إلى إيواء الأمير

الهارب أبي عامر ومستشاره . ولئن تصالح أبويعقوب مع الأول فقد طالب بتسليم الثاني . فأبى عثمان واندلعت الحرب بينهما وحاصر الجيش المريني تلمسان من ماي إلى أكتوبر 1290 من دون نتيجة تذكر . فترك أبو يعقوب سبيلها في السنوات الموالية . إذ كان منشغلا عنها بأمر اسبانيا وثورة بني وطاس ولكنه لم يهملها وزاده حقدا عليها تفاوض ملك بني عبد الواد مع شانجة ومحمد الفقيه ضله سنة 1292 ، ولم يتفرغ لمحاربتها الا سنة 1295 فكانت حربا عوانا دامت 12 سنة . وأحكم الخطة فاحتل على التوالي تاوريرت الواقعة على وادي صا (1295) ووجدة (1296) وتاونت وندرومة (1298) . وناوش مرات عديدة تلمسان ولكنه لم يهاجمها الهجمة الحاسمة الا عندما وثق من النصر . وكان ذلك يوم 6 ماي 1299 فعسكر أمام عاصمة اعدائه وعزم الا ينصرف عنها قبل ان تسقط في حوزته ، ولم يقل "حماة المدينة عنه عزما ، اذ كانوا مصممين على الاستماتة . وتقابلت هاتان العزيمتان طيلة ثمانية أعوام كما سبق أن ذكرنا ، وظل أبو يعقوب طوال هذه الفترة ييسط نفوذه على كامل المغرب الأوسط حتى مدينة الجزائر بالقوة تارة وبالتفاوض اخرى . وقد بلغ من السلطان أوجه فكان يستقبل في قصره بالمنصورة السفارات من افريقية ومصر ومكة ، ودخلت طاعته زنازة المغرب بلا استثناء وعم هدوء كامل مملكته منذ أن مات أبو عامر . ثم "إن" قوى تلمسان أنهكت رغم صمودها البطولي العجيب وكانت على قاب قوسين أو أدنى من الاستسلام وبلغ يقين ابي يعقوب بقرب النصر حدا جعله لا يعبأ كثيرا بخروج سبته من حوزته اذ نزل بها سنة 1306 أحد بني مرين قادما من اسبانيا يعاضده من طرف خفي صاحب غرناطة وفرض نفسه ملكا عليها ، وتفاقم أمره في المنطقة الجبلية من شمالي المغرب الأقصى غير أن أبا يعقوب لم يأبه به . وبينما كانت أيام تلمسان معدودة اذا بالسلطان يخسر قتيلًا في 13 ماي 1307 تحت ضربات خطي له نتيجة ملابسات غامضة كان الحرير مسرحا لها .

أقول نجم بني مرين لأول مرة :

خلف أبا يعقوب أحد أحفاده يدعى أبا ثابت وكان في الثالثة والعشرين من عمره . ونافسه في الحكم ثلاثة أديعاء وسرعان ما ظهر رابع وقضى أبو ثابت على ثلاثة منهم بسرعة بعد أن تصالح مع أهل تلمسان

واستقدم جنده إلى المغرب الأقصى . وكان رابعهم عثمان بن ادريس المريني الذي كان نادى بنفسه ملكا على سبعة سنة 1306 وأخضع إلى نفوذه أصيلا (Arzila) والأعراش وكامل بلاد غمارة . ونازله أبو ثابت وأسس مدينة تطوان لتكون قاعدة ينطلق منها إلى سبتة . وبينما كان يتفاوض مع أهلها في شأن استسلامهم اذ أودى به المرض قي 28 جويلية 1308 .

وخلفه في الملك أخوه أبو الربيع من دون صعوبة تذكر وهو في التاسعة عشرة من عمره وأمكنه استرجاع سبتة في 20 جويلية 1309 اذ كان بنو نصر يسعون إلى كسب ود بني مرين من جديد بعد أن ضيق عليهم القشتاليون اثر استحواذهم على مضيق جبل طارق ، فيسروا الأمر له ولكنه اعتل ومات بدوره في 23 نوفمبر 1310 وهو بصدد قمع ثورة بتازى .

واعتلى أبو سعيد عثمان (1310 -- 1331) العرش بعده وبويع من دون عناء رغم وجود منافس له -- وكان هذا الأمير البالغ من العمر حوالي خمس وثلاثين سنة ابنا لأبي يوسف ولد له في أواخر أيامه وكان وديعا تقياً لم تصب نفسه إلى تحقيق مشاريع كبرى . بل ولع مثل أبيه باقامة المباني الرائعة . فهو الذي بنى ثلاث مدارس بفاس ، وهي مدرسة فاس الجديدة (1320) ومدرسة الصهريج (1321) ومدرسة العطارين (1323) .

لكن عهده لم يشمل الهدوء كما كان يؤمل ، إذ ثار عليه ابنه الأصغر أبو علي سنة 1315 وخلعه والحال أنه كان يؤثره بمحبته فعين له وليا للعهد ورضي أبوه بالأمر الواقع وقنع بولاية تازى الا أن أبا علي أدركه المرض فتشجع أبو سعيد وحاصر المتمرد في فاس الجديد إلى أن استسلم فأخبره عن ولاية العهد وعين مكانه ابنه الأكبر أبا الحسن ولكنّه سمى أبا علي واليا على سجلماسة ، حيث أقام دولة منظمة بأتم معنى الكلمة لها ميزانيتها وجيشها النظامي وعسكرها الاحتياطي المعتمد من بين عرب المعقل واخضع واحات توات وتيكورارين وكذلك وادي السوس . ثمّ شهر السلاح مرة أخرى في وجه أبيه سنة 1320 فاستولى على واحات درعة فمراكش سنة 1322 . وأوشكت مملكة بني مرين بذلك ان

تنقسم إلى مملكة بالشمال ومملكة بالجنوب . فأدرك أبو سعيد الخطر وتحرك نحو ابنه وهزم جيوشه في أم الربيع غير أنه عفا عنه مرة أخرى وتركه على رأس سجلماسة .

وقد همّ في أول عهده بالتدخل بإسبانيا غير أنّه لم يحقق هذه الأمنية رغم أن الظروف كانت مؤاتية فقد مات فرديناند الرابع ملك قشتالة سنة 1312 بينما لم يزل وارثه في المهمل . ولو كان أبو يوسف مكانه لاستغل ولا شك هذا الوضع . وفي سنة 1316 أعلن والي سبتة يحيى بن العزفي استقلاله وبقي على هذه الحال في الواقع ما يقرب من عشرة أعوام . وأخيرا استغاثت غرناطة سنة 1319 من جديد بالمرينيين أمام خطر القشتاليين وكان أبو سعيد جنوحا إلى السلم فوضع شروطا مجحفة وانتهى الأمر عند هذا الحد . أمّا فيما يتعلق بتلمسان فأننا نسجل له حملة واحدة لم يحالفه فيها النجاح سنة 1314 .

غير أن سياسة بني مرين دخلت منعرجا جديدا في آخر عهدهم — فقد اضطّر العاهل أبو بكر الحفصي تحت ضغط أبي تاشفين صاحب تلمسان إلى طلب عونهم (1329) فبعث أبو سعيد بقوى ضئيلة لصرف تلمسان عن بني حفص وفي نيته بالخصوص الاستفادة من هذا الوضع الجديد . ذلك أنه كان رغب سنة 1321 تزويج ابنه وولي عهده أبي الحسن من أميرة حفصية فردّ طلبه وجدد مسعاه سنة 1331 فكان له ما أراد ، ونزلت الأميرة فاطمة بساحل المغرب الأقصى في شهر أوت فتوجه حموها لاستقبالها وداهمه المرض في ضواحي تازي فلفظ النفس الاخير يوم 25 أوت .

أبو الحسن :

بلغ سلطان بني مرين أوجه في عهد أبي الحسن (1331 — 1351) الذي يعتبر أعظم ملك في القرن الرابع عشر بما حققه من استرجاع للامبراطورية المغربية الممتدة من الأطلس إلى فاس وبما تحلى به من هبة وورع ، وما بلغه بلاطه من صيت ، وما شيّده من مبان في أيامه .

وكان عند اعتلائه العرش في الرابعة والثلاثين أو الخامسة والاربعين من عمره إذ تختلف المصادر حول تاريخ ولادته بنحو أحد عشر عاما . وكان مهيب الطلعة بالغ السمرة اذ ولد من أم حبشية فلقب بالسلطان

الأسود . وكان وافر النشاط حتى انّ الأتعايب كانت بالنسبة إليه من اللذائذ حسب قول ابن خلدون .

وذكر لنا ابن مرزوق كيف كان يقضي يومه بفاس فكان يصرف القسم الأكبر منه في تلاوة القرآن الذي يحفظ نصفه عن ظهر قلب وفي قراءة خطب الوعظ والارشاد وكتب الدين صحبة الفقهاء وكذلك لزيارة أضرحة الأولياء ، وكان الاتقياء في بلاطه يرعون حياته الدينية ، لاتنام لهم عين ، ولا تأخذهم فيه لومة لائم وكان يمارس الحكم بكل أمانة وينظر بمعية كاتبه ومستشاره الخاص ووزرائه المسائل والشكاوى المعروضة عليه وعند ذلك يدخل عليه مشايخ القبائل المرينية والعربية وكذلك الوفود وأعيان القبائل ولاشك انه كان يقرأ لمشايخ القبائل حسابا ويتقى شرهم فكان يسألهم عرض مطالبهم في أيام معينة وحسب نظام مضبوط .

ونحن نأسف لسكوت ابن مرزوق عن فحوى هذه المجالس الدورية وهو الذي عايش السلطان من قرب ، وأغلب الظن ان أبا الحسن كان يتخلص إلى حد ما من وطأة هذه المراسم عندما يكون في معسكره . الا أنه من اليقيني انه كان مضطرا إلى التمسك بهذا النظام طيلة احتفاظه بنفوذه . غير أن ما توحى به هذه السلطة من عظمة كان زائلا اذ فشلت سياسة الفتوحات سواء في اسبانيا او إفريقيا وآل به الأمر في آخر المطاف إلى العدول عن استرجاع المغرب الأقصى من قبضة ابنه المتمرد عليه .

ان سياسة أبي يوسف وأبي يعقوب الحازمة هي التي ضمنت بدون منازع بسط السلطان المريني على المغرب الأقصى . غير أن وجود أبي علي بسجلماسة كان يهدد بالفشل مجهودات السلطان الجديد الموجهة ضد بني زيان أو النصارى في الجزيرة .

لذا رأى أبو الحسن من الحذر ترك أخيه يستأثر بتأفيلات اجتنابا للقطيعة لكنه أجبر على التخلي عن منازلة تلمسان بعد أن اتفق مع بني حفص ليضرب على سجلماسة حصارا دام سنة كاملة وكان لسقوط المدينة في أيدي الاعداء ولموت أبي علي تأثير سيء على مملكة تافيلالت فلم تقم لها قائمة طيلة ثلاثين سنة . وقضى أبو الحسن كذلك على إمارة

السوس المستقلة بفضل العرب الذين جازاهم بالاقطاعات واجبر ظواغن درعة على دفع الجباية . وبذلك ظهر له أن سلطانه على المغرب بلغ حدا من القوة يخول له التدخل الفعلي في الخارج .

وظلت الحالة في اسبانيا بعد موت الفونسو العاشر يكتنفها الغموض وكانت المناورات والمطامح الشخصية وتغيّر الاحلاف من حال الى حال وفطور الحماس الديني تحول جميعها دون قيام أي طرف من الاطراف بهجوم حاسم غير أن ملك قشتالة تمكن من الاستيلاء غرة علي جبل طارق ولئن اضطر الى رفع الحصار عن الجزيرة الخضراء فقد سلم اليه بنو نصر مقابل ذلك مدينتين وكاد صغر سن الفونسو الحادي عشر (1312 - 1350) ينال من مكاسب النصرى . ولكن الملك استأنف حرب الاسترداد حالما تخلص من أوصيائه (1327) ولم ينج أمير غرناطة الا بفضل بنى مرين الذين استنجد بهم مرة أخرى ثم سرعان ما أطردهم عندما أصبح في مأمن من أعدائه . فلما استغاث ثانية بهم كان أبو الحسن أدهى من أن تنطلي عليه الحيلة وسرعان ما استرجع سلطان فاس الجزيرة الخضراء (1333) ثم شرع بعد تأهب دام ست سنوات في افتكاك إسبانيا من النصرى بالتعاون مع بني نصر . فوحد الخطر بين قشتالة والارغون ولم يقسوا رغم ذلك على مغالبة الاسطوبل المريني المعزز بسفن بنى حفص فسجل انتصارا بحريا باهرا (5 افريل 1340) وسيطر لحين على مضيق جبل طارق . ثم ضرب أبو الحسن الحصار على طريف تعاذه جيوش غرناطة . وتمكنت المدينة بفضل مناعة اسوارها ونجدة شواني جنوه من الصمود حتى خف إلى نصرتها النصرى وقد جيشوا جيشا بلغ ولاشك خمسة وثلاثين ألف رجل وحصل الصدام شمالي طريف على ضفاف ريو دي سلاو (30 أكتوبر 1340) وتمكن المحاصرون من خرجة سجلوا بها نصرا يعتبر من أهم ما حققه النصرى منذ يوم العقاب . وقفل المرينيون راجعين إلى المغرب الأقصى في عناء كبير . ولم تمض أربعة أعوام حتى سقطت الجزيرة الخضراء في أيدي ملك قشتالة بعد حصار دام أكثر من عشرين شهرا شاركت فيه نخبة من فرسان انقلىترا وفرنسا وإيطاليا (26 مارس 1344) .

ويؤكد ابن خلدون ان ابا الحسن كان « موقنا بظهور أمر الله وإنجاز وعده برجع الكرة وعلو الدين »

غير أن الله يريد من الانسان أن يسعى على غرار هرقل الخرافي وأكتفى السلطان بالاماني السليمية، بينما انتهى أمر الفتح الاسلامي بلا رجعة. وفي الوقت الذي كان أبو الحسن منطويا علي نفسه في تونس بعد كارثة القيروان كان ألفونسو الحادي عشر ضاربا الحصار علي جبل طارق (أوت 1349) وكان علي وشك اقتحامه لو لم يفتك به الوباء وهو في ريعان الشباب (مارس 1350). لقد أبعد نهائيا خطر بني مرين عن أرض اسبانيا ولم يبق لورثته إلا أن يحاربوا مملكة غرناطة بمفردها.

وكان أبو الحسن أسعد حظا في مواجهة تلمسان فقد استجاب لرغبة والد زوجته أبي بكر الحفصي وطالب أبا تاشفين أن يكف عن مناوشة بني حفص. فلج أبو تاشفين واستكبر وكانت القطيعة (1334) وتحركت جيوش بني مرين بقيادة السلطان في أول سنة 1335 وسرعان ما طوقت تلمسان ثم انطلقت إلى غزو المغرب الأوسط بينما كانت المنصورة في عز نهضتها (ترجع آثار المباني العظيمة الماثلة حتى اليوم إلى ذلك التاريخ) وتلمسان رازحة تحت حصار بالغ القسوة. ولقد استماتت في الدفاع وصمد أبو تاشفين حتى النهاية بل ذهب به الأمر إلى اللجوء بسلاحه عن قصره أثناء الهجمة الحاسمة (غرة ماي 1337) فخرج وظفر به القوم وأجهز عليه في الحين وهكذا نجح بنو مرين لأول مرة في أخذ البلد عنوة بعد أن ذاقوا من أجل ذلك الأمرين. وأبلغ أبو الحسن الخبر إلى كبار ملوك المسلمين في عصره فجاءته التهاني من مصر والسودان وطبعا من غرناطة وتونس.

غير أن طموح أبي الحسن لم يقف عند هذا الحد : فقد ظلت ذكرى الأمبراطورية الموحدية عالقة بذهنه مثل اسلافه ولم يزل يتوق إلى بسط هيمنته على بلاد المغرب بأكملها. خاصة وأن الدولة الحفصية تبدو وكأنها تدور في فلك فاس. ثم إن أبا الحسن طلب من والد زوجته سنة 1341 و 1342 ان يسلمه عددا من اللاجئين المرينيين المطرودين من اسبانيا فكان له ذلك. وفي سنة 1346 الحج علي أبي بكر ان يزوجه من ابنته الثانية اذ هلكت الأولى في حوادث طريف المؤسفة (1340)، وكان في كل مرة يعتمد في تنفيذ أغراضه على ابن تافركين حاجب بني حفص والمتزعم للزعة الموالية للمرينيين في البلاد التونسية. غير أن أبا الحسن لم يقدم على أي عمل في حياة أبي بكر. فلما مات هذا الملك واستشرى

التنافس بعده وجد من غير شك الفرصة سانحة بعد طول انتظار . وفي ربيع سنة 1347 قصد تونس على رأس جيوشه ودخلها في 18 سبتمبر من نفس السنة واستقرّ بها كما لو كانت بلاداً مغلوبة على أمرها .

ومعلوم أنه أغضب العرب عندما نال من امتيازاتهم وانهم هزموه قرب القيروان في 10 افريل 1348 وحاصروه في مدينة سيدي عقبة . غير أنه تمكن بمداخلة بعض بطون العرب من الخلاص والتحق بتونس وارجع الأمور إلى نصابها . ولكن المملكة المرينية لم تخرج سالمة من هذه الأزمة . فقد استقل بالحكم أبو عنان ابن السلطان ونائبه في المملكة اثناء غياب والده وتخلّى عن تلمسان . فعاد إليها بنو عبد الواد وركزوا فيها نفوذ بني زيان من جديد ، وتمرد عدد من امراء بني حفص على الحكم المريني في بجاية وقسنطينة وعنابة . وحاول أبو الحسن طيلة سنة أن يمسك من جديد بزمام الأمر ثم قرر في الآخر أن يعود إلى المغرب الأقصى بعد أن فشلت مساعيه في تونس فشلا ذريعا (آخر ديسمبر 1349) .

وسافر عن طريق البحر اذ كان السفر برا متعذرا تماما . وقامت عاصفة فتشتت أسطوله وقذفته الأمواج في جزيرة صغيرة قريبة من بجاية حيث كاد أن يقع في قبضة القبائلية . وانتهى به المطاف إلى مدينة الجزائر في حالة يرثى لها وهناك التفت حوله عرب بني سويد . وقصد تلمسان معتدّا بقوتهم غير انه انهزم في سهل شلف . - واستجمع قواه وانقض على تافيلالت صحبة انصاره وخطّ بسجلماة ثم اضطر إلى التخلي عنها عندما اقتربت منه جيوش أبي عنان وتخلّى عنه عرب بني سويد فرمى بنفسه حيثنذ على مراکش حيث مكّنه بعضهم من الاستقرار بها وإقامة شبه دولة . لكن ابا عنان حمل السلاح من جديد والتقى الجيشان على ضفاف أمّ الربيع في ماي 1350 . فانهزم أبو الحسن وكاد أن يقتل فلاذ إذ ذاك بجبال الأطلس الأعلى حيث آوته قبيلة هنتاة الموحديّة . ولا حقه أبو عنان وشدّد عليه الحصار طيلة الشتاء واضطرّ أباه إلى التفاهم وقد أخذ الكلل من أبي الحسن مأخذه وعمّه اليأس وأعوزه المال . فرضى بالتنازل لفائدة الغاصب مقابل شيء من « المال والكسي » . وبينما هو كذلك اذ داهمه المرض « فافتصد لإخراج الدم » فتعفن الجرح فلقي حتفه وهو على أنفاس حال في جبال هنتاة يوم 24 ماي 1351 . ويروى أن ابا عنان ذرف الدمع

على جثمان أبيه وأذن بدفنه في « مقبرة سلفه » بشالة حيث لايزال قبره ماثلا إلى اليوم .

ولم يكن هذا السلطان العظيم المنكود الحظ فاتحا محروما من ثمرة مطامحه فحسب بل لأنه إلى ذلك ترك على غرار أبيه وأجداده معالم معمارية بالغة الأهمية : منها مسجد الشرايين وأبي الحسن بفاس ومسجد المنصورة وهو أفخم البناءات المرينية وسيدي بومدين بتلمسان ومدرستا الواد والمصباحية بفاس ومدارس تازي وسلا ومراكش ومكناس وقد أتمها أبو عنان ومدرسة سيدي بومدين وأخيرا أعاد بناء ماستان فاس .

أبو عنان :

ولد ابنه وخلفه أبو عنان فارس (1348 - 1358) في جانفي 1329 - فقد كان عند اعتلائه العرش في سن الشباب فيه ما في الشباب من الجموح والطموح وشدة المراسن . وكان طويل القامة جميل الطلعة كثير الإقدام مثقفا ، توفرت فيه مناقب عظماء الملوك ، غير أنه كان مستبدا برأيه يأنف الاستشارة ، وقد بلغ طموحه حدا جعله يتجاسر على التسمي بأمر المؤمنين .

ويظهر أن الظن ذهب به أول الأمر - عندما استأثر بالسلطان - إلى أن أباه اهلكه الطاعون في تونس . ثم إن أحد أبناء أخيه انفرد بالحكم في فاس الجديد قبل أن يقدم هو نفسه على مثل هذا العمل والخلاصة أنه يمكن تبرير موقفه إلى حد ما إلا أنه عندما بلغه أن أباه على قيد الحياة لم يغير موقفه ، ولم يجد عناء في طرد منافسه من فاس الجديد ولا في وضع المغرب الأقصى تحت رايته . والجدير بالملاحظة أن تلمسان والمغرب الأوسط كانا في نفس الوقت يجاهدان من أجل التحرر من الهيمنة المرينية .

وانحصرت عناية أبي عنان طيلة السنوات الأولى من ملكه في القضاء على أبي الحسن . وأخذ ابتداء من سنة 1352 يسعى إلى انجاز ما كان أنجزه بوه من قبل . وتصدى بطبيعة الحال أول ما تصدى إلى تلمسان ، وما هي إلا معركة بسيطة أنكاد حتى استسلمت له المدينة بعد أن حقق النصر بفضل خصاله الشخصية (14 جوان 1352) ومن ثم واصل انطلاقته من دون

توقف فاستولى على كامل المغرب الأوسط حتى بلغ بجاية (خريف 1352) ومنذ ذلك الحين بدأت المتاعب فتمردت بجاية سنة 1353 واضطر إلى غزوها من جديد وظهر دعيان سنة 1354 أوغز الحفصيون إلى أولهما بذلك في جهة قسنطينة وأرست بالثاني مراكب قشتالة على سواحل السوس فقضى أبو عنان على كليهما . وفي سنة 1335 أعلن والي جبل طارق عن استقلاله فاضطر الأسطول المريني إلى محاصرة البلد لحمله على الاستسلام .

ولمّا استتب الأمر لأبي عنان شرع في تحقيق مشروعه الأكبر ذاك الذي فكر فيه أبوه كما فكر فيه الموحدون من قبله أي وضع كامل المغرب تحت سلطة بني مرين . وبدأت الأمور على أحسن ما يرام ، فقد فُتحت قسنطينة في أول صائفة 1357 كما فُتحت تونس في سبتمبر من نفس السنة ونحن نعلم أن عرب إفريقيا سرعان ما تمردوا كما تمردوا من قبل على أبي الحسن تحلوهم نفس الأسباب . وأنهك أبو عنان قواه في مطاردتهم حتى جهة بسكرة حيث أخذ الكلل من الجيوش مأخذه وبدأت تشتت فما كان منه الا أن تراجع القهقري وعاد إلى فاس في نوفمبر 1357 . ولم يعتبر هذه الخيبة قاضية فوجه في السنة الموالية جيشا بقيادة أحد وزرائه لاختضاع الأوراس ، فكان له ذلك ، ولم يلبث أن مرض مرضا شديدا فانقسم وزراؤه إلى كتاتين تؤيد كل واحدة منهما احد ابناء السلطان المحتضر .

وتمكن الفودودي وهو من أشدّ الوزراء جسارة من فرض مرشحه وهو طفل لم يتجاوز الخامسة من عمره - ثم خنق أبا عنان الذي طال احتضاره (5 ديسمبر 1358) .

وقد يبدو عهد أبي عنان إعادة أمينة ولكنها مختصرة لعهد أبي الحسن ، وفعلا فإن اطوارهما متماثلة الا أن النتائج متغايرة ، ذلك أن أبا عنان لم تهزمه عرب إفريقيا بل خذلته جيوشه التي أبت مراضلة القتال ، فقد حمل ملوك بني مرين رعاياهم فوق ما يطيقون وبلغ جهدهم أقصاه . ومن جهة أخرى تفاقم انحلال الدولة المرينية وأصبح حالها أكثر تداعيا ممّا كان عليه قبل عشر سنوات وصار الوزراء هم الذين يولسون الملوك ويعزلونهم . وستواصل الأزمة التي ظهرت بموت أبي عنان إلى نهاية

دولة بني مرين بالذات . وسيطول أهداها وتولد عنها نتائج بالغة الخطورة بحيث سوف يعجز بنو وطاس عند توليهم مقاليد الحكم عن تدارك الأمر .

انحطاط الدولة المرينية :

ما أن هلك أبو عنان حتى عمت الفوضى في مملكة بني مرين كما يستشري الداء الفتاك في الجسم العليل فتنازع على الحكم الوزراء والادعياء المرينيون والعرب وكتائب النصارى وتهالكوا في ذلك . وكان الحكم لا يدوم أكثر من بضعة أيام أو أشهر وتعددت المؤامرات والاغتيالات . وأصبحت هذه الدولة التي تألق نجمها فيما مضى وأوحت بقوة السلطان شبيهة بآلة انخرم سيرها .

وخلا الجو في أول الأمر للوزير الفودودي على أنه كان يخشى منافسة أمير هنتالة المهيمن على جهة مراکش ولم تمض ثمانية عشر شهرا على موت أبي عنان حتى رشح وزير آخر يدعى ابن ماساي دعيا وسعى إلى مسك زمام الحكم في ظله : (ماي 1359) وفي نفس الوقت ظهر دعي آخر يدعى أبا سليم وهو ابن أبي الحسن ... يعاضده بطرس القاسي (Pierre Le Cruel) ملك قشتالة ، ودفع الحدس الوزيرين إلى التخلي عن مرشحيهما والتقرب من أبي سليم الذي يبيع في جويلية 1359 . ونفي الفودودي إلى مراکش فأعلن العصيان والقي عليه القبض ومثل به (ربيع 1360) . وبينما كان ابن ماساي وأبو سليم يتوهمان انهما يمساكان بزمام الحكم إذا بوزير جديد هو عمر بن عبد الله يفسد عليهما الخطة ويتحالف مع قائد الكتيبة النصرانية الاسباني لمبايعة ابن من أبناء أبي الحسن يدعى تاشفين كان يغلب عليه البسالة في 19 سبتمبر 1361 ، ولم تمض أشهر قليلة حتى اعتبر الوزير صاحب السلطة الحقيقية أن الملك دون المستوى فاستقدم آخر سنة 1361 أحد أحفاد أبي الحسن من بلاط قشتالة حيث كان لاجئا ويدعى أبا زيان ، وفي هذه الاثناء كان شمل بني مرين يتمزق ، فكان بنو عبد الواد ينتهزون كل الفرص للانتصاب بتلمسان فيطردون منها في كل مرة ، وكان جنوب المغرب خاضعا في واقع الأمر إلى الأمير الهنتاتي ، وأخير استقر أمير مريني بسجلماسة باعانة عرب المعقل وظهر في مظهر الملك ،

وأراد أبو زيمان بعد مرور سنوات التخلص من سيطرة وزيره واعتزم قتله ، فعلم بذلك عمر بن عبد الله بواسطة الحريم حيث كانت له عيون ، وأوعز بخنق سيده وأحل محله ابنه أبا الحسن عبد العزيز الذي كان الى حد ذلك الوقت مسجوناً في قصر فاس (خريف 1366).

وكان السجين الذي أصبح سلطاناً ، شاباً ضعيف البنية ولكنه يخترن طاقة عظيمة في جسمه المنهوك تشد أزره أمه وهي امرأة سديدة الرأي حازمة ولماً فطن الوزير عمر أن سلطانه لم يحقق ما وضعه فيه من آمال ، فكر في القضاء عليه ولكن أمره ا تكشف فأمر عبد العزيز بأن تتناول السيف هبـراً أمامه ثم تصدى إلى تنظيم أمور دولته (جويلية 1367) ولم يكن الذي جرى ليروق للهتاتني صاحب الجنوب فشق عصا الطاعة . فخرج عبد العزيز إلى منازلته وتعقبه في الجبال والشتاء على أشده ثم تقبض عليه (ربيع سنة 1370) وتفرغ بعد ذلك إلى تلمسان حيث استقر مرة أخرى أبو حمور أمير بني عبد الواد ونازلها فسقطت في يده من دون مقاومة (7 أوت 1370) ثم واصل عبد العزيز حركته في المغرب الاوسط وبسط نفوذه عليه بعد أن تغلب على مقاومة العرب : وهكذا التأم سنة 1372 مملكة بني مرين على النسق الذي كانت عليه في أيام عزها عهد أبي يعقوب ، ولكن لم يدم ذلك طويلاً اذ تداعت صحة السلطان رغم طاقته الجبارة : وتوفي في 23 أكتوبر 1372 وترك الحكم لطفل صغير يدعى السعيد .

واحتكر الوزراء الحكم مرة أخرى : فكان الأمر أولاً لأبي بكر بن غازي الذي حكم باسم الطفل السعيد ، ثم لم يصمد أمام ضربات منافس له يدعى محمد بن عثمان وقد ربط مصيره بالدعي ابي العباس الذي ناصره ملك غرناطة وانتصر سنة 1374 ولم تعد لأبي العباس بعد مرور عشر سنوات حظوة لدى حاميه من بني نصر : واضطر إلى الهجرة بينما قتل وزيره ، فظهر عند ذلك الوزير ابن ماساي مرة ثانية والسلطان آنذاك ولد لأبي عنان يدعى موسى وهو مصاب بعاهة وعاجز عن الحكم (1384 - 1386) ثم خلفه الواثق احد احفاد أبي الحسن (1386 - 1387) ، وان كان ابن ماساي يحاول زحزحة بني محمد الخامس ملك غرناطة على شمال المغرب الأقصى فان هذا الاخير ارسل صاحب غرناطة المذكور إلى المغرب الأقصى أبا العباس فاستولى على الحكم وأمر بقتل ابن ماساي وعذبه عذاباً

اليمما واستهوت شؤون الدولة المعقل الذين كانوا سببا في هذه العودة ، فمنهم من أصبحوا اسيادا على مملكة تافيلالت ومنهم من فتحوا لأنفسهم طريق السهول الساحلية . ونعم المغرب الأقصى في عهد أبي العباس بست سنوات من الهدوء النسبي بل أمكن للسلطان أن يرسل ابنه لفتح تلمسان ومدينة الجزائر ومليانة وتدلّس ، غير ان الاضطرابات التي عقت موته المفاجئ بتازى (نوفمبر 1393) بلغت حدا تمكن معه البصارى من جعل أرض المغرب الأقصى ساحة لحروبهم .

حكومة السلاطين :

اعتمد بنو مرين في تصريفهم لشؤون الدولة على العمل الدائب دون أن يبدعوا ابداعا فاقتصروا ، مهما كان طموحهم ، على التسمي بامير المسلمين من غير أن يتجرؤوا قبل ملك أبي عنان على التسمي بالخليفة كما كان الموحدون يتلقبون به دون أن ينازعهم فيه أحد ، على أنهم عرفوا كيف يرفعون سمعتهم لدى الأجانب والحضر أصحاب الحل والعقد في المغرب الأقصى وذلك بأبهة بلاطهم وروعة مواكبهم وعظمة مبانيهم وجلال نقوشهم ومنايح مؤرخيهم وشعرائهم . ونجحوا في فرض كل هذا لاعلى معاصريهم فحسب بل على من بعدهم حتى بقوا إلى اليوم في أذهان الشعب ، آخر من مثل عظمة الاسلام . « وكثيرا ما يردد الناس في المغرب الأقصى قائلين : انتهى كل شيء بزوال بني مرين وبني وطاس » .

وكان بنو مرين يختارون بصفة عامة وزراءهم وحجابهم وكتابهم وقضاتهم من عائلات معينة ، من ذلك ان أغلب الوزراء لم ينحدروا من سلالة الملك رأسا اذ كان يخشى كثيرا طموحهم ولكن من جماعات ذات قرابة بعيدة أو موالية . ومما لاشك فيه انه لكل كبار الدولة من قواد واداريين مشمولات مضبوطة بل إنهم كانوا من أصحاب السيف قبل أن يكونوا من رجال القلم ولئن اضطلعوا بأعلى الوظائف وأخطرها فانهم لم يتحلوا دائما بالثقة والوفاء الخالصين .

وكان السلاطين يعيّنون حجابهم كما عن لهم فسواء كانوا عبيدا أو معتقين أو يهودا أو خصيانا فهم أهل ثقتهم والرافقون دون رعاباهم والمنظمون لمجالسهم والساھرون على تنفيذ العقوبات

والمحتفظون بالمعتقلين في سجونهم ، بل لربما كانوا يتولون إلى ذلك الحسبة وكانوا يعهدون بإدارة المملكة إلى كتاب ينتسبون غالباً إلى أوساط الأدباء الأندلسيين ولكنهم ينحدرون في بعض الأحيان من عائلات مغربية كانت في خدمة الموحدين سابقاً ، وكثيراً ما ينتمون إلى بلاطات ملوك المسلمين حيث حصلت لهم خبرة في تصريف شؤون الدولة ، فعندما دخل ابن خلدون في خدمة بني مرين كان قد تكون بعد ضمن اطار الوزارة الحفصية ، ويوجد حسب المسند صنفان من كتاب البلاط ، صنف مكلف بالرسائل الصادرة والواردة وصنف مسؤول عن المسائل الحربية والعقارات والمصالح المالية وخاصة توزيع الجباية واستخلاصها .

وكان يتدب القضاة في أغلب الأحيان من بين الاطارات المحلية ممّا يدل على وجود نخبة مغربية حذقت المسائل الفقهية .

وكان الجند المريني من زناة ومن القبائل العربية . واشتهر العساكر بشجاعتهم وكذلك بصلفهم ، وكان المجاهدون في سبيل الله يمثلون النخبة من الجيش . وهم الذين يتحدون اقطاب النصارى قبل المعركة . وكانت زناة والعرب فرساناً غالباً والاندلسيون نشابة والمرزقة الاسيويون رماة . ويضاف إلى ذلك كتيبة نصرانية قاطنة بحي فاس الجديد يدعى ربض النصارى . وكان السلطان محظوظاً دائماً بحرسه الخاص ويسمون أهل الدائرة تحوط خيامهم بخيمته وعندما يتحرك الجيش لخوض غمار الحرب يسلم السلطان القائد الأعلى راية صغيرة من الكتان الأبيض وهي صورة مصغرة من العلم الملوكي ترمز إلى سلطته . وتحمل مقدمة الجيش هذا العلم ويرفع في أعلى الحصون المفتوحة .

وكان الجيش يفضل الغزوات على المعارك المنظمة وعند المنازلة تحتل كل كتيبة مكاناً معيناً وبعد التحديات والمبارزة يسلط الرماة والنشابة وابلا من النبال على الاعداء ثم ينقض الفرسان عليهم ، وكان المنتصرون في مقاومتهم للكفار لا يقيلون عثايرهم ويقتسمون الغنائم بالانصاف ويأتون على كل ما يتعذر عليهم حمله .

وما كان يمكن للدولة المرينية أن تبقى دون الاعتماد على الأسر العربية فانتخبت في أول الأمر المحزن من الخلط الذين كان لهم دور ثانوي

قبل ذلك لكنهم اضمروا عدااء شديدا للموحدين الذين عاملوهم معاملة قاسية بعد أن نفوهم إلى المغرب الأقصى . وقد توطدت الوحدة ابتداء من سنة 1260 بفضل مصاهرة بينهما . ودامت حظوة الخلط أكثر من قرن من دون أن تكون لهم نفس الامتيازات التي منحها الحفصيون وبنو عبد الواد للظواغن الذين في خدمتهم . ولربما فقدوا منزلتهم بسبب وفائهم لسلطان مراکش في الأزمة التي جدت بينه وبين عبد العزيز سلطان فاس . ومنذ سنة 1310 أصبح بنو سويد ولمدة تقارب ثلاثين سنة أشد القبائل موالاة لبني مرين ضد منافسهم في المغرب الأوسط وأغدق السلطان عليهم من النعم الشيء الكثير خاصة وأن ابتعادهم عنه حدث من خطرهم .

الفن المريني :

لقد عبّر الفن المعماري المريني عن نشاط ملوك المغرب الأقصى السياسي منه والعسكري والديني فقد جمّلوا عاصمتهم فاس الجديد بوصفهم رؤساء دولة وشيدوا اسوار المنصورة باعتبارهم فاتحين ، واقاموا المدارس بصفتهم مسلمين أتقياء من باب التقوى كما اكثروا من المشاريع حول قبر سيدي بومدين بالعبّاد وحموا تربتهم بشالة في ظل رباط بناه الموحدون تجاه سلا .

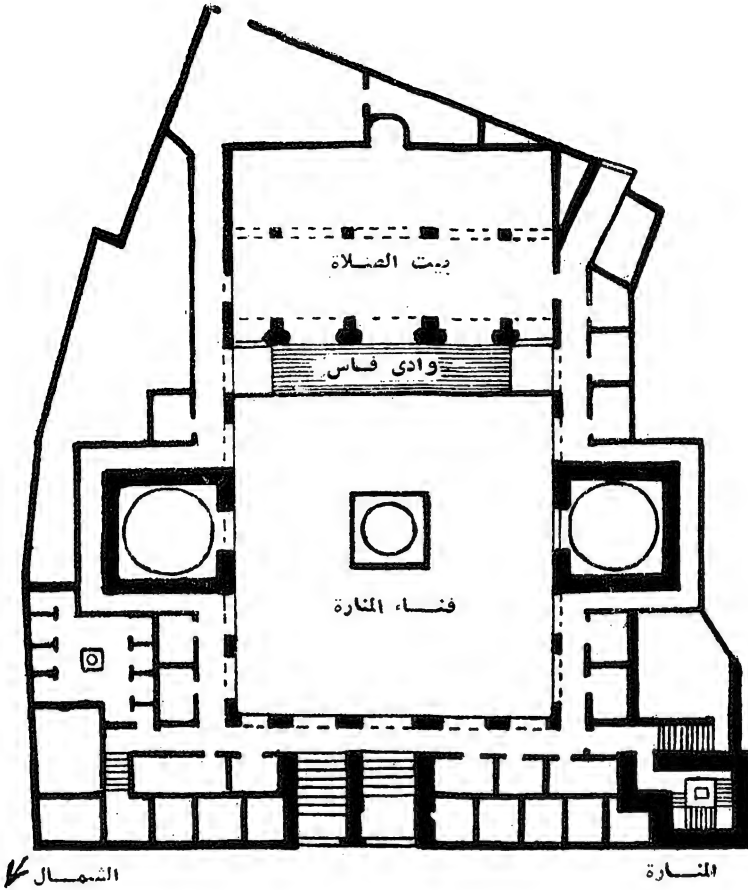
ولم يسمح انحطاط بني عبد المؤمن ولاتأسيس الدولة المرينية بوجود نشاط يذكر في ميدان البناء والتشييد طيلة قرن . ووجب انتظار آخر القرن الثالث عشر ليتبنى أبو يعقوب مسجدي تازى ووجدة المطبوعين بطابع الموحدين . ولم يتمكن أبو الحسن وهو الذي عدد له المسند ما بناه من مساجد بالمغرب الأقصى من اكمال المسجد الذي بدأه أبو يعقوب بالمنصورة والذي استوحى هندسته من مسجد حسان بالرباط باستثناء الصحن المربع الشكل الذي يرجع توسيعه إلى المرينيين ولاشك . وكانت الصومعة الضخمة التي بلغ طولها أربعين مترا والتي يعلوها جمامور تلفت الانظار بهندستها ومثانة بنائها خلافا لغيرها من المباني . وكان أبو الحسن هو الذي أقام ايضا قرب قبر سيدي بومدين مسجد العباد الذي يدخله الناس من كُنّة (Porche) وهو مزين بفسيفساء من خزف (1339) . أما المصلى ذو الخمس بلاطات والثلاثة صفوف والجناح الواحد فلن جدرانه وسقوفه ذات التريعات مزخرفة بطلاء من جص منقوش ومحرا به المكون من فجوة

ذات زوايا منظمة والمحمول قوسها على أسطوانتين من جزع بتاجيهما الأنيقين فإنه مسبوق بفُرْجة مغطاة بقبة مقرنصة . وقد حفّ بالصحن رواق ذو دعائم موشورية الشكل أمّا الصومعة فهي مزينة بالآجر المشبك والخزف .

وبعد ذلك بأربع عشرة سنة أهدى أبو عنان إلى زاهد آخر يدعى سيدي الحلوي كان تولى القضاء باشيلية ثمّ احترف بيع الحلوى في تلمسان مسجداً مماثلاً وان كان أصغر من مسجد سيدي بومدين ويحتوي المصلى على ثمانية أعمدة من الجزع وتوجد على الواجهات الأربع لصومعته أشكال من الفخار المموّه بالطين . وعوضاً عن المساجد المغربية يمكننا التعرف إلى المباني المقامة في تربة شالة على أبواب الرباط وقدوسد في هذه الأرض التي أضفى عليها الرباط قداسه ، السلاطين وأقرباؤهم من أبي يوسف (1286) إلى أبي الحسن (1339) وكان أبو الحسن آخر بطل مريني من أبطال الاسلام هو الذي أعطى للرباط مظهر العظمة فحاطه بسور ، وزخرف المقام وبنى مسجداً آخر ، أمّا السور الممخمس وطوله 300م وعرضه 80 م فإنه مبني من الملاط الغليظ المغطى بطلاء أبيض وعلى طوله شيد عشرون برجاً . أمّا بابه الرئيسي المحفوف من جانبيه بتحصيلين شكلهما نصف مثنى في زاويتيها فتعان فقد روعيت روعة الزخرف في الحجارة المنحوتة من المرمر المتعدد الألوان قبل مقتضيات الدفاع . وكان المسجد يحتوي على مصلى أبي يوسف وهو اليوم في حالة خراب يحوط بمحرابه دهليز نصف دائري تعلوه صومعة طولها 14م 35 فوقها جامور وتزينها صور مآطرة من الخزف المتعدد الألوان كما يحتوي على مصلى أبي الحسن . وفي الحديقة المجاورة أقام السلطان ضريحه الفخم المبني بحجر المقاطع المحكم القطع والمتصل ببعضه ببعض بواسطة قطع من الرصاص جوانبها مزخرفة أحسن زخرف على الحجر المزدان بالرخام .

وقد انجر عن انتصار المرينيين على الموحدين وهو في الواقع تفوق السنة على البدعة الشيعية الاكثار من المدارس حيث كان الطلبة يقيمون على نفقة السلطان ويدرسون الفقه المالكي . وكان ابن مرزوق يثني على أبي الحسن لتفانيه في الذود عن مذاهب السنة . وان مدرسة الصفارين التي أذن بنائها أبو يوسف هي الوحيدة التي ترجع إلى آخر القرن الثالث عشر .

ويحتوي صحنها في الوسط على بركة مستطيلة الشكل اصطفت على جوانبها غرف الطلبة أما المصلى الصغير المربع الشكل ففيه محراب قد يكون اتجاؤه أحسن من غيره من مساجد فاس ، وبنيت المدارس الأخرى في النصف الأول من القرن الرابع عشر ، ويرجع عهد مدرسة فاس الجديد إلى أبي سعيد عثمان ومدرسة الصهريج وهي بلا صومعة يغزى اسمها الشعبي إلى وجود بركة كبرى مستطيلة في صحنها ، أشكالها بسيطة ولكنها متألفة ، واحتضنت مدرسة السبعين الصغيرة وهي فرع من الأولى بتعليم القراءات السبع ، وأروع مدرسة هي مدرسة العطارين ولعلها أقرب إلى الكمال من حيث التوفيق في توزيع المساحات المزخرفة بالصحن وزينة المصلى ، وتحتوي المصباحية التي بناها أبو الحسن وسميت باسم أول من درّس بها على 117 غرفة ، وتحفظ بظلة جميلة من الخشب المنقوش كما صُنِعَ سقف دهليزها أحسن صنعة وامتاز مدخل المصلى بأناقة عزّ نظيرها . وتصدّر واجهة مدرسة سلا ، وهي من نفس الفترة رناج نجته مدرّج وتحفّ به نقوش ، وكانت مدرسة العباد تعبيرا عما كان يكنّه أبو الحسن من تعظيم نحو سيدي بومدين (1347) وآخر مدارس وأعظمها مدرسة البوعنانية ويرجع فضل بنائها إلى أبي عنان (1350) - (1357) . ويفضي بابها بمصراعيه الخشبيين المصفيحين بالبرنز المتقن الصنّع إلى مدخل ذي درجات حافات من الجزع والخزف وبجوانبه دكّات من الخزف المتعدد الألوان . أمّا صحنها الفسيح المغطى بالرخام الأبيض أو الوردي وبالجزع : فقد كسيت جوانبه بالفسيفساء ، وفُتحت نوافذ غرفه وسط زخرف من الجصّ . قال ب. ريكار في هذا الصدد : « وفي أعلى ذلك تحتضن الدعائم مداмик العقود الكبيرة المستعارة الخشبية التي تحمل الافريز الأعلى المزخرف بالآيات القرآنية والمحمي بظلة لم يأت مثلاً في الروعة » وتضيء كوى بلورية المصلى المكوّن من بلاطين عرضائيتين بأطرافهما الهندسية المتداخلة على أكمل وجه . وإلى جانب ذلك انتصبت ساعة لها 13 ناقوسا من البرنز تستعمل ولاشك للتنبيه (1357) كما وجدت ميضاة مسقوفة على أروع صورة .



شكل 22 : - رسم للمدرسة العنانية بفاس (الطابق السفلي)

وأكثر بنو مرين كذلك من المباني العسكرية ، فجهّز أبو يوسف رباط بورقراق بالمسالح وبنى الاسوار وأقام الأبواب بفاس الجديد . وشيّد أبو الحسن سور شالة كما سبق أن ذكرنا غير أنه كان دون سور المنصورة أهمية دفاعية .

ان الفن الاسباني المغربي المريني لا يستمد قيمته من تقنية المعمارين ذلك أن مادة البناء الاولى المستعملة رديئة ولكنها مستورة بكثرة الزخرف زد على ذلك أن الخطوط الكبرى البسيطة يتبعها افراط كبير في الاعتناء بالجزئيات غير أن المظهر العام يبقى واضحا كما تبقى النسب متوازنة

والزخرف متناسبا تمام التناسب مع المسافات التي يغطيها وعلاوة على كل ذلك فان تأثير الالوان المختلفة بلغ من الاحكام والذوق الكمال بعينه .

وعندما بلغ الفن المريني أوج نضجه حمل في طياته عوامل انحطاطه لمبالغته في استعمال الأشكال وافراطه في الجزئيات . ورغم ذلك فقد كان تأثيره وجلاله لامثيل لهما لا في بلاد البربر بأكملها فقط بل حتى في المشرق . ولكنه استنفذ منذ اواخر القرن الرابع عشر طاقاته فحالت الاضطرابات التي جدت في القرن الموالي دون إبداع المعالم الفخمة

خاتمة :

استمرت الدولة المرينية بصفة رسمية حتى سنة 1465 ، وفي الواقع فانه يمكن اعتبارها منتهية سنة 1420 عندما اغتال أبا سعيد عثمان الثالث حاجبه ؟ وأصبح الحكم يمارسه في الواقع أحد افراد عائلة بني وطاس رغم ان الخليفة الشرعي كان ابن القتل عبد الحق وهو طفل لم يتجاوز سنه عاما . فاذا أردنا أن نقوم بكشف عن آثار بني مرين وجب حينئذ أن نقف حسب رأينا عند سنة 1420 .

وما أن أطاح بنو مرين بسلطان الموحدين بالقوة حتى وضعوا نصب أعينهم هدفا واحدا هو بناء ما هدموا وبعث امبراطورية موحدية تحمل اسما مرينيا ، غير أن الوسائل والظروف لم تكن واحدة . فلم تكن لهم القوى التي توفرت لسابقيهم : لقد كانوا فرسانا طواعن فلم يكونوا منهم جيشا من المشاة أبدا بل كان هؤلاء اندلسيين او قشتاليين وحتى مشاركة بينهم تكون الجيش الموحيدي أولا وبالذات من الجبليين المغاربة أجداد القومية اليوم — لذا فان أدواتهم العسكرية مهما بهرت الناس ، ظلت منقوصة ولم يكن لها كذلك وزن كبير ، فقد لاحظ هـ . ترانس أن الأرقام القليلة التي لدينا ، وكذلك مانعرفه عن سياسة بني مرين العسكرية يدل جميعها على أن عدد جندهم كان ضعيفا نسبيا . لذلك نجدهم دائما يستنجدون بالقبائل البربرية في المغرب الأقصى التي لم تبادر دائما بحمل السلاح لنصرتهم كما يستنجدون بالقبائل العربية أو على الأقل بالبعض منها وهي شبيهة بما سمّي فيما بعد بقبائل المخزن ، ومعنى هذا أن جيش بني مرين لم تكن نسبة المجندين فيه من الشق المنتصر تعادل ما توفّر لجيش الموحدين

ففتّر الحماس في صفوفه وكثر عدد اللامبالين بل وجدت كتائب معادية سرّاً .

فكان هذا الجيش أداة قاصرة عن الاضطلاع بالرسالة التي حملها اياها أكثر ملوك بني مرين اقداما .

ومن جهة أخرى فإن أعداءهم كانوا أشدّ بأساً من أعداء الموحدين ففي اسبانيا تدعمت مملكة قشتالة بصورة ملحوظة ، واستفاد جيشها وأسطولها مدّاً حققته أوروبا الغربية من تقدّم في الفن العسكري ، وبينما واجه الموحدون في بلاد المغرب قبائل تأكلتها الفوضى أو ممالك أنهكها الزحف العربي اصطدم بنو مرين بدولتين تكوّنتا قبل دولتهم وبلغتا درجة مرموقة من التماسك بفضل ملوك من طراز يغمراسن أو أبو زكريا أو المستنصر .

ثمّ إن العرب كانوا انتشروا في كامل بلاد المغرب وعمّ معهم الصراع الهدّام بين الفلاحين المتوطنين والرعاة الظاعنين ، وزيادة على ذلك فإن الدولة المرينية لم تنعم بما حظيت به الدولة المؤمنية من انسجام فما أن هلك أبو يحيى وهو أول ملك مريني بحق حتى أصبح الحكم فريسة يتهاфт عليها المتهافتون ، فتقلّ أن تعاقب الملوك على الحكم من دون عراقيل . ولو حقق بنو مرين حلمهم في مثل هذه الظروف لكانت المعجزة ، فقد كان عليهم أن يضعوا نصب اعينهم غاية أقرب منالا عوض الإصرار على إحياء امبراطورية موحّدية تشمّل بلاد المغرب واسبانيا الاسلامية فحاولوا تكوين دولة زناتية منحصرة في المغرب الأقصى والمغرب الأوسط تتأخّجها شرقا بلاد القبائل والأوراس أي أن يحدوا من طموحهم . فلقد باؤوا بالفشل الذريع سواء كان ذلك في اسبانيا او بلاد المغرب : وانتهت مغامرتهم بالاندلس سنة 1340 قبل أن يترأى لأبي الحسن طيف امبراطورية مغربية . وممّا زاد في فداحة خيبتهم أنهم استترفوا قواهم ، وإن انحطاطا لانهضة بعده تبع آخر مجهود بذله أبو عنان .

وهكذا كان نصيب الدولة المرينية من الناحية السياسية الفشل الكامل غير أن الأمر على خلاف ذلك فيما يتعلق بالدين والحضارة ، بالرغم من أن المرينيين لم يكونوا مضاحين دينيين ولا أخفاداً للرسول تغدّق عليهم

البركات فإن تأثيرهم على الحياة الدينية في المغرب الأقصى لا ينازع فيه أحد. فلقد ازالوا شيئا فشيئا من دون ضدام ولا صراع مذهب الموحدين واحلوا محله المذهب المالكي كما كان في سالف عهده ، واعانوا على تطوير العلوم الدينية بتأسيس المدارس في غالب الجهات ، وإذا كان من المبالغة اعتبارهم مؤسسين « للمدرسة فاس » فقد ساهموا مساهمة كبيرة في نموها واشعاعها . ويمكن القول بأن كل مايمت إلى المظهر السني من الاسلام في المغرب الأقصى يحمل طابع المرينيين ابتداء من المدارس وقائمة كتب التعليم إلى التقاليد المرمية في الاحتفال بالأعياد الدينية الكبيرة خاصة المولد النبوي . ولئن بقيت نزعة الشدة والتعسف الموروثة عن المذهب الموحداني فإن جانبها عظيما من المؤسسات الدينية مرينية المنشأ ، ويرجع ازدهار حركة التصوف المغربي إلى نفس الفترة كما سيأتي بيانه وان لم يكن للملوك ضلع في ذلك كما سبق فإن من زار فاس أو تلمسان لا يمكن ان يشك في وجود حضارة مرينية أكثر طرافة ولاريب من الحضارة الحفصية . وليست المباني هي وحدها الشاهد على ذلك وكفي تصفح ما كتبه ليون الإفريقي عن فاس لنذكر أن بني مرين أضفوا على المغرب الأقصى وشمالية على الأقل طابعا حياتيا لم يسمح تماما إلى اليوم . وقد أكد هـ ـ تراس وهو محق في ذلك على ما كان للتأثير الأندلسي في هذه الحضارة من حظ وافر : وهو تأثير وجد بعد من عهد الموحدين ولكنه لم يكن بمثل هذه القوة ولا هذه السيطرة . ذلك أن الاسلام في اسبانيا تفهقر شيئا فشيئا إلى المغرب الأقصى المجاور تحت ضغط حرب الاسترداد ، وانسأقت زناقة إلى التأثير بهذا الرافد الغني غناء كبيرا ، وهم الذين لم ترسخ لهم قدم في ثقافة ولا تعلقوا بتقاليد : من ذلك المباني التي حللنا بعضها باختصار في الصفحات السابقة والنهضة الأدبية التي يعتبر ابن الخطيب الشاعر والمؤرخ الأندلسي محورا لها وكذلك تطور مدن الشمال في المغرب الأقصى ، وإذا كان فاس الجديد وتطوان من تأسيس بني مرين فانه يمكن اعتبار مكناس مرينية كذلك وهي التي لم تكن قبل أبي يوسف سوى قصبة قائمة قرب بعض القرى البربرية القديمة وكذلك وجدة التي جعل منها أبو يعقوب مدينة عظيمة لوقوعها على التخم وأبى هؤلاء الأمراء البناؤون من أبي يوسف إلى أبي عنان إلا ادخال تحسينات كبيرة على مدينة فاس العتيقة وتازى وسلا وسبتة . ومن العدل أن نلاحظ أن هذه الحضارة اقتصررت على المدن ولم تشمل

الارياف ولا حتى المجموعات السكنية الثانوية . وفي هذا الباب فان بني مريين قاموا بعمل خالد بقدر ما اجتنبوا تقليد الموحدين تقليدا أعمى .

4 - دولة بنى وطاس ويقتطع الاسلام

هجوم النصارى على المغرب الأقصى :

لم تقطع أبدا العلاقات بين المسلمين في المغرب الأقصى والنصارى رغم المعارك الولىقة بالارض الاسبانية واعمال القرصنة المتبادلة . فكانت مراكب البندقية وجنوة ومرسيليا وقطلونية (Catalan) والارغون تتردد اثناء القرن الرابع عشر على مواني أصيلا وطنجة وباديس (وكانت تجاهها الجزيرة المسماة حجر باديس (Pènon de Velez) وسبتة وأركودية أو السكدية (الخزامي) ؟ (Alhucemas) ومليلة ولكنها لاتصل الا قليلا إلى سلا وأزمور وآسفي وموقادور حيث كانت مراكب المسلمين تجوب وحدها السواحل ، ولم يكن التجار ليغامروا بأنفسهم في المدن الواقعة داخل البلاد الا بصفة إستثنائية رغم انه كان يوجد بمراكش حي للإفرنج .

وكانت المبادلات تقع في المواني التي توجد فيها القمارك العربية وفنادق النصارى . وكان أسطول البندقية يرسي كل سنتين بباديس وهو ميناء فأس ، وكان المغرب الأقصى يستورد خاصة طيور القنص والمعادن والماعون ولوازم الثياب ، والأقمشة ، وقطع النسيج والتوابل والخمر . ويصدر العبيد ، والجلد والقراء ، والزرايبي والصوف والمرجان والحبوب والسكر ، ولم تنقطع هذه الحركة التجارية النشيطة في القرن الخامس عشر رغم هجوم النصارى . بل ان مبادلات تمت بين الاهالي والحصون (Fronteiras) فسهلت التوغل البرتغالي نحو مراكش ، وتعتبر مدينة فاس أهم مركز في أوائل القرن الحادي عشر وهي عاصمة بني وطاس وتربطها اربعة مسالك بمواني غساسة (سلوان ؟ من يوم ان احتل الاسبان مليلة

سنة 1497) وباديس وسبتة وطنجة وكان المسلك الذي على ابواب تازي غير آمن ولكنه يضمن الإتصال بتلمسان ، كما كانت توجد طريق تؤدي إلى سبلماسة وتمرّ منها قوافل التمور وثلاث مسالك تفضي إلى الحوز . وكانت البضائع خاضعة لقمارك المدن والأدعاءات المستخلصة من القادة المحليين .

ونتج عن العداوة القائمة بين القشتاليين وبني مرين أن ربط هؤلاء علاقات ودية جدا مع الارغون الذين اعانواهم على قمع ثورة بسبتة (1274) وطرد ملك غرناطة من هذا الميناء (1309) وحصل التقارب بصورة تلقائية (1345) بعد ثلاثين سنة من الازمات الناشئة عن تدخل السلاطين في اسبانيا وآل الأمر بعد اثنتي عشرة سنة إلى ابرام معاهدة سياسية وتجارية موجهة ضد قشتالة واستمر أبو عنان وخلفاؤه في هذه السياسة المؤاتية لبلاد الارغون التي كانت منصرفة إلى شواغل أخرى بحيث لم تغيّر من سياستها تجاه المغرب الأقصى شيئا .

وكان البرتغاليون والقشتاليون خلافا لذلك يترقبون الفرصة للانقضاض على المغرب الأقصى . فقد أحكم البرتغال استقلاله القومي بمقاومة الغازين المغاربة وتباقت دولة أفيز (Avis) المؤسسة سنة 1385 إلى عجم عود قواها الجديدة بمواجهة الكفار اعتمادا على برجوازية التجار ، وكان القشتاليون وضعوا حدا بانتصارهم في واقعة طريف (واقعة نهر سالادو) لتطاول بني مرين المتواصل على التراب الاسباني فأصبح الصراع بين قشتالة وغرناطة خصومة بين ملك وأمير تابع له لا قتالا بين نصارى ومسلمين على أن المغاربة بقوا أعداء للنصارى حقيقيين . لذلك كان القشتاليون بالمرصاد لأول فرصة تمكنهم من تحقيق حلم فرديناند الثالث وللنزول بأفريقية ووضع حد لخطر الغزو المحتمل والقضاء في نفس الوقت على القرصنة المتفاقم امرها واتاحت لهم الحانة التي أصبح عليها المغرب الأقصى في آخر القرن الرابع عشر أن يتدخلوا .

ولمّا مات أبو العباس مكّن الصراع من أجل الحكم أمير غرناطة بعضده ملك قشتالة من تغذية نار الفوضى في المغرب الأقصى وتهيئة الجو لتحقيق أطماعه بالايغاز إلى الادعاء او مساندتهم . وكان ردّ فعل السلطان

المريني ان رمى المراكب الأندلسية والنصرانية بالقرصنة المغاربة فأصبح للقرصنة من الجدوى والغنى ما جعلها تستقل بأمرها وتفلت من سلطة الحكومة فتشير ردود فعل القشتاليين .

وبينما كان الجيش المريني يحاصر تلمسان استحوذ هانري الثالث صاحب قشتالة ، الذي كانت تراوده نزعة صليبية ، على تطوان فخربها وقتل نصف أهلها وجعل من البقية عبدا (1399) . فلم يشحذ هذا العمل الوحشي همة القرصنة بل أثار الحماس الوطني والديني فكانت هزيمة النصرارى .

واغتنى كذلك البرتغاليون ما كان عليه المغاربة من فوضى . فان الثورة التي مكنت « الذائد عن المملكة » يوحنا (Jean) صاحب أعلى درجة في وسام أفيز (Avis) من النفوذ ، حققت انتصار برجوازية برتو (Porto) ولشبونة (Lisbonne) يؤيدها سكان السواحل على النبلاء من مالكي الأرض الذين غلب عليهم تمسكهم بالشرعية ، فبقوا مواليين للملك قشتالة (1385) واثبت انتصار البرتغاليين على القشتاليين تفوق الخطة الثورية التي توختها فرقة المشاة البرجوازية على المناورات التقليدية للخيالة الارستقراطية ، كما أوجب هذا الانتصار تغييرا في السياسة اذ احتلت مصالح المتصرين الاقتصادية المقام الأول .

وسعت البرجوازية يساندها اخوة الملك الأصغر آن هنريكو وفرناندو اللذان كانا يرغبان في الحيلولة دون تدخل قشتالة في المغرب الأقصى إلى وضع حد للقرصنة المعرقلة لقوافل القمح . كما أرادت أن تشفي غليلها من الروح الصليبية التي كانت تنتشر بالجزيرة كلما تفاقم أمر حرب الاسترداد وحرصت أخيرا على توجيه الشعب الشعبي وجهة أخرى فحملت الملك لذلك كله على محاولة التزول بسبته فاستحوذ بسهولة على الحصن حيث ابقى حاميه تتركب من 2500 رجل (21 أوت 1415) ولم يتعرض هذا الحصن الا إلى هجمة واحدة ذات بال قام بها المغاربة وجيش غرناطة معا وكان نصيبها الفشل بسبب خلافات بني مرين (1419) .

قيام دولة بني وطاس :

ولم تمض على ذلك سنة واحدة حتى هلك السلطان المريني أبو سعيد عثمان بسبب تمرد في بلاطه . وتفاقت بمقتله الحرب الأهلية ، فاغتصمت قبائل بني هلال الفرصة لتحسين موقعها ونهب رؤوس الحضر كما باع القواد العرب انفسهم وجيوشهم لأكثر الادعياء عطاء وتحصن البرتغاليون في سبتة ورفض بنو عبد الواد الولاء لفاس وأخيرا دعم رجال الدين نفوذهم . وهكذا فان القوى المتقابلة في هذه الفترة من احتضار الدولة كانت تنبئ بالخلافات التي ستكسف تاريخ المغرب الأقصى طية قرن كامل .

وفرض بنو وطاس وهم أحد بطون المرينيين سلطتهم بفضل هذه الازمة ، وكان انتهى بهم المطاف إلى الاستقرار في شرق المغرب الأقصى بعد أن ظعنوا طويلا عبر تخوم النجاد العليا والصحراء . ولذا غنموا من انتصار المرينيين ابناء عموماتهم على الموحدین اقطاعا عظيما في بلاد الريف . وتعاضم نفوذهم في البلاط في الفترة الأخيرة من حكمهم . ولم ينجح من تقتيل عائلة أبي سعيد الا طفل في الواحدة من عمره يدعى عبد الحق وجدت له غرناطة وتلمسان من ينافسه فبني أبو زكرياء يحيى الوطاسي وكان إذ ذاك واليا على سلا ، قضية هذا اليتيم ونجح في مساعيه بعد عناء - ولم يكن تدخل أبي زكرياء يعني فقط توطيد النفوذ المريني بل معناه في الواقع استحواذ بني وطاس على الحكم اذ مارس رئيسهم السلطة الفعلية عند اضطراره بمهام الوصاية ، ولما بلغ عبد الحق سن الرشد أثر المجون على التخلص من الوصاية فلم يتضابق كذلك من وصاية علي بن يوسف ابن أخي أبي زكريا . ثم ان الموكلين بقصر فاس ظلوا طيلة ثلاثين سنة في مستوى مهمتهم (1428 - 1458) فواجهوا بحزم الخطر النصراني ومانتج عنه من نقطة التعصب القومي والديني .

ولم يعرف البرتغاليون في ظل حصنهم بسبتة الا التزال الفردي الذي كان يقوم به الاسبياد ضد « المجاهدين » المتحدّين لهم فلم يصدر منهم طيلة عهد يوحنا الأول ما يدل على رغبتهم في التوسع في غزواتهم ، غير انه لما اعتلى أخوه دوارت (Duarte) العرش تردد رجال البلاط

بين مطامع هانريك (Henrique) وفرناندو (Fernando) في المغرب الأقصى وبين سياسة الإنتاج القومي التي كان يدعمها مجلس العرش ويحبذها بيدرو (D. Pedro) الذي كان يرفض تعويض دينار بدرهم وتغلبت الكتلة الاستعمارية المعززة بموافقة البابا على احتراقات الملك ونظمت حملة ضد طنجة فخرج جيش قليل العدد ضعيف العدد. اقلية المتطوعين فيه وحاصرتة امام اسوار المدينة كئائب أبي زكرياء العتيبة الواردة من كامل المغرب الأقصى فاضطر إلى الاستسلام (16 أكتوبر 1437). وما كان على المهزومين الا التخلي عن سبته وتسليم أخي الملك فرناندو رهينة في انتظار البر بوعدهم . غير أن دوارت أثر التضحية بأخيه على التفريط في هذا المركز التجاري . ومات أخوه الشجاع بقاس (5 جوان 1443) بعد أسر شديد دام ست سنوات تحمله في صبر يبعث على الإعجاب . وأدرجت الكنيسة اسمه في قائمة الشهداء وبازكته وهي التي حالت بما لها من تأثير وهبة دون العدول عن الحملة (1470) .

يقظة الإسلام

استجاب أبو زكرياء بأعماله الحازمة إلى رغبة رجال الدين الذين اعتبروا فترة وصايته « عهداً ذهبياً » ولما خرب الاسبان مدينة تطوان اصطبغت القومية البربرية تحت تأثير مشايخ الزوايا بصبغة الحماس الديني المتأجج ، فقام المشايخ مقام السلاطين الذين كانت اسباب سياسية تحول دون تدخلهم الشخصي وأصبحوا بفضل نشاطهم وندف شعورهم الديني خير من يمثل توق الشعب إلى الجهاد المقدس خلافاً لما كان عليه المخزن بقراراته الانتهازية ورفضه نعت الأراضي المحتلة من الكفار بأنها دار جهاد رغم وجود مسلمين بها يمارسون ولو جزئياً فرائضهم الدينية .

وشاع التصوف بالمغرب الأقصى في عهد المرابطين والموحدين بعد أن ظهر في المشرق تحت تأثير الرهبة النصرانية والافلاطونية الحديثة وهو مذهب المسلمين الذين زهدوا في الدنيا كرد فعل ضد من تعلقوا بها أيما تعلق . فتكاثر عدد الصالحين في كل مكان تفوح منهم البركة وتزايد الأولياء المرابطون وكانوا يعتزلون الناس أحياناً وقشط حولهم

أحيانا أخرى في أماكن خالية زوايا متزايدة الاشعاع يدرس فيما إلى جانب التصوف الكيمياء والسحر . لذلك منع سلاطين مراكش حركة التصوف من الانتشار خارج اطار هذه الزوايا .

ولم تزل هذه الطرق تستعمل نفوذها لمناوأة الدولة المؤمنية طيلة الصراع القائم بين الموحدين والمرينيين . وسرعان ما ضاق بنو مرين ذرعا بسعي هذه الطرق إلى الانتشار رغم تأييدها السالف لهم . فأيدوا على حساب شيوخ التصوف جماعة العلماء الرسميين الذين كانوا يدرسون مذاهب السنة وانما يرجع الفضل الأكبر في تعدد المدارس إلى مقاومة انتشار الصوفية .

ووسعت الزوايا رقعة نشاطها في الوقت الذي ضعفت فيه سيطرة ملوك فاس وبطان عجز المخزن في مقاومة الكفار مقاومة فعالة . فظهرت حينئذ في مظهر المؤسسات القائمة الذات المئنة الاركان فكانت في نفس الوقت اماكن للعبادة ومدارس وفنادق عليها يقوم المشايخ ومنها يشع على كامل البلاد المقدمون يبلغون التعليمات إلى جمهرة الاخوان المتحمسين . وكانت تفرض على مريديها طبقوسا مضبوطة وليكنها مبرأة من شوائب العقائدية بعيدة عن تعذيب الجسد وتبعث فيهم الوجد الرباني فيفنى المتصوف في حقيقة الذات الالهية التي لاحقيقة سواها .

وكانت زاويتان منها مركزين نشيطين لنشر العقيدة الاسلامية تنتسب الأولى إلى عبد القادر الجيلاني « القطب الأعظم » المتوفى في بغداد سنة 1066 ويديرها الشرفة القادرية بفاس وترجع الثانية بواسطة الجزولي المتوفى في أواسط القرن الخامس عشر إلى عبد السلام بن مشيش ولي جباله العظيم غير أن هاتين الزاويتين اللتين بآلغ البعض في دورهما السياسي كادتا ان تقصر نشاطهما في عهد بني وطاس على الدعوة الدينية . ولم يصبح تأثيرهما على الجماهير لاستنهاضها ضد السلاطين مطردا فعلا إلا بعد انتصار السعديين الذي تم من دون ان يكون لهما دخل فيه .

وحاول بنو وطاس استغلال هذه الحركة القومية والدينية لفائدتهم فترعموا الكفاح ضد البرتغاليين وسعوا إلى جعل عاصمتهم زاوية تفوق في هيبتها سائر الزوايا ، وصادف ان اكتشف قبر مولاي ادريس بفاس في

نفس السنة التي أسر فيها أبو زكرياء ، أمام أسوار طنجة ، جيش أخوي ملك البرتغال . وكان الناس يعتقدون ان مؤسس هذه المدينة دفن بوليلي إلى جانب والده وسجل الوصي ورئيس العائلة الادريسية والفقهاء أن الجثمان بقي على حاله لم يأكله التراب . وتقرر ابقاؤه في نفس المكان الذي اكتشف فيه واقامة ضريح له . ولم يكن الرجوع إلى تقديس الأدارسة بعد طول نسيان من باب الصدفة فكان بمثابة الترويج لبقضة النزعة الشريفة . إذ نبع من كل مكان الاولياء الشرفة وهم من سلالة محمد حقا او باطلا ورثوا عنه البركة وزاد في نفوذهم الروحاني ان المسلمين كانوا يطالبون بمعجزة ضد الكفار . ولاشك ان أبا زكرياء أراد ان ينتفع بنو وطاس بهذه للعودة إلى تقديس الاشراف الا ان اكتشاف جثمان أدريس أفاد أولا وبالذات العائلة الادريسية ورفع من شأنها واحتل نقيها منزلة مساوية لمنزلة الوصي في معاينة اكتشاف الجثمان .

نهاية بني مرين :

كان لتفاقم زحف النصارى وانهيار وكلاء القصر من بني وطاس أثره في تدهور نفوذ المخزن . وكان الفونسو الخامس أعد أسطولا وجيشا استجابة لنداء البابا الذي أعلن عن قيام الحرب الصليبية ضد الأتراك غداة سقوط القسطنطينية (1453) ، غير انه لم يكن ميالا إلى الحملات البعيدة على غرار امراء النصارى فآثر توجيه قواته نحو ميناء صغير يقع بين سبتة وطنجة يدعى القصر الصغير واراد أن يجعل منه قاعدة حربية . وسقط الحصن من دون مقاومة في 18 اكتوبر 1458 وحاول الملك الاستيلاء على طنجة ثلاث مرات ولكنه أخفق في جميعها وكانت هزيمته في الثالثة أشد وانكى (12 جانفي 1464) وتمكن في آخر الأمر من تحقيق اغراضه بسبب ما مزق شمل البلاط بفاس من انقلابات .

وكان السلطان عبد الحق رضي من دون أية مقاومة بوصاية يحيى بن ابي زكرياء ثالث بني وطاس الذي كان دون سابقه قيمة وأدرك ذلك رجال البلاط فنفض الملك عنه خمولة وأمر بقتل الوزير وعائلته ولم تمر على وصايته سوى شهرين (1458) ونجا من القتل اخوان ليحيى امكن لاحدهما وهو محمد الشيخ التحصن بأصيلا وجمع الفاضلين حوله :

وفشل عبد الحق في القيام بمهام الملك على الوجه المرضي وعمت النوضى كامل البلاد . فعلاوة على مملكة مراكش المتمتعة عنيا باستقلالها منذ عشرين سنة والتي قد تكون وقعت بعد في أيدي أمراء هتاقة ثارت القبائل وقام الامام الجزولي شريف السوس وهو من أقطاب التصوف المغربي ، بجولات في جهات شمالي الأطلس وجمع حوله حشما يروي ما يقرب من 13.000 مريد ونشر الزوايا في البلاد . ولم يسترب اخوان فاس وحدهم في أمر عبد الحق بعد مقتل الجزولي باعتباره مشاركاً في الجريمة بل كان سكان المدينة قاطبة يعيبون عليه تسمية وزير يهودي وتمرد عليه الرعايا وذبحوه مثلما تدبج الشاة . وبانتهائه انتهت دولة بني مرين (ماي 1465) .

وكشفت هذه الفعلة عن مدى نفوذ الادارسة فتلقب نقيب الاشراف الذي كان اشرف على اكتشاف جثمان لإدريس بالإمام مثل جده مؤسس فاس ، ولكنه لم يقو على رد هجومات محمد الشيخ الذي تمكن من فتح العاصمة بعد ست سنوات من الصراع واستحوذ على الحكم . فأصبح بنو وطاس مليوكا اسما ورسميا بعد ان كانوا وكلاء على القصر .

انتصارات الاشراف :

ان عملا شاقا كان ينتظر مؤسس هذه الدولة فقد استغل البرتغاليون الاضطرابات وتمكنوا من أخذ آصيلا عنوة (24 أوت 1471) معززين بـ 477 مركبا و 30.000 رجل واضطر محمد الشيخ إلى إبرام اتفاق يقضي بهدنة مدتها عشرون سنة لا بالنسبة للمراكز المحصنة بل للبسائط أيضا . واستند ملك البرتغال إلى بند مقيّد للطرف المقابل فأمر باحتلال طنجة من دون ان يلقي أية مقاومة (29 أوت 1471) وتلقب منذ ذلك الوقت بلقب (Rei de Portugal e dos Algarves daqueuse dalem mar en Africa).

ولم يتمكن السلطان الوطاسي رغم خزمه من بسط نفوذه الا على جهة فاس . اذ خرج عن طاعته البربر في الجبال والاولياء الصالحون في الجنوب . واصطدم بعداوة رجال الدين العنيدة الذين أعانوا الادعياء عليه

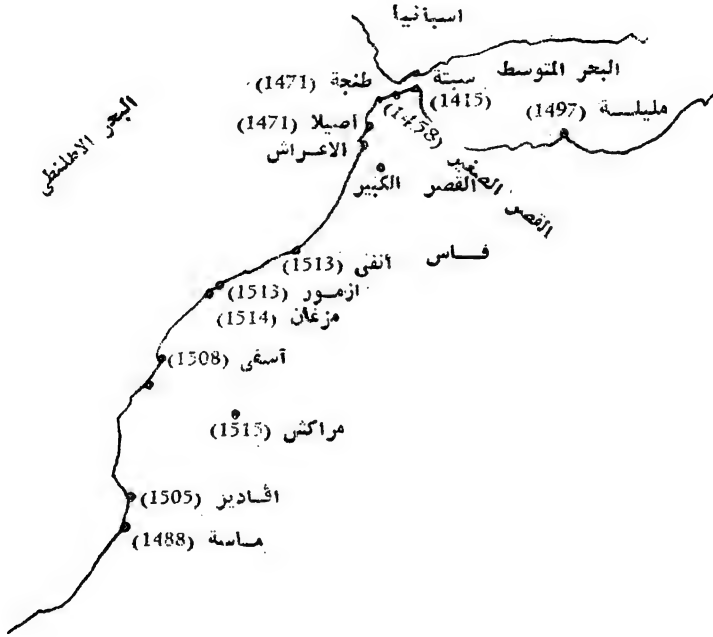
ولم ينفك البرتغاليون يواصلون زحفهم بلا انقطاع رغم ما اظهرته الزوايا من حماس في مقاومة الكفار واعترف لهم القشتاليون بمقتضى اتفاقية أبرمت سنة 1479 بحقهم المطلق على ساحل افريقيا المواجه للجزر الخضراء (Iles Canaries) بما فيه مملكة فاس كما مكنوهم من احتكار التجارة . ورغم فشلهم الذريع في محاولة الاستيلاء على جزيرة لكوس (Iles Loukkos) حيث أزمعوا على تأسيس قلعة قراسيوزا (Graciosa) (1489) فانهم تمكنوا من تحصين مراكزهم الأربعة بسبته والقصر الصغير وطنجة وآصيلا .

وكان الاسبان رغم تعهداتهم السابقة يطمعون إلى احتلال بعض المراكز في أرض المغرب الأقصى منذ ان تتوجت حرب الاسترداد باستيلائهم على غرناطة (1492) .

وكان الملوك الكاثوليك يبعثون بالمسافرين الموالين لهم لدراسة سواحل المغرب ، واستهوتهم مليلة فاقنعوا البرتغاليين الذين خصتهم المغاهدات بكامل مملكة فاس بالتخلي عنها لفائدتهم (1494) ولم تمر على ذلك ثلاث سنوات حتى احتلها دوق مدينة شذونة (Sidonia) من غير عناد مستعينا بالاسطول المخصص لسفيرة كريستوف كولومب الثانية (1497) ومنها تتبع الاسبان في قلق تفاقم الصراع بين بني وطاس والأشراف.

وزاد الوضع تأزما في عهد خليفتي محمد الشيخ وهما محمد البرتغالي (1455 - 1524) وأبو العباس أحمد (1524 - 1549) على أن دون مانوال سيد فاسكودي قاما (Vasco de gama) وأبو كركه (Albuquerque) المنشغل خاصة بالمنافذ الاسيوية تدخل في المغرب الأقصى ضد مملكة مراکش فأقام بها وكالات ثم احتل آسفي (1508) وأزمور (1513) ولما هلك كان البرتغاليون قد تمكنوا من ساحل المغرب الأقصى الأطلسي إلى مضيق جبل طارق (1520) وكان لهذا الساحل أهمية اقتصادية بالنسبة اليهم اذ منه يستطيعون شراء القموح اللازمة لوطنهم الأم وابتياح الجياد وملاحف الصوف يبادلونها في إفريقيا السوداء بالذهب والعبيد . لذا فانهم لم يقنعوا بحصونهم على السواحل بل كان لهم في عدد من المدن داخل البلاد وخاصة فاس وكلاء يتعهدونهم ويقومون في الآن نفسه مقام القناصل

والأعوان التجاريين وقد احتفظ جزء من مراسلة أحد هؤلاء الوكلاء بفاس :
 وفيها يتجلى فرط انشغاله بشراء الحبوب (Sources inédites de l'Histoire
 du Maroc. Portugal Tome 3) (مصادر لم تنشر من تاريخ المغرب
 الأقصى ، البرتغال ج 3) .



شكل 23 : - البرتغاليون في المغرب الأقصى .

وهكذا فإن المغرب الأقصى لم يكن من وجهة النظر البرتغالية غاية
 في حد ذاته بل جزءا من الامبراطورية الاقتصادية الممتدة الاطراف التي
 كان البرتغال يتكالب على تكوينها بسواحل البحر الاطلسي والمحيط
 الهندي الأمر الذي يعزل زهد البرتغاليين في احتلال المغرب الأقصى وتفضيلهم
 نظاما شبيها بنظام الحماية العصري ، فكان الجند يعسكرون في الحصون
 تحميهم الأسوار والخنادق دون أن تنام لهم عين . وكانت الابراج
 العالية أو النائثة تسمح بمراقبة الارياف وكانت طلقات المدافع تنبه
 البستانيين والصيادين برا وبحرا إلى خطر المغاربة ، كما كانت تنبه
 جيش الاحتلال بطنجة إلى وجوب نجدة حامية آصيلا فإذا لم تكن الريح

مؤاتبة يتولى قارب نقل الأخبار من ميناء إلى آخر . وكانوا يسألون الأسرى عن نوايا العدو . وكان ضابط الحامية هو الذي يقود الغزوات ويستخلص خمس الغنائم ويقتسم البقية بين جنده . وقل ان توغلت الحملات المنطلقة من أصيلا أو طنجة أو سبتة إلى أبعد من ثلاثين كيلومتر داخل الأرياف أما ضباط مراكز الجنوب فمجالهم أوسع . لقد أخضعوا معظم الحوز خاصة في مقاطعة دكالة واعتمدوا على الأهالي المعاهدين لتموينهم بالحبوب واعداد الهجوم على مراكش - واشتهر ابن تقيوت بأنه أحسن معاون مغربي لقائد حامية آسفي . ففي سنة 1515 بلغت كتيبة برتغالية مغربية أبواب مراكش على بعد 150 كلم من آسفي . وكانت بين المعركة والأخرى فترات من الهدنة سرعان ما يقطعها أحد الطرفين المتقاتلين .

وانشغل بنو وطاس عن مقاومة النصارى بخطر أشد وطأة عليهم وهو ظهور دولة أشراف الجنوب المنافسة . ففي الوقت الذي كان ولاية آسفي منصرفين فيه إلى احتلال مراكش برز في السوس بنو سعد أو السعديون . فمنذ أوائل القرن السادس عشر قاد شيخ زاويتهم الجهاد المقدس ضد البرتغاليين الذين استقروا سنة 1505 بأكادير (Santa-Gruz du cap d'Aguer) ونادى بنفسه سيّدا على السوس (1511) فجعل أولاده من تارودنت قاعدة محصنة ضد الكفار . وتحالفوا في أول الأمر مع سلطان الجنوب ثم تخلصوا منه اغتيالا حسب الطريقة المعهودة واتخذوا مراكش عاصمة لهم (1525) ومنذئذ بدأ الصراع بلا هوادة بين بني وطاس وبني سعد . ولم يزل امراء السعديين يتفاقم أمرهم على حساب اعدائهم . وتعذر على أحمد الوطاسي الظفر بالسلم حتى مقابل الاعتراف لهم بالسيادة على جهة مراكش فتحرك لهم وانهزم ثم اضطر إلى قبول قسمة جديدة (1537) وتدعم نفوذ السعديين بانتصاراتهم العديدة على الكفار من ذلك استبلاؤهم على أكادير (1541) وما تبعه من جلاء البرتغاليين عن آسفي وأزمور . ورغم مقاومة أحد إخوة البرتغالي ويدعى بوحسون ، تمكن الشريف محمد المهدي من أخذ فاس وطرد الدولة الوطاسية منها (1549) . وعبثا حاول أبو حسون الاستعانة بأروبا . فقد رده شارلكان خائبا ومنيت محاولة برتغالية بالفشل وانفرد الاتراك باعانه

اعانة جدية ونصبوه سلطانا على فاس (1553) ولم يمض على دخولهم إفريقيا واستيلائهم على تلمسان سوى وقت قصير وحملهم على ذلك خشيتهم من هجمات السعديين غير أن عودة بني وطاس إلى الحكم لم تدم طويلا فكان هلاك بوحسون المقتول غدرا في نزال مع محمد المهدي ايدانا بانهيائهم النهائي وبسط نفوذ السعديين على كامل المغرب الأقصى (13 سبتمبر 1554) .

الخلاصة :

لم يكن للدولة الوطاسية في حد ذاتها قيمة كبرى اذ اقتصر ملوكها على اتباع سياسة بني مرين من دون ان يغيروا فيها شيئا . لقد حاولوا خاصة في أول عهدهم مقاومة الغزاة البرتغاليين ولكنهم سألهم في بعض الأحيان لأنهم لم يجدوا بديلا عن ذلك والحقيقة انهم تولوا أمر بلاد في حالة تداع تام انحصرت حدودها في الجزء الشمالي من المغرب الأقصى من أم الربيع إلى طنجة وبلغ اطراد الفوضى حدا جعلها تأنف الخضوع إلى سيد لا يأتيها بالجديد :

غير أن هذه الدولة لم تشغل وحدها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر والنصف الأول من القرن السادس عشر مسرح الاحداث بل برزت في المغرب الأقصى قوى أخرى إلى جانبها مالبثت ان انقلبت عليها . ولئن ظهر عجز الحكومة عن مقاومة الهيمنة البرتغالية مقاومة ناجعة فان الجماهير المغربية ما كانت لترضى بسيطرة الكفار فقد كانت تحركها مشاعر معقدة تتنازعها في آن واحد العاطفة الدينية المكرومة وكرهية الأجنبي فتحملها على الوقوف في وجه الدخيل حيثما ظهر : وكان ذلك أولا في الشمال قرب سبتة وطنجة ثم في سهل السوس وحتى واحات درعة عندما أسس البرتغاليون أكادير .

واصطبغ رد الفعل الغريزي للشعب المغربي بصبغة دينية وفقا لطبيعة الاشياء . فالتف حول الطرق والأولياء والاشراف يريدون غايتهم تعلم الدين والدفاع عنه وانتشرت هذه القوى الخفية قرابة القرن بخطوات جزئية غير منتظمة . وتمكن الشرفة السعديون في آخر الأمر من جمع

كلمة المغرب الأقصى حولهم إلى حين. وإن هذا المخاض السياسي والديني وما انجر عنه من نتائج آثارها باقية إلى اليوم يعتبر الحدث البارز في عهد بني وطاس وهو الذي يكسبه أهمية كبرى .

الباب الخامس
المملوكية الشريفة

(1830 - 1553)

1 - الدولة السعدية

2 - الدولة العلوية

I - الدولة السعدية

تاريخ الدولة الشريفيّة :

إن الوثائق المغربية الضرورية لدراسة تاريخ الدولتين السعدية والعلوية تكاد تكون مفقودة . لذا وجب اللجوء إلى وثائق النصارى وكتب التاريخ العربية ، وإن ما اجراه المقدم هـ . د . ي . كاستر (H. De Castries) من تنقيب في المكتبات وخزائن الوثائق الأوروبية مكّن من اعداد تأليف عظيم سمّاه المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب الأقصى (Les sources inédites de l'histoire du Maroc) وهو عبارة عن عشرين جزءاً ضخماً مشحونة بالوثائق تمدّ المؤرخين بالنصوص الأساسية من المعاهدات السرية ومراسلات السفراء أو التجار ، والمذكرات ، وعقود الاستئجار ، وشركات التجارة ، وأخبار الرحالة التي سبق نشرها ولكنها أصبحت نادرة أو مفقودة ، وأضاف دي كاستر إلى كل هذا مقدمات نقدية وتعليق ثمين . وإن هذا العمل العظيم الذي واصله ب . سيفال (P. de Cenival) وعهد به بعد وفاته إلى ر . ريكار (R. Ricard) يجدد معلوماتنا حول المغرب الأقصى في العهد الشريفي .

وإن الذي يزيد في قيمة المصادر الأوروبية ما يُحيط بكتب التاريخ المغربية من ريبة ذلك أن المغرب الأقصى لم يعرف حتى القرن الخامس عشر إلاّ نحاة مغرقين في التفاصيل أو فقهاء متحمسين . وانجر عن التفاف المغرب الأقصى حول نفسه للصمود أمام الاعتداء الأجنبي بعث تاريخ قومي . وقد بين ليفي بروفانسال (Levy Provençal) في كتابه المعتبر « مؤرخو الشرف » كيف يجب أن نقدر هذا العمل التاريخي حق

قدره . وإن منهجه ينحصر في رواية أخبار متقطعة من دون أولوية بينها ولا أفكار عامة تندرج ضمنها بل هي منجرد مديح أو هجاء لا يخلو من شبهة ثم إنها لم تبسّر أفي مستوى أرفع من شائبة الانتحال . اذ كان المؤرخون يعتمون بالاشخاص قبل الاحداث ويقصرون عنايتهم على التراجم الرسمية ولا يتجاوز اهتمامهم الملك وبلاطه وعاصمته . فلا شيء في تأليفهم يترجم عن روح تاريخ المغرب الأقصى منذ القرن السادس عشر وخاصة الصراع القائم بين السلطة المركزية ورجال الدين .

واشتهر في الدولة السعدية مؤرخان كبيران (1549 - 1621) هما الفشتالي والافزاني . فالأول كان كاتب دولة صاحب ديوان الرسائل ، وشاعرا مجازا ومؤرخا للمنصور وقد ضاعت تأليفه ، أما الثاني المتوفى حوالي أواسط القرن الثامن عشر فقد مجدّد الدولة المنهارة نكسالة في السلطان مولاي اسماعيل ويعتبر كتابه في تاريخ الدولة السعدية بالمغرب الأقصى (نزهة الهادي) أحسن مصدر مغربي إلى اليوم ، ويمتاز من بين المؤرخين العلويين الزياني (1734 - 1833) وهو بربري أصيل ورجل سياسة مرموق حفكت حياته بنعم العز ومرارة النكبات ومتعدد السفارات والمهام واستطاع كتابة عدة تأليف منها تاريخ عام من بدء الخليقة وتاريخ الدولة العلوية انتحل منه من بعده الشيء الكثير ونحن مدينون له فيما يخص الدولة السعدية بفصل بالغ الأهمية نشر منه ليفي برو فنصال جزءا فقط باللغة العربية في كتابه منتخبات من المؤرخين العرب بالمغرب الأقصى وجمع الناصري في القرن التاسع عشر وهو موظف من المخزن تاريخا عاما لا طرافة فيه (كتاب الاستقصاء) غير أنه لا يخلو من الفائدة بالنسبة للفترة المعاصرة كما أعدّ بالاعتماد على منشورات سابقة كنشا لأولياء فاس (سلوة الأنفاس) .

وإلى جانب هذه المؤلفات التاريخية البحتة زخر الأدب المغربي في القرن السادس عشر بتراجم مشاهير الرجال من مستويات متعددة من بين مختلف طبقات رجالات الدين واحتوى على الرحلات الممزوجة بتراجم محلية . وتسمح هذه أو تلك من استقاء بعض المعطيات على قلنتها حول بحر الحياة الطرّقية الطامي .

أصل السعديين :

يبدو من المفيد التوسع في الحديث عن نشأة الدولة السعدية إذ اكتفينا بالخطوط العامة عند الإشارة إلى انحطاط بني وطاس ويظهر انهم من أصل عربي بلا منازع ولكن شكوكا حامت حول سلالتهم الشريفة على الأقل في فترة انحطاطهم ، حيث شاع الخبر بأنهم لا ينحدرون من الرسول بل من مرضعته فقط المنحدرة من قبيلة بني سعد ومنه اسم السعديين الذي أسند اليهم منذ أوائل القرن السابع عشر وهو لا يخلو من الميز إذ يؤكد عدم انتسابهم إلى الأشراف ، ومهما يكن فإنهم اعتبروا بالتأكيد من سلالة الرسول عندما تألق نجمهم وهذا هو المهم ، وكانوا أتوا من الجزيرة العربية حوالي القرن الثاني عشر قبل مجيء بني أعمامهم الشرفة العلويين على ما يظهر وانتهى بهم المطاف بعد تقلبات وظروف الله أعلم بها إلى واحات درعة الوسطى على مقربة من بلدة زاقورة الحالية . فعاشوا طيلة قرون حياة متواضعة مغمورة كالتّي يحياها صغار الأدباء الذين أكسبهم نسبهم بعض الاعتبار ، واستوطنوا في فترة غير مضبوطة قد تكون في النصف الثاني من القرن الخامس عشر على أغلب الظن تيديسي سوادي السوس في الجنوب الغربي من تارودانت وغير بعيد منها حيث أسسوا زاوية . وكانت فترة انتشرت فيها الفوضى رغم جهود بني وطاس لتوطيد حكمهم ، فقد كاد جنوب المغرب الأقصى أن يفلت من قبضتهم ! ولم يعد أمراء هنتاة الحاكمون بمراكش قادرين على فرض طاعتهم فيما وراء الأطلس ، بحيث أصبح سهل السوس والجهة المواجهة للأطلس وواحات درعة تتمتع في الواقع باستقلالها ، غير أن تفاقم امر البرتغاليين أقض مضاجع السكان فدفعتهم تقواهم إلى حمل السلاح في وجه الكفار وكانوا يبحثون من حيث لا يشعرون عن زعماء دينيين يقودونهم في جهادهم المقدس ، فتحمل السعديون هذه الأمانة وأول من عين قائدا عسكريا عليهم سنة 1511 للقيام بالكفاح ضد قلعة فتتي البرتغالية بأكادير المؤسسة سنة 1505 هو محمد ابن عبد الرحمان المسمي إلى والي الجهة عبد الله بن مبارك أصيل البني (BANI) ومريد انجزولي ، ولئن لم يبلغ قصده هذه المرة فقد بسط نفوذه على السّطح الشمالي من الأطلس وتوفى بأفوقال (AFOUGHAL) قرب

شيشاوى حيث دفن إلى جانب المتصوف الجزولي ، وترك بعده ابنه أحمد الأعرج ومحمد الأصغر الملقب بالامغر (قائد حربي) .

غزو جنوب المغرب الأقصى :

كان أحمد الأعرج هو الذي أوصى به أبوه خليفة له فتقلد السلطة ولكنه اسند لأخيه محمد مشمولات كبيرة . وكان يقف سداً في وجهيهما يحيى أوتقوفت صنيعة البرتغاليين الذي اغتيل سنة 1518 فوسعا رقعة نفوذهما شيئاً فشيئاً حتى بلغا مراکش حيث لم يستقرا إلا سنة 1525 بعد ان أمنا جانب الوطاسي حاكم فاس بالاعلان عن ولائهما له .

وكان لابد من الصراع بين مملكتي فاس ومراكش رغم هذا الموقف الذي جمع بين الاعتدال والحنر وكان أحمد الوطاسي هو البادي سنة 1528 فأوشك أن يستولي على مراكش ولكنه لم يتمكن من مواصلة جهوده بسبب قيام ثورة في أعقابه فاضطر إلى التفاوض بعد معركة غير حاسمة بتادلا وكانت مجرد هدنة ، وذلك ان أحمد الأعرج القوي بعلاقاته مع الاولياء والصالحين كسب عطف عدد عديد من مشايخ الطرق والزوايا . فكان بذلك يضيّق الخناق على الملك الوطاسي شيئاً فشيئاً ، غير أنه لم يتسرع في الأمر ربّما بحكم ما جبل عليه من جد وكذلك خاصة لئلا يظهر في مظهر المعتدي الظالم . واعتقد سنة 1537 ان الفرصة سانحة فتحرك نحو فاس ولكن عددا من الاولياء توسّطوا بين الطرفين فاضطر إلى التفاوض من جديد .

وإن الذي يبرر وجود السعديين هو الجهاد المقدس فهاجموا قلعة أفادير البرتغالية واستحوذوا عليها سنة 1541 ، وأجبروا البرتغاليين على التخلي كذلك عن آسفي وأزمور ولم يتمكنوا في الحين من استغلال هذا النجاح الباهر الذي زاد في هيبتهم في نظر المغاربة إذ دبّ الخلاف بينهم فما كادوا يستولون على أفادير حتى تصادم أنصار الأعرج وأنصار محمد الذي استعاض عن لقبه البربري الامغر بلقب عربي هو الشيخ وانهزم أنصار أحمد الأعرج فانسحب إلى تافيلالت وانفرد محمد الشيخ بالحكم .

الانتصار بفاس :

وما ان أنس السعدي من نفسه القوة حتى بادر بالهجوم : فأسر سنة 1545 على ضفاف وادي العبيد السلطان أحمد . وكان بوحسون تقلد في ذلك الوقت زمام الأمور بفاس محاولا استمالة أولياء الجهة وكان بالخصوص ينوه بسليمان القانوني (Soliman le Magnifique) الذي سرعان ما أرسل اليه سفيراً بمراكش يدعوه إلى قراءة خطبة الجمعة باسم خليفة القسطنطينية فرفض محمد الشيخ وبذلك ساءت العلاقات بين الاتراك والسعديين لمدة طويلة . وتحرك بنو سعد مرة أخرى سنة 1548 ، وكانت فاس المحاصرة مسرحاً لتنافس طريقتين : الطريقة الشاذلية الموالية للسعديين والطريقة القادرية الموالية لبني وطاس وجماعتهم الاتراك . وبقي طلبة فاس المتكئين حول التقي الدائع الصيت الفقيه عبد الواحد الوانشريسي علي ولائهم للحكم القائم . وأمر محمد الشيخ باغتيال الوانشريسي وتمكن من أخذ فاس سنة 1549 ، وما لبث ان توجه بجيشه نحو تلمسان التي لم تقع بعد في أيدي الاتراك ولم يعد العدة لذلك فأخفق في مسعاه ثم تصدى إلى الحمامية التركية بمستغانم خاصة وان المغرب الأقصى لم يخضع إليه باكملة في ذلك الوقت . ونجح بوحسون في إشراك صالح الراس باشا الجزائر والاسبان بوهران في خطته فتمكن على رأس جيش صغير متكون من المغاربة والاتراك من استرجاع فاس في الايام الاولى من سنة 1554 بعد ان هزم محمد الشيخ قرب تمازة ثم على أبواب فاس ، غير ان الاتراك ساروا سيرة الغازين حتى أن بوحسون اضطر إلى طردهم ووجد نفسه بدون عدة ولا عدد أمام السعدي الذي لم تفت النكبات في ساعده ولئن استدريج أحمد الأعرج إلى تبني قضية بني وطاس فحمل السلاح ضد أخيه فإن محمد الشيخ آستأنف الهجوم ودخل فاس ثانية ووطد حكمه بها في سبتمبر 1554 وأصبح سيد المغرب الأقصى غير أنه كان معرضاً لتهديد اترك الجزائر وتحت رحمة البرتغال والاسبان رغم تقهقر البرتغاليين سنة 1541 .

ولم يستقر الشريف المتلقب بلقب الخلافة منذ أول استيلائه على فاس بهذه المدينة اذ لم ترتح نفسه إليها ولم ينس الاستقبال الحار الذي خصت به بوحسون سنة 1554 ، انها كانت بالنسبة لصحراوي مثله

خشن الطباع مغرقة في التمدن فقد روى الافراني كيف كان ابناء فاس الجدد يتلقون من خدام الملك السابق دروسا في السلوك ولربما كانوا اعتبروها عرضة لضربات الأتراك . غير أن رجل الجنوب هذا كان يؤثر بالخصوص مراکش ونخيلها ، فأصبحت هذه المدينة مرة أخرى بعد ثلاثة قرون من تواريها عاصمة الدولة الجديدة .

ولم يحل كل ذلك دون عزم محمد الشيخ على الاطاحة بالأتراك الذين كان يُضمر نحوهم حسما يظهر حقدا شخصيا . ولم يتردد للوصول إلى غايته في التفاوض مع الكفار أعني الاسبان المستولين على وهران . وأُشعر الأتراك بالخطر المهدد فبادروا بمحاصرة وهران وحاولوا دون كل تحرك ذي بال ، بل ان باشا الجزائر اوفد إلى السعدي عددا من الأتراك أوهموه بالفرار فاشتتمهم وتمكنوا من اغتياله اثناء حملة قام بها في الاطلس كما تمكن نفر منهم من الرجوع إلى الجزائر بعد مغامرات عجيبة وحملوا إلى القسطنطينة رأس محمد الشيخ (1557) .

وكان الرجل الذي أطرد بني وطاس وصمد في وجه الأتراك من طراز الملوك . فقد جمع بين الدهاء والحزم واعتبر نفسه سيّد المغرب الأقصى لا ينازعه فيه منازع . وواجه المشكل العويص المتمثل في اعداد ميزانية نظامية للقيام بشؤون بلاطه وجيوشه . ولم تمكنه المبادلات التجارية مع الانقليز ولا احتكار الصناعة من توفير موارد كافية . فاضطر إلى توظيف الخراج على سكان الجبال على غرار أهل البسائط ، فأثارت هذه السياسة الجبائية في وجهه الاولياء وتسببت له في الثورات ، فأحمد نارها بحزم وأقتحم الزوايا وأطرد الاولياء والمريدين وقتل المعاندين تفتيلا وهكذا لم يتردد هذا القائد الذي نشأ في كنف الحركة الطرقية ورفع إلى الحكم ليقوم بالجهاد المقدس في كبش جماح الاولياء عندما اصطدم بالأتراك بل إنه تحالف مع الاسبان عليهم .

المملكة السّعدية إلى تاريخ معركة الملوك الثلاثة (1557 - 1578) :

إن الذي يسرّ مبايعة ابن محمد الشيخ مولاي عبد الله الغالب بالله (1557 - 1579) التجاء ثلاثة من اخوته إلى الترك عند موت ابيهم ، بل إن اثنين منهم عبد الملك وأحمد بلغ بهما الترحال إلى القسطنطينية حيث دخلا في خدمة سليمان وخلافائه .

وسار الملك الجديد على سنة والده ، فواصل السعي إلى الاستعانة بالاسبان ضد الترك وذهب به الأمر إلى التخلي عن ميناء باديس لفائدتهم (Vélez) سنة 1564 ، غير ان الكارثة التي حلت بالكونت الكوديت (Alcoudete) بمستغانم (1558) ثم ثورة المورسكوس (الاندلسيون) باسبانيا (1668) حالتا دون القيام بأي عمل ذي بال وقد ساعد مولاي عبد الله في الميدان الاقتصادي الانقليز على تنمية تجارتهم في سواحل المغرب الأقصى . بينما حاول سنة 1562 طرد البرتغاليين من مزغان (البريجة ثم الجديدة) ولكن بدون جدوى .

وقاوم مثل والده الأولياء والطرق الذين كانوا يتحملون عن مضض سلطانه ويتضايقون ممّا كان يُظهره من مرونة ازاء النصارى .

ولئن أمكن له القضاء على القادرية والشرافة وهم من أصل جزائري فانه اضطر إلى أن يقرأ حسابا لعدد من عائلات الاولياء الموجودة بالمغرب الأقصى الاوسط والجنوبي ، وأخيرا اغتنم فرصة الهدوء النسبي الذي كان سائدا حينذاك فاقدم على تجميل عاصمته التي لم يجد محمد الشيخ مُتَسَعًا من الوقت ليهتم بها . ومات حتف انفه سنة 1574 .

وصادف أن كانت هذه السنة هي التي ساهم فيها أخواه المنفيان بالقسطنطينية في استيلاء الاتراك على حلق الوادي وكانا اول من زف الخبر السعيد إلى السلطان مراد الثالث ، وبفضل ماوجدا من تأييد لدى القبطان باشا عالج علي أمكن لهما الحصول على الأموال والجند لغزو المغرب الأقصى بينما انتقلت الخلافة إلى ابن أخيها محمد المتوكل من دون صعوبة تذكر .

ووقعت الحملة في أوائل سنة 1576 ، ولما تخلى عن المتوكل قسم من جيوشه انسحب إلى جنوب المغرب الأقصى حيث صمد بل وفق في الاستحواذ على مراكش ردحا من الزمن ثم انتهى به الأمر إلى السواذ باسبانيا .

وكانت طرافة عبد الملك وهو سلطان المغرب الأقصى تتمثل في أنه بقي طويلاً في خدمة الأجنيبي وقد استفاد بالخصوص من رحلاته بالخارج فكان يتكلم الاسبانية والايطالية وكان صديقا شخصيا لأسبانيا .

ولكن إقامته بالامبراطورية العثمانية هي التي تركت فيه أبعد الأثر فقلد الاتراك في سلوكهم ولباسهم وكان يؤثر التكلم باللغة التركية (هـ . تراس) . وما ان تقلد زمام الأمور حتى اقام الدليل على براعته في التنظيم وحذقه للدبلوماسية فأسس جيشا منظما ودخل في مفاوضات مع اسبانيا وفرنسا وانقلترا وبهذا أمكن له أن يوعز لفياسب الثاني بالتخلي عن المتوكل .

واقعة الملوك الثلاثة (4 أوت 1578) :

إن ما اتسمت به السياسة البرتغالية من تأرجح في المواقف حمل حينذاك حكومة لشبونة إلى الاهتمام بالمغرب الأقصى . وبينما صرّف يوحنا الثالث (1521 - 1557) كل جهوده إلى استغلال البرازيل والتخلي عن سبتنة وطنجة والقصر فان حفيده سبستيان (1557 - 1578) (Sebastien) الذي نشأ في بلاط سادّه جوّ مفعّم بالتصوف وتأثر بمعلميه اليسوعيين جعلت منه الاقدار الفارس المغوار المندفع في سبيل العقيدة الكاثوليكية في صراعه مع البروتستانتين والمسلمين ، ولاشك كذلك ان رد الفعل ضد سياسة يوحنا الثالث الافريقية المنجرة عن تجربته المفلسة في بلاد الهند والبرازيل كان مشجعا لمساعي المتوكل .

وعزم سبستيان على غزو المغرب الأقصى رغم معارضة قواده ونصائح عمّة فيليب الثاني ملك اسبانيا وكذلك رغم احتراز الشّاعر الكبير كاموينس (Camoëns) الذي عرف مصاعب الحرب في إفريقيا وشارك فيها كجندي بسيط ورجع منها أعور ، وكان تحت امرته جيش يناهز العشرين ألف رجل ، لم يتمرن البتّة على الحرب في إفريقيا ، ومتكوّن من وحدات مختلفة الاجناس برتغالية في أغلبها وفيها كذلك الاسبان والألمان والإيطاليون زيادة على وحدة صغيرة من المغاربة يقودهم المتوكل كما كانت خيالة هذا الجيش ضعيفة ومثقلة في نفس الوقت بست وثلاثين قطعة مدفعية وقافلة هامة من العربات غير متعودة على السير في المسالك المغربية ، ونزل القوم في طنجة من دون مقاومة تذكر وخاصة آصيلا وساروا الهوينا في اتجاه القصر الكبير فاعطوا بذلك مهلة إلى عبد الملك وأخيه فجمعوا جيشا عظيما يقارب الخمسين ألف رجل يعتمد أساسا على خياله وتحذوه روح الجهاد المقدس .

واستُدْرَج دون سيسيستيان إلى طريق مسدودة بين نهر لوخوس (Loukkos) ووادي المخازن أحد روافده من دون أن ينتبه وهو الذي عرف بركوب رأسه إلى أن علو الماء في هذا المكان يختلف كثيراً باختلاف المد والجزر وبادر بالهجوم فانتصر في أول الأمر انتصاراً لم يتقو على استغلاله لافتقاره إلى الخيالة . وعند ذلك مسك الجيش المغربي المتفوق عدداً وموقعا بزمام الأمر وتوغل في صفوف جيش النصارى الذي حاول اجتياز وادي المخازن هرباً نحو العرائش غير أن النهر كان طامياً بمفعول المد فهلك أغلب النصارى غرقاً أو أخذوا أسرى . وغرق دون سيسيستان والمتوكل . أما عبد الملك فقد انهكه المرض منذ بدء المعركة ولكنه وجد في نفسه طاقةً عجيبة مكنته من دفع جيوشه إلى القتال ولم يلبث أن مات ظهراً قبل أن يتقرر مصير المعركة . وأحيط نيباً موته بالكتمان الشديد حتى نهاية القتال وسميت هذه المعركة بواقعة المايوك الثلاثة الذين لقوا فيها حتفهم إلا أن المؤرخين العرب يدعونها واقعة وادي المخازن لا غير .

أحمد المنصور (1578 - 1603) :

وكان من نتائج هذه المعركة أن استهدف البرتغال الذي أصيب في ملكه إلى مطامع الأسبان بينما شاع الحماس في المغرب الأقصى بدرجة مضاهية للتخوفات التي أثارتها تلك الحرب الصليبية ولئن أودى الداء بحياة عبد الملك فقد أجمع الناس على أخيه أحمد وبويع سلطاناً بساحة الوغى ولقب بالمنصور ولم يفز فقط بشرف الانتصار في معركة ما كان أحد يحلم بنتيجتها الايجابية بل جمع كذلك غنائم وافرة جلبت له ولاء الجيش واستولى على مئات من الأسرى درّت عليه فديتهم سيلاً من ذهب البرتغال . وهاب امرأ النصارى هذا الملك الذي استطاع أن يسد مثل هذه الضربات واعتبروا منذئذ المملكة الشريفة دولة عظمى بقرأ لها ألف حساب وارسلوا إلى موانئها مراكبهم وعينوا سفراء لهم بمراكش وحاولوا الاقتراب من هذا العاهل الغني الذي بلغت ثروته حداً أصبح معه يلعب بالذهبي .

إن المنصور تبوّأ منزلة مُمْتَازة في مدارج الملك إذا نحن قارناه بالسلطين السعديين الاحد عشر السابقين الذين واجهوا ثورات متواصلة

واغتيل منهم ثمانية - واثن اضطر هذا الملك منذ اعتلائه العرش إلى قمع تمرد جنده أكثر من مرة ، واحباط مؤامرات الزوايا وكبح جماح القبائل البربرية فانه لم يكن جنديا فقط ، بل رجل دولة مثقفا ثقافة ممتازة لم تشنه شؤون الحكم ابدا عن الدرس ، وأكد معلمه المنجور أنه كان يتعلم من مخالطة تلميذه الملك هذا « العالم بين الخلفاء والخليفة بين العلماء » .

وقل " أن عرف المغرب الأقصى ما عرفه في عهده من هدوء ورخاء فلقد اهتم السلطان الشريفي بالتجارة التي كانت نشيطة في عهده ونمى الأنشطة الصناعية الراجعة للدولة وأكرى لليهود والنصارى طواحين السكر وأشرف على حركة تجديد المعدات الحربية وملائخزائمه بمداخيل القرصنة وزاد في الجباية التي كان يستخلصها بحزم . ولم تعرض الثورات التي واجهها سلطانه للخطر وكانت أشدها ثورة البرانس بقيادة الناصر الدعي فكان نصيبها الفشل بسبب تخاذل الأسبان (1595 - 1596) .

وكان السلطان الشريفي في أول الأمر يُسير دواليب الحكم بنفسه في وضوح وثبات . واختار له أعضاء من بين كتابه نخص بالذكر منهم مؤرخه الفشتالي ويهوديًا بل ان تأثير مسلمة النصارى واليهود أثار حفيضة مشايخ الزوايا ، وزاد في نفوذ الطرق وأوغر الصدور نحو الأجنبى . غير انه لم يبد عداوة مكشوفة تجاه المخزن وأصحاب الطرق الذين تمكنوا من الاستعداد إلى أيام أكثر يسرا . أما الأعيان الذين كانوا في أول العهد تحت نفوذ السلطان فقد تخلصوا في آخر الأمر من أنواع الرقابة . فلم يكتفوا بالإثراء من تجارة العبيد بل استطاعوا استغلال ابناء ملتهم .

وكان للمنصور فلسفته السياسية ، منها اقتبس طريقته في حكم القبائل فكان يقول حسب ما ذكره الافراني : « ان أهل المغرب بهم جنون لا يمكن مداواته الا بشدهم إلى السلاسل والاغلال » وتطبيقا لمبادئه نظم حكم المغرب الأقصى أي المخزن حسب قواعد ظلت قائمة ، رغم التغييرات الطارئة ، إلى انتصاب الحماية الفرنسية .

وكانت الامبراطورية الشريفة متكونة من قبائل يديرها بل يستغلها هيكل مركزي يسمى المخزن بقبائله الحربية (قبائل الجيش) المعفاة

من الضرائب والمتمتعة بالاقطاعات وبوزرائه وضباطه وولاته وأصحاب الصنائع التابعين للقصر . ومن ذلك التاريخ أصبح المغرب الأقصى منقسما إلى قسمين المغرب الأقصى الرسمي (بلاد المخزن) ويحتوي على أراضي جماعة المسلمين الخاضعة للإداء العقاري والتي تسكنها القبائل العربية ويسير أمرها المخزن مباشرة من جهة ومن جهة أخرى المغرب الأقصى المستقل (بلاد السنية) الذي لم يتخلص فقط من نفوذ السلطان الفعلي بل كان دائما على أهبة للانقضاض على بلاد المخزن . غير انه نتيجة لحذر المنصور وهيبته وقوة جيشه فان هذه المنافسة بين جزأي المغرب الأقصى كانت في أغلب الأحيان كامنة في عهده كمون النار ولم ينكشف أمرها ابدا كما وقع ذلك فيما بعد .

وحذا السلطان حذو أخيه غالب ، فجمل مراکش التي تآلق نجمها كمعناها في دولة الموحدين ، وجلب العملة لاقامة المباني من كل البلدان وحتى من أوروبا كما اعتمد على ذوي الخبرة من الصنائع واشترى من إيطاليا الرخام بنفس ثقله من السكر . وبدأ غداة انتصاره في وادي المخازن ببناء قصر البديع الذي تطلب تشييده خمس عشرة سنة . وانتصب هذا القصر الذي هدمه فيما بعد بأكمله مولاي إسماعيل وسط قصبة بني سعد ، وحُفرت فيه لتجميله بركٌ عديدة مبلطة بتغشية خزفية ويشرف عليها أحواض وتحوط بها بسط من الازهار ودور على غاية من الرينة . ولقد سمحت أبحاث تمت اخيرا باعطاء صورة كاملة لهذا القصر ولانسب الموجودة بين كافة اجزائه . وكان قصرا رائعا من دون شك ونحن على يقين من ان المنصور هو الذي بنى على أديم الأرض المقدسة التي تأوي رفات اجداده قرب مقام الولي الجزولي القبة الشرقية من ضريح بني سعد حيث دفن أمه .

وكان للسلطان بلاطٌ عظيم الشأن يستقبل فيه الاجانب في أبهة كبيرة وكان يلتقي فيه مسلمة النصاري ذوو النفوذ وأصحاب المال من اليهود والتجار النصاري والسفراء الاجانب ورجاله محل ثقته من دعاة سياسيين وأصحاب أعمال وقواد أحيانا . وكانت الأعياد الدينية تتألق بمشرق الأنوار وهي في مراسمها تشبه تماما ما يمكن ان نشاهده اليوم في المغرب الأقصى . وكان الحفل الذي ينتظم لقبول سفراء أوروبا وكرم المنصور

يأخذان بالألباب . ففي سنة 1579 دخل خوان دي مدينا (Juan de Medina) القصر في موكب بهيج وقد أدى له التحية مائة من الطبايرين والمخازنية بطاقياتهم المزينة بالريش وكذلك مسلحة النصارى اللابسون لباس الأتراك وكيان السلطان جالسا على حشايا من حرير في قاعة مفروشة بالدمقس والزرابي يقف دونه ثمانية « قياد » وبوابان زنجيان فاقتبله بأدب ونبيل وقد بدا للعيان تمسكه بالمراسم .

فتوح السودان :

اقتبس المنصور من الشرق مراسيم الاقبالات وأخذ عن الترك نظامهم العسكري بل أوكل اليهم تعليم جنده وهم مزيج من مسلمة النصارى والأندلسيين والبييد والقبائلية والإاجئين من بلاد العثمانيين ، وكان الجيش الذي عهد اليه بغزو السودان يتركب من مسلمة النصارى والنصارى فحسب .

وتوطدت العلاقات بين المغرب الأقصى وبلاد السودان منذ أن أزاح المرابطون أمراء غانة الوثنيين عن عروشهم وأدخلوا إلى الاسلام الطبقات الحاكمة بالسودان العربي (القرن الحادي عشر) ، وربط الملوك المانديين بالنيجر الأعلى مع سلاطين المغرب علاقات دبلوماسية قارة وتبادلوا معهم الهدايا ، ولما حل محلهم سنغاي النيجر الشرقي (اواخر القرن الخامس عشر) عمد المغرب الأقصى طيلة ما يقارب القرن إلى بسط هيمنته الفكرية والدينية على السودان وذلك بارسال العلماء ورجال الدين الصالحاء الدعاة ، وتغلغت الحضارة المغربية بمدن ولاته (Oualata) وتمبكتو ودينني (Djenné) وكوكو « (Gao) ، ثم في عهد أسرة أسكيا أصحاب كوكو (1493 - 1591) .

ووضعت غزوة المنصور العنيفة للسودان حدا للتعامل السلمي معه وأقفرت بلاد الزنج واستبدت بالقوم عقلية الجري وراء المكاسب فطمع السلطان في مناجم الملح في تغازة (Teghazza) على بعد مائة وخمسين كلم شمال ملاحات تاودونه (Taadeni) الحالية التي منها كان تحصل امبراطور كوكو على الجانب الاوفر من ميزانيته - وبادر ابتداء من سنة 1581 بالاستحواذ على واحات قرارة وتوات (Garrara-Touat) ولعله ظفر سنة 1583 من سلطان برنو (Bornou) بأن يخطب في الجوامع باسمه ، وبعد

ذلك بسنوات قليلة حوالي عام 1586 طلب من اسحاق أسكيا ملك السودان ان يسلمه مثقال ذهب على كل حمل من الملح المستخرج من تقازة حتى يوفر لجيوش الاسلام ما كانت تحتاجه من امواله . وكان ذلك مجرد تعلقة اذ كان المغرب الأقصى في ذلك الوقت في سلم مع أجواره ، وفي الواقع كان المنصور في حاجة إلى المال ولربما كان يرمي إلى تكوين خلافة مغربية في امكانها ان تنافس الخلافة العثمانية لو وضعت تحت سلطان أحد أحفاد النبي ، فرفض ملك السودان وعند ذلك قرر المنصور تخفيض شوكتة فجمع مجلسه وعرض عليه الأمر ، فاصطدم بمعارضة شديدة خلافا لما كان يتوقع لأن حاشيته كانت تعتبر هذه الحملة جائرة ومليئة بالمخاطر ، غير أنه ألجم المعارضة وتمت الامور كما كان يتمنى .

فهل تمت حملة اولى ؟ ان نصا غريبا وغامضا من أخبار الدولة السعدية المجهولة المؤلف يجعلنا نفترض ذلك ، فقد يكون المنصور حسب هذه الوثيقة أرسل إلى السودان كتية من الجند المتمرد وأوعز إلى الدليل بالتواري عنهم في قلب الصحراء ولم ينج بأعجوبة الا رجل واحد ، فهل تكون تلك هي الرواية الرسمية أو شبه الرسمية لهزيمة نكراء نتيجة حملة مرتجلة ؟

ومهما يكن فقد عهد إلى أحد مسلمة النصارى جودر الاسباني سنة 1590 بقيادة كتية تعد ما يقارب الثلاثة آلاف رجل ، أغلبهم من مسلمة النصارى وتمثل مهمتهم في الهجوم على السودان من الناحية الصحراوية .

وخرج جودر بجيشه في أواخر أكتوبر ووصل إلى النيجر بعد مسيرة 135 يوما ، هلك فيها نصف جيشه على الأقل وسرعان ما تغلبت بنادق الفتيلة وهلع الماشية التي تحصن وراءها جيش السونغو (Songoi) على العشرين ألف من الزنوج المسلحين بالرمح والسيوف والهرارات (12 مارس 1591) .

ولما لم يرق لجودر المقام في كوكو استقر بئبكتو التي أصبحت من ذلك الوقت عاصمة الباشوات ، وكان بوده الرجوع إلى مراکش

بمائة الف من النقود الذهبية والى عبد كان الاسكيا عرضها على السلطان لولا أن المنصور اعتبر هذه العروض سببة فعوض الباشا بواحد آخر من مسلمة النصارى يدعى محمود زرقون الذي رأى من الحكمة ابقاء جودر عضدا له ومستشارا أولا .

وحاول زرقون بناء دولة السنغو من جديد ولكنه شارك بنفسه في النهب والتقتيل للذين كانوا من أساليب الحكم الوحيدة التي يحذقها هؤلاء اما خلفاؤه فقد انهكوا البلاد بسطوهم وأبادوا النخبة الفكرية والدينية التي كانوا يرهبون تأثيرها .

وترك المغرب الأقصى ابتداء من سنة 1612 السودان تحت رحمة جيش الاحتلال فتحول الجند إلى لصوص وأصبح الباشا لمنتخب قائد عصابة فتداول على السلطة من سنة 1612 إلى سنة 1660 واحد وعشرون باشا ومن سنة 1660 إلى سنة 1750 مائة وثمانية وعشرون باشا . ومنهم من لم تدم مدتهم أكثر من بضع ساعات اذ قتلهم منافسوه . وتزوج الاسبان السودانيات واختلطوا شيئا فشيئا بالسكان ، غير أن أحفادهم الرماة كونوا ارستقراطية تظاهرت بالتفوق إزاء الزنوج الصرخاء . وهم لا يزالون إلى اليوم يتميزون بذكائهم ونزوعهم إلى الحكم وميلهم إلى الكفاح ويعرفون بثرواتهم ونظافة منازلهم — ومن بينهم النبلاء أحفاد روم الشرق والبرجوازيون المنحدرون من فاس والدماء والرعا من اللقطاء . وليس لهم من حرفة الا صناعة الاحذية . وهم بصدد الانصهار شيئا فشيئا في السكان السود .

وكانت الأرباح التي يدرها السودان على المنصور عظيمة جدا حسب أقوال من عاصره وأكد الأفراشي أن المنصور تلقى كمية من قراضة الذهب بلغت حدا « أصبح معه لا يدفع جسارة الموظفين الا بالذهب الابريز والدنانير الثقيلة الوزن » وقد يكون توفر للسلطان 1400 مطرقة لضرب السكة يوميا . وشهد لورانس مادوك الانغليزي وهو عون لشركة تجارية في مراكش ، قديم ثلاثين بغلا محملة بالذهب وكانت الدوكات (Ducat) المراكشية مطلوبة من قبل التجار الانغليز الذين كانوا يحاولون تهريبها نظرا إلى عيارها المرتفع ، ورغم هذا فإنه ما كان

من صالح المنصور مغالطة المغاربة والاجانب حول أهمية موارده ، ذلك ان الغزاة لم يقدروا ابدا على استغلال مناجم الذهب السودانية مباشرة لبعدها بعدا كبيرا عن كوكبو فكان الذهب الذي تلقاه السلطان في اول الأمر متأثيا من حاصل مصادرات أعيان تومبكتو ثم فيما بعد من عائدات المبادلات التي قام بها « اعوان الملك » المكلفون باستغلال سباخ تاودنة ومن المحتمل ألا تكون ثروات السودان التي أصبحت مضرب الامثال بلغت يوما ما بلغت القدية البرتغالية التي ضار المنصور يلعب من اجلها بالذهبي . وعلى كل فان النتيجة الحاصلة من غزو السنغو وتونبكتو هي اضمحلال تجارة السودان وانحطاط تونبكتو فكريا وتقلص ظل الاسلام في النيجر الأوسط الذي لم ينته أمره إلا في القرن الثامن عشر تحت تأثير التوكولور (Toucouleur) .

وتلقى السلطان إلى جانب حمولات الذهب قوا فل من العبيد ذكورا وإناثا . ومن المحتمل ان يكون قد جند الزنوج وان سجله أوجي إلى مولاي اسماعيل بفكرة تكوين حرس أسود .

سياسة المنصور الخارجية :

ولئن اشتهر المغرب الأقصى بأنه بلد له ثروات طائلة وأصبح لعامله صيت بعيد فذلك يرجع أيضا إلى غزو السودان . فقد أفضت عظمة السلطان الشريفى مضاجع سلاطين القسطنطينية الذين كانوا يرومون بسط نفوذهم الديني عليه . كما تضايق منه بايات الجزائر الذين يحلمون بهيمنة قراصنتهم على مواني المحيط الاطلنطي ، واستنجد المنصور بأوروبا لمواجهة اعدائه في الشرق ، غير انه لم يتخلص من تدخل الباى علي الا في آخر لحظة عندما أغدق على الباب العالي الهدايا (1581) ولم يتخلص من شبح هذا الخطر الدائم الا بموت علي علي (1587) وانقراض البايات (1588) بل إنه كان بإمكانه أن يسادر بالهجوم بدوره. لو لم يشغل عن ذلك بخلافات ابنائه .

ولم ترفض الدول المسيحية عروضه بل تنافس الانقليز والاسبان في كسب وده . ورغم ان الانقليز لم يهتموا بالمغرب الأقصى للمرة الاولى الا سنة 1551 فانهم اغتتموا هزيمة البرتغال لتنمية مبادلة أقمشتهم

بما يوجد في المغرب الأقصى من ذهب وسكر وجلد وبارود لتنظيم حركة تهريب البضائع .

غير ان المنافسة بين التجار الخواص وبين موكلي تجار المدينة من جهة وتأثير كبار الشخصيات اللندنية الذين لم يراعوا سوى مصالحهم من جهة أخرى أحبطت المساعي المبذولة لتوحيد المصالح والمجهودات ضمن مؤسسة واحدة وهي الشركة البربرية (Barbary compagny) (1585) . ومنذئذ توقفت التجارة البربرية عن التوسع . الا ان العلاقات التجارية ساهمت في جلب انتباه الملكة اليزابيث إلى المغرب الأقصى لا من الوجهة الاقتصادية فحسب بل كذلك من الوجهة السياسية . فحاولت ان تتحالف مع سلاطين القسطنطينية ومراكش لمواجهة فيليب الثاني الذي أصبح سيد البرتغال . أما المنصور فقد كان يعتبر الاتراك من أشد أعدائه . ورغم ما يضمره المغرب الأقصى من حقد متوارث ازاء اسبانيا ممّا تجلى في الفرحة الشعبية العارمة التي عقبّت اباداة الاسطول الاسباني (سنة 1588) فان المنصور لم يكن ليجعل ان بلاط فيليب يأوي أخا للمتوكل المتأهب دوماً لترغم أي تمرد يطيح بعرشه وكان ملك اسبانيا من جهته يخشى ان يستولى قراصنة المغرب الأقصى على قوافله الآتية من الهند ويتمكنوا من الاستحواذ على موارده المتواضعة المهددة دائماً بالحجز فحاول ان يضمن حياد السلطان بالتخلي لفائدته عن آصيل (1589) .

واستغل المنصور في علاقاته مع الاسبان والانقليز بمهارة فائقة ما كانوا يخشون من عواقب تدخله . فساوم اعانته من دون ان يوفي بشيء من وعوده وأخيراً رجحت الكفة لفائدة الانقليز عندما وضع فيليب الثاني خطة لاحتلال جزيرة أرقوين (Arguin) وسواحل الصحراء للاستحواذ على ذهب السودان ، بل ان السلطان فكر في غزو اسبانيا واقتسامها مع الانقليز لو لم تفضل الملكة اليزابيث صرف عنايتها إلى الهند . وذهبت هذه المشاريع السياسية الكبرى ادراج الرياح بموت الملكة العجوز وهلاك السلطان بسبب الطاعون (1603) .

أما فرنسا التي كانت تمزق شملها الحروب الدينية فان المنصور لم يتعامل معها الا في نطاق تجاري ضيق واقتصر على اقبال بعض

قناصلها . واخيرا فان هولاندا لم تخط حينذاك الا خطوات محتشمة في علاقاتها التجارية مع المغرب الأقصى .

انحطاط السعديين :

ما ان قضى العاهل الشيخ نعبه حتى أخذ ابناؤه الثلاثة يتنازعون من أجل الحكم ، وهم مولاي زيدان الذي بويع بفاس وأبو فارس الذي نودي به سلطانا في مراكش ومحمد الشيخ المأمون الذي كان أبوه أودعه السجن قبل وفاته وكان ميالا إلى العنف غير قادر على كبح جماح غرائزه وما كاد أبوه يسميه وليا للعهد سنة 1815 حتى عيل صبره لفرط ماتورط فيه من فضائح وما بادر به من تمرد ، فالقى عليه القبض سنة 1602 وهو يقاتل وزج به في السجن بمسكناس . وظلوا طيلة سبع سنوات يتقاتلون اثنين ضد واحد يتحالف احدهم مع هذا او ذاك ، بالتداول ، هذا يستنجد بالاسبان والأخر بالأتراك ، واغتيل أبو فارس (1610) بخنجر عبد الله ابن أخيه المأمون ، وهو في عنفه شديد الشبه بأبيه .

وتمكن المأمون من الاستيلاء على فاس بفضل معونة الاسبان الذين تسلموا مدينة الاعراش جزاء خدماتهم . واستبقى مولاي زيدان مراكش واقليمها بعناء كبير . وأصبح المغرب الأقصى منقسما إلى مملكتين كما كان في القرن الخامس عشر ، مملكة فاس ومملكة مراكش .

ولم يكن هذا التقسيم من شأنه ان يضمن السلم اذ ان الصراع بين ابناء المنصور أثار نَارَ الفتن التي لم يستطع اخمادها رغم ما كان له من نفوذ فقد قام في كل مكان زعماء ينتسبون إلى رجال الدين وأخذوا يتناحرون وينشرون حولهم الموت والخراب . وشاركت القبائل العربية في الاضطرابات اما القبائل البربرية الصامدة في الجبال فقد نالها رجع من هذا التهريج فدخلت بدورها في حلبة الصراع وبلغت هذه الفترة قمة الفوضى في تاريخ المغرب الأقصى حتى إن مدُنًا قويةً الاركان معروفةً بؤداعتها مثل فاس أصبحت بدورها نهبَ الفتن وكف القوم بضعة أيام عن المناادة إلى الصلاة من أعلى صومعة الجامع الأكبر وعم الخراب احياء بأكملها فتحولت إلى حدائق .

وفي خضم هذه الاحداث لم يعد لسلطين فاس ومراكش وزن يذكر ، فكان مولاي زيدان (1603 - 1628) وهو ليس بأسوئهم حالا يجد عناء كبيراً في الاحتفاظ بالحكم اذ أزيح عنه ثلاث مرات ثم استرجعه ولم يفلح ولو مرة واحدة في استعادة مملكة فاس التي ظلت مستقلة عنه غير انه وجد مهلة كافية لبناء القبة الغربية ، التي تعلو ضريح السعديين بمراكش وهي التي تثير اعجاب السواح بزينة تواريقها الفخمة ومقرنصات عقدها وتنميق قبورها . وهي رغم ذلك شاهدة على الانحطاط ، ذلك انه يوجد كما لاحظ ذلك ج. مرسى بين عظمة مساجد الموحدين وجمال مدارس بني مرين في تناسقها وانتظامها وبين الافراط في التزيين الذي نشاهده في روضة الأمراء السعديين ما يوجد من فروق بين كنيسة بزو (Brou) والباب الشمالي لكنيسة شارتر (Chartres) .

ومنذ سنة 1626 أصبحت فاس تخضع لقواد العصابات او يحكمها ردحا من الزمن احدى الفئات التي كانت تتسابق للانفراد بالحكم المطلق . اما في مراكش فقد صمد السعديون مدة اطول حتى اغتيل العباس سنة 1659 وهو آخرهم .

الساعون إلى الحكم :

بينما كانت دولة السعديين في احتضار عمدت اسبانيا إلى احتلال بعض المواني المغربية وكان همها وضع حد لهجمات القراصنة . وقد سبق ان لاحظنا انها تسلمت مدينة العرائش سنة 1610 فشيدت قلعة في مصب وادي سبو سنة 1614 لتثديد مراقبتها على مدينتي الرباط وسلا الواقعتين على ضفتي بو رقرق حيث كانت القرصنة نشيطة . وتعرف هذه القلعة اليوم بالمهدية وهي التي كان يسميها الاسبان (San Miguel de Vitramar) ويدعوها المغاربة بالمعمورة وعلى نحو ما وقع في القرن الماضي لما احتل البرتغال الاراضي المغربية ثارت ثائرة الشعب لاستحواذ النصرارى على جزء من دار الاسلام وكانت تلة اعتمدها بعض الزعماء من رجال الدين لخدمة مطامحهم .

وتجلى الخطر المسيحي بالخصوص في شمال المغرب وفيه كذلك ظهرت اعنف ردود الفعل الدينية التي زادها خطورة ضعف السعديين

وقصورهم . غير أنه ظهرت في جنوب البلاد كذلك تحركات طرقية لم تبلغ من الحدة ما بلغته في شمال المغرب :

وأول هذه التحركات ما كان على يد أبي محلي وهو عالم بسيط من تافيلالت تخرج من مدرسة الصوفية واستقر في وادي سورا (Saoura) حوالي سنة 1593 اشتهر بورعه وأوهم الناس بأنه المهدي المنتظر . وتحرك لما تنازل السلطان عن الاعراش لفائدة الاسبان فزحف على سجلماسة واستولى عليها وهزم جيشا ارسله مولاي زيدان لنجدها ثم اجتاز الأطلس واخذ مراکش غرة ، وعجز مولاي زيدان عن استرجاع عاصمته بنفسه فألب عليه وليا آخر أصيل الأطلس اسمه يحيى بن عبدالله المحامي الذي ما أن هجم على مراکش حتى قتل أبا المحلي وعلق رأسه على سور مراکش حيث بقي حسب ما يروى طيلة اثنتي عشرة سنة (1613) وزاد هذا النصر في قوة يحيى بن عبد الله واعتبر نفسه سيذا ومسك بزمام الارياف بيد من حديد حتى سنة 1627 . وعندئذ ظهر شخص ثالث هو أبو الحسن السملالي المعروف بأبي حسون اصيل ماسة (Massat) وكان دوره قبل ذلك ثانويا فأسس في السوس والجهة المقابلة للأطلس امارة مستقلة لم تزل الا بعد انتصاب العلويين - كما يجب اخيرا ان نلمح على سبيل التذكير إلى الاشراف العلويين في تافيلالت وسيأتي الحديث عنهم فيما بعد :

واضطر الامراء السعيدون في فاس إلى مواجهة ثلاثة اعداء : جمهورية المورسكوس بالرباط وسلا والولي العياشي وأولياء الديلاء :

جمهورية بورقراق :

لقد طرد المورسكوس من مقاطعة غرناطة فقط - لا من اسبانيا أثر تمردهم سنة 1568 اذ لم يفقد فيليب الثاني ومستشاروه الأمل في ادماجهم . ولكن فيليب الثالث اعتبر ذلك مستحيلا بعد محاولات دامت اربعين سنة فأصدر ضدهم مجموعة من قرارات الطرد توالى من سنة 1609 إلى سنة 1614 ، وهكذا اضطر كل الذين لم يرضوا بالتنازل لعقيدتهم إلى الهجرة فانتشروا على كامل ساحل افريقيا الشمالية من تونس إلى الرباط وخاصة في شمال البلاد التونسية وشمال المغرب الأقصى حيث انقسموا إلى مجموعتين رئيسيتين استوطنتا الأولى تطوان وانتصبت الثانية على ضفتي

مصّب وادي بورثراف وفي سنة 1609 اقام أهل هرناشو (نسبة إلى مدينة صغيرة تقع بجهة إسترامادورا) في رباط الفتح وهي القلعة القديمة المشرفة على غربي هذا النهر . وفي سنة 1610 أقبل عدد من المهاجرين من جنوب الأندلس وحطوا رحالهم بالمدينة الصغيرة التي كانت تتقوى على نفسها في ظل القلعة فعظم بذلك عمرانها . وكانت علاقاتهم في أول الأمر حسنة مع مولاي زيدان الذي كان باسطا نفوذه في تلك الجهة حتى ذلك التاريخ وكان يؤمل انه في الامكان ان يجند منهم الجند وأن يغنم مما أخذت تدريبه عليهم القرصنة . ذلك ان أهل هرناشو جهزوا حال وصولهم ، مراكب عديدة بفضل أموالهم الطائلة واختاروا لها عددا من مسلمة النصارى والمغامرين من كل الاجناس .

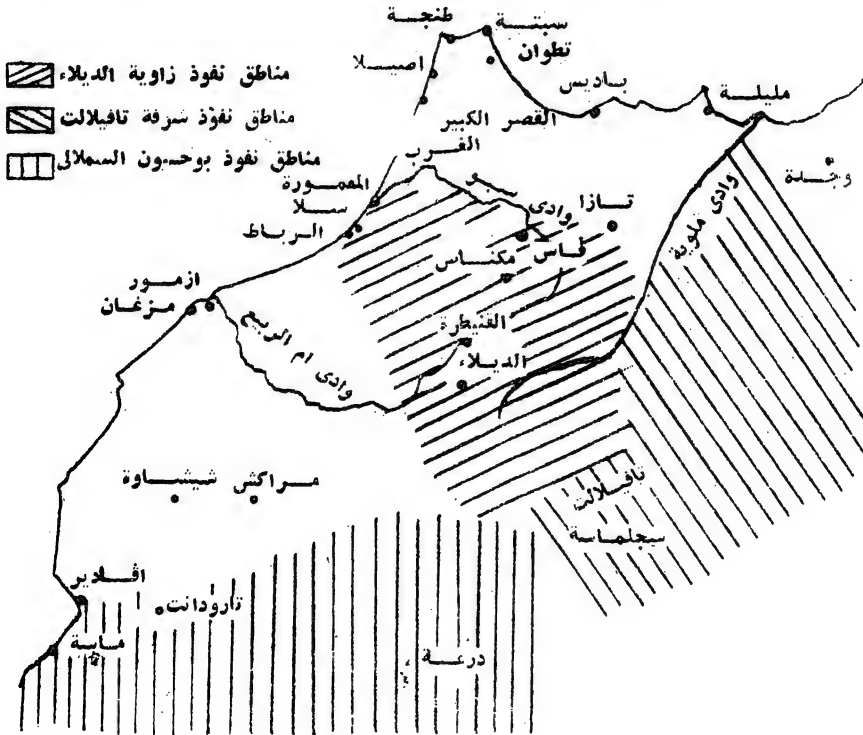
وسرعان ما أدرك المورسكوس ان السلطان يستغلهم فاعتبروا أنفسهم مستقلين ابتداء من سنة 1627 وشجعهم على ذلك الولي العياشي . لقد أسسوا جمهورية تحكمها الخاصة (Oligarchie) اتحدت مرة مع سلا واقترنت مرة أخرى على التعامل مع المجموعتين اللتين تتكون منهما الرباط وكانت طورا متماسكة الصفوف وطورا آخر تتآكلها الفتن الداخلية العنيفة لأن الاندلسيين وأهل هرناشو لم يحالفهم الوثام دائما ، وآل الأمر إلى أن ضاق العياشي ذرعا باستقلالهم فأخذ يناوئهم من سنة 1637 إلى أن مات سنة 1641 وعندئذ بسط اولياء الديلاء نفوذهم على مصب بورثراف .

ولم يكن مهاجرو بورثراف ليطمحوا في الاستيلاء على المغرب الأقصى بل كانت تعتمل في نفوسهم مشاعر متضاربة للغاية . فقد كانوا من جهة يكرهون اسبانيا المسيحية التي أطردتهم من أرضهم ولكنهم كانوا من جهة أخرى غير مرتاحين إلى العيش في نظام اقتصادي وسياسي غريب عنهم فلم يقدروا على التلاؤم معه ، فكانوا يشعرون بالغرابة ازاء هذا الصراع السياسي الذي كان يجري حولهم .

ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة للأولياء الذين لم يقرّ لهم قرار في تلك المنطقة ..

أولياء الشمال :

أول من ظهر منهم هو محمد بن أحمد الزياني الملقب بالعيشي ، وكان عالما من اتباع أحد متصوفة سلا ، تزعم الجهاد في سبيل الله في عهد مولاي زيدان وهجم على مزغان ، فجازاه السلطان على سعيه وعينه « فأيد » أزمور ولكنه سرعان ما فقد منزلته لدى سيده ولأذ بالفرار واتجه إلى سهول الغرب وأعان مدن بورقراش على فرض استقلالها وحمل لواء الجهاد المقدس في سبيل استرجاع المعمورة والعراش فالتف حوله عدد كبير من أولياء الجهة وحتى أولياء المغرب الأقصى ، وفي سنة 1637 تخاضم مع المورسكوس واتهمهم بأن لهم علاقات مريبة مع الانغليز والاسبان وآل أمره إلى أن استولى على الرباط وسلا سنة 1641 فكان ذلك إيذانا بهلاكه اذ تمكن المورسكوس الذين لاذوا بأولياء الدلاء من اقناعهم بمقاتلته ، فانهزم وقتل سنة 1641 وكان أولياء الدلاء وهم بربر صنهاجة



شكل 24 - : المغرب الأقصى في أواسط القرن السابع عشر .

أسسوا في اواخر القرن السادس عشر زاوية تقع قرب قرية القنيطرة الحالية . ولقد عرفوا بكرمهم وعدلهم فاحتكمت اليهم القبائل الطاعنة بالاطلس الاوسط والمملوية وعظم بذلك نفوذهم شيئاً فشيئاً لدى هذه الاقوام المشهورة بشدة بأسها في الحرب وسرعان ما أصبح لها بذلك جيش عتيد استعملوه للانتصار على محمد الشيخ الاشقر السعدي سنة 1640 عندما حاول الاطاحة بهم قبل ان تقوى شوكتهم كما هزموا الولي العياشي سنة 1641 . ففرضوا بذلك سيادتهم على كامل الجهة الشمالية للمغرب الأقصى ولكنهم اضطروا إلى التنافس مع الاشراف العلويين بتافيلالت الذين كانت لهم ايضاً بعض النوايا التوسعية . وهكذا فان مصير الحكم بعد السعديين سيقره في آخر الأمر الصراع بين بربر الجبال بقيادة الاولياء وبين سكان الواحات بزعامة الأشراف :

أوروبا والمغرب الأقصى :

ان هذه الاضطرابات لم يكن لها التأثير السلبي المتوقع على العلاقات القائمة منذ زمن طويل بين المغرب الأقصى وبعض الدول العظمى الاوروبية ، ذلك ان كل ما يخسره النصاري بسبب كره الطرف المقابل وتعصبه الديني يعوضه لهم ما كانوا يكسبونه من جراء تناحر أعدائهم وتنافسهم . فهذا الولي الصالح العياشي الذي تقلد زمام الحكم بحافز الجهاد المقدس يرتاح شديد الارتياح في بعض الظروف إلى التفاوض مع الانقليز أو الهولنديين وإلى شراء الاسلحة منهم لمزيد النكاية بخصومه المغاربة ، وهكذا فان العلاقات بين المغرب الأقصى الممزق شمله حينذاك وبين الاوروبيين مرت بحالات مختلفة حسب الظروف ومشئنة المعنيين بالامر طبعاً .

وكانت اسبانيا خليفة السعديين عندما كان الاتراك خطراً عليهم ولماً لم تعد الجزائر المحكومة من الباشوات مشغولة بالقرصنة منهوكة بالحزازات الداخلية مهددة من المغاربة ، استغنوا عن العون الاسباني - بل ان اسبانيا زادت في الطين بلة وأخذت تطرد المورسكوس وتناوىء الاسلام واحتلت الاعراش والمعمورة . ورغم ذلك فان المأمون اتجه إلى اسبانيا عندما حاول الاستحواذ على مملكة فاس سنة 1610 كما فكر مولاي زيدان في اللجوء اليها عندما اضطر إلى التخلي عن مراکش إلى أبي المحلي

والحقيقة أن إسبانيا المنهكة في سياستها الأوروبية لم تفكر قط في غزو المغرب الأقصى ولا حتى في إيجاد مناطق نفوذ اقتصادي أو سياسي بها . وقصارى ما كانت تحرص عليه هو حماية اسطولها بالبحر الاطلنطي من غارات قراصنة المغرب الأقصى . وابتداء من سنة 1664 لم تعد وحدها في مسرح الاحداث اذ استقل البرتغال وأعاد سلطته على قلعتي طنجة ومزغان بينما احتفظت اسبانيا بسبتة والعرانش والمعصورة وفي سنة 1661 أصبحت طنجة تابعة لانجلترا اذ كانت ضمن مهر كاترين البرتغالية عندما تزوجت بشارل الثاني الانكليزي .

ورغم ان فرنسا كانت دولة عظمى كاثوليكية وان وضعها ازاء المغرب الأقصى كان يختلف عن اسبانيا فإن دورها في حقيقة الأمر بقي باهتا جدا اذ هي لم تتعاط التجارة بل اكتفت بفدية الاسرى بنجاح متفاوت . وكان يمثلها دائما قناصل من مرسيليا وأطباء كثيرا ما كان يحتاج إلى خدماتهم الامراء السعديون وكذلك مغامرون مثل انتوان دي سان مدرسي (Antoine de Saint Madrier) المحكوم عليه في فرنسا ولكن الممثل لها في المغرب الأقصى وباني المواني فيها او فليب كستان الذي كلفه مولاي زيدان بنقل البضائع عبر النيجر فأبى الا أن يتقاضى أجره مباشرة بالاستحواذ على مكتبة الشريف وامنته . الا ان مركبه حمجز من سوء حظه بأحد مواني اسبانيا وعجز كما عجزت فرنسا معه على ارجاع ما استولى عليه من ارزاق الأمير - وكان لهذا الحادث المؤسف تأثيره السيء على العلاقات بين فرنسا والمغرب الأقصى الجنوبي وذلك طيلة سنوات عديدة . غير ان اسحاق دي رزيني تمكن في آخر الأمر من ابرام الصلح مع الشريف سنة 1631 ثم مع المورسكوس سنة 1635 وخلافا لما كان عليه الأمر بالنسبة لفرنسا واسبانيا فان انجلترا نشطت الحركة التجارية مع المغرب الأقصى بصورة رسمية بواسطة الشركة البربرية (Barbary compagny) وربما بصفة غير رسمية خاصة بواسطة تجار لاعهد لهم ولا ميثاق يدعون (Interlopers) الذين كانوا يبيعون العتاد الحربي لكل من يدفع الثمن المناسب سواء كان الشاري من الثوار مثل السملالي او الملك الشرعي ، ولم يكن الانكليز ليتحرّجوا من الاعتبار الشرعية طالما كان همهم الأول الجدوى التجارية لذلك كانوا يتفاوضون مع

جمهورية بورفرا في نفس الوقت الذي كانوا يرسلون فيه سفراءهم إلى مراکش وكانوا على علم تام بما يجري في المغرب الأقصى ، ولا تزال إلى اليوم أخبار رحلتهم وتقارير أعوانهم من خير الوثائق التي تعتمد لمعرفة هذه الفترة وكان الإنقليز مثل الأسبان يتضايقون كثيرا من القرصنة فيردون الفعل بالمرأوخة بين ضرب الحصار البري والتفاوض .

غير أن انقلترا لم تفرز بقصب السبق في الميدان التجاري بل بزتها المقاطعات المتحدة - والسبب الرئيسي في ذلك ما عرف به التجار الهنديون من حيوية ومهارة تجارية ، وكذلك أيضا ما كان يشترك فيه الهنديون مع المغاربة من إضمار الحقد لاسبانيا - لذلك لم تتردد حكومة المقاطعات المتحدة في تزويد المغرب الأقصى رسميا بالمرائب وتجهيزاتها والمدافع والبارود على أمل أن يستعمل كل ذلك ضد اسبانيا . وكانت عائلة بلاش اليهودية هي الواسطة في عقد كل هذه الصفقات . وكان الهولنديون على غرار الإنقليز لايتورعون في اختبار الاطراف المقابلة . فكانوا ينسجمون في نفس الوقت مع مولاي زيدان والمورسكوس وأولياء الدلاء ، ونالهم ما نال الإنقليز من ويلات القرصنة فحاصروا مصب بورقراق سنة 1651 وكلفوا ترومب (Tromp) وريتر (Ruyter) بالقيام بتظاهرات بحرية سنة 1654 .

2 - الدولة العلوية

الأشراف الفيلايينون :

وصل (الشرفاء) العلويون وهم أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب والسيدة فاطمة واصيلو ينبوع وهي القرية العربية الواقعة على ساحل البحر الأحمر إلى تافيلالت بعد ان مرت سنوات قليلة على انتصاب السعديين في وادي درعة . وقد حفت الأساطير بظروف مجيئهم الا أنه يحق لنا أن نتساءل مع « هـ. تراس » هل أنهم صاحبوا بعض البطون من عرب المعقل أم لا ؟ . ومهما يكن فانهم انتصبوا في واحة تافيلالت في اوائل القرن الثالث عشر وعاشوا طيلة قرون حياة عادية يتبرك بهم الناس لكن من دون ان يقوموا بدور سياسي .

وبينما كانت الفوضى تتآكل نفوذ السعديين وبعيد موت مولاي زيدان طمع في الاستحواذ على تافيلالت وليان قويت شوكتها وهما السملالي ومحمد الحاج مقدم زاوية الدلاء ، فحاول الفيلايين الحفاظ على استقلالهم بأن جعلوا على رأسهم محمد الشريف نقيب العلويين الشرفاء (1631) فتوفق بعد عناء إلى التخلص من خطر الوليين المتنافسين . ولكنه لم يتمكن من الحيلولة دون انتصاب محمد الحاج قرب الجبل بوادي غريس وفي قصر السوق بوادي زيز ولا من اقحام خامية في قلب تافيلالت بالذات . ولما تملك اليأس محمد الشريف حسبا يبدو عهد سكان الواحة بأمرهم إلى أحد ابنائه مولاي محمد (1636) .

وكان مولاي محمد قوي الشكيمة فبادر بطرد حامية الدلاء المنتصبة في تافيلالت (1638) ثم حاول ان يتوسع ، كما وجد مضايقة من أولاد الدلاء شمالا والسملالي غربا . وكانت الصحراء سدا في وجهه

جنوبا فجرّب حظّه في اتجاه الشمال الشرقي وتحالف مع قبائل قير الأعلى المعروفة بشدّة بأسها واستحوذ على وجدة وجهة تلمسان ووصل به المطاف إلى الاغواط . فجنح الاتراك إلى التفاهم والتزم لهم مولاي محمد بأن لايتجاوز جهة تفنة . وقد أصبحت له منطقة نفوذ شاسعة وأخذ يظهر في مظهر العظماء . واستنجد به سنة 1649 أهل فاس على اولاد الدلاء بعد ان ضاقوا بهم ذرعا . فخفف لنجدتهم ولكنه لم يقدر على الصمود في المدينة لمواجهة رجوع محتمل لاولياء الدلاء وقفل راجعا إلى تافيلالت ولم يعاود الكرة .

مولاي الرشيد :

عندما هلك آخر السعديين كانت مملكة مراکش لم تعد حدودها تتجاوز المساحة الكائنة بين الأطلس الأعلى وأمّ الزبيح وكان يحكمها قائد الشبانات . وكان أبو حسون السملالي ينفرد بالنفوذ من غير منازع في السوس والجهة المواجهة للأطلس واحتفظ اولياء الدلاء بالسلطة المطلقة على مملكة فاس رغم محاولات طنجة والغرب والريف وحتى فاس الجديد للتخلص من قبضة سلطانهم . وكان الفيلاليون يظهرون في مظهر البيدق البسيط على رقعة المغرب الأقصى خاصة وان ملكهم لم يستطع ان يعول على أخيه مولاي الرشيد بل كان يعتبره منافسا له .

وأسرع مولاي الرشيد في الخروج من تافيلالت سنة 1659 والتجأ إلى خصوم الفيلايين التقليديين . لكن أبى اولاد الدلاء وحاكم فاس ان يحتفظوا بين ظهرائهم بهذا الصنف الذي من شأنه ان يفسد عليهم خططهم . واضطر إلى قضاء مآربه في الجهة الشرقية المضطربة من المغرب الأقصى فحلّ أولا ببني كبدانة (بين المليلة ومصب لولبة) ثم ببني اسناسن حيث وجد سندا في خطواته الأولى من لدن الشيخ اللواتي والطريقة التي كان هذا الشيخ ولاشك أحد رجالها المرموقين . وعند ذلك تمكّن من القيام بعملية حازمة لاتزال ترددها الاسطورة وتقام ذكرها المشوهة بمناسبة الاحتفال السنوي بعيد سلطان الطلبة السنوي في فاس وتمثل هذه العملية في اغتيال يهودي غني من قرية دار ابن مشعل (بجبل بني اسناسن) الذي ربما يكون قد قام بدور هام في البلاد — وتمكّن بفضل ما سطا عليه من ثروات اليهودي من بعث حزب وتهديد جيرانه — وتنسب الاسطورة إليه اغتالات وغنائم

أخرى لاشك انها صدى للمغامرة الاولى . على انه من الثابت ان مولاي الرشيد ألحق في سهل أنكاد (Angad) بعد ان انضم اليه سكانه، الهزيمة بأخيه فهلك هذا في ساحة الوغي سنة 1621 وبذلك أصبح المغامر يُعَلَّل نفسه بالحكم . وشعرت فاس بالخطر غير ان مولاي الرشيد أثر قبل كل شيء ان يضمن لنفسه قاعدة مأمونة بالخطر وملجأ في تافيلالت يلوذ به عند الاقتضاء .

ومن ثمّ قاد اول معركة له ضد الشيخ الاعرس صاحب الريف الذي كان أبى الاعتراف به والذي كان يخشى ان يفسد عليه خطته الهادفة إلى غزو فاس لما عرفه فيه من عداوة له . وبعد ان فشل هذا الشيخ في معركته ضد القبائل المناوئة له وجه جهوده نحو التجارة وخص تجارا من الانقليز بمكان في خليج الخزامى . وسرعان ما استعد الفرنسيون للمشاركة في التبادل التجاري مع الريف . وقد لاحظوا بارتياح ان انقلترا غنمت ميناء طنجة بفضل زواج شارل الثاني بكاترين البرتغالية ، بينما كانت اسبانيا طامعة في هذا الميناء (1661) ولم يعره ما زار ان أية قيمة قبل ذلك بثمانية عشر عاما . ولكنهم سرعان ما أخذوا يتوجسون خيفة من مرامي انقلترا تجاه الاماكن الاستراتيجية المنتشرة على ساحل الريف . وربما كانت الجولات الاستطلاعية التي قام بها بوفور (Beaufort) ونيشار (Nuecher) في جزر الخزامى وزقارين ، ومصبّ الملوية مقدمة في نية كولبير لوجود دائم عرض السواحل المغربية وفي فترة لاحقة السواحل الجزائرية بجيجل .

وتحققت المشاريع التي أخفق فيها الوزير الفرنسي بفضل جماعة من التجار . فقد أنشأت ثلثة من أصحاب رؤوس الأموال شركة الخزامى يتزعمهم ميشال ورولان فريجوس (Michel et Roland Fréjus) وهما من رجال أعمال مرسيليا ثمّ مكّنههم الملك من امتياز تجاري ومن حق التفاوض مع السلط المحلية (1661) لكن عندما نزل رولان فريجوس بسواحل الخزامى كانت شوكة شيخ الاعرس قد كُسُرتْ أثر هجمة حاسمة قام بها مولاي الرشيد (مارس 1666) وأحسن الشريف وفادة رولان فريجوس بتأزة لأنه كان يتعذر عليه التزود بالأسلحة والبضائع من المواني الغربية .

ولان ما رواه هذا الرجل في شيء كثير من الحماس والمبالغة عن مهمته كشف بالخصوص عن قوة الرشيد . فبادرت الديبلوماسية الفرنسية بمناوراتها

ضد الحضور الانقليزي بطنجة ، وعلى العكس من ذلك فقد خاب أمل القوم فيما كانوا ينتظرونه من النشاط التجاري ذلك ان رولان فريجوس تصرف بغير لباقة باسم شركة المشرق المؤسسة في سنة 1670 والتي كانت الشكوك تحوم حولها بوصفها خلية للجوسسة فتضايق الشريف من سلوكه فشىد لفائدته برجا بالخزامى سرعان ما استولى عليه الاسبان وجعلوا منه حصنا من حصونهم (1673) وأهمل مولاي الرشيد العروض الفرنسية لأنسه كان بسط نفوذه في الاثناء على المواني الغربية للمغرب الأقصى . ونذر نفسه لمقاومة الاحتلال الأجنبي . ولم يمض على هزيمة الشيخ الأعرابي وقت طويل حتى دخل فاس وبويع بها سلطانا (6 جوان 1666) وقد انتصر مؤسس الدولة الفيلالية لا بالاعتماد على الطرق بل بفضل تفوق جيوشه وإنه واجه تأثير الأولياء باشعاع أشراف الادارسة الذين أصبحوا انصارا له . وزودوه بما كان يحتاج إليه المخزن من أعوان .

ولم يمتد نفوذه حينذاك الا إلى بلاد أنكاد وجهات تازة وتافيلالت والريف وفاس وتمكن بعد حملات مضنية من تخليص جهة الغرب وجهة طنجة من أحد أشداء القراصنة يدعى غيلان الذي كان يستمد العون من الاتراك وأحيانا من الانقليز فاضطر إلى اللجوء إلى مدينة الجزائر (1669) كما تمكن مولاي الرشيد من قهر جيش اولياء الدلاء وتدمير زاويتهم (1668) ثم استولى على مراکش حيث قتل الشبانسات تقيلا (1669) وافتك أخيرا قلعة إيليخ (1670) ففضى بذلك لمدة تتجاوز القرن على سلطان اولياء السوس .

ووجد السلطان في سلا تنظيما محكما للقرصنة فلم يفكر في إزالته بل عمد إلى استغلاله لفائدته . ولم تنه الهجومات البحرية التي قام بها جون ديستري (Jean DESTREES) وشاتورونو (Château Renaud) عن بلوغ غايته ولا كذلك حصار سلا وقذفها بالمدافع ولا أسر بعض القراصنة كما لم تضطره المفاوضات إلى اطلاق سراح العبيد النصاري .

ورغم قصر مدته المشحونة بالمعارك فقد امكن له ان يشيد بعض المعالم ... وحملته اعتبارات استراتيجية على بناء جسر من الطابية فوق نهر سبو على بعد اربعة كيلو مترات من فاس أقيم على ثمانني حنايا متفاوتة الارتفاع ويبلغ طوله 150 مترا كما حصن السلطان اسوار فاس

البالي وشيّد قصبة خميس (وتدعى اليوم قصبة شراردة) لحماية الشرافة في المغرب الأقصى وجعل منها قبائل الجيش وفي فاس أيضا التي يبدو أنها كانت مقامه المفضل بسّنى مدرسة الشراطين على أنقاض مدرسة قديمة بدعوى ان الطلبة دنسوها بمجونهم . ويلاحظ ان الفن المعماري والزينة اللذين اقتصت بهما هذه المدرسة ابتعدا بها رغم جمالهما عن صفاء الفن المريني .

ولم يقم السلطان بمراكش الا لماما وذلك لقمع تمرد أحد أبناء أخيه عندما نزا به جواده في بساتين اقدال فألقى به على غصن شجرة برتقال فتشتم رأسه ولم يتجاوز الثانية والاربعين من عمره (1672) .

مولاي إسماعيل :

قلّ أن حظي السلاطين بما حظي به مولاي اسماعيل لدى النصارى بعد ان خلف أخاه مولاي الرشيد ، وكان شديد المراس فمسك بمقاليد الحكم في المغرب الأقصى بيد من حديد وطالت ايام ملكه (1672 - 1727) على ان الفضل في علو المنزلة التي نالها لا يرجع إلى مرهف شعوره بما يقتضيه مقام الملك بل ان خبره ذاع ومجده علا بسبب بنائه قصر فرساي مغربي ومغامراته النسائية وكثرة ما أنجب هذا الفحل من اولاد من دون كلال وخاصة بسبب محاولاته التزوج من أميرة فرنسية وأصبح بكل ذلك شخصية اسطورية لاتزال طرافتها تفعل مفعولها في المؤرخين إلى اليوم .

ويمكن رسم ملامحه بسهولة لا بالاستناد إلى ما كتبه عنه مؤرخوه بل كذلك بالرجوع إلى شهادة عدد من الاوروبيين الذين اقاموا بمكناس مثل المسمى موات (Mouette) الذي بقي في الاسر طيلة أحد عشر عاما (1670 - 1681) أو الذين زاروها إما لفدية الأسرى مثل الاب بوسنو (Busnot) سنة 1703 أو للقيام بمهمة دبلوماسية مثل الفرنسي يبدو دي سانت اولون (Pidou de Saint Olong) سنة 1793 . فقد بدا له « موات » وهو في الخامسة والثلاثين من عمره « غير مفرط الطول لكن مع تمطّط في قامته » رغم مظهره البدين بسبب ثيابه وكان أكلف الوجه إلى بياض ، مديده ، « جميل الملامح » طويل اللحية مُلَسِّنَها وديع

النظرة . ولاحظ كذلك الأب « بوسنو » بعد ذلك بثلاث وعشرين سنة نحولة وجهه، وبياض لحيته الملبسة، وسواد بشرته مع وجود بياض قرب انفه كما لاحظ انقادا في عينيه وقوة في صوته . وكان مولاي اسماعيل في شبابه يركض جواده ماسكا أحد ابناؤه بيده اليمنى ومُشرعاً رمحا بيده اليسرى . وكان عندما بلغ الستين يعلمون جواده في قفزة واحدة .

وقد تحدث كل معاصريه عن عنفه وقوته وجشعه فيكفي ان يمني بخيبة أو أن يصطدم بمجرد معاكسة حتى يمتقع وجهه فيبدو كالوحش وكان مشهورا بغضباته الرهيبة فكان خدمه يقتربون منه بحذر كبير ، وقد وجده « بيدو دي سان أولان » يقطر دما بعد أن ذبح أحد ضحاياها . وأكد السفير سانت أمان (St. Amand) انه لولا حضوره لقطع الشريف رأس العبد الذي لم يمكنه من امتطاء جواده كما أكد الأب « بوسنو » انه كان يجد في مثل هذا التقتيل ترفيها له وكان شغوفاً بجمع المال يغتصب اليهود ويبتز أرزاق رعاياه حتى الافلاس ولا يتورع من اقتراف الجرائم لمصادرة ثروات الناس . وكان من جهة أخرى لا يعرف للتبذير بابا فكان « يعتني بنفسه بخدوات الخيل ومساميرها والعقاقير والزيت والعسل وغيرها من التوافه وبالتوابل الموجودة في مخازنه » ، ممّا حمل المسمى « موات » وهو أحد رعايا ملك لا وزن له ، على أن يقول : ان مثل هذا العمل « اولى بتاجر صغير منه بملك عظيم مثله » .

لقد كان لهذا السبع العظيم مزاج من نار ويمكن ان نقول في شأنه ما قالته العجوز لكانديد (candide) في سياق حديثها عن كل المغاربة : « ان الذي يجري في شرايينه ليس دما بل هو الزّاج » (Vitriol) وكان شديد الوله بالنساء . فعاشر عددا لا يحصى منهن وكان له بدار المخزن خمسمائة جارية من كل لون وجهة وكلهن يغرقن في التجمل والفراغ في انتظار إرضاء شهوات سيدهن . فاذا تجاوزن الثلاثين من عمرهن أقصين الى الحريم القديم بفاس اوتافيلالت . وكانت زوجة السلطان زيدانة عظيمة البنية يميل لونها إلى السواد وذات حظوة كبيرة لدى السلطان الذي كان كذلك يميل ميلا شديدا إلى انكليزية شابة أسلمت . ولو كان في وسعه ان يضيف إلى هذه القائمة فرنسية لفعل . وكان مولاي إسماعيل فخورا بما ينحبه من اولاد حريصا على تقديم حصيلة

كل سنة من اطفاله المزدحمين في ابهاء القصر وقد نسب إليه ستمائة من الذكور وعدد من الاناث لا يحصى . وكان هذا « المتوج » يُربى بسجلماسة .

وكان مزاجه العنيف يحجب إليه خوض غمار الحروب حيث يبدي شجاعة جديرة بالاعجاب . ولم يقتصر على ذلك بل تجاوزه إلى ما هو أعلى وأعظم فكان حاد الذكاء حاضر الجواب دقيقه متأجج العاطفة الدينية إلى جد التبشير ، جموح الطاقة عزوفا عن الترف زاهدا في الموائد الفاخرة مرهف الشعور بمسؤوليته نحو استقلال بلاده وازدهارها الاقتصادي . تلك هي الملامح الكبرى للملك أين منه شخصية شارل الثاني ملك الاسبان أو جاك الثاني ملك الأنغليز اللذين عاصراه .

خضوع المغرب الأقصى :

اضطر السلطان الشريف طبعاً إلى توسيع ملكه بحد السيف وقضى في ذلك خمسة أعوام . فالى جانب الخصومات العائلية التي جعلت أخاه مولاي الخزان يشور عليه في تافيلالت وحفيده أحمد بن محرز يناوئه في مراکش والسوس واجه السلطان هجمات غيلان وهو من القراصنة المقدامين ومناورات الاتراك الرامية إلى دعم خصومه .

ولمّا بويع ملكاً لم يتجاوز نفوذه مدينة فاس التي كان اميراً عليها وكذلك الغرب والريف وجهة تازة فاضطر إلى افتكاك مراکش (4. جوان 1672) . وإلى قمع تمرد بفاس والانتصار قرب القصر على غيلان الذي هلك في ظروف غامضة ثم التوجه بجيوشه إلى بلاد الجنوب والأطلس التي استجابت لنداء ابن محرز فشقت عصا الطاعة في وجهه . ودخل مراکش عنوة بعد حصار دام سنتين فخربها تخريباً (جوان 1677) فلم تفلت من قبضة السلطان منذ ذاك التاريخ وفقدت بذلك مكانتها كعاصمة . واستعمل ما بقي من معالمها لبناء قصور مكناش .

وليس معنى هذا ان الأمن قد استتب . فقد واصل محرز والحران طيلة اثني عشر عاماً بث الفوضى في السوس ولم يستقر الأمر للسلطان الشريف (مارس 1687) الا بعد موتهما وسقوط تارودانت وقتل جميع سكانها . وكان عليه كذلك ان يشحن في البربر الذين تمردوا في تادلا

ومقاطعات الغرب بإيعاز واحد من سلالة أولياء الدلاء يدعمه الاتراك . كما اضطر إلى التوغل في تافيلالت ونقل قبائل الشبانات العربية إلى جهة وجدة وتأديبها وغزو بني اسناسن الذين لم يرتاحوا إلى مثل هذا الجوار والقضاء أخيراً على قبائل ملوية العليا بواسطة ثلاث كتائب وجهها الواحدة تلو الأخرى .

وهكذا دامت الحرب قرابة ربع قرن قبل ان يذعن المغرب الأقصى ويسلم قياده إلى السلطان .

جيش العبيد الأسود وجيش المجاهدين :

نظم الشريف جيشا لايشك في ولائه وهو مكوّن من جند مُنتخب من بين زنوج السودان وذلك سعيًا إلى مسك زمام الأمر في البلاد والتصدي إلى النصارى والاتراك وكيان المنصور اتخذ جندا له من بين العبيد السود في جيشه النظامي الذي كان يضم خاصة اسرى من النصارى المعتقدين ومسلمتهم من الأندلس أمّا الرشيد فقد اختلف مع ملك بنسرا (Bambara) صاحب سغو (Segou) لأنه احتضن علي بن حيدر أحد مناوئيه في السوس (أبو حنون ؟) ولم يفكر في جلب الجند من تنبكتو . بينما تمكن ابن حيدر من جمع آلاف من الزنوج في السودان للهجوم على ممالك السلطان . ولمّا بلغه نعي الرشيد سرحهم في السوس . فكوّن مولاي اسماعيل من بين جموعهم نواة حرسه الأسود . ولعله بحث فيما بعد عن احفاد جند المنصور السود الذين كشفت له عن وجودهم الوثائق الرسمية .

ولم يبادر بإرسال هؤلاء المرسمين إلى القتال بل وجههم إلى مشرع الرمل (قرب السبوين مكناس وسلا) ممّا أدى إلى تزايد نسلهم اذ كانت مهمتهم الاساسية الانجاب فكان صغار الزنج يراضون على الجنديّة منذ نعومة أظافرهم . واذا بلغوا سنّ العاشرة أي سن البلوغ يساقون إلى السلطان . ولقد دام عرضهم عليه بصورة منتظمة ابتداء من سنة 1688 - 1689 - وكان أول ما يتلقونه تعلم مهنة ثمّ بعد سنتين يتحوّلون إلى بغالة ثمّ بنائين . ويبدأ تلقينهم فنّ الحرب بعد أربع سنوات وذلك بالتمرّن على الفروسية ثمّ يتوجّ كل ذلك في السنة الاخيرة بالرماية

والتدرب على بندقية الفتيلة (Mousquet) وفي هذه الاثناء توجه الزنجيات الشابات إلى اتقان الفنون المنزلية وتدريب الجميلات منهن على الموسيقى. وعندما يبلغ أبناء الجند الخامسة عشرة من عمرهم ينضمون إلى الجيش ويتزوجون وتكون الجندية مآل الذكور من اولادهم أما الاناث فيعقدن إلى التزوج بالجند الاسود او إلى خدمة الامراء .

وفي انتظار ان يزود مشرع الرمل سنويا مولاي اسماعيل بالجيش فانه ضاعف جيشه بجلب الجند النظامي من تنبكتو بالقيام بغزوات لسبي العبيد والحرثيين من القبائل الصحراوية .

وكان القوم يدعون هؤلاء الجنود السود نظرا إلى أن اصلهم من العبيد. ويلقبونهم ايضا عبيد البخاري لأنهم كانوا يقسمون على صحيح البخاري الا اذا نتج هذا التفسير الذي قدمه هوداس عن خطأ في الكتابة .

وهكذا اعتمد الجيش النظامي على الزوج الصحراويين ونتاج مشرع الرمل دون سواهم لارتبطهم بالبلاد رابطة وليس لهم الا ان يطيعوا سيدهم طاعة عمياء وبلغ عدد هذا الجيش 150 ألف رجل منهم سبعون ألفا في مشرع الرمل ، و25 ألفا في مكناس وهم الحرس الخاص بالشريف اما البقية فموزعون على القصبات ، وشارك في كل الغزوات الكبيرة فنال رخصا السلطان فاسند للعبيد وللحرثيين حق التملك (1697 - 1698) .

ولم يلبث هذا الجيش المحترف ان فطن إلى أنه القوة الوحيدة المنظمة في المغرب الأقصى فأهمل حرس هذا الظاغية مصالح الامبراطورية وارادوا تسيير الشؤون السياسية غير ان التنقيص في عددهم جعلهم لا يكونون في اواخر القرن الثامن عشر الا الحرس الخاص بالسلطين وعلاوة على الحرس الأسود فان مولاي اسماعيل نظم من الوجهة العسكرية قرصان الساحل الاطلنطي ووضعهم تحت قيادة العبيد وكان هؤلاء تحت قناع محاربة النصارى ينهبون ضواحي المواني ويكونون كلما سنحت الفرصة عصابات يقودها رجال مقدامون مثل العياشي وغيلان، قادرة على الوقوف في وجه السلاطين . ويظهر ان السلطان الشريف استجاب إلى مطامع غلاة المسلمين عندما سوى وضعية هؤلاء المجاهدين ، وكان في الواقع

يروم الاستعانة بهم لتحرير المواني المغربية من احتلال النصارى وتأثير الأتراك .

وكان جيش مولاي اسماعيل يضم أيضا نسبة لا يمكن ضبطها من مسلمة النصارى ليس لدينا معلومات مستوفاة في شأنهم اللهم ما رواه عنهم واحد منهم وهو الانقليزي طوماس بلو (Thomas Pellow) فقد كانوا يكونون كتائب مستقلة قلما تقيم بمكناس ، وليس لنا علم بأن واحدا منهم تقلد مهام عالية في المخزن كما كان الشأن في عهد بني سعد .

وكان معظم هذا الجيش النظامي القومي يتصب خارج المدن في القصبات المنعزلة . ولقد التجأ مولاي اسماعيل ليقبض بيد من حديد على هذا البلد المضطرب إلى الاعتماد على طريقة المراكز المحصنة التي تحرسها حاميات قارة ، واستعمل القصبات الموجودة قبله وبنى على حد قول الزباني ستا وسبعين أخرى . وتنقسم هذه القصبات حسب « تراس » (H Terrasse) إلى ثلاثة أصناف : فصنف يراقب ويتحكم في المناطق التمردة (خاصة الأطلس الأوسط) وصنف مهمته حراسة طرق المواصلات (الطريق التي تصل تازة بوجده وفاس بتافيلالت وفاس بمراكش (السخ) وصنف ثالث يقوم للعبيد مقام الثكنات وذلك على مقربة من بعض المدن الكبرى .

الجهاد ومقاومة الأتراك :

رجع مولاي اسماعيل إلى سياسة الغزو كأعنف ما تكون بعد ان توقفت اثر موت العياشي (1641) فافتك المعمورة من الاسبان وغنم فيها مائة مدفع (1681) وكاد ان يدخل طنجة وكان الانقليز حاولوا بعد سنوات من التردد والتوسع خارج اسوار المدينة حيث ضاقوا بها ذرعا ، غير ان لندرة كرهت توخي سياسة القوة الباهظة الثمن المشكوك في نتائجها . فقد كانت مغامرات « كتيبة طنجة » تسبب في ثغرات لاتسد الا بمستجدين من الجند يرثى لمستواهم وكان الولاة يضاربون بوظائفهم والضباط يتحولون إلى تجار غششة والجند يفرون او يتمردون لانهم كانوا يموتون جوعا ولا يتقاضون أجورهم وان أهم ما ترتب عن الميثاق البلدي المؤرخ

في سنة 1668 الذي اعتبر طنجة مدينة مثل سائر المدن الانكليزية هو
 تمكين المستشارين البلاديين من امتيازات تجارية ، وكان في امكان الميناء
 الذي كان يحميه الضباط البحارة بواسطة مكسر للأمواج منيع ان يكون
 قاعدة بحرية آمنة للأسطول الانكليزي ، كما انه كان من المفروض ان
 تزدهر التجارة سريعا بدفع من اللاجئين الفرنسيين المطرودين من قانس
 وبفضل الغنائم الهولندية ، غير ان المال العين شح وباء مشروع احداث
 شركة مغربية كبيرة بالفشل نتيجة لمعارضة تجار طنجة وجشع الولاة
 الذين كانوا يخشون منافسة موان مغربية أخرى . وزاد الطين بلة حصار
 مولاي اسماعيل للمدينة سنة 1679 فعطل التجارة ومنع الانقليز من
 اقامة التحصينات خارج الاسوار (افريل 1681) وكان في لندرة مجلس
 العموم يخشى ان تزود حامية طنجة منبع « الجنود المواليين للبابا » الملك
 شارل الثاني بالقوى الكافية للقيام بانقلاب ضد البرلمان فرفض الاستجابة
 إلى النجدة التي تقدم بها العرش « مشرطا ان يقتنع بوجود خطر واضح
 متأت من الحركة البابوية » وحرص الملك الذي آل به الأمر بعد حل
 البرلمان إلى العيش بما يمنحه إياه لويس الرابع عشر من اعانات على
 الا يئثر موارده في سبيل طنجة ، فأمر باخلاء المدينة بعد تخريب كل
 ما فيها بما في ذلك مكسر الأمواج المنيع (5 فيفري 1684) ، ولاقى الرأي
 العام الانكليزي هذا الاجراء بعين الرضا نظرا إلى انه لم يسلم الميناء إلى
 منافسيهم الاوروبين بل إلى السلطان الشريفي وذهب الظن بجيوش
 مولاي اسماعيل إلى أن سبب رحيل الانقليز انما هو الحصار الذي
 ضربه على المدينة سنة 1679 وهجوماتهم المتكررة عليها . ووطن
 الشريف بهذه المدينة الخبرة سكان منطقة الريف وافتك المجاهدون
 بعد ذلك العرائش سنة 1689 وأصيلا سنة 1691 وهكذا تخلص الساحل
 الاطلنطي من دنس المسيحيين الا المنطقة البرتغالية في مزغان ، وبقيت
 في أيدي النصارى على ساحل البحر المتوسط حصون مليلة وستة وحجر
 خزامى وحجر باديس . ولما اضطرت الحاميات الاسبانية إلى الاعتماد على
 نفسها مثل حامية طنجة وهي التي لم تدفع لها جراياتها على الوجه
 المرضي ولم تأتها الميرة بصورة منتظمة وقاست من استقلال الولاة لم تقدر
 على فك الحصار الشديد الذي ضربته عليها القوات الشريفة ولكنها
 لم تتخذل امام هجماتها المتكررة . ولم يجد مولاي اسماعيل نفعا

ما قام به أمام سبتة من بناء رباط فيه قصر للقائد ومسجد لتأكيد عزمه الراسخ على فتح هذا الحصن اذ صرفته عن ذلك أمور خطيرة ونجست المدينة من قبضته بسبب الفوضى التي عقت موته .

ان مقاومة السلطان لاتراك مدينة الجزائر استأثرت بسياسته أكثر من حربه للنصارى فقد استحال بفضل المجاهدين ان يتسرب إلى المغرب الأقصى عن طريق مواني الغرب ولو قائد واحد من قواد العصابات التركية .

غير ان الشريف اضطر بالنسبة إلى حدوده الشرقية للاكتفاء بانتصارات منقوصة ذلك ان مستوى جيش السودان كان دون مستوى الجند الجزائري ، ولم يغب عن السلطان أن الترك كانوا يشجعون الثورات في المغرب الأقصى . فزحف حتى جبل عمور لاحتباط عزائمهم لكن المدفعية التركية اجبرت جموع الجيش الاضافي العربي على الفرار واضطر مولاي اسماعيل مثل أخيه الرشيد إلى الاعتراف بأن تفنا هي الحد الفاصل بين الترابين (1679) .

وعاود الكرة بالاتفاق مع باي تونس بعد خضوع السوس نهائيا ولكن الحليفين لم يهتديا إلى التنسيق بين تحركات جيوشهما فانهزما الواحد بعد الآخر (1692) . ولما توصل ابنه زيدان حاكم مقاطعة تازة إلى افتكاك تلمسان أثر هجمات قليلة لم يستغل نجاحه . فأنكر عليه الشريف موقفه وتولى بنفسه قيادة جيش توغل إلى وادي شريف حيث منى بهزيمة نكراء وجرح مولاي اسماعيل واوشك ان يقع في ايدي الأتراك الذين رجعوا إلى الجزائر يحملون ثلاثة آلاف من رؤوس الجند (28 افريل 1701) ورغم هذا فلم يثنه ذلك عن المضي قدما ، في تحقيق مشاريعه بل ان أمله في اضرام نار الحرب في قلب الايالة من جهة الجنوب لم ينقطع بعد ان اطمأن من أخطار زحف يأتيه من جهة الحصون الحارسة لحدوده الشرقية . خاصة وقد أمكن لاحد ابنائه احتلال جهة عين المهدي غربي الاغواط كما تمكن أحد احفاده من تركيز حامية ببو سمنغون بين عين صفراء وجيري فيل (Géryville) (1710 — 1713) .

وكان التمرد المتكرر لوجع الجزائر وثورات القبائل تسهل هذا الغزو غير ان الشريف انشغل في المغرب الأقصى بما نشب بين ابنائه من خلافات فضّيعَ الفرصة .

التجارة والعلاقات الخارجية :

بقدر ما كان مولاي اسماعيل حريصا على المحافظة على سلامة المغرب الأقصى من تدخل النصارى والأتراك كان معتنيا بتنشيط الحياة الاقتصادية . فقد كتب عنه أحد الفرنسيين المقيمين بالمغرب الأقصى مقارنا بينه وبين سلفه قائلا : « كان يتمنى لرعاياه الازدهار ولثرواتهم النمو وذلك بواسطة التجارة التي كان يؤثرها على القرصنة التي كانوا يمارسونها ويتعلقون بها بشغف أخذ يتناقص مع الايام » والواقع ان قراصنة سلا وتطوان لم يعودوا لقلّة عددهم وضعف عدّتهم خطرا حقيقيا الا بالنسبة للمراكب الصغيرة. ويؤكد القنصل ج. ب. استيل (J. B. Eestelle) قائلا سنة 1699 « ان خواص سلا يملكون بين العشرة والاثني عشر مركبا لم يعودوا يملكونها لأنهم تعودوا عندما يأتون بالغنائم ان يتعلّل عليهم ملك المغرب الأقصى ويستحوذ عليها » .

وكان للتجارة مكانة في الاقتصاد المغربي ارفع ممّا كان عليه الأمر في مدينة الجزائر وحتى مدينة تونس ذلك ان الشريف كان مهتما بها خاصة وانه يتقاضى عشرة في المائة اداء على جميع البضائع الواردة أو الصادرة وحتى 25 في المائة ضريبة على تجارة الشمع العسلي .

ونحن نجد فيما دونه « بيدو دي سانت أولون » من مهمته بالمغرب الأقصى معلومات دقيقة حول التجارة سنة 1693 وقد كان اليهود والنصارى في الواقع يحتكرون النشاط التجاري وكانت سلا وتطوان « مركزي النقل ومنهما كانت البضائع تسوّق بسهولة أكبر » امّا نشاط آسفي وأكادير فقد كان أقل من ذلك ويعتمد على البضائع الآتية من تافيلالت والسوس . « وكانت مدينة فاس بمثابة المغازة العامة لكافة بلاد البربر » وهي مركز للتوزيع يُنشطه خمسة آلاف يهودي » « وقد اشتهرت المدن الساحلية بصناعة الجلود الحمراء وهي أجمل ما كانت تصنعه البلاد .

وكان يجلب من اسبانيا القرمز (Cochenille) والزنجفر (Vermillon) ومن انقلترا الاجواخ وودع غينيا وهو نوع من المحار له قيمة النقود في هذه البلاد كما كان يجلب من هولاندا الاجواخ والكتان والتوابل بأنواعها والاسلاك الحديدية والصّفَر (Laiton) والفولاذ والجاوي والأصطُرْك أو اللّسُن والزنجفر والمرايا الصغيرة والانسجة الموصلية المستعملة للعمائم ومن حين إلى آخر الاسلحة وغيرها من العتاد الحربي وكانت ايطاليا تصدر الشب وقوالب الكبريت (Souffre en canon) والدمى المصنوعة من الفخار في البندقية . وأما الشرق فقد كان يزودها بالحرير والقطن والزرنيخ الأصفر والزئبق والزرنيخ الأحمر والافيون .

وكان الانقليز والهولنديون يودعون بضائعهم في قادس ومنها تأخذها المراكب البرتغالية .

ويمكن لإكمال المعلومات المتعلقة بالربع الأول من القرن الثاني عشر بالرجوع إلى القاموس التجاري الغام لصاحبه سفاري دي بروسلون وكان المغاربة واليهود يتزودون من المستودعات النصرانية الموجودة على السواحل بالبضائع الأوروبية ثم يوزعونها على الفروع الثانية بفاس ومكناس ومراكش وتارودانت وإيليغ (Igh) وظلت مكناس في الصدارة بالنسبة لسوق الحبوب والجلود والشموع . أما ما زاد عن حاجة هذه المدن الخمس فيوجه إلى تافيلالت « حيث يستبدله العرب بالتبّر والنيلة وريش النعام والتمر وفي بعض الأحيان انياب الفيل التي تدعى أيضا العاج . وبقيت تجارة القوافل نشيطة مع السودان .

وغالبا ما كان القناصل والتجار النصارى والمغامرون الذين يستغلون أخوانهم في الدين وأهل البلاد على السواء وقد اتهمهم « موات » (Mouette) وهو الذي خبّسَهم ، بانهم يشترون من القراصنة الغنائم التي يزهّد فيها المغرب الأقصى قصد بيعها في أوروبا باربعة امثال تمنها . بل ان الأدهى من ذلك هو أنهم كانوا يتاجرون بالأموال التي يأخذونها لفدية الأسرى ويتركونهم في الاصفاد موهمين عائلاتهم بانهم بصدد التفاوض مع السلطان .

وكانت تجارة فرنسا مع المغرب الأقصى تحتل في اواخر القرن السابع عشر المكانة الأولى وتلقى من الشريف كل تشجيع غير أن كبرياء لويس الرابع عشر وعنجهيته افسدتا وضعها كان من الممكن ان يكون في صالحه لو توخى شيئاً من الحذق واللباقة . ذلك ان مولاي اسماعيل أكد لممثل الملك منذ اعتلائه العرش انه سيعمل على سلامة المراكب الفرنسية من القرصنة وسيسمح بتصدير كافة أنواع البضائع التي تنتجها بلاده وخاصة النحاس والحديد المصبوب الأخضر (أهن) بعد ان منع كل ذلك المرحوم أخوه « ويساعده على فدية الأسرى . وتبادل الملك، وهو النصراني الغيور ، السفراء مع السلطان الشريف طيلة العشرين سنة الاخيرة من القرن السابع عشر ولكن لويس الرابع عشر أفسد كل ذلك بتوخيـه سياسة العظمة .

ففي سنة 1682 قدم محمد تميم من البلاط الفرنسي بمشروع معاهدة سلم صالحة لست سنوات وتضمن فيما تضمن للفرنسيين حرية الملاحة والتجارة . وكان الشريف مستعدا للتوقيع عليها لو لم ينفذ عليه السفير الفرنسي « سانت أمان » بأسلوب يمس بالكرامة فقد كان مكلفا بالسعي إلى إدخال تحويرات من شأنها ان تغير المقصد الأول من المعاهدة وفيما يتعلق بفدية الأسرى المغاربة الذين كان مولاي اسماعيل اقترح تعويض كل واحد منهم بأسير نصراني وثلاثمائة ليرة . أوصى « كلبير » (Colbert) مبعوثه باستعمال « كل ما اوتى من اللياقة لاجتناب الجواب عن هذا الموضوع » اذ كان يفكر قبل كل شيء في التكثير من عدد المجدفين ووقع السلطان على معاهدة السلم في 14 ديسمبر 1682 بعد ان رفض الملحقات التي اقترحها سانت أمان . وهكذا لم يوجد حل لمسألة الأسرى .

واصطدم محمد تميم في بعثة ثانية بعراقيل في ميناء طولون لاسباب شكلية تافهة وعبثاً حاولت سلط فرساي تهريب المغرب الأقصى بتنظيم مناورات بحرية . واعتصم الملك وهو النصراني الغيور والسلطان الشريف بكبريائهما . - فهذا لا يأبى التفاوض الا مع السفراء لا التجار وذلك يسعى إلى حمل الأمير البربري على الاعتراف بتفوقه وقبل لويس الرابع عشر في آخر الأمر ارسال « بيدودي سانت اولون » وهو

أحد نبلاء بلاطه العاديين إلى مكناس في أوائل 1693 - ولكن المفاوضات لم تكمل بالنجاح فكان لذلك انعكاس سلبي على تجارة فرنسا ووجودها .

وقد مكنت انتصارات لويس الرابع عشر على أعدائه في أوروبا من استئناف المحادثات . فمال أمير البحر ابن عائشة إلى فرنسا بعد أن كان مواليا للانقليز وقدم إلى البلاط حيث أصبح شخصية مرموقة (1698) فكانت إحدى السيدات النبيلات أقل صدودا عنه مما لاقى السلطان الشريف من الملك . ورجع المغربي بخفي حنين لمّا لم يرض بالتنازلات التي عرضت عليه مقابل تعويض الأسرى . واغتماظ مولاي اسماعيل لذلك وأظهر غضبه بدون مواربة . فعاب على الملك نقضه لمّا تعهد له به المتكلم باسمه مساعد أمير البحر « دستر » وكتب له قائلا : « كان على ابن عائشة الرجوع لأننا لسنا في حاجة لأي شيء منكم فسواء عندنا حربكم أو سلمكم » . غير أنه لم يقطع العلاقات بل أنه رأى من المستحسن تمهيدا إلى إبرام حلف بينه وبين لويس الرابع عشر طلب التزوج من لقيطة من العائلة المالكة الأميرة دي كونتي الحسنة التي أظن ابن عائشة في ذكر محاسنها وقد ضمن لها حرية المعتقد . وضحك القوم في بلاط فرساي ضحكا كثيرا لهذا العرض الذي لم يدرك مولاي اسماعيل إلى أي حد كان به مدعاة إلى السخرية . وكان الجواب الوقح أنه عليه أن يعتنق المسيحية .

واستفاد الانقليز في أوائل القرن الثامن عشر من هزائم البحرية الفرنسية وتدهورها فاحتلوا جبل طارق . وكانت سياسة ملك الاسبان تعمل على المباحة بينه وبين السلطان الشريف الذي كان يحلم باسترجاع سبتة . ورغم ذلك حاول آباء الرحمة والثالوث (La merci et la trinité) مواصلة مفاوضات مستعصية في مكناس لفدية الأسرى ولكنهم تصادموا مع قنصل فرنسا بسلا . وفي نهاية الأمر أمكن تعويض عشرين من الأسرى فقط سنة 1712 . واستفحل الأمر بعد سفر الآباء - وبسط البروتستان اللاجئون من جهة اللندوك (Languedoc) أيديهم على التجارة فاتهمهم بنو جلدتهم بمساعدة الأنقليز والهولنديين على حساب « الأمة الفرنسية » . وقد أسلم أحدهم وأصبح واليا على سلا ولما فقد القنصلان الفرنسيان مكانتهما لدى السلطان بسبب تأثير اخوانهم في الدين

عليه اضطررا إلى مغادرة سلا (1710) وتطوان (1712) وظلت فرنسا طيلة أربعين عاما بدون ممثل لها في المغرب الأقصى مما اتساح للانقليز ان يتبوؤوا المرتبة الأولى في حركة التجارة المغربية .

وكتب في هذا الصدد ج . هردي : « لقد أعوزت لويس الرابع عشر اللباقة وروح التفهم للناس وللأشياء في المغرب الأقصى ولم يظهر في معاملته كياسة ولا احتسابا ولو بسيطا » وهو أمر يتضارب مع « اخلاص » السلطان . فكانت ضريبة المعجد الذي طلبه المالك لنفسه افلاس التجارة الفرنسية .

مكناساس :

كان مولاي اسماعيل شديد الولع بالبناء على غرار لويس الرابع عشر الذي يقال انه حاكاه بينما بدأت الأشغال في مكناساس مدة غير قصيرة قبل ان يبلغه خبر مفاتن فرساي . فالمملوك يقيمون الدليل على عظمتهم لرعاياهم وللتاريخ بما يشيدونه من المعالم . فقد تعلقتم هممة السلطان الشريف باقامة مدينة لاثقة بمقامه وهو الذي يكره فاس ومراكش بسبب تمردهما عليه . فاختر موقع مكناساس الرائع . وهو سهل ممتد بين نجاد خصبة يشقه نهر يكسبه الأخضرار واعتدال المناخ وهو إلى ذلك يتحكم في مسالك الأطلس المتوسط وزرهون ولم يخلق المدينة من عدم فمكناسة الزيتون التي تستمد اسمها من قبيلة مكناسة الزناتية لم يكن لها ماض يذكر .

وقد يكون المرابطون حصنوها ثم أساء الموحدون معاملتها اذ انتهت استمدت ثروتها من التجارة في القرن الثالث عشر . واقام بها بنو مرين قصبة ومسجدا (1276) وزاوية وفنادق ومدوا فيها قنوات المياه واقاموا جسورا ثم بنوا في أواسط القرن الرابع عشر المدرسة البوعنانية الجميلة ببابها ذي المصراعين المغلفين بالبرنز المنقوشين المخمرين وبقيتها المضلعة المشرفة على المدخل . وقد نوه ليون الافريقي في أول القرن السادس عشر ببساتينها ومروجها وتدفق مياهها ومناعة موقعها واهمية اسواقها غير ان الفضل في بعثها يرجع إلى مولاي اسماعيل .

وسخر الشريف لبنائها 2.000 من النصارى ، لا 25.000 كما قيل ، وحوالي ثلاثين ألفا من مساجين الحق العام والذين وقع اسرهم في صفوف المتمردين ومن العملة الذين كانت القبائل تسخرهم له ، ولاشك انه استعمل الشبان السود في السنة الثالثة من تكونهم .

وكانت معاملة الأسرى قاسية . فكانوا يقتادون كل يوم عند الفجر من دهايزهم ويوزعون على فرق يقود كل واحدة منها زنجي لا يخل عليهم بضرب السياط . فمنهم من يهدم الجدران العتيقة بواسطة « معول ثقيل جدا » ومنهم من يجمع ويدق بشدة بواسطة خشبتين « طينا مخلوطا بالحصى والكلس تماسك كلها لفرط تحريكها ورشها بالماء » . ثم يرفعون هذا الملاط لاستعماله في البناء وكان نقل هذه المواد يرهق أبدانهم والسلاليم تحز في اقدامهم ورجال الجرارات تدمي اكفهم - وكان بعض الأسرى المكلفين بأفران الكلس يموتون حرقا .

وكان الشريف لا يعرف شفقة ولا رحمة . فقد روى « مووات » انه صرع برصاصة رجلا من مقاطعة بريطانيا « توقف عن العمل ليسترجع النفس » ولنفس الغرض شك بضريبتين من رمحه عبدا آخر . وكان لا يرقق حتى بخدمه الخاص « فقد زار سنة 1696 احدى حضائره فخيّل إليه ان الأشغال تسير ببطء ، فأمر بجلب المكلف بقصر الملك حالا فصبّ عليه جام غضبه رغم انه من المقربين في بلاطه ومن المتمتعين بكامل ثقته والقائمين على شؤون قصوره ثم أمر بجلده خمسمائة سوط بعد ان اشبعه ضربا بنفسه » واعتبر في مرة أخرى ان عددا من الأجر ارهف مما يجب فكسّره على رأس المشرف على الحضيرة . وكان فضلا عن ذلك لا يتردد في أخذ المعول بين يديه لاعطاء المثال .

وكان بناء مكناس عمل عدد عديد من الناس خاضعين لمشيشة سيدهم . فكانت في النهاية أقرب إلى هيكل ضخم منه إلى عمل فني .

ولم يغيّر تغييرا بارزا في نظام مدينة مكناس القديمة . غير انه أمر ببناء عدة مساجد مثل مسجد باب بردين الكائن شمال المدينة وأمر كذلك بهدم المحي الجنوبي الذي كان يضايقه فيما كان يرمع بناءه

(حافظت ساحة الهديم على ذكرى هذا التهديم) وأذن ببناء حي لليهود (ملاح) وأصبح ربضا يقع غربي المدينة الاسلامية .

وكانت المدينة السلطانية بنيت جنوب المدينة القديمة وهي مدينة بنأتم معنى الكلمة دارت بها اسوار بعد اتمامها طولها 25 كيلو مترا . وقد أمر مولاي اسماعيل ببناء قصر كبير سماه الدار الكبيرة على انقاض القسبة المربنية والحي الذي هدمه . وكانت ثلاثة اسوار تحوط به في الشمال الشرقي . فالاول وهو اقلها علوا يحتوي على ابراج مربعة والثاني وهو متوسط الطول جعل مطافا للحرس اما الثالث وهو يفوقها علوا بكثير فهو يحمي الحريم . ولم تكن الجوانب الأخرى محوطة الا بجدار واحد . فكانت مدينة أكثر منها قصرا لم يبق منها الا آثار غير واضحة المعالم وان هي لم تخل من العظمة احيانا . وكانت البناية الرئيسية تتركب على حد قول الزياتي من عشرين جناحا « ابراجها المربعة الجميلة المغطاة بالقراميد الخضراء » تشرف على البراري . وعلى بعد قليل منها قامت متناظرة اربعة اجنحة كبيرة « وشيّد مسجدا عظيما هما مسجد الزهور ومسجد للاعودة .

ثم أمر مولاي اسماعيل بتخطيط حدائق عديدة في الجنوب الغربي من هذه المجموعة واحاطها بجدران وبنائات وفي جنوب هذه الحدائق شيّدت بعد ذلك مجموعة أخرى من القصور منها ما رُمّم في القرن التاسع عشر وأصبح يكون اليوم دار المخزن وأخيرا أقيمت غربي الدار الكبيرة مدينة الرياض المخصصة لكبار موظفي المخزن ، ولم يبق منها الا باب الخميس الرائع الذي تحيط بفتحته الشبيهة بحدوة الفرس ركنيات سوداء وإطار من الفسيفساء الخضراء ويعلوه لإفريز من الكتابات الدارجة السوداء ، وتأتي هذه الزخارف على أرضية من الآجر ويستند إلى هذا الباب بريجان بارزان أحدهما في حالة خراب .

وأضيف إلى هذه المجموعات الأربع فروع عديدة : فهذه قصبات تضم سرايا من الجيش الأسود وهذه مروج مترامية الاطراف صالحة للاستعراضات العسكرية أو هي مراعى لمواشي السلطان ، وهذه بركة فسيحة تذكر بالمرايا المائية في مرا كش « وتلك مخازن واصطبلات عديدة . وبقيت اليوم من هذا البناء الضخم العرصات والطاقت وأغلب الظن انه

كان يضم الاصطبلات الكبيرة ومخزنا للحبوب وكانت الاصطبلات تبدو لـ ب . بوسنو (P. Busnot) أجمل ما في القصر بصفين من الطاقات طولها ثلاثة ارباع فرسخ وبالقناة التي تزودهما . وكانت الجياد المقيدة من أرجلها الاربع في حلقتين بواسطة حبال من شعر يقوم عليها سواس مسلمون وغلمان نصارى . وعلاوة على هذه الاصطبلات كان للسلطان حظيرة للوحوش تنتظم فيها بأمر مضارعات هذه الأسود والذئاب (؟) مع الكلاب .

وكان الشريف لا يأنف من تشريف زواره المرموقين بجولة معه في املاكه فقد أعجب الانكليزي « جون وندوس » فيما رواه من خبر عن مهمة القائد البحري « ستيوارت » سنة 1720 بكثرة الفسيفساء ومنظر البنايات « التي جمعت بين الجمال والروعة والبساطة » ومستودعات الأسلحة والقباب ومقر محظيته او قبة الحضرة والسطح المشرف على الحدائق على طول يبلغ نصف ميل ومعامل السروج والاسلحة وخاصة البناية المقامة على دعائم رومانية جلبت من آثار ويلي . وقدم للزائرين اثناء هذه الجولة لمحة من الغلال والحلويات .

وآخر ما بناه الشريف كان باب منصور العليج النصراني الذي اسلم وأتمه ابنه . وهو اضخم باب في مكناس . وكانت الفسحة العظيمة التي هي على شكل حلوة فربس منكسرة تستند إلى بريجين بارزين مقامين على طاقات . وعلى كل جانب اقيمت اسطوانة عالية تحمل « ما بين فرجتين (trumeaux) موشوريتين (prismatiques) ان الشكل الغالب يظهر في شكل مشبكات ملتوية تبرز في نتوء على أرضية مسطحة خضراء مذهبة مغطاة بالفسيفساء المبرنقة . وتمتد على طول الافريز الأعلى كتابة عريضة جميلة بحروف دارجة سوداء يعلموها خط من اكتاف الشرفات . أما النسب فثقيلة، والمساحات مستعرضة (méplates) غير ان المجموع لا يخلو من جلال (ب . ب . ريكار) .

حكم الشريف :

ان هذه الارادة الفولاذية التي أظهرها مولاي اسماعيل في تحريره للبلاد وتشبيده لمكناس تجلت ايضا فيما توخاه من اساليب الحكم فقد

كان يقرر كل شيء بنفسه ، ولا يسمح بأية معارضة وليس له من التزام الا ما تمليه عليه مشيئته . وقارب في عهده ان يندمج المغرب الأقصى وبلاد المخزن لأن قبائل الأطلس الأعلى اعترفت في بعض الأحيان بان لها سيادة .

قال مولاي اسماعيل ردا على ملاحظة سفير لويس الرابع عشر « ان ملككم لويس يحكم بشرا اما انا فاني احكم أجلافا لذلك استعمل الارهاب للمحافظة على الأمن » فكانت اساليبه المحببة إليه لأشعار الناس بسلطته هي اغتصاب السلاح والجياد وتخريب مناطق كاملة بواسطة جنده وجعلها اثرا بعد عين وكذلك التقتيل الجماعي ، وبالتالي فقد كان دائما على أهبة التفاوض مع خصمه الذي غزاه وأخذه عند الحاجة في خدمته مثلما فعل مع الدلائيين وبقدر ما كان قاسيا عند القمع كان يعرف كيف يجنب الثورات باحكام مراقبة يقظة في المناطق المضطربة وذلك بواسطة قصبات تقيم فيها حاميات تتكوّن من 400 إلى 3.000 رجل تمونهم القبائل .

وكانت هذه القصبات عبارة عن مؤسسات مستقلة مقامة في اراض حرة لها مخزنها ومسجدها وهي في بعض الأحيان محاطة بسورين أصغرهما يضم إلى البنايات والآخر يستعمل ملجأ لأهالي المنطقة عند الحاجة - اما مسؤولية هدوء المنطقة فراجعة إلى رئيس المركز وهكذا ساد الأمن البلاد بصورة منقطعة النظير ولقد أكد الزباني انه « بإمكان يهودي او امرأة قطع المسافة الواقعة بين وجدة ووادي النون من دون أن يتجرأ أحد ويسألها من اين أتيا او الى أين يذهبان » .

وكان مولاي اسماعيل يستعين بالشرفاء لمغالبة مناوأة الأولياء المؤيدين من الاتراك وكان مثل الرشيد يختار من بينهم مستشاريه . وكان الولي الوحيد الذي حظي بثقة السلطان هو ولي وزان الذي سمّاه واليا عليها وهو إلى ذلك من الشرفه .

خلفاء مولاي اسماعيل :

كان المخزن هيكلا رهيبا يستمد سلطته من مولاي اسماعيل وحده . فما كساد ان ينتهي عهده حتى أذنت ثورات ابنائه ببداية انهياره . وكانت

الامبراطورية ثثن تحت وطأة هذا النظام القاسي فلما مات الشريف (1727) لم تلبث الاطارات التي زكرها بمشقة ان تلاشت. ذلك ان الاولياء والاتراك عادت لهم صولتهم من جديد ومضت القبائل تزود من السلاح والجياد شاقة عصا الطاعة . ورمى العبيد أرضاً بالآجر الذي كانوا يشقون بحمله فيما تبقى من حظائر البناء .

وانتصب العبيد خاصة أسيادا فعينوا أحد ابناء الشريف مولاي أحمد الذهبي لسخائه فسمح لهم بتقتيل الولاة الممارسين لمهامهم . ولكنهم ما لبثوا ان عوضوه بأخيه عبد الملك الذي سرعان ما خلعه أيضا حالما لاح لهم بخله الكبير ولأنه كان يبحث عمن يتحالف معه من عرب وبربر الأطلس الأوسط لمقاومتهم والتجأوا مرة أخرى إلى الذهبي ولكنه مات مريضا بعد بضعة أشهر (1729) .

عند ذلك كلفوا من يأتي من سبجلماسة بولد آخر لمولاي اسماعيل هو مولاي عبد الله ليتبوا الحكم ، غير أنه ما لبث ان اختلف مع أهل فاس ثم مع أوداية وأخيرا مع العبيد الذين مكنوه من تسليط قسوته على أوداية وفاس فلما خذلوه اضطر إلى ترك الحكم والفرار إلى جهة وادي نون (1735) وعوضه أخوه مولاي علي الأعرج ، وكان رجلا لطيفا ضعيف الشخصية عاجزا على حفظ النظام في بلد متداع ، فكان من السهل على مولاي عبد الله ان يرجع إلى الحكم ويستأثر من جديد بثقة الجند (1736) غير ان هذه الفترة الثانية من حكمه لم تدم طويلا اذ ان مظاهر جديدة من القسوة ألبت عليه حاشيته ، فلاذ بالفرار واعتصم ببلاد البربر ، ومنها قاد عدة هجمات ضد أخيه وخليفته سيدي محمد بن عريبة الذي لم يكن له أي نفوذ على أوداية ولا على العبيد الذين يدين لهم بعرشه ، وكانت الفوضى تزايد والمجاعة تعم البلاد وثار العبيد مرة أخرى وجربوا سلطانا آخر وهو مولاي المستضيء أحد ابناء مولاي اسماعيل . وكانت التجربة فاشلة هذه المرة أيضا ، ولما أعياهم الأمر نادوا بمولاي عبد الله (1740) فأظهر في أول الأمر شيئا من المرونة ولكن ما بالطبع لا يتخلف ، فخلع للمرة الثالثة والتجأ من جديد إلى البربر (1745) بينما تمكن أحمد الريفي باشا طنجة من حمل الناس على مبايعة مولاي زين العابدين سلطانا بمكناس ، وعجز السلطان الجديد عن دخول فاس التي أبت الاعتراف به ،

وسرعان ما تخلى عنه العبيد فأصبح مولاي عبد الله الذي كان دائما بالمرصاد سلطانا للمرة الرابعة (1745) فظهر السلطان المستضيء على مسرح الأحداث من جديد يؤيده أحمد الريفي ولكن مولاي عبد الله تمكن بعد عناء شديد من الانتصار عليهما الواحد بعد الآخر ثم استولى على مراکش حيث نصب ابنه محمدًا نائبًا للملك (1750) وعرف جنوب المغرب في عهد هذا الحاكم الحكيم المعتدل فترة من السلم النسبية بينما كان الشمال مسرحا للصراع بين العبيد وأوداية والبربر الذين كان مولاي عبد الله يقف منهم جميعا موقف التلاعب والتظاهر بالحياد . غير ان العبيد أرادوا سنة 1752 مبايعة ابن السلطان ملكا عوضا عن أبيه ولكن سيدي محمد رفض ذلك في إنشاء واستطاع مولاي عبد الله ان يمارس حكمًا مهلهلا إلى أن مات سنة 1757 .

ورغم الفوضى المزمنة فان النصارى لم ينقطعوا عن التجارة وواصلوا محادثاتهم فيما يخص فدية الأسرى . وأقصى الهولنديون وخاصة الانقليز شيئا فشيئا الفرنسيين عن الاسواق وكاد الانقليز ان يحتكر المبادلات في تطوان واقتسموا مع الهولنديين تجارة الاجواخ والكتان والتوابل المستحضرة من سلا وآسفي وكذلك تسويق الشمع العسلي وجلود المعز والنحاس في أكادير ، وكانت الاصواف المغربية يصدرها الانقليز صوب مرسيليا عن طريق ثرنة . وهكذا ما انفكت التجارة الفرنسية في تدهور ، غير انها ظلت في اواسط القرن الثامن عشر حسب ما ورد في أخبار ذلك العصر أهم مما كانت عليه في الأسكسلة الثلاث الاخرى لبلاد البربر ولئن تعذر على نحو ما فعل الانقليز إبرام معاهدة تجارية جديدة كان يعتزم ج. أ. ري وهو تاجر من مرسيليا يعمل في سلا فالسبب يرجع إلى لامبالاة حكومة لويس الخامس عشر . أمّا فدية الأسرى فقد كان الأمر أيسر ذلك ان مولاي عبد الله دفعه احتياجه للمال إلى بيع عدد كبير من العبيد الاسبان والهولنديين والانقليز والفرنسيين

سيدي محمد بن عبد الله (1757 — 1790) :

لقد أظهر العاهل الجديد مقدرته عندما كان نائبا عن أبيه في مراکش فكان تقيا ميالا إلى السلم والعدل للذين كان المغرب الأقصى في أشد الحاجة اليهما بعدما قاساه من اضطرابات طيلة ثلاثين سنة . فأقدم

على بذل مجهودات جبارة لارجاع شيء من التوازن إلى هذه البلاد التي اضطربت لإبرة بوصلتها . ولم يكن الأمر هينا إذ تضاعف مدخول الاداءات حتى في بلاد المخزن ، وعمت الفوضى صفوف الجيش بعد الثورات المتوالية وما استتبعتها من قمع ، ونزحت القبائل البربرية من الأطلس الأوسط نحو السهول فهددت بتجزئة البلاد إلى جزئين انطلاقا من الرباط .

وشرع سيدي محمد في العمل بصبر وأناة ، فوظف أداءات جديدة على الأسواق والمضاربات بعد أن أفتى فيها علماء فاس وفي نفس الوقت ضرب سكة جديدة ذات قيمة ، كما لم تفتش الجيش فأضاف إلى سلك العبيد الذين تناقص عددهم بسبب الثورات السالفة جموعا من الحرائن الآتين من الواحات ومن القبائل العربية المنتشرة في السهول بل أنه تمكن في بعض الأحيان من الاستعانة بالسكاتب البربرية ، ومن جهة أخرى فقد أذن بتحسين أهم المراكز الساحلية وإقامة مصاطب صالحة للمدفعية وتزويدها بالمدافع وحاول أخيرا من دون كبير جدوى على ما يظهر تكوين أسطول حربي ، غير أن قواته ظلت متواضعة وغير كافية . لذلك التجأ إلى الديبلوماسية مستغلا تارة ما يتمتع به من سمعة شريفة بقيت ذات وزن على كل حال ، وتارة أخرى ما ينخرق القبائل البربرية من خلافات داخلية ، فاتخذ لخدمته في هذا الغرض من البربر الموالين لدولته من أمكن لهم الوصول إلى نتائج لا يستهان بها نظرا إلى درايتهم الكبيرة بالوسط مثل المكاتب الزباني .

وبقيت الرقعة المتمردة متسعة جدا رغم كل تلك الجهود فقضى السلطان جزءا كبيرا من حكمه في إخماد الثورات والتصدي إلى توغل صنهاجة الزاحفة من الأطلس الأوسط نحو الغرب والشمال الغربي مثلما تنزلق الأرض في حركة بطيئة ولكنها ثابتة . وتوصل إلى وضع السهول الشمالية تحت سلطته (المغرب الأقصى الشرقي وجهات فاس ومكناس والغرب) وكذلك سهول الجنوب (حوض أم الربيع وتنسفت) غير أنه يش من السيطرة على الطريق الرابطة بين فاس ومراكش مباشرة عن طريق تادالا ومن ذلك الوقت إلى سنة 1912 اضطرت المحلات الشريفة إلى المرور من الرباط والدار البيضاء للذهاب من فاس ومكناس إلى مراكش ، أما الطريق الواصلة بين فاس وتافيلالت فكان استعمالها متعذرا أحيانا .

وكان سيدي محمد وهو التقي الورع على علم بواسطة الحجيج بانتشار الحركة الوهابية في الجزيرة العربية وتأيد عائلة آل سعود البدوية لها. وقد أعجب بصرامتها وكان يؤثر عنه قوله : « اني مالكي المذهب، وهابي العقيدة » ومضت به حماسته الدينية إلى الإذن بإتلاف الكتب المتساهلة في الدين حسب رأيه والمحللة لمذهب الاشعرية وتهديم بعض الزوايا مثل زاوية بوجاد .

وكان أيضا ملكا شغوفا بالبناء والتشييد ، فهو الذي أمر ببناء مدينة موقدور على أساس مثال هيأة المهندس المعماري الفرنسي « كورنو » أصيل افينون، وفي مراکش وهي مقامه المفضل أذن ببناء قصر سمّاه الدار البيضاء (وهو اليوم مستشفى) كما أذن بالقيام بترميمات عديدة ، وشيد أيضا قصرا آخر بمكناس أعطاه نفس الاسم (هو اليوم المدرسة الحربية للضباط المغاربة) يوجد جنوب ماتبقي من آثار وقصور مولاي اسماعيل . وأخيرا بنى في فاس مدرسة باب قيزة .

ورام أيضا مواصلة الفتوحات فأجبر البرتغاليين على إجلاء مزغسان آخر معقل لهم (1769) ولكنه فشل أمام مليّة رغم ما بذله من جهود .

وحاول على غرار ما قام به مولاي اسماعيل سلوك سياسة التقارب مع تركيا وفرنسا في آن واحد فأجرى معهما مفاوضات من دون قطع علاقاته مع الجزائر وتونس ، ولعلّه كان يأمل ان ينشأ خلاف بين الباب العالي والجزائريين فيتمكن بذلك من التدخل في الإيالة .

وقام ج. أ. ري (J. E. Rey) أصيل مرسيليا بدور مرموق في العلاقات بين المغرب وفرنسا فقد باع هذا التاجر المحنك والذي لاعهده ولا ميثاق خدماته إلى الدنمارك في أول الأمر ومكنه من احتكار السوق في آسفي وأكادير (1751) ثم حمل السلطان الشريفي على منحه شهادة تّهله للتفاوض مع الدول العظمى ظانا انه يستطيع المضاربة لدى الحكومة الفرنسية غير ان البلاط أساء استقباله. فقفّل راجعا إلى المغرب حيث كان مآله الإفلاس التام .

ولم تذهب هذه المبادرة سدى رغم انها لم تكن شريفة المقصد ذلك ان شوازل (Choiseul) كلف تاجرا آخر من مرسيليا يدعى

« سلفاً » باستئناف التفاوض على نفس الأساس وتوج هذا العمل بالمعاهدة التي أبرمها دي برنيون (De Brugnon) (سنة 1767) ، وعادت التجارة بذلك إلى سالف أمنها وتفتح الفرنسيون بامتيازات فيما يتعلق بنظام القمارق. ورجع القناصل إلى مناصبهم ولم يتمتعوا فقط بحقوقهم في التبجيل والتكريم بل أصبح في إمكانهم أن يكون في خدمتهم نفر من الأهالي لا يخضعون إلى الاداءات ولا إلى المحاكم المحلية . وكان الفضل الوحيد لهذه المعاهدة التي خدمت التجارة خدمات كبرى أنها أعادت لفرنسا سالف هيبتها . ولاشك أن الفرنسيين قوافدوا بكثرة على قصر سيدي محمد ولكن هذا الأمير الذكي المحب للعلماء والمتفتح على مستحدثات أوروبا كان أشد غيرة على مصالحه من أن يسمح للتجار الأجانب بالاثراء حسب أهوائهم . فشجع على التوالي آسفي ثم أكادير على حساب سلا ثم أسس موفدور وجعل منها السوق الكبرى للمغرب الأقصى والمتصدية لحركة التهريب على السواحل الجنوبية . وبذلك شرع في توخي سياسة اقتصادية هدفها جلب الأجانب نحو المواني وتنشيط المبادلات مما يضمن وحده تزويد الخزينة المتدهورة بإمكانيات جديدة غير أن التجار النصاري زهدوا في موفدور بسبب ما كان يسلطه عليهم أمناء القمارق من شديد المراقبة فلم تدخل الأموال المرتقبة . غير أن الميناء الجديد احتكر التجارة مع أقصى الجنوب لأنه أصبح منتهى القوافل وموطن جالية يهودية نشيطة في علاقاتها مع أهالي الجهة المواجهة للأطلس والسوس الذي قلت موارده بعد أن حرم من حركة موانيه القديمة فلم يعد منطلقاً للتمرد المهديد لسلطة المخزن . واحتفظت فرنسا وحدها إلى سنة 1795 بقنصلها في سلا بل في الرباط بينما اتخذت الدول الأخرى طنجة مقراً لقنصلها . وفشلت في تحقيق التوسع الذي كانت ترتجي الغرفة التجارية بمرسيليا تحقيقه في المغرب الأقصى غداة معاهدة 1767 وقنعت بنتائج أقل من المتواضعة .

مولاي اليزيد (1790 - 1792) :

خلف سيدي محمد ابنه مولاي اليزيد الذي لفت الانظار قبل أن يضطلع بالحكم . فهو الابن المحظوظ والفارس المغوار والكريم الشجاع والمجاهد في سبيل الله لذلك علا صيته وتنبأ له الناس بمستقبل زاهر ولكنه لم يعرف كيف يمتلك نفسه .

فلما عيّن فأيدا على قبيلة ثروان البربرية (جنوبي مكناس) سنة 1769 غرّقه شهرته وقبل أن يُبَايَع سلطانا . وعلم سيدي محمد بالأمر فلجأ اليزيد إلى مكان منيع إلى أن عفي عنه ، وأعاد فعلته مرتين في ظروف تكاد تكون متشابهة الأولى سنة 1771 والثانية سنة 1775 فأقصاه أبوه عن شؤون الدولة ولما عزم سنة 1784 على الخروج إلى تافيلالت أوفده إلى الحج للتخلص منه ، لكنه عاد قبل الأوان فأرسله سيدي محمد ثانية إلى البقاع المقدسة فحاول في القاهرة نهب بعثة الحجيج الرسمية فلما علم سيدي محمد بذلك أذن القافلة بتغيير طريقها غير أن اليزيد تعلل بأداء الحج مرّة ثالثة فالتحق بالجزيرة العربية وتمكّن من الاستيلاء على الهدايا المرسلة من السلطان إلى الشرفّة في اليمن : ثم عاد إلى القاهرة على رأس عصابة مسلحة والتحق بمدينة الجزائر عبر طرابلس وسعى إلى نيل عفو أبيه في الوقت الذي كان يقوم فيه بأعمال غريبة . فلم يظفر بغير المال فحجّ رابعة وكان في طريق العودة مرغوبا عنه حيثما مرّ ، وبذل مجهودا للالتحاق بالمغرب الأقصى لكنه فشل في خاتمة المطاف واعتصم بزواية سيدي عبد السلام بن مشيش المنيع الجوار حيث ظل ينتظر ساعة الحكم التي دقت بعد بضعة أشهر عندما توفي أبوه .

ومهما بدّا الأمر غريبا فإن اعتلاءه الحكم لم يستتبع صعوبات تذكر . غير أنه سرعان ما استفظعه الناس لأعماله التعسفية ونزواته الدموية التي كان اليهود والنصارى أول من ذاق ويلاتها من دون أن يبقى المسلمون في مأمن منها . بل إنه دخل في نزاع مع الأسبان بسبب إيقافه اعتباطا قنصلي اسبانيا بموقدور والعرائش وكذلك راهبين بطنجة فضرب حصارا على سبتة ولكنه عدل عن ذلك لأن علائم التمرد لاحت في الجنوب ، فقد نودي بأحد إخوته مولاي هشام سلطانا على مراكش واستولى أخ له آخر يدعى عبد الرحمن على تافيلالت . فتصدى مولاي اليزيد للأول واسترجع مراكش ولكنه صرع في ساحة القتال بينما كان متصديا لهجوم جديد قام به مولاي هشام (1792) .

مولاي سليمان (1792 - 1822) :

ان نار الفتنة في المغرب اشتعلت من جديد في عهد مولاي اليزيد على قصره . فما كان مولاي سليمان ليُبَايَع سلطانا على فاس وهو ابن

سيدي محمد المفضل بعد اليزيد حتى وجد امامه ثلاثة منافسين من إخوته وهم مولاي مسلمة في جهة الشمال الجبلية ومولاي هشام المؤيد من قبائل آسفي ومزغان المجاورة ثم بعد ذلك بقليل مولاي الحسين الذي استولى على مراکش وهاجم مولاي هشام .

وعالج مولاي سليمان الأمر بحكمة فابجه أولا إلى مولاي مسلمة وهو أقرب مناوئيه مكانا من دون ان يكثرث بالآخرين . فأدبه بعد جهد جهيد واستتب الأمن في شمال البلاد وعند ذلك جعل وجهته الجنوب الذي استنزفته الحروب القائمة بين الاخوين الدعيين . واستحوذ في آخر الأمر على مراکش سنة 1796 ومسك بفضل كل ذلك زمام الحكم في بلاد المخزن التي كان أبوه جمع شتاتها . بل إنه وسّع رقعتها شيئا ما بضمه درعة والفكيك وجزء من تادلا إليها . ووطد الأمن بها بتنظيم دوريات متتابعة للشرطة وتمكّن من استخلاص الضرائب بصورة تكاد تكون منتظمة .

ولكن الامور تغيرت ابتداء من سنة 1811 اذ اشتعلت نار الفتنة في الاطلس الاوسط بعد ان التفّت أغلب القبائل البربرية حول أحد رجالها وهو أبو بكر مهاوش ونازلت تحت قيادته جيوش السلطان المرسله لقمع الثورة وهزمتها .

ولم ينفك مولاي سليمان طيلة سنوات عديدة يوالي سعيه لحفظ الأمن ولكن بدون جدوى ثم انهزم شر هزيمة ، في تادلا حتى انه لم ينجح الا بجهد جهيد وذلك بفضل بربري بقي يكن للسلطان بعض الاحترام (1818) .

وتفاقمّت الامور في أواخر سنوات حكمه فترك لخلفه مولاي عبد الرحمن ابن أخيه بلادا منحدره من جديد إلى الفوضى .

وأذن مولاي سليمان ، الصّارم في تقواه مثل أبيه اثناء فترة حكمه الهادئة نسبيا ببناء عدّة مساجد مثل مسجد حي الرصيف في فاس كما أمر بترميم مبان جميلة قديمة من بيّسها مسجد الشّرّابليين والمدرسة البوعنانية بفاس ، وقد بنيا في العهد المريني ومن جهة أخرى فقد حافظ على علاقات طيبة مع اتراك الجزائر والدول الأوروبية حتى انه التزم سنة 1817 بإبطال القرضنة في المناطق التابعة له .

الخلاصة :

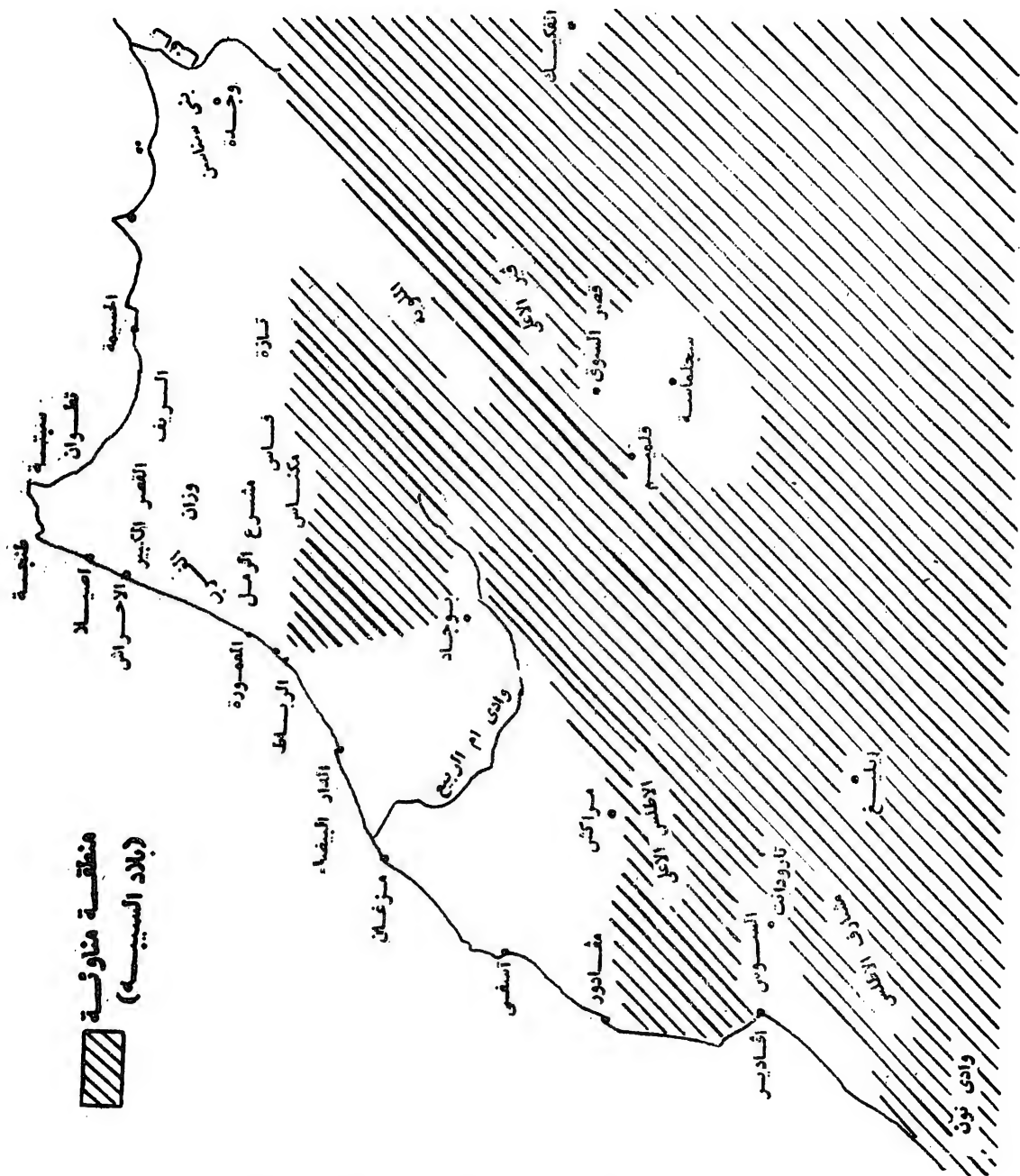
إلى هذا الحد تنتهي دراستنا للمغرب الأقصى الشريف الذي سيجابه ابتداء من عهد مولاي عبد الرحمن (1822 - 1859) مشاكل جديدة .

ان تاريخ الدول الشريفية يتمثل في انكماش ذاتي ازداد وضوحا على مرّ الأيام فقد أوشك المغرب الأقصى في القرن السادس عشر ان يُزجّ به في مغامرات أخرى بسبب البرتغاليين والاسبان الذين أظهروا جرأة كبيرة وكذلك بسبب الاتراك الذين حاولوا التمرّكز في البلاد . ولكنه قويّ على درء هذه الاخطار وضرب على أيدي الاتراك وكسر شوكة البرتغاليين في هجمتهم الاخيرة أثناء معركة الثلاثة ملوك وصفتى المستوطنات الاوروية شيئا فشيئا ماعدا سبعة ومليلة اللتين بقيتا إلى اليوم في أيدي الاسبان . ولم يكتف بالتصدي إلى محاولة الهيمنة السياسية بل مضى إلى الحد من مبادلاته التجارية مع الخارج بصورة فعالة . ويمكن القول ان المغرب الأقصى أصبح عند موت مولاي سليمان لا يشارك في اقتصاد عالم تطورت مبادلاته التجارية تطورا سريعا .

وكان في الإمكان ان تقتصر هذه الرغبة الملحة في العزلة بايجاد توازن داخلي مرضي . وفعلا ظهر السعديون حتى اوائل القرن السابع في مظهر الموحدين للبلاد وكانت البلاد قاطبة أو تكاد وراء المنصور في اعقاب وقعة الملوك الثلاثة واستقام له طيلة حكمه ابقاء البلاد متمتعة بنظام يكاد يكون مرضيا غير ان الاحداث أظهرت بعد ذلك ان قوى الانفصال والتفكك الكامنة انما كانت خامدة ولم يتمّ تذليلها . فلما مات المنصور تطاحن القوم من جديد جندا وقبائل بربرية ورجال دين وأهل حضر . ومن حقنا ان نتساءل هل أن فترتي الهدوء النسبي اللتين عرفتهما البلاد في عهد مولاي اسماعيل وسيدى محمد ليستا سوى مظهر للحال التي أصابت القوم . ومن ذلك الوقت وحتى سنة 1912 ظلت البلاد منقسمة إلى قسمين : بلاد المخزن الخاضعة إلى السلطان ما أخذ بناصية الأمور وبلاد السية المنقسمة على نفسها أيضا من جراء الحزازات القبلية والتمردة دوما على السلطان الذي لم يستوسق له الأمر في الرقعة الخاضعة له الا بتجواله المطّرد من مكان إلى مكان محفوقا بجيشه ومستخلصا للضرائب بقوة البنادق والمدافع . ولم يقو أي سلطان بل ربما لم يدر بخلد

أي واحد منهم ان يوفق بين هذه القوى المتنافرة إلى حد ذلك الوقت ولا ان يسعى إلى تجديد البلاد . وهكذا بقي المغرب الأقصى في عالم يتطور بسرعة وتتقارب أطرافه بفضل تحسن وسائل النقل وتزايد حجم المبادلات مجرد شتات من القبائل تضاعلت عندها الرابطة الدينية التي كانت الوحيدة الجامعة بينها . وبقي كذلك بلادا متشبثة بنظام اقتصادي مرّ عليه قرن بل عشرات القرون أي رقعة تزداد ابتعادا عن العصر كلما مرت السنون وموقعا جغرافيا على غاية من الاهمية لأنه ملتقى إفريقيا وأوروبا على طول طريقين بحريين أساسيين وهما طريق الساحل الغربي من القارة الافريقية وطريق البحر المتوسط . ولأنه يتصل من الجهة الشمالية بمضيق جبل طارق أحد ممرات الكرة الأرضية الرئيسية ولأنه يتمتع كذلك بثروات طبيعية عظيمة .

وكان لامفر من أن تثير الامبراطورية الشريفة اطماعا كثيرة وهي الضعيفة المتحجرة والكائنة في موقع جغرافي مغرر . وأصبح الوجود الفرنسي في الجزائر من المعطيات الجديدة لهذا المشكل الذي يتطلب حلا إن عاجلا أو آجلا .



شكل 25 - : المغرب الأقصى في اواسط القرن الثامن عشر



الباب السادس

- 1) - الحرب الصليبية الاسبانية والاخوة عروج وتأسيس الايالة الجزائرية .
- 2) - الدولة الجزائرية .
- 3) - الباي لاربايات ونهاية الدولة الزيانية والدولة الحفصية .
- 4) - العصر الذهبي للقرصنة الجزائرية والتونسية .
- 5) - بلاد الجزائر في عهد الدايات والبلاد التونسية في عهد الحسينين .

I - الحرب الصليبية الاسبانية والاخوة عروج وتأسيس الايالة الجزائرية

المغرب الأوسط في أواخر القرن الخامس عشر :

ساعد انحلال المغرب في أواخر القرن الخامس عشر على غزوه من طرف الاجانب فلقد تمركز البرتغاليون في ثغور المحيط الاطلنطي وانتصب الاسبان في حصون الساحل الجزائري والتونسي غير ان محاولاتهم باءت بالفشل أمام مبادرات الاتراك المنافسة لهم .

وأصبح شرقي المغرب وأوسطه بسبب هذه الفوضى المتفاقمة ضرباً من الفسيفساء السياسية التي يستشف الملاحظ تنوعها العجيب من دون ان يقدر على التدقيق في شأنها .

ففي إفريقية تعزى خلفاء أبي فارس العظيم عن عجزهم برعاية الأدباء والاهتمام بالفنون واليهم يرجع الفضل ولاشك في توسيع جامع الزيتونة بتونس وتغيير مدخله وزيادة رواقه الخارجي المرتفع ، غير أن البلاد أصبحت فريسة للقبايل العربية التي تدفقت سيولها العارمة حتى غمرت مرات كثيرة اسوار مدينة تونس ، ولئن افلتت جزيرة جربة من مراقبة البدو الرحل فان مدن الجريد والمواني لم تقدر على المحافظة على استقلالها الاّ بدفع الاتاوة ، واضطر السلطان الحفصي السجين في عاصمته تحت حماية جنده النصاري إلى الاحجام عن الخروج حتى جبل الرصاص (على بعد 28 كلم في الجنوب الشرقي وراء سهل المرناث) .

أما من تأخر من ملوك بني عبد الواد فانهم فرطوا في النفوذ بالمغرب الأوسط واستبقوا سلطتهم في تلمسان وغربي البلاد الجزائرية بعناء كبير وباتت تحت رحمة هجمات الاجانب بعد ان انهكتها خلافات البلاط واستترفتها مطامع الادعياء وجشع كبار الموظفين .

وفي مهب الاحداث المحلية انقسمت البلاد بين مملكتي بني حفص وبني عبد الواد إلى عدد لا يحصى من امارات وقبائل أو مجموعات

مستقلة ومناطق تحت نفوذ الاولياء وليست لها جميعا حدود واضحة . وان الذي ساعد على هذا التشتت هو التوغل العربي في الشرق من دون شك وربما الطريقة في الغرب ايضا . فقد اتحدت واحات الفكيك فكوّنت دولة مستقلة وساست قبائل الوانشريس أمرها كما عن لها وخضعت بلاد القبائل إلى ملك كوكو (وهي قرية آيت يحيى على بعد 8 كلم من غربي ميشلي ؟) وسيطر الشيخ الحفصي صاحب قسنطينة على الجهة الواقعة بين عنابة والقل في مأمن من تدخلات السلطان وأصبح الزاب والحضنة من نصيب العرب الدواودة . وفي توفرت تأسست دولة جديدة بسطت نفوذها على واحات وادي رير .

وأقامت المراسي من جربة إلى المغرب الأقصى انواعا من الجمهوريات أعدت العدة لممارسة القرصنة . فسلحت تونس وبنزرت وبجاية ومدينة الجزائر ووهران وحينئذ كل لحسابها سفنا شرعية تجوب البحر المتوسط . ولم يكن قراصنة القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر نهايين فقط على نحو ما أصبح عليه الاتراك فيما بعد بل مجاهدين في سبيل الله يقاومون النصارى لايفكرون في التجارة بالرقيق بقدر ما يهتمون بأسر الكفار ، مما جعل بجاية ترفع من مبلغ الفدية إلى حد أصبح معه من المتعذر أو يكاد الاقدام عليها .

ولم تخل القرصنة ولو كانت لتنوع دينية من انعكاس سيء على تجارة النصارى وأمنهم خاصة في أواخر القرن الخامس عشر حيث نشطت على يد المغاربة المطرودين من اسبانيا بصورة مهولة بينما تضاعل أمر القرصنة النصرانية رغم ضراوتها واندفاعها في البحث عن الجدافين على حساب العدو . فكانت الحاجة إلى إزالة مخاض القراصنة أقوى من الروح الصليبية وحافزا لتدخل الاسبان في المغرب .

أوائل الحرب الصليبية الافريقية :

لاشك ان بعضهم بالغوا في اعتبار الدوافع الدينية ذات أهمية كبرى في بدء الحرب الصليبية الافريقية وخاصة دراسات « برودل » (Braudel) التي أبرزت خصائصها بوضوح من دون ان ننكر طبعها ما كان يتحلى به فريدنازد الكاتوليكي من حماس ديني على الأقل ، في مراسلته الرسمية وما كان

لرجال الكنيسة من مسؤولية عظمى في تنظيم الحملات الأولى فالواقع ان المصالح المادية هي التي سرعان ما لعبت الدور الأول فلقد جعل ملك اسبانيا انتصار العقيدة مشروطا باغتيارات سياسية داخلية وخاصة خارجية ليست لها علاقة البتة بالدين ، وسلك الجند النصاري مسلك المرتزقة الذين لا يبحثون عن نجاتهم من النار بقدر ما تهمهم اللذة الرخيصة بالنهب والتقتيل .

وشجع الانحلال في بلاد المغرب المطامح الاسبانية فلاحظ أحد كتاب ملوك الكاثوليك المطلع على حقائق الأمور قائلا سنة 1594 « ان الحالة النفسية في كامل البلاد بلغت حدا من الانهيار يحمل على الاعتقاد ان الله ارادها في تناول « أصحاب الجلالة » والذي جعل المغرب الأوسط فريسة مغرية هو ما ابرم من اتفاقات مع البرتغال تمنع على اسبانيا التمرکز في المغرب الأقصى عدا مليلة التي اكتفت فعلا باحتلالها (1497) بعد الانتهاء من استرداد الاندلس (1492) وكان يمكن ان يتواصل هذا الموقف السلبى لو لم تبلور ثورة المغاربة سكان الجبال في مملكة غرناطة خطر الاسلام من جديد (1501) كما بين ذلك « بروديل » . وأصر المتعصبون على الاعتقاد بان يذا مغربية خفية تحيك الدسائس في حين ان الأمر لا يعدوان يكون مجرد انتفاضة شعب تحدته مواقف « كسمناس دي سيسنيروس » (Ximénés de Cisneros) المتطرفة ، اذ عرف الكردنال بحدة الطبع وتأجج العاطفة الدينية والمطامح الدنيوية فاستغل حماس الكاثوليك الديني وحملهم بجهد جهيد على نقل الحرب إلى الارض الافريقية حيث كان المورسكوس اللاجئون يوغرون الصدور على الاسبان وكان القوم يخشون اجتماع كلمة ملوك المغرب وملك السودان المصري . وحالفه النصر في أول الأمر ، ثم دخل الاسبان المعمة بعد ان هاجم قرصان المرسى الكبير لقننت (Alicante) وبلش (Elche) ومالقة في ربيع 1505 وأسلم المرسى الكبير أمره إلى أسطول اسباني بعد حصار دام شهرا ونصفا وهو أحسن مرفأ على الساحل الجزائري (9 سبتمبر - 23 أكتوبر 1505) فاستولى « بيدرو نافارو » (Pedro Navarro) الذي حذق القرصنة بعد فترة قضاها في مهاجمة السفن البربرية والنصرانية من دون ميز على حجز باديس (Pénon de Velez) الموجود في

منطقة المغرب الأقصى الخاضعة للتأثير الاسباني. (1508) وافتك وهران التي ربما سقطت بسبب خيانة خائن والتي اشرف فيها الكردنل على تقتيل 4.000 من الاعداء وأسر 8.000 من الرجال وتحويل مسجدين إلى كنيسيتين (ماي 1509) ثم استحوذ على بجاية بعد مقاومة رمزية (جانفي 1510) وأضاف في قائمة انتصاراته المغربية أخذه مدينة طرابلس عنوة (جويلية 1510) .

ولم تضعف هزيمة جربة (1511) من شأن الانتصارات الاسبانية إذ بقيت المراسي التي لم تعرف بعد الاحتلال خائفة من أن ينالها ما نال المرسى الكبير وهران وبجاية . وعرضت على التوالي تنس (قبيل سقوط وهران) ودلس وشرشال ومستغانم (ماي 1511) دفع الاتاة وسلمت الجزائر إلى بيدرو نفارو أحد الجزر الصغيرة الحامية لمرساها فأقام فيها حصنا وأصبحت لذلك الجزائر تبعد 300 متر فقط عن رمية مدافعه ، وسيطرت اسبانيا بعد بضع سنوات على أهم المراكز الساحلية التي منها يمكن الانطلاق لغزو المغرب الاوسط غير انها لم تحاول ذلك قط وليس من اليقين ان يكون كسيمناس نفسه قد فكر في الأمر .

الحصون والاحتلال المحدود :

لئن عدلت اسبانيا عن التوسع في الغزو رغم تفوق عدتها فلاش مسألة لإفريقيا كانت تحتل المرتبة الثانية في قائمة مشاغلها ، ذلك ان فرديناند الكاثوليكي ملك الارغون ولّى وجهته حيال البيريني وإيطاليا قبل كل شيء . ويرجع تدخله الحازم في فترة قصيرة (1509 - 1510) إلى ماركان على الشؤون الإيطالية من كساد وكان عليه دائما ان يقرأ حسابا لوضعية الخزينة التي ما كانت لتسمح بتدخلات لاغرم منها في العاجل . وهكذا لم تكن السياسة الافريقية مستقلة بذاتها منذ أول القرن السادس عشر ولا يمكن فهمها من دون ربطها بسياسة اسبانيا العامة كما فعل برودل .

واكتفى الاسبان منذ حكم فرديناند الكاثوليكي بنظام الاحتلال المحدود . فحولوا المراسي المحتلة إلى مراكز محصنة ذات جدران عظيمة تقيم فيها الحاميات وتركوا ما عداها إلى الاهالي بما فيها الضواحي ،

ووقعوا بالنسبة لافريقيا في نفس الاخطاء التي ارتكبوها في حرب غرناطة واقتصروا على مسك المواقع الاستراتيجية التي كانوا ينطلقون منها عندما تتيح الفرصة للقيام بغزواتهم في الارياف المجاورة .

وعاشت الحصون في حالة حصار طوال فترة الاحتلال الاسباني وكانت حياة الجنود شاقة جدا لأنهم كانوا لا يجدون دائما ما يسد الرمق ولا يتقاضون جراياتهم بانتظام . وكانوا في وهران المحظوظة يتموتون بفضل مغاربة مواليين لهم يخبرونهم بمواقع حيوانات القبائل الرحل في الاراضي المجاورة فينهبونها على ان وهران نفسها لم تكن في مأمن من خطر المجاعة ، وفيما عداها حيث كان التموين يأتي بالخصوص من البحر كان لعقدة الحصار نتائجها الرهيبة ، فقد كشف بحث رسمي أجري سنة 1540 بعناية ان الجنود « بلغ بهم اليأس مبلغا جعلهم يريدون ان يتحولوا إلى مغاربة » .

القرصان عروج في الجزائر :

ان تدخل الاتراك غير المنتظر لم يزد وضع الحصون تعفنا فحسب بل تسبب في فشل سياسة اسبانيا الافريقية ، إن الجزائر هي التي قامت ببادرة غيرت مجرى التاريخ الافريقي . ولا شيء كان يشير حينذاك بان مرسى القراصنة البربر والمورسك الصغير سيكون له شأن كبير ، وان ماضيه كان متواضعا فعلى انقاض ميناء ايكوز يوم الروماني الصغير الذي استوطنته قبيلة بني مزغنا البربرية أسس الأمير الزيري بلسكين في النصف الثاني من القرن العاشر المدينة التي استعارت اسمها من جزرها الصخرية الرابع ، ثم أصبحت فريسة لكل من فتحوا المغرب الأوسط فاحتلتها في القرن الرابع عشر قبيلة الثعالب العربية التي أظهر زعمائها مهارة في مداراتهم بني عبد الواد والحفصيين وبني مرين ، وكادت ان تصبح في القرن الخامس عشر عاصمة بني زيان ولكنها تخلصت من وصايتهم و « أقامت شبه جمهورية صغيرة مثل البلدية يسيروها جمع من الخاصة برعاية الثعالبه ووفق مصالحهم » (ج. ايفار) .

ولاحظ الرحالة العرب تزايد نشاط تجارة مدينة الجزائر من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر الا أنه أخذ في الضعف من دون شك بسبب

ماحدث من اضطرابات في القرون الموالية - وعلى كل فان الميناء كانت تتردد عليه من حين إلى آخر المراكب الاوربية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر وبفضله تضاعفت القرصنة وزاد توافد الموريسك المطرودين من اسبانيا بعد سقوط غرناطة (1492) على هذه المدينة في عدد سكانها الذي لم يتجاوز في منتصف القرن الخامس عشر العشرين الفا فأصبحت هذه الآلاف العديدة من اللاجئين سببا في تفاقم القرصنة بسبب ما كان يعتمل في نفوسهم من حقد شديد. وإنما وضع « بيدرو نفاو » المدينة تحت رحمة مدافع الحصن للتصدي للهجمات المستترفة لجهود الاسبان خاصة ، غير ان السكان تألموا من الشوكة الساكنة بقلوبهم إلى حد جعلهم يستنجدون بعروج القرصان التركي صاحب جيجلي منذ سنة 1514 .

ويظهر ان عروج واخوته (ويطلقون عليهم اسم بربروسة وهو في الواقع لقب خير الدين فقط) أبطال نحتهم التاريخ ليكونوا مادة لروايات ملحمية وكانوا اربعة أبناء لخزاف بمدلتى (ليسبوس القديمة) يدعون عروج وخير الدين والياس واسحاق وأظهروا منذ حداثة سنهم استعدادات عجيبة لممارسة القرصنة . ومات الياس اثناء القيام بهجمة واضطر عروج إلى أن يجدف في مراكب فرسان القديس يوحنا ، ولانعرف كيف تخلص من الاسر ولا لأي سبب غادر الارخبيل مع اخويه واختار البحر المتوسط العربي ميدانا لنشاطه وذاع صيته بين المسلمين من سنة 1504 إلى سنة 1510 لما اشتهر به من سطو على مراكب النصارى وخاصة الاسبانية منها وبفضل ما حققه من انقاذ لآلاف الموريسك ونقلهم إلى بلاد البربر ، ومنذئذ تقاطر عليه المغامرون الراغبون في الغنيمة بالمشات للانضمام إليه والخضوع لإمرته . فاستغل الأمير الحفصي ذلك بمهارة رغبة في الربح وذهب به الأمر إلى منحه رخصة للتمون في مراسيه واسناده حكم جزيرة جربة التي أصبحت قاعدة لعشرة أوائى عشر ممن مراكب عمارته .

وسرعان ما استصرخ المسلمون هؤلاء الابطال الاشداء وقد شعروا بما كان يهددهم من اخطار ، ففي سنة 1512 حاول عروج الاستحواذ على بجاية استجابة لنداء الوالي الحفصي المطرود ولكنه لم يستطع مواصلة

الحصار لأن قذيفة مدفعية قطعت له يده ، وعاود الكرة عامين بعد ذلك فأخفق من جديد وعند ذلك انثنى نحو جيجلي (1514) الكائنة في موقع مناسب لتتبع أطوار الصراع القائم بين بني عباس « سلاطين » القبائل و « سلاطين » كوكو ، ومكنه تدخله في الوقت المناسب لنصرة بني عباس من المدد والنصائح الغالية (1516) .

وأثار نعي فرديانند الكاثوليكي ضجة في الموالي المغربية المحتلة من الاسبان فاعتبر أهل مدينة الجزائر انفسهم في حل من عهودهم تجاه الملك الراحل ولكنهم كانوا أضعف من أن يتحرروا من ربطة الاسبان بأنفسهم فألحوا إلى شيخهم سليم التومي لاستصراخ عروج وسرعان ما أدرك عروج الغنم من هذه المغامرة فاحتل أولا شرشال التي كان يسيطر عليها مغامر تركي آخر ثم دخل مدينة الجزائر دخول الفاتحين .

وحسب أهل مدينة الجزائر انهم سيتخلصون من وطأة الحصن بسرعة غير أن مدافع الاتراك لم تتسل من القلعة فتهامس الناس وحيكت مؤامرة بين الثعالب والاسبان وأهل مدينة الجزائر للتخلص من القراصنة ، فقتلها عروج في المهد عندما أمر بخنق الشيخ سليم المزمع ارجاعه إلى الحكم ، ودفع بجنده إلى مبايعته سلطانا ، ورجع الأمن إلى نصابه بعد قتل البعض من المتمردين وسجن البعض الآخر وقطع الوعود للاعيان ، ولئن لم تظفر المدينة بمنقذ فقد مسك سيد بزماها (1516) .

لم يعر الاسبان احداث المغرب منذ خمس سنوات عناية تذكر بل ركزوا جهودهم في ايطاليا ضد لويس الثاني عشر لذلك لم يتمكن « بيدرو نفارو » من مواصلة مآثره ، فكان عليهم طيلة نصف قرن القيام بحملات موجهة نحو افريقيا للتخفيف من حدة الخطر التركي الذي تضرر منه الساحل الافريقي وانخرمت بسببه تجارتهم في البحر المتوسط غير أنهم لم ينجوا من جرائه سوى مرارة الخيبة من ذلك ان محاولة أولى قادها « دياقودي فيرا » للسيطرة على مدينة الجزائر باءت بالفشل الذريع (30 سبتمبر 1516) وتعلل عروج بموقف سلطان تنس الملتبس ليستحوذ على مليانة والمدينة وأخيرا تنس ، وعند ذلك استنجد به أهل تلمسان على ملكهم الذي كان رضى سنة 1511 بالهيمنة الاسبانية ، وسرعان

ماطرده عروج وانتصب حاكما بأمره في المشوار مكان من وعده بارجاعه إلى سالف سلطته ، وروي ان سبعين زيانيا هلكوا غرقا باذن منه ، وبني الملك الجديد الحصون واخضع بني اسناسن وفتح مفاوضات مع سلطان بني وطاس صاحب فاس غير ان انتصاره لم يدم طويلا ، اذ أن جيشا اسبانيا انضم إليه عدد من أهل البلاد قطع عليه اتصاله بمدينة الجزائر وقبضت على أخيه اسحاق الذي قتله العرب رغم التعهدات السابقة (جانفي 1518) وحاصره طيلة ستة أشهر جيش انطلق من وهران في المدينة أولا ثم في المشوار ، واضطر البطل الابتر إلى أن يقاتل صعبة قلة من الاتراك وتمكن من الفرار تحت جناح الليل غير ان القوم ادركوه قرب ريو دي سالادو وقتلوه هو وجماعته شر قتلة بعد مقاومة عنيفة (1518) .

ورغم ان مغامرة عروج العظيمة الشأن توقفت في الرابعة والاربعين من عمره فانه استطاع ان « يمتدّ مدينة الجزائر وبلاد البربر مكانة الدولة العظمى » كما لاحظ ذلك عن جدارة الراهب البندكتي الذي كان أسيرا في هذه المدينة من سنة 1577 إلى سنة 1581 ، فقد أدرك عروج بفضل نظرتة الثاقبة المعروفة عنه كيف كان يمكن ان تستفيد أقلية فعالة من الخلافات الموجودة بين الامارات المغربية وكيف كان يمكن بناء دولة اسلامية عتيدة على انقاضها وفي مأمن من هجمات النصارى ، وهكذا احتل المتيجة ووادي شلف ، وتيتري والظهرة والوانشريس وتلمسان وضعف النفوذ الزياني بدون رجعة ، ولو لم يواصل أخوه خير الدين عمله ويتمه في معظمه لكتب له الفضل الذريع .

خير الدين مؤسس الايالة الجزائرية :

ان للرجل الذي عهد إليه عروج بحكم الجزائر وعينه الاتراك خليفة له ، خصلتين اثنتين ، عزم حديد ودهاء سياسي صميم ، فهو الذي أطلق عليه معاصروه لقب بربروسة وهو المؤسس الحقيقي للايالة الجزائرية قبل ان ينظم الأسطول العثماني ويصبح أميرا للبحر وقائدا له . انه وجد نفسه في وضع لا يحسد عليه بعد الكارثة التي أصابت أخاه ، وكان أهل تنس وشرشال والجزائر والقبائل في كوكو الذي بقي على ولائه لصاحب تلمسان المخلوع يسعون جميعهم للافلات من قبضة القراصنة ، فألهمت خير الدين عبقريته بربط مصيره بمصير الامبراطورية

العثمانية ، ولو اعتمد على نفسه فقط لخرّ تحت ضربات اعدائه الكثيرين أما اذا دعم نفسه بالباب العالي فانه يحظى بمكانة مرموقة ويتمتع بسند عسكري ومالي من شأنه ان يعينه على تحقيق مطامحه الكبرى . لذلك لم يتوان في التعبير عن ولائه للسلطان سليم الذي منحه لقب باشا وعينه أمير الأمراء (باي لرباي) بل إن القسطنطينية مدّته بألفي رجل مجهزين بالمدافع ثم أوفدت إليه أربعة آلاف من المتطوعين يتمتعون بامتيازات الإنكشارية .

وبلغه هذا المدد في الوقت المناسب لمواجهة أخطار كبيرة ، من ذلك مؤامرة دبرها سكان مدينة الجزائر وعدد من القبائل أغرقها في الدماء ، وهجمة اسبانية جديدة بقيادة هيثو دي مونكدا كان مآلها الخسران الفادح (1519) غير ان خيانة جند كوكوفي ساحة الوغى مكنت الجيش الحفصي من الانتصار عليه في بلاد القبائل بل اضطرته إلى التخلي عن الجزائر والاعتصام بجيجلي حيث استأنف من جديد حياة القرصنة (1520 - 1525) .

ولم يتخل رغم كل ذلك عن السعي لبلوغ غاياته فما أن أسعفه الحظ بتجيش الجيوش من جديد وملء خزينته بالاموال حتى استولى على القل (1521) وعنابة (1522) وقسنطينة واستعان بعد ذلك بسلطان بني عباس لطرده قبائل الكوكو من الجزائر وقد ساءت سمعتهم بين الناس واحتل المتيجة (1525) وتبين للاهالي من خلال قمع بعض الثورات في بلاد القبائل والحضنة وشرشال وتنس وقسنطينة ان سيدهم الجديد لاتعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا

ولمّا بقي الحصن سيفاً مسلولا على مدينة الجزائر عزم خير الدين على مهاجمته بكل حزم ، فظل يقذفه بالمدافع طيلة ثلاثة أسابيع بدون هوادة ممّا اضطر قائده « مارتين دي فرقاس » إلى الاستسلام بعد ان يش من النجدة ولم يبق له سوى خمسة وعشرين رجلا من بين مائة وخمسين وجلب حتى مات يوم 27 ماي 1529 ، وأسرع خير الدين في تفويض أسوار الحصن .

وكانت الجزائر حينذاك مرسى متواضعا تتناثر فيه الصخور وتعصف به الرياح ممّا كان يضطر القراصنة إلى ارساء مراكبهم في شاطئ باب الواد الواقع على بعد ميل غربي المدينة . فأذن خير الدين

ببناء مكسر للأمواج طوله 200 متر وعرضه 25 مترا وعلوه اربعة امتار وربط به المدينة بالجزر بواسطة ممشى واستخدم لذلك الأسرى النصارى واستعمل بقايا الحصن وآثار ماتيفو (روسقوني) (Rusgunioë) وهكذا أنشئ ميناء الجزائر ، ورغم انه وقعت حمايته بعد ذلك من الناحية الجنوبية الشرقية بمكسر للأمواج جديد (المكسر الأكبر) فقد بقي ملجأ لايفي بالحاجة تماما ، معرضا إلى الزواجع التي تثيرها الرياح الشرقية والشمالية الغربية غير ان موضعه بين قنال صقلية والمدخل الغربي للبحر المتوسط يخول له « مراقبة الطرق المفضية مباشرة إلى جبل طارق نحو شرقي البحر المتوسط وإلى جنوبي اسبانيا في اتجاه جنوب إيطاليا أو صقلية وكذلك التصدي لمن تحدّثه نفسه باستعمالها » (لاسبس) ممّا جعل الاتراك يتخذون من هذا الميناء الحربي الذي يمتاز بموقعه أكثر مما يمتاز بمرسأه قاعدة محصنة وملجأ لأسطولهم ، ولما احتل الاسبان بجاية ووهران منعوا فيها القرصنة وفسح المجال لجزائر خير الدين ان تحتكر القرصنة في المغرب الاوسط .

غزو تونس :

لما أصبح خير الدين سيّد الجزائر اراد ان يضمن لنفسه حرية التحرك في الساحل الشرقي ، فاستغل ما كان يشكوه البلاط الحفصي من حزازات وما أظهره السكان من غضب تجاه السلطان مولاي الحسن فسعى إلى الهجوم على تونس بتأييد من الباب العالي فدخل الاتراك بنزرت وقبولوا بالترحاب ثم حلق الوادي حيث أوهموا السكان بأنهم انما جاؤوا لنصرة منافس الحسن الحفصي ثم دخلوا تونس العاصمة بعد معركة قصيرة (18 أوت 1534) ، وأعلن خير الدين بعد نهب المدينة عن زوال ملك الحفصيين ونادى في الناس بالامان ثم ركز حامية بالقيروان وجلب إلى حوزته المدن الساحلية من دون كبير عناء ، بل انه توصل إلى كسب مساندة بعض القبائل العتيبة بجنوبي قسنطينة .

وكان نشاط القرصنة الذي تزعمه الاتراك بتونس يهدد مباشرة البابا والامراء الايطاليين ، وصادف ان حدث ذلك في فترة قوية فيها الروح الصليبية باوروبا ولاحت بوادر تهديد الفرس ممّا وجه عناية القسطنطينية نحو الشرق ، ووعده فرانسوا الاول ملك فرنسا الذي تخلى عنه خلفاؤه ،

بالحياد فيما اذا هجم شارل الخامس على البرابرة وكان الامبراطور مترددا لا يعرف هل يوجه جهوده تجاه تونس ام الجزائر، ولعل نداءات السلطان المخلوع مولاي الحسن وخاصة الرغبة في عزل الجزائر عن القسطنطينية هما اللذان دفعاه إلى الهجوم على عاصمة الحفصيين فأرسل اسطوله المتكون من 400 مركب شرعبي والحامل لـ 30.000 رجل بقرطاج دون عناء يذكر ، ثم افتك الاسبان خلق الوادي (14 جويلية 1535) وبعد ستة ايام دخلوا تونس حيث كسر الأسرى النصارى الذين أبى خير الدين تقتيلهم أصفادهم واستولوا على القصبه .

غير ان هذا النصر الذي أثار حمية النصارى لم يحل أي مشكل. ذلك ان شارل الخامس كان عازما أكثر من فرديناند الكاثوليكي على الا يغامر فيحتل بلاد البربر فاقصر على اقامة قلعة في حلق الوادي وارجاع مولاي الحسن إلى عرشه من دون ان تكون له أية ثقة في المستقبل وكان أول المعترفين بان السلطان الحفصي « كان مبعوضا من رعاياه » وقد أصبح بعد المذبحة العظيمة التي صاحبت رجوعه « عرضة أكثر من ذي قبل للاحتقار وبات نفوذه معدوما تماما » ، وما كان لحماية تمثل قرارها الاول في فرض ملك على بلاد بالرغم عنها ان يكتب لها الدوام بدون اعتماد على جيوش كثيرة ، بينما اقتصر الامبراطور على تركيز بعض الفصائل في حلق الوادي تاركا لمولاي الحسن زمام الامور للنجاة بنفسه .

ولم يرض خير الدين بفشله بعد ان اضطر إلى اللواذ بعنابة حيث أرسى اسطوله ، فانقض فجأة على ماهون (Mahon) وافتك ستة آلاف من الاسرى وغنم غنائم كبرى ، وكانت آخر عملية بطولية قام بها بوصفه قائدا للقراصنة الجزائريين ذلك ان السلطان سليمان الذي سماه سنة 1533 قبطان باشا (اميرا على البحر) استقدمه إلى القسطنطينية ليقود العمليات ضد شارل الخامس وحلفائه ، وكان خير الدين محل ثقة السلطان وصديق السفراء الفرنسيين الذين كان يؤيد سياستهم وكان يتمتع بصيت كبير بفضل ما حققه من انتصارات باهرة واحتفظ بحظوة كبيرة في القسطنطينية إلى أن وافاه الأجل في 4 جويلية 1546 .

2 - الدولة الجزائرية

الوجع :

مكّن خيرالدين دولة « الجزائريين » كما كان من المتعارف ان يدعى به أتراك الجزائر ، من تنظيم عسكري في أساسه لم يطرأ عليه تغيير كبير حتى الغزو الفرنسي . وكان الجند الإنكشاري (الوجع) مثلما هو الشأن بالقسطنطينية محظوظا كثير التهويش واسع التأثير في سير الشؤون العامة . وكان المجندون من بين رعاع الاناضول فما ان تقذف بهم مراكب الباب العالي في المرفأ حتى يتخلصوا في مدينة الجزائر من ثيابهم الرثة ويصبحوا « اسيدا لاميعين عظماء » . وبعد ان عينت هذه الارستقراطية قوادها بواسطة الانتخاب نظمت صفوفها حسب مقاييس قارة أساسها المساواة وعند ذلك أصبح الإنكشاري البسيط يرتقي في سلم الدرجات العسكرية بفضل الاقدمية إلى أن يصل إلى رتبة آغا ثم يتخلى عنها بعد شهرين ليصبح آغا شرفيا (منصولاغة) وكان هذا الحرس ينقسم إلى عدة سرايا (أورقة) متفاوتة العدد تسكن ثكنات حسنة الترتيب وتتجمع في غرف تأوي بين اثني عشر وعشرين رجلا ، وكانت السرية تحافظ محافظة تامة على قدرها الكبيرة البرنزية وتجتمع حولها للأكل او المناقشة ، واذا ما ثار الإنكشارية فانهم يقبلون القدر وتعالى اصواتهم بنداات الحرب (استميز) .

وكان لباسهم العسكري يحتوي على طرطورة من القماش الصوفي الملون ذات طرفين تطوى وتنزل على الرقبة ويرجع اصلها إلى أحد الدراويش الاثراك ويعلمو هذه الطرطورة اما غلاف من الخشب او قرن مذهب أورياش - كما تحتوي على ياقة مفتوحة ذات أكمام وسراويل من كتان تشدها شملة .

واستعمل الوجع اثناء فترة الباي لرباي الطبنجات والسهام إلى جانب الاسلحة النارية والسيوف المستوية ذات المقبض الواحد أو المقبضين والسيوف العريضة (صفائح) والخناجر . وكان الإنكشارية يتمتعون بحظوة خاصة فيعطون الخبز واللحم والزيت وجانباً من غنائم القرصنة ويتقاضون كذلك مرتباً . وكانوا يعفون من الضرائب . فقد كانت الحكومة توظف على المواد الغذائية بعد درس دقيق لتكاليف انتاجها ضريبتين احدهما رمزية لفائدة الإنكشارية وذويهم والثانية تشمل غيرهم من الشارين ويدخل فيها ربح البائع — وكانت تقاليد الوجع تنظم كل مظاهر حياتهم بما في ذلك العقوبات اذ كان الإنكشارية لا يخضعون إلى السلط القضائية العادية بل يرجعون بالنظر إلى ضباطهم الذين من حقهم ان يحكموا عليهم بالسجن او الجلد او الاعدام الذي ينفذ في نطاق السريسة .

وكان الإنكشارية يمثلون المشاة فحسب اذ يتدب الخيالة (الصبايحية) من بين قدماء الآغوات أو الاهالي وكانوا مشهورين بشجاعتهم يؤلفون بينهم عصبية قوية غير انها اتصفت بالعنجهية وعدم الانضباط وسرعان ما خلط ديوانها المكلف بالدفاع عنها بين مصالح افرادها الخاصة ومصالح الدولة فلم يعد يكفي بايجاد ثلة من اعضائه يمثلونه لدى ديوان الباشا حيث ينظر في شؤون الدولة ويحكم بين الناس بل حاول أكثر من مرة الاستيلاء على الحكم ، ولم يوجه ضرباته ضد الباي لارباي بل تأمر كذلك على طائفة الرؤساء المناهضة لهم والمؤيدة له .

طائفة الرؤساء :

كان خير الدين واخوته قد كونوا مجموعات من البحارة ودربوهم على القرصنة وجعلوا من مدينة الجزائر أخطر المواني في مجال القرصنة ، وأسندت اليهم القسطنطينية في نطاق محاربة الكفار أمر منطقة غربي البحر المتوسط ، فكانوا يوجهون ضرباتهم بالخصوص ضد اسبانيا عدوة الاسلام في بلاد المغرب منذ القدم وكانت سياط القائم على الجدافين الأسرى تلهب حماسهم فيدفعون بالغليونات (galiote) إلى الامام تجديفا حتى لا تكشف اشرعتها عن وجودها ، وبذلك يتمكن مسلمة النصارى والمغاربة من النزول فجأة بسواحل إسبانيا الشرقية فينهبون

القرى ويأسرون سكانها ، ولم تستطع أبراج المراقبة التي شيدت ولا لجان الرعاية التي بعثت ان تحيط حيل القراصنة ، أمّا الامبراطور الذي اثقلت كاهله الشكاوى وتهاطلت عليه اللوائح فانه أعقد على رعاياه كلمات المواساة والتشجيع من دون ان ينجدهم بالفعل ، ممّا حمل سكان السواحل على مغادرة هذه المناطق البحرية غير الآمنة ..

وكان القراصنة الذين لم يرفقوا ؛ بذلك بسواحل سردانية وصقلية ونابولي يهددون المواصلات البحرية بين الممتلكات الامبراطورية الاسبانية والاطالنية فيصعدون إلى المراكب ويختطفون البحارة ويستولون على البضائع ، وكان الفرنسيون والجزائريون يعملون باتفاق على ضمان سيطرتهم على غربي البحر المتوسط لافساد خطة الامبراطورية الاسبانية — ولو لم يسعف شارل الخامس باعانة غير منتظرة تمثلت في انضمام اسطول « اندري دور يا الجنوبي » لكان يمكن ان ينجح التحالف بين الملك المغربي في تعلقه بالنصرانية وبين القراصنة المسلمين — وعلى كمل فان نشاط القرصنة ألحق بعض الضرر بتجارة مواني اسبانيا الشرقية وأثرى مدينة الجزائر بما ضمنه لها من غنائم . وبذلك تحول الجهاد العقائدي إلى حرب غايتها التكالب على الغنائم .

ولم يقدر النصارى على تنظيم صفوفهم لمواجهة هذه الحرب فقد قال هيبندو : « كان القراصنة في الشتاء والربيع يشقون عباب البحر من المشرق إلى المغرب ساخرين من سفننا الشراعية التي كان بحارتها يقضون اوقاتهم في اللهو والقصف بالمواني — وكانوا على يقين من ان السفن الشراعية النصرانية البطيئة الحركة أيما بطء والمثقلة متاعا أيما ثقل عاجزة عند مواجهتها لجليوناتهم التي بلغت حدا كبيرا من اتقان التوديك وخفة الحركة عن مطاردتها ومنعها من النهب والسلب كما طاب لها . بل انهم تعودوا الاستهزاء منها وتغيير وجهتهم فجأة حسب هواهم وحتى مواجهتهم بمؤخرة مراكبهم » . ويرجع تفوق الجزائريين لا الى ملائمة سفنهم ومراكبهم الشراعية مع حرب القرصنة فحسب بل إلى تدريب الجدافين وانضباطهم الصارم واعترف كذلك هذا الراهب البندكتي نسيخ قائلا : « لقد بلغ تمسكهم بالنظام والنظافة وتهيئة مراكبهم حدا جعلهم لا يفكرون في غير ذلك وكانوا حريصين خاصة على اتقان

عملية رصف البضائع لمزيد القدرة على الانسحاب والمراوغة . واخيرا ولنفس الغرض كان ممنوعا على أيهم وان كان ابن الباشا نفسه ان يغير مكانه او يتحرك من بقعته » .

وكان لا يوجد في طائفة الرؤساء رفاق خير الدين واخوته ودرغوث وسانن سوى أقلية من الاتراك او الاهالي . ذلك ان معظم اعضائها متكون من مسلمة النصارى المنحدرين من المقاطعات الفقيرة الكائنة على ضفاف البحر المتوسط والممارسين للقرصنة والاصوصية مثل اخوانهم في جهة كلابر وجزيرتي صقلية وكورسيكا ، وسرعان ما أدر كوا بعد وقوعهم في الاسر من طرف الغليونات الجزائرية ان مجتمع القراصنة لا يخلو من امتيازات محسوسة بالنسبة لما كانوا عليه في مسقط رأسهم اذا ما دفعوا بردتهم ثمنا لذلك ، فأصبحوا كما سماهم هيدو « اتراكا بحكم المهنة » وكانوا يمدون الطائفة بمعلومات مضبوطة حول « الاراضي والشواطئ النصراية » التي كانوا يعرفونها حق المعرفة وكانوا بالجهاد المقدس أقل تعلقا منهم بجمع الغنائم . على ان رؤسائهم فرضوا عليهم في عهد الباي لرباي الامثال لأوامر السلطان بفضل ما كان لهم من نفوذ فأبلىوا البلاء الحسن في المعارك التي شنها الأسطول العثماني على الكفار ، وكان للرؤساء في عام 1558 خمس وثلاثون سفينة شرعية وخمسة وعشرون مركبا شرعيا او حراقة وعدد كبير من المراكب المعدة للقرصنة .

وكان القراصنة يتمتعون في مدينة الجزائر بسمعة كبرى ، كتب هيدو عنهم قائلا « نعم الفرحة مدينة الجزائر كلما عادوا اليها ذلك ان التجار يشترون العبيد والبضائع التي جلبوها ويبيعونها كل ما خزناه في مغازاتهم من ملابس ومؤن وينهمك الجميع في الشرب والأكل والمتعة » .

وكان الإنكشارية يحسدون القراصنة الذين كانوا بدورهم يحقدونهم ويسمونهم ثيران الأناضول ويساندون الباي لرباي في امتناعهم من الاستجابة إلى طلباتهم ، غير ان الرؤساء اضطروا إلى التنازل لفائدة الوجود وقبول عدد منهم في بحارتهم (1568) مما ساهم في تقهقر القرصنة رغم ما بذله الرؤساء من مجهود للحد من عددهم .

جزائر القراصنة :

لما أصبحت الجزائر مدينة القراصنة اضطرت إلى التسلح للقيام بالهجمات والتحصن لمواجهة ردود فعل الاساطيل المعادية ، فكانت بذلك دار صناعة ومرسى يلجأ إليه ، واعتبرت ابتداء من عهد الباي لرباي قاعدة حربية تحوط بها مرا كز محصنة لدراء الهجمات البحرية وقد زيد في عددها زيادة ملحوظة بعد حملة شارل الخامس (1541) وقبل هجوم دون خوان النمساوي على تونس (1573) ، وتمت حماية الجهة المواجهة للبحر من الجزيرة باقامة مأمن كما بُني برجان في موقع الحصن القديم وفي طرف رصيف مكسر الامواج الكبير . وشيّد عروج في مكان يعلو بقليل القصبة البربرية القديمة قصبة جديدة لم يتم بناؤها الا سنة 1590 وأعاد خير الدين وخلفاؤه بناء سور المدينة ونحن نعلم بفضل هيبو الذي كان يشبه مدينة الجزائر بقاذوف تكون الجهة المواجهة للبحر بمثابة الجبل فيه ، ان اسوارها التي بلغ ارتفاعها من 11 إلى 13 مترا وطولها حوالي 2.500 متر كانت مبنية من لبنات مشدودة بعضها إلى بعض بملاط قوي ومقامة على قاعدة من باطون (Béton) . غير ان البناء المواجه للبحر نفسه كان اضعف من ان يصمد امام كل الاخطار رغم سماكته وعلوه ؛ لذلك عمد القوم إلى حماية السور بواسطة خندق يتراوح عمقه بين ستة وثمانية امتار وعرضه من 11 مترا إلى 14 مترا ونصفا وعززوه بأبراج مربعة الشكل وبريجات قليلة البروز . اما مكسر الامواج الذي بناه خير الدين ودار الصناعة بالمصيدة (La Pêcherie) فقد كان يحميها بناءان عظيمان ومن شرفات المأمن وكواه كانت تنطلق طلقات البنادق وقذائف المدافع .

وكان للمدينة خمسة أبواب رئيسية : الباب الجديد بالجنوب الغربي من المدينة ويوجد في أسفل القصبة وباب عزون جنوبا وهو أعظم الأبواب شأنا ومنه يدخل القادمون من الارياف ويربط بينه وبين باب الواد طريق تجارية طويلة وباب الجزيرة او باب الجهاد المفتوح على مكسر الامواج الكبير ومنه يمر الرؤساء وأخيرا باب السمك او المصيدة او الديوانسة واليه يتجه القادمون من الميناء .

ويوجد خارج الأسوار عدد من الحصون المكملة للتحصينات المواجهة للبحر فمنها برج علج علي الذي يعرف ببرج اربع وعشرون ساعة ويحمي شاطئ باب الواد (1568 - 1569) وحصن النجمة الذي بني بعيدا عن البحر في مكان أعلى من القصبة (1568) وبرج السلطان قلاصي المفتوح على الجنوب والمشيّد في موقع معسكر شارل الخامس وكانت كل هذه الابراج بمثابة الدرع على أطراف المدينة.



شكل 26 - مدينة الجزائر في عهد الاتراك

وغصت المساحة الصغيرة الباقية داخل الأسوار بالدور البيضاء ذات السطوح المدرّجة والتي برز جزء من بنائها بواسطة عوارض من الخشب واشرف على الأنهج الضيقة حتى التقى في بعض الأحيان بالبناء المواجه

وأصبح بذلك سقفا من الأعواد او من عقود القباب ذات الحروف ، ولم يشيد الرؤساء منازلهم الفخمة في أسفل المدينة الا في أواخر القرن السادس عشر . فلم تغير هذه الميئات الجديدة المظهر الخارجي للمدينة التي بقيت مدينة مغربية رغم ان معظم اهلها لم يكونوا مغاربة وان شكل بعض الدور الفخمة من الداخل لم يكن مغربيا كذلك فقد كان يوجد حوالي سنة 1582 على حد قول هيلدو مائة مسجد وكنيسة وزاوية لم يبق منها اليوم أي أثر » فكانت قاعات للصلاة متوازية البلاطات مغطاة بسطوح من القرميد ذات السفحين « (ج . مارسي) .

سكان الجزائر :

اننا اذا اعتمدنا حسب لاسبس (Lespés) التعداد الذي قام به هيلدو قدرنا ان الـ 12.200 مسكن الموجودة في عهد الباي لرباي كانت تاوي أكثر من 60.000 ساكن من دون ان نضع في حسابنا الـ 25.000 من الأسرى النصاري الذين كان عدد كبير منهم مقيما بالضواحي وكان نصف المساكن تقريبا على ملك مسلمة النصاري الذين يمثلون مع العشرة آلاف مشرقي أغلبية السكان الساحقة . وقد حشر هيلدو تحت عنوان المغاربة 6.000 من الموريسك الهاربين من الأندلس او غرناطة (المدجنون) أو بلنسية او الارغون أو قطلونية (أهل تاجرا) و 3.500 من القبائل وعددا غير مضبوط من العرب ربما بلغ 3000 أي في الجملة ما يقارب 25.000 ساكن على الأقل وكان حوالي 5.000 من اليهود تغص بهم حارتهم

وكان الكراغلة وهم المنحدرون من آباء اترك ونساء من الاهالي يشاركون في الشؤون العامة . ومنهم ابن خير الدين حسن باشا الذي عين باي لارباي اما المغاربة فقد حرموا من هذه الخطوة واعفوا من الخدمة العسكرية ، وانفردوا بالصناعات المحلية وتعاطوا أحيانا الفلاحة وساهم اثرياؤهم في تمويل السفن الشراعية وأخذوا قسطهم من ارباح القرصنة ، واستخدم « القبائلية » في الأعمال اليدوية اليومية ولم يتخلصوا من الوصاية الثقيلة المسلطة عليهم . واحتكر بنو مزاب الحمامات ودكاكين القصابية وطواحين المدينة ، كما اهتموا كذلك بنشاط القوافل وتجارة العبيد السود . وكان اصيلو بسكرة سقائين و « خنادقية » وأعوان شرطة

وخاصة حمالين يعيشون في أكواخ من التبن بضاحية باب عزون او يلتحفون السماء . أما حازة اليهود المختلطة فقد سكنها عدد قليل من اليهود الافارقة الشبهيين بالبؤساء من الاهالي وعدد كبير من المهاجرين الوافدين في أواخر القرن الثامن من الجزائر الشرقية (Les îles Baléares) (شكليين) ثم بعد قرن وخاصة بعد سنة 1492 من اسبانيا ، ويمثل الكبوسيون (1331) الخاضعون خضوعا كليا لسلطة أبحارهم الارستقراطية الفكرية والتجارية وهم فعلا المؤسسون الحقيقيون للحركة اليهودية بالجزائر وأذن خير الدين لليهود بالاستيطان في الايالة مع تحديد عدد دكاكينهم ، غير انهم لئن تمتعوا سريعا بمكانة مرموقة في العمليات التجارية وخاصة في تصريف الغنائم التي لاتروج على عين المكان فقد ظالموا عرضة لإهانات الاهالي الآخرين واضطروا إلى حمل زي خاص بهم ودفع الجزية . ومثل الاوربيين بعض التجار وعدد كبير من الأسرى ولم تعر ماينة الجزائر التجارة كبير أهمية بينما أسس بها عدد من تجار البحر المتوسط وخاصة من مرسيليا (قبل 1550) محلات تجارية ، واستخدم ملك فرنسا الحريص على مراقبة نشاط رعاياه نفوذه لدى الباي لارباي لتعيين قنصل بالجزائر ابتداء من سنة 1564 غير ان الباب العالي استعمل كل ما لديه من سلطة معنوية لوضع حد لمعارضة الجزائريين ولم يتم ذلك الا في سنة 1580 وتمكن الانقليز بعد مرور خمس سنوات من تعيين ممثل لهم لكن من دون ان يتمتع بامتيازات القنصل ، واحتوت الجزائر كذلك على خلق كثير من الأسرى بلغ عددهم حوالي 25.000 في عهد هيبدو حيث كان الرؤساء يجلبونهم بالمئات إلى سوق بادستان .

وبلغ عدد اللغات المختلفة نفس عدد الاجناس تقريبا . وكانت التركية هي اللغة الرسمية لغة الارستقراطية العسكرية والبحرية اذ يؤول الأمر بكل من اعتنق الاسلام إلى التكلم بها . واحتفظت اللهجة العربية الدارجة بمنزلة مرموقة اذ لم يقتصر استعمالها على البلديين واللاجئين من اسبانيا بل كانت ايضا اللغة الوحيدة التي تفهمها القبائل المجاورة . ولم يذكر هيبدو شيئا عن اللغة البربرية غير انه من حقا ان نؤكد ان لهجات القبائلية والمزابية كانت مستعملة على الأقل في عدد من الاحياء وداخل منازل كثيرة نظرا إلى ما يذكره هيبدو نفسه من استيطان عدد كبير من

القبائلية ضحية عائلاتهم ، وأخيرا كان جانب من العبيد وبعض التجار الاوربيين ونفر ممن اعتنقوا الاسلام حديثا يتكلمون « اللغة الفرنقاوية » (Langue Franca) لغة المعاملات وهي خليط من العربية والاسبانية والتركية والايطالية ولغة البروفانس وكذلك بعض الكلمات البرتغالية بعد واقعة الملوك الثلاثة اذ وفد على الجزائر فجأة عدد كبير من العبيد البرتغاليين الذين باعهم المنصور .

ويظهر ان الحياة في مدينة الجزائر على عهد الباي لارباي كانت تنسم بالرخاء اذ كثرت المواد الغذائية وانخفضت اثمانها غير ان المجاعة والطاعون كانا يفتكان في بعض الاحيان بالناس فتكا . فقد أكد هيبو انه مات جوعا في شهر واحد وفي شوارع المدينة 5.656 مغريبا او عربيا (17 جانفي - 17 فيفري 1580) وان وباء فتاكاً ذهب بثلاث السكان في ظرف عامين (1572 - 1574) ، وكان من الحتمي فتح الأبواب امام تيار الوافدين الجارف المتواصل لتلافي هذا النقص .

حكومة الباي لارباي :

كان الباي لاربايات المعينون من طرف السلطان يحكمون الايالة مباشرة وبواسطة خلفائهم ، غير مقيدين بوجهة نظر الديوان ويمارسون نفوذهم على باشوات تونس وطرابلس ويتصرفون تصرف « ملوك الجزائر » حقا كما سماهم هيبو ، وظلوا على ولائهم التام للباب العالي ينفذون تعليمات أمير المؤمنين على مضض احيانا . من ذلك اعطاؤهم حوالي سنة 1650 ورغم معارضة الجزائريين « لطوماس لاش » وهو « كورسيكي » مقيم في مرسيليا لزمة صيد المرجان فيما بين رأس رو وبجاية مما يعدّ بادرة فيما يسمي بلزمات افريقيا وكذلك حق تأسيس مركز غير محصن في برج فرنسا الكائن على بعد عشر كيلو مترات غربي القالة .

وكان الباي لاربايات يقيمون بالجزائر في الجنيّة الكائنة وسط دار السلطان وهي مجموعة كبرى من البناءات « وتحتوي على ساحتين الثانية أصغر من الأولى وتتوسطها بركة مربعة الشكل وحفصة كبيرة تكسبها روعة، ويوجد في إحدى الزوايا مدرج خشبي كبير يفضي إلى رواق طويل ارضه مفروشة بالجليز ومحاطة باعمدة من الرخام وتدفق المياه عالية

وسط فسقية مثمثة الاضلاع ويجلس الباشا على أريكته القليلة العلو في اقصى الرواق (ج. مرسى) .

ولم يكتف الباشوات باثراء عاصمتهم بواسطة القرصنة بل استغلوا خيرات بلاد الجزائر كلما توسعوا في غزوها . وساعدتهم على ذلك القوضى السائدة في البلاد حينذاك فقط بل كذلك وحدة المعتقد بينهم وبين الأهالي ومن دون شك نشاط الزوايا ايضا. ولم يقتصروا خاصة على احتلال السواحل بل أسسوا حاميات في المدن التي تحتل مواقع استراتيجية واستهدف تنظيمهم امتصاص خيرات الاهالي بتوظيف الاداءات عليهم معتمدين على قبائل المخزن المحدثه ابتداء من 1563 وتوجيه « المحلات » لنهب البلاد . اما الذهب الذي لا يرسله الباشا إلى السلطان استبقاء لحظوته لديه فإنه يملأ به خزائنه الخاصة .

وسرعان ما أدراك الباي لاربايات ان الخطر الذي يهدد حكمهم لا يأتي من رعاياهم بل من الإنكشارية . لذلك حاولوا انشاء جيش لا يقل عنهم اقدا ما لكنه أشد اخلاصا إليهم منهم واختاروا عناصره من بين مستجدي القبائل وخاصة قبيلة زواوة وربما فكروا في انشاء امبراطورية بحرية تقتضي تظافر جميع قوى الايالة ، غير ان الباب العالي بايعاز من الإنكشارية حال دون ذلك خوفا من ان تساعد مثل هذه القوة على بعث دولة مستقلة ومنافسة له ، على ان الاتراك الذين تعلقوا بحكم اتصالاتهم مع الاوروبيين بنظريات سياسية مجهولة من الدول المغربية أثروا تأثيرا عميقا في إرساء اركان الدول البربرية ، ذلك ان الاتراك احلوا فكرة الحدود المضبوطة محل التخوم غير الدقيقة التي قنع بها القوم إلى ذلك العهد فكانوا المتسببين الرئيسيين في التمييز الذي تم في القرن السادس عشر بين البلاد الجزائرية والبلاد التونسية اللتين يرجع تسميتهما إلى عهد ملوكية جويلية فقط . وبلاد المغرب الأقصى ، وحارب الباي لا رباي في نفس الوقت الأشراف المغاربة لتخوفهم من قوتهم والاسبان المتمركزين بالحصون والساعين إلى الاعتماد على دولتي تلمسان وتونس الموالتين للجزائر والمناهضتين للاتراك .

3 - الباي لاربايات ونهاية الدولة الزيانية والدولة الحفصية

صراع الباي لارباي ضدّ الاسبان والأشراف (1536 - 1568) :

عندما عزم خير الدين علي السفر إلى القسطنطينية اذاب عنه خليفته حسن آغا (1536 - 1543) الذي تميزت مدته بمحاولة شارل الخامس الاستيلاء على مدينة الجزائر (1541) ذلك ان الأمبراطور أراد تسديد الضربة الحاسمة للقضاء على مكنم الرؤساء بعد ان ضمن لنفسه من جديد حياذ ملك فرنسا ، ودبر الأمر حتى لايفاجئه الاسطول العثماني فانتظر الخريف للاقترب من مصب الحراش بأسطوله المتكوّن من 516 مركب شراعي تحمل على متنها 12.330 بحار و 24.000 جندي (23 أكتوبر) واستطاع الجيش الوصول إلى الرّبيّ المشرفة على المدينة غير ان توالي الزوابع وتهاطل الأمطار الغزيرة ادخل عليه الاضطراب فسهل على العدو دحره وتمكن الهاربون من الجند بعد تقهقر مضن دام ثلاثة ايام تحت حماية فرسان مالطة من الالتحاق بالاسطول في رأس ماتيفو وقد أتلقت العاصفة 140 من مراكبه وعدل شارل الخامس بإشارة من قائد اسطوله عن محاولة القيام بهجوم ثان وأذن لفلول جيشه باللواذ بالسفن (3 نوفمبر) وغنم الجزائريون غنائم كبرى واعتبروا أقوى من أن تُكسّر شوكتهم رغم أن العتاصر الطبيعية هي السبب الحقيقي في انتصارهم .

وكان من نتائج انتصار الاتراك ان انضمّ اليهم مولاي محمد ملك تلمسان وسلمهم المشوار بعد خروجه عن الولاء للإسبان . فكانت الفرصة سانحة لاثارة حميّة النصارى ودفعهم إلى ردّ الفعل ، وسرعان ما بوأ والي وهران الكونت الكودات للحكم عبد الله وهو اخ صغير للملك ودخل تلمسان على رأس فرقة من الجيش ونصبه ملكاً عليها (6 فيفري 1543) ورجع بعناء إلى قاعدته بينما بايع أهل تلمسان ملكهم السابق . وهكذا

كان القشل نصيب هذه الطريقة التي تعتمد القيام بالهجمات داخل البلاد من دون تمركز دائم .

وربما غاب خير الدين على حسن آغا ضعفه اثناء حصار الجزائر فترع عنه بعض ثقتة طيلة أشهر ثم عوّضه بابنه حسن باشا (1544 - 1552) الذي وجه جهوده خاصة نحو غزبي الایالة - واضطر الإنكشارية إلى التخلي عن تلمسان التي دخل ملكها تحت حماية الاسبان (1547) وانجدوا قاعدة مستغانم المحاصرة من طرف الكونت الكوديت . فاغنم محمد المهدي الشريف المنتصر على بني وطّاس سلبية الأتراك لاحتلال عاصمة بني زيان التي كان له فيها عيون وانصار (1551) اما ابنه فقد تشجع بهذا الانتصار الأول فاستولى على مستغانم وواصل زحفه متخطيا وادي شلف . ولم يحرك الاسبان ساكنا لان المشاكل الاوروبية الشائكة اقعدتهم عن ذلك بينما رد حسن باشا الفعل بقوة بعد ان خلف أباه على الحكم (1546) فتوجه الجيش التركي بقيادة حسن كورسو الجديد العهد بالاسلام وبدعم من القبائل المقيمة غربي البلاد والمناهضة للسيطرة المغربية فاسترجع مستغانم وباد الجيش الشريف وواصل زحفه حتى بلغ الملوية ثم دخل تلمسان وأبى حسن كورسو ارجاع الملك الزياني الموالي للاسبان إلى عرشه فاقر حامية تركية ونصب واليا تركيا . وأذن هذا الاحتلال المتواصل لعاصمة المغرب الكبرى بنهاية نشاط الاسبان في الاراضي الوهرانية . وتمكن القائد المنتصر بفضل مصادره من املك سكان تلمسان الذين رفضوا المهادنة من تقديم هدية ممتازة لصالح رايس الباي لارباي الجديد بمناسبة تقلده الحكم خلفا لحسن باشا وقد تم هذا التعيين بفضل اعانة سفير فرنسا بالقسطنطينية .

وقد ذاع صيت صالح رايس منذ كان يعمل إلى جانب خير الدين وتحمل قيادة الأسطول العثماني وعرف بالشدة والاقدام وتواصل نفسه في القتال وأجبر حاكمي توفرت وورقلة على دفع الاتاوة ، اما في بلاد القبائل فانه لم يقدر على اخضاع بني عباس الذين تمردوا عليه بعد ان أعانوه على غزو الجنوب ولكنه استمال اعداءهم بالكوكو وجعل منهم خياله في حربه بالمغرب الأقصى ، ولما رشع القوم أبا الحسن الوطاسي اتخذ من ذلك ذريعة للتدخل ضد الشريف واضطره في تازة (ديسمبر 1553)

إلى الهروب وحاول من دون جدوى استبقاء فاس تحت السلطة الاسمية للسلطان لان ثورة الأهالي أجبرته على التسليم بمبايعة بوحسون - وأمكن على كل حال الاستيلاء لفائدة الاتراك على قلعة حجر باديس (1554) . ومنها كان يحيى رايس المقدم يعيث فسادا في سواحل الجزيرة بأسره لاربعة آلاف نفر (1558 - 1562) ثم استولى صالح رايس على قاعدة بجاية التي لم ينجدها نائب ملك نابولي في الوقت المناسب (1555) ولما تهدد فيليب الثاني الإفلاس وعجز عن القيام بحملة هدا من روع رعاياه واتخذ من والي بجاية المسكين كبش الفداء فأمر بقتله ، غير انه لم يفد وهران في شيء عندما استسلمت بدورها إلى الاتراك (1556) ولعل وفاة صالح رايس واستقدام السفن الشراعية الجزائرية للدفاع عن البوسفور وتراجع حسن كورسو بعد ذلك أنقذ جميعها الحصن الغربي الهام الذي لم يتصل بأية نجدة ..

وتسببت وفاة صالح رايس الفجائية في نشوب الصراع بين الوجود والطائفة ، لذا منع الإنكشارية الباي لارباي تاكرلي الذي عينته القسطنطينية من دخول مدينة الجزائر وطلبوا بتعيين حسن كورسو ، غير ان مؤامرة الرؤساء سمحت للتاكرلي باقتحام المدينة والظفر بحسن كورسو الذي طال احتضاره مدة ثلاثة أيام مخوَّزاً (*) على باب عزون ولكن الوجود قتل الباشا بعد ذلك بقليل .

وقرر السلطان في آخر الأمر نظرا إلى الفوضى المستفحلة في الايالة إلى الالتجاء إلى الحسن ابن خير الدين (جوان 1555) وتعكر الوضع في الغرب حيث كان الجيش الشريفي المسيطر على تلمسان يحاصر الحامية الصغيرة المتمركزة بالمشوار وتمكن الباي لارباي من الهجوم على المغرب بعد اغتيال محمد المهدي من طرف الجند الاتراك الفارين والفن الناتجة عن تنازع الحكم الا انه اضطر إلى الالتجاء إلى البحر من دون ان يدخل فاس وذلك بسبب هجوم الاسبان من الخلف ، وقد يكون هذا الانسحاب السريع رفع من معنويات الكونت الكوديت الذي كانت تبخرت آماله في الحيلولة دون احتلال الاتراك للمرتفعات الوهرانية بعد سقوط مملكة تلمسان

* الحازوق : عمود طويل محدد الرأس يدخل في دبر المجرم فيموت عليه .

المالية له وحسب ان احتلال مستغانم يقطع عنهم أهم قاعدة يرسي فيها اسطولهم . وكان قد فشل في ذلك مرتين (1541 - 1547) وآلت الحملة الثالثة إلى كارثة ، إذ فوجيء غوغاء جنده المغزورين وطوقوا وهاك الوالي وقتل أكثر من 10.000 من جيشه او سيقوا إلى الأسر (اوت 1558) ولم يسترجع الاسبان هيبتهم بعد هذه الواقعة فظلوا منذ ذلك الوقت تابعين لمدينة وهران وقاعدة مرسى الكبير .

وبينما كان حسن باشا يتهيأ لمقاومة الشريف اذ بالوجع يغضب لعمليات التجنيد التي كان يقوم بها حسن باشا في بلاد القبائل فيقبض عليه ويبعث به مقيداً إلى القسطنطينية بتهمة السعي إلى الاستقلال (جوان 1561) ولم تَمُضْ على حُكْم الباشا الذي خلفه فترة وجيزة حتى أمر بقتل المتمردين الأكثر تورطاً وارجع الباب العالي حسن باشا إلى منصبه كباي لارباي (1562) فلم يلبث ان استأنف تحقيق مشاريعه السابقة وضرب الحصار على وهران ومرسى الكبير ، غير أن المقاومة الاسبانية صمدت الوقت الكافي حتى انجدها اسطول دوريا واضطر الاتراك إلى الرجوع إلى الجزائر بعد ان تكبدوا خسائر فادحة (3 افريل - 7 جوان 1653) وبينما كان حسن باشا يعد العدة للأخذ بثأره اذ بالسلطان يستقدمه من الجزائر ليساهم اولاً في حصار مالطة (1665) وليقود بعد ذلك الأسطول العثماني بلقب قبطان باشا (اوائل 1567) فترك الإيالة للباشا محمد بن صالح ريس الذي صرف همه إلى مواجهة ما تركه الطاعون والمجاعة اللصوصية من آثار أشخنت في الجزائر وهو الذي رخص للانكشارية بالانضمام إلى البحارة ليخفف من حدة الخصومات الموجودة بين الوجع والرؤساء وما كاد ينتهي من فرض النفوذ التركي على قسنطينة حتى عين باشا في مكان آخر وعوض بالباي لارباي عالج علي (مارس 1568) .

علاج علي ونهاية دولة الخفصيين :

ربما كان الباي لارباي عالج علي مع خير الدين أعظم رجالات الحكم التركي فقد اختطف منذ حداثة سنه بسواحل كلابر واحتقره الجدافون لِقَرَعِ برأسه قيل إنه لم يرض بالدخول في الاسلام الا ليثار لنفسه من تركي ضربه . وسرعان ما أصبح قائما على الجدافين (Comite) فمارس القرصنة لفائده الخاصة وبرز بالخصوص اثناء حصار مالطة

تحت إمرة حسن ابن خير الدين ودرغوث ونسب النصارى كآبته إلى تحسره على الخروج من دينه أكثر من مرضه . وأكد سفير فرنسا الذي عاشره بالقسطنطينية أنه كان يقوم بالطقوس النصرانية سرا وأن الانكشارية بالجزائر شكوا في خلوص عقيدته الإسلامية وعلى كل فإن العروض التي قدمها له فيليب الثاني بايعاز من الباب العالي لم تلق منه أذنا صاغية .

وكان الباي لارباي الجديد على معرفة تامة بالايالة اذ سبق أن ولي على تلمسان وقاد المقاومة ضد الاسبان وصرف همه أولا إلى تدعيم ثورات الموريستك بغرناطة ضد اضطهاد النصارى ولكنه لاقى صعوبات في مد الثوار بالرجال والذخيرة فهزموا هزيمة منكرة غير انه نجح في جهوده الرامية إلى تخليص تونس من الحماية الاسبانية وازالة الدولة الحفصية .

وما أن رحل شارل الخامس عن المملكة التونسية حتى رجعت إليها الفوضى . ذلك ان مولاي الحسن الذي آل به الأمر إلى محاربة شعبه الرافض لسلطته ومقاومة ابنه الساعي إلى أخذ مكانه لم يبق في الملك الا بدعم من الاسبان - ولو لم يتدخل « دوريا » لمّا رجعت إلى حوزته قلبية وسوسة وصفاقس والمنستير (1540) غير ان الجنوب التونسي بقي خارجا عن نفوذه بل بلغ به الأمر إلى ان تخلت عنه جيوشه اثناء حملة ضد القيروان التي أصبحت حينذاك عاصمة للامارة الدينية للعرب الشايبة فلم يجد بدا من التماس المدد (1542) في اوروبا وهزمه رغم ذلك ابنه مولاي حميدة (أحمد سلطان) وأخذته اسيرا وسمل له عينيه . ثم افتك تونس من أحد الادعياء الحفصيين باعانة من النصارى وأخذ يناور بين الاسبان والأتراك ، ولاحظ « بروديل » في وثائق شانت مانكش (Cimancas) انه امضى معاهدات كثيرة مع والي حلق الوادي وشار « مونشيكور » إلى العروض التي قدمها الباب العالي سنة 1552 قصد الاحتفاظ لنفسه بحلق الوادي والمهدية و « مده بالجيوش الكفيلة باسترجاع اراضيه الخارجة على سلطته » كما كتب إليه في هذا المعنى سنان باشا .

وفي هذه الآونة جدد الرايس درغوث على سواحل بلاد البربر الشرقية مغامرات خير الدين وقد ذكرت حيلته « مونشيكور » بحذق أو ليس وخدعته (الم يشرح فيكتور بيرار الاوديسة مستعينا بأخبار القراصنة ؟) . غير انه

بعد ان جعل من المهديّة مركزاً لقيادته العامّة ومنها كان ينطلق ليعيث في الساحل الايطالي فساداً ، لم يمنع الاسبان من الاستيلاء على القاعدة (سبتمبر 1550) ونخاب في محاولته الاستحواذ على قفصة . ولم ينج من سفن « دوريا » التي منعت عليه قنال جربة الا بخدعة جريئة (افريل 1551) ولما « نخاب امل قائد القراصنة في بيع امارة له بسرتا الصغرى ... لم يبق له الا التخلي عن استقلال أصبح خطيراً عليه والرضا بحماية الباب العالي » (مونشيكور) .

وتمكن السلطان منذئذ من صرف نشاطه على السواحل الافريقية طيلة خمسة اعوام — (جوان 1551 — افريل 1556) واستطاع درغوٲ رغم اقصائه عن خطة قبطان باشا بسبب عداوة الوزير الأكبر رستم له ان يتحصل من السلطان سليمان على ولاية طرابلس . ولما عادت له صولته في الاراضي الافريقية قاوم إلى أن وافاه الاجل أمام مالطة (1565) المشايخ الخارجين عنه بجربة وضواحي طرابلس ودخل قفصة دخول الفاتحين (20 ديسمبر 1556) واطرد الشايبة من وسط البلاد التونسية واحتل القيروان في 3 جانفي 1558 — ولم تمض سنتان حتى أصبح درغوٲ صاحب سيرتا و « قوة يقرأ لها الحساب » في البحر المتوسط .

ولما بلغت اسبانيا المرحلة الحاسمة من كفاحها ضد فرنسا عدلت عن الاهتمام بوضع حد لتوسع درغوٲ وكذلك الجزائريين غير ان معاهدة كانوكمبريزيس (Cateau Cambresis) التي تعد بحق منعرجاً في تاريخ أوروبا ازاحت عنها عبء همومها العاجلة (1559) وطراً تحول في سياستها الافريقية ، اذ بوأ الخطر التركي البلاد التونسية المكانة الأولى بوصفها تمثل كما لاحظ « بروديل » إلى جانب مالطة وصقلية ونابولي الحدود الاسبانية التي تفصل غربي البحر المتوسط الخاضع لسيطرة الملك الكاثوليكي عن شرقيه الواقع تحت نفوذ السلطان — أما المعارك التي دارت رحاها في مناطق أخرى من بلاد البربر سواء امام المرسى الكبير (1563) وحول حصن بلش (Velez) (1564) فقد كانت ظرفية محدودة في الزمن ، وظل فيلب الثاني مركزاً اهتمامه دائماً على حلق الوادي . غير ان اسبانيا منيت بهزيمة نكراء (1557) فتعذر عليها تحقيق حلمها في التوسع .

وربما سمح الملك الكاثوليكي لفرسان مالطة ونائب الملك بنابولي بالهجوم على جربة ومحاربة درغووث أخذا بخاطر البابا الذي اغدق عليه المنح ، وابتحر أسطول الدوق « دي مدينة دي كايلى » على غرار أسطول شارل الخامس في فصل الخريف حيث كانت السفن الشراعية التركية راسية في جليبولي (1559) واحتل أمير البحر الجزيرة من دون كبير عناء ولكنه أضاع وقتا ثميناً في جعلها قاعدة للهجوم على طرابلس - فلما غادر مرساه داهمه أسطول بيالى باشا ودرغووث فأغرق له ثلاثين سفينة وأسّر خمسة آلاف من رجاله (15 مارس 1560) وأبديت حامية جربة النصرانية عن آخرها بعد قتال عنيف ورصفت عظام القتلى في شكل هرم عرف بهرج الروس الذي ظل ماثلاً للعيان إلى سنة 1846 .

وتواصل الصراع بين الملك المسيحي والسلطان على الحدود الفاصلة بين جوشي البحر المتوسط ، ولعل حصار الاتراك لمالطة كان رد فعل على هجوم جربة ، ولاشك ان اثنين من رؤساء افريقيا درغووث وعلج علي كان لهما في ذلك ضلع كبير (1565) وأخيرا عاد باي لا رباي الجزائر إلى سنية خير الدين فنقل الحرب إلى مدينة تونس . ولم يجد أية صعوبة وهو يزحف نحو الشرق لدحر فرق قليلة العدد من جند الحفصيين وطرد حميدة الذي لاذ بالاسبان (1569) ثم قفل راجعا إلى الجزائر بعد ان نصب القائد رمضان حاكما على تونس وتفرغ إلى إعادة تنظيم أسطول بلاط البربر - ثم استقدمه السلطان بينما كان يعد العدة لتوجيه حملة على حلق الوادي .

ذلك ان اخطارا جلتى كانت تهدد الأمبراطورية العثمانية - فقد تحالفت اسبانيا مع البابا والبندقية لمقاومة تركيا نتيجة ظهور موجة التعصب الكاثوليكي من جديد بعد حرب غرناطة الثانية (1569 - 1570) ومساعي بيوس الخامس وفشل الملك الكاثوليكي في توجيه المعارك تجاه إفريقيا وانتهك قواه في ما كان يقوم به من محاولات في المشرق . وكانت معركة « لبيان » على الأقل فرصة لانتصار المتحالفين وهي المعركة التي ابلت فيها عالج علي البلاء الحسن ونال فيها لقب قبطان باشا (9 أكتوبر 1571) وما ان استتبع تخلي البندقية نهاية الحلف (1573) حتى عاودت اسبانيا الكرة على تونس فباغت « دون خوان » النمساوي

اخو فيليب الثاني المدينة واستولى عليها بدون مقاومة تذكر (1573) وعرض على القوم الحكم باسم الملك الكاثوليكي بتعاون مع الاهالي واعداء ايّاهم باحترام قوانينهم ولربما حلم فعلا بتطبيق هذه المبادئ بل الظفر بمجرد لقب ولكنه اضطر إلى ترك حامية في المدينة والرجوع إلى إيطاليا بعد ان نصب على العرش ملكا حفصيا جديدا .

وما كان للامبراطورية العثمانية ان تسكت بعد الضربتين المسددتين في ليبانت وتونس فلم يمض عام حتى انضمت جيوش الايالة وطرابلس والمشرق بعضها إلى بعض بقيادة سنان باشا وعلج علي وافتكت على التوالي حلق الوادي ومدينة تونس (1574) ومهد هذا الانتصار المزدوج لدخول تونس تحت نفوذ الاتراك فأصبحت باشية وكان ايذاها بزوال التأثير الاسباني . ولم يفكر فيليب الثاني في الاخذ بالثأر في إفريقيا ورضي بمهادنة السلطان (1581) بعد ان اقلعه عن ذلك افلاس جديد (1775) وشلت قواه الثورات الناشبة بهولاندا والاضطرابات المطردة بإيطاليا . واحتفظت اسبانيا بالحصون المتواضعة بمليلة ومرسى الكبير ووهران التي لم يغنها ماورثته عن البرتغال شيئا كبيرا غير أن بلاد المغرب التي حافظت على ذاتيتها بفضل هذه النزاعات اتخذت لنفسها ملامحها العصرية بكتلتها السياسية الثلاث المغرب الأقصى والبلاد الجزائرية والبلاد التونسية .

نهاية الباى لازباى :

عهد علج علي منذ ان تقلد إمارة الأسطول العثماني غداة معركة ليبانت بحكومة الجزائر إلى « خَلْفَوَات » وهم عرب أحمد الذي ساهم في افتكك حلق الوادي وتونس والقياد رمضان (1574 — 1577) الذي توصل إلى تنصيب الدعي عبد الملك على مدينة فاس وإلى جلب مقابل ذلك 5.000 مئقال من ذهب وعشرة مدافع (مارس 1576) وأخيرا حسن فتريانو (1577 — 1580) وكان حسن كاتباً في سفينة شراعية من البندقية أسرّه درغوث وباعه إلى علج علي فخرج عن دينه ودخل الاسلام وعرف بصلفه وعجرفته وقسوته وكذلك بحزمه وشجاعته اذا نحن صدقنا الوصف الذي وصفه به « سرفنتيس » وكان عبد الله قد توخى في حكمه العرب وقهر الانكشارية والرؤساء على حد السواء غير ان المجاعة والطاعون تضافرتا مع أساليبه التعسفية في الحكم فكان تمرد الاهالي وكلف

جعفر الخصي الشيخ بأرجاع الأمن إلى نصابه (1580 - 1582) وبينما كان جعفر مقيماً بمدينة الجزائر وصلها عـلـج علي لأعداد العدة لمحاربة المنصور وغزو المغرب ولكنه استقدم إلى الشرق هو وخليفته قبل أن يبدأ في تنفيذ مشروعه فنصب القايد رمضان باشا على الجزائر من جديد وأمر الباب العالي رمضان بأرجاع سفيتين شراعتين إلى فرنسا رغم معارضة الجزائريين فاغتنمت الطائفة هذا الغضب لتمكين رئيسها مامي ارناووط من السلطة . وتدعم انتصار الرؤساء بعودة حسن البندقي فجأة وانتصابه بالقوة بالجنينة (1580 - 1588) وسخر كل شيء منذ ذلك الوقت في سبيل القرصنة التي عمت سواحل اسبانيا وإيطاليا وحتى الجزائر الخالدات من دون رادع يردعها .

ولما أثقلت السنون عـلـج علي ومات سنة 1587 رأى السلطان الفرصة سانحة ليضع الغزوات الافريقية في اطار النظام العثماني العادي فحوّل طرابلس وتونس والجزائر إلى ثلاث إيالات يحكمها باشوات يقع تعويضهم بصوة دورية ، واقتضت هذه الاجراءات حذف باي لارباي الجزائر فاستقدم الباب العالي حسن فيتزيانو وأوكل إليه منصب قابودان باشا وعوضه بباشا يدوم حكمه ثلاث سنوات . وهكذا لم تعد مقاطعات بلاد البربر مجرد معقل من معاقل الامبراطورية العثمانية ضد الامبراطورية الاسبانية بل أصبحت مقاطعات مثل غيرها لايميز بينها سوى عامل البعد .

4 - العصر الذهبي للقرصنة الجزائرية والتونسية

ثورات بلاد الجزائر في القرن السابع عشر :

خرجت إيالة الجزائر وإيالة تونس عن نفوذ الاتراك في القرن السابع عشر اذ لم تطبق المنظمتان العتيدتان للوجق والطائفة الخضوع إلى ادارة موظفين وقتيين لايتمدون على أية قوة في المقاطعة التي كان من المفروض حكمها باسم السلطان . وانتهى الأمر بالباشوات إلى خروج الانكشارية والرؤساء عن مراقبتهم وانصرف همهم إلى الاثراء كلما سنحت لهم الفرصة فتنازعت هذه الشيع الشؤون العامة وقد ترك حبلها على الغارب وحركتها الاطماع أو الاحقاد . وبرزت من الازمات التي هزت الايالتين انواع أخرى من السلط فقي الجزائر ظهرت سلطة آغوات الوجق (1659) ثم الدايات (1671) وفي تونس وجدت سلطة الدايات (1590) ثم البايات (1705) وسهل استقلال الإيالات الباشية الافريقية تنمية القرصنة بكل حرية من دون مراعاة للاعتبارات السياسية التي كان يفرضها الباب العالي على الباي لارباي ونتج عن ذلك امران اولهما رد فعل الدول الأوروبية نتيجة تفاقم نشاط القرصنة وثانيهما نشوب حروب بين الايالتين بسبب الخلافات .

وليس ادعى إلى الملل من دراسة تاريخ هاتين الايالتين في القرن السابع عشر . فقد كان في الجزائر سلسلة متواصلة الحلقات من المؤامرات والانتفاضات والمذابح واكتفى الباشا فيها بمظاهر الحكم فكان يستقبل عند قدومه من القسطنطينية في موكب بهيج ويقيم في قصر فخم ويحاط بالتبجيل والتكريم غير انه كان عليه ان يوافق على قرارات ديوان الانكشارية ليدوم حكمه . وكان الديوان يجتمع اربع مرات في الأسبوع

منها واحدة في القصر للتداول في الشؤون الخارجية ويقرر في آخر الأمر بالاجماع السلم او الحرب .

وكان على الباشا ان يثبت في أول كل قرار رسمي هذه الجملة : « نحن ، الباشا وديوان وجق الجزائر المظفر » وانفرد خضر باشا بمحاولة زحزحة وصاية الانكشارية (Khéder Pacha) مستعينا بالكراغلة الذين اقصوا عن الشؤون العامة وبالقبائل المستعدين دائما للثورة (1596) .

وحان الوقت الذي لم يعد يتحمل فيه الوجق المتكون من 22.000 رجل حتى ترك النفوذ الوهمي للباشوات . وكانوا يلومونهم على تعددهم نهب جرايات الجند والضرائب فقد أراد أحدهم وهو الباشا ابراهيم في يوم من الأيام أخذ العشر من المنح التي كان يرسلها الباب العالي للرؤساء لفائدة الأسطول الجزائري فتسج عن ذلك تمرد . فما كان من الديوان الا القضاء على ماتبقى للباشوات من صلاحيات دفع الجرايات وتعيين القواد والقضاء بين البلدية ولم يترك لهم الا اللقب التشريفتي ، وأصبح الاغا يمارس السلطة التنفيذية معتمدا على الديوان (1659) وانتهت هذه الثورة التي اندلعت للدفاع عن حقوق الرؤساء في صالح الوجق . ونتج عن تغيير الاغوات كل شهرين اما اختلال في السلطة في حالة الامتثال او اندلاع الانتفاضات اذا تمسكوا بالحكم . والواقع ان النظام الجديد اقر الاغتيال طريقة عادية للخلافة اذ كان مآل الاغوات الاربعة الذين تقبلوا قفطان الشرف من سنة 1659 إلى سنة 1671 الاغتيال من طرف الوجق .

وقلب الرؤساء الوضع لفائدتهم بعد مرور اثنتي عشرة سنة وأثاروا غضب اليولداش وأهل مدينة الجزائر على آغا علي فتمردوا عليه بتهمة الضعف ازاء المطالب الفرنسية المشطة . وكما قُتل علي وعُذبت زوجته لم يشجع أحد على الترشح للحكم فاغتنمت الطائفة هذا الانكماش لمحاكاة تونس واسناد الحكم إلى داي منتخب من طرفها في اول الأمر (1671) ثم في مرحلة ثانية من طرف ضباط (1689) وامتنع الداي العاشر علي شاوش من استقبال مبعوث الباب العالي واقنع السلطان باسناده لقب باشا (1711) .

ثورات البلاد التونسية :

آل انتصار سنان باشا في البلاد التونسية إلى إقامة نظام شبيه بنظام الجزائر ، فكان على رأسها باشا يعتمد على حرس انتدب افراده من بين الاتراك أولا ثم في مرحلة ثانية من بين مشاركة مسلمين وكراغلة ويقود هذا الحرس آغا يكاد يكون مستقلا عن الباشا وكانت بها طائفة الرؤساء وقبائل المخزن المكلفة باستخلاص الضرائب . واستهدفت الايالة الى ما استهدفت له جارتها من اضطرابات . وكان الوجود يتكون في آخر القرن السادس عشر من 40 فصيلة تعد كل واحدة منها مائة رجل على رأسها ضابط صغير اسمه الداوي (اي الخال) وقاست البلاد التونسية كما قاسى سكانها من وقاحة واستبداد الملازمين (ادوباشي) ونقبائها (بلوكباشي) الذين يتكوّن منهم الديوان وقد احلوا سلطتهم محل سلطة الباشا ، وآل الأمر بالبلاد إلى كسر شوكتهم بفضل ثورة عسكرية ذات نزعة ديمقراطية (1590) وانتخب الاربعون دايا بعد مقتل البلوكباشية أحدهم لقيادة الحرس بالاتفاق مع الآغا ، غير ان هذا الداوي لم يفتأ يتجاوز صلاحياته على حساب سلطة الباشا حتى أصبح الحاكم الحقيقي ، ودعم الداوي الثالث عثمان نفوذه بجعل الديوان مجرد هيئة للمصادقة أولا وحصر نفوذ الباشا في تقبل القفطان ثانيا وذلك بالاعتماد على شخصين مخلصين له وهما القابودان (أمير البحر) وقائد الامحال المكلف باستخلاص الضرائب وإدارة شؤون القبائل (الباي) .

تميّز تاريخ البلاد التونسية في القرن السابع عشر بتوسع نفوذ البايات على حساب الدايات . فقد أخضع عثمان داي (1590 — 1610) القبائل الثائرة في البلاد التونسية وتصدى صهره يوسف (1610 — 1637) حامي القرصنة والمشهور بكثرة البنايات التي شيدها لانفاضات القبائل العربية والغزو الجزائري ، وإذن فلم يكونا من ضعفاء الحكام غير ان نفوذ البايات تعاظم إلى جانب سلطتهم المعتمدة على حرس أقل شأنا من حرس الجزائر لأنهم كانوا ماسكين مقابليد الحكم الحقيقية بإدارتهم لشؤون القبائل وتصرفهم في الموارد الجبائية . وتوصل الباي الثاني مراد (1612 — 1631) بعد ان نال لقب باشا إلى التحصيل على حق توريث خطته لابنه حمودة — ولم ينفك تأثير حكم المراديين الوراثي يتعزز وعظم شأن

حمودة باي (1631 - 1659) عندما وضعَ حدًا لانفصال القبائل العربية وضمَّ جربة إلى البلاد التونسية الباشية - وأمسك بيديه مقاليد الأمور في عهد الداين الموالين فاصلاح ما أفسده تدخل فرسان مالطة ضد أسطول حلق الوادي (1640) ووضع خطة لمقاومة المجاعة . ولم يراع مراد باي من بعده أية ذمة للدايات (1659 - 1675) اذ رمى بواحد منهم في البحر (1671) وانتصب في قصر باردو ملكا وأقام الدليل على اريحته بتشيدته المباني غير أن وفاته فتحت على البلاد عشرين سنة من الحرب الأهلية . وتنازع ابنه واخ له لقب الباي بحد السلاح وكانوا ينصبون الدايات ويقتلونهم فمهدوا بهذه الفوضى إلى هجمات جزائرية مضمرة وإلى محاولة تدخل الباب العالي في شؤون البلاد التونسية وانتهى عهد المراديين لإثر مؤامرة عسكرية اذ عمده إبراهيم آغا الصبايحية إلى اغتيال كافة ذرية حمودة ونصب نفسه بايا (1702) ولم يلبث ان حمل الحرس على اسناده لقب داي (1704) واقنع الباب العالي بتعيينه باشا وبذلك تجمعت كل السلطات لأول مرة في يد واحدة - ولم يتوقف هذا التطور نحو الملكية بعد انهزام إبراهيم وأسرته إثر مواجهته لجيوش الجزائر وطرابلس (1705) ذلك ان حسين بن علي آغا الصبايحية لم شتات الفارين وتحصن بتونس وبابيه اهلها بايا ثم تصدى إلى الجزائريين فردهم على اعقابهم ولم يكتف إذ ذاك بالجمع بين الالقاب بل حذف لقب داي (1705) وآل الأمر بتوسع نفوذ البايات المتواصل إلى تأسيس دولة وراثية (1710) .

ومهما بلغت الاضطرابات التي عاشتها البلاد التونسية في القرن السابع عشر من قوة فانها لم تبلغ الحد الذي بلغته الفوضى في البلاد المجاورة . ذلك ان لها ماضيا وتقاليد لم تزل بزوال الدولة الحفصية . فان سكان المدن الحريصين منذ عهود الحكم القرطاجي على ايجاد حكومة تحفظ النظام اضطروا السلطة التركية على الانصيهار في القلب الذي فرضته افريقية على أسياها منذ قرون وزودوا المخزن بالموظفين الذين لامناص منهم لضمان استمرار الادارة وأن مابذله الحسينيون في القرن الثامن عشر من مجهودات لتحويل دولة القراصنة إلى دولة منظمة انما هو امتداد لسياسة الحفصيين والموحدين والصنهاجيين .

دولتنا القراصنة :

كان القرن السابع عشر العهد الذهبي بالنسبة إلى قرصنة بلاد البربر ، فلقد سمح لهم بالقيام بكل اعمالهم الجريئة استقلال الايالتين عن الباب العالي وضعف الاساطيل الاوروبية والصراع بين الأمم النصرانية .

وغنيت الجزائر خاصة بموارد القرصنة ، اذ تجاوز عدد سكانها في اواسط القرن السابع عشر مائة الف ساكن علاوة على عدد الأسرى المتراوح بين خمسة وعشرين الف وخمسة وثلاثين الف اسير . وتعزز الأسطول بسفن شراعية كبيرة و « مراكب مدورة الشكل » او عالية الجنبات مكنت القراصنة من ان يتمخروا عباب شرقي البحر المتوسط وان يبعثوا الرعب حتى في اسلندا بالذات (1616) وتجاوزت قيمة الغنائم اثناء الستين المؤاتيتين بصفة خاصة (1615 - 1616) مليونين وحتى ثلاثة ملايين من الليرات وأثرى كل السكان بفضل المعاملات الناتجة عن هذه الغنائم وتجارة العبيد ، وتعددت في هذه الفترة سواء في المدن أو في الارياف تلك المنازل المكوّنة من سقيفة ووسط دار في كل واجهة منه قاعة مستطيلة قليلة العرض تفتح على مجلس وبها مقصورتان سقفهما في بعض الأحيان على شكل قبة على نحو ما نجد اليوم في الأبرشية (archeveché) وكانت حياة الرؤساء في الياسة على غرار من اثروا سريعا ، آنهماكا في اللذات وإقبالا على الترف في غير حياة ، وكان خنزف (Delft) دلفت والرخام المنحوت من إيطاليا وحرير ومخمل ليون وجنوة ومرابا البندقية ومصنوعات زجاجية مجلوبة من بوهيميا وساعات انقلترا تُكوّن كلها حولهم اطاراً اصطناعيا هو اشبه شيء باستعراض الصياد لصيده - ولكن هؤلاء الاتراك الاصليين منهم او الهجناء كانوا يحبون ايضا اواني النحاس والاسلحة وزرابي سطيف وقرفور بلاد (القبائل الصغرى) وقاعة بني راشد (بين بسكرة ورليزان) الشرقية الشكل وخاصة قطع النسيج المطرزة بالحرير على الشاش أو الكتان وهو فن تلقن « المعلمات سره إلى بنات الأغنياء » .

وشيد بالجزائر بفضل موارد القرصنة عدد كبير من المساجد والزوايا والمدارس حيث برز هنا ايضا تأثير آسيا الصغرى المتمثل في القباب الكبرى المئمنة الاضلاع التي تغطي المصليات وتحيط بها على الجهات الاربع

اروقة سقوفها على شكل قباب صغيرة او عقود قبابها ذات زوايا بارزة وعلى هذا النحو كان المسجد الذي بناه بعد سنة 1622 بقليل العالج بتشينو المدعو علي بتشينين والذي تغير شكله بعد أن أصبح كنيسة نوتردام دي فكتوار (Notre Dame-des-Victoires) وحرص الوجيق بعد ذلك بنصف قرن (1660) على أن يكون له مسجد حنفي عظيم فبنى أعظم جامع شيده الاتراك الا وهو الجامع الجديد بقبته العالية البيضوية الشكل المنزلة على مثلثات كروية والمقامة على اربعة دعائم نصف اسطوانية وكلها مستوحاة من النمط المعماري بالقسطنطينية وبنى في اواخر القرن (1696) ضريح حامي مدينة الجزائر الولي عبد الرحمن الثعالبي (المتوفى سنة 1648) في قرية جميلة بجوار مقبرة اشجارها من السرو .

وكانت تونس أيضا مدينة أهلها خليط من السكان ، فقد أوت - أكثر من الجزائر - المورسك المطرودين من اسبانيا سنة 1609 والتجأ اليها ثمانون ألفا منهم حسبما يقال وقد عرفت منذ القدم باحتضانها للاندلسيين - وتقبل الاتراك هذه الهجرة بصدر رحب وهي التي كان لها الاثر السيء على ازدهار اسبانيا وثقافتها ، وأكد ابن ابي دينار « ان عثمان داي آواهم في المدينة ووزع افقرهم على أهل تونس » واستقر اخيارهم من التجار وارباب الصناعة والمثقفين باحياء معينة اما زارعو البقول وصانعو الشواشي والأقمشة الحريرية والوانى الخزفية المطلية فقد اصلوا نشاطهم في الضواحي القريبة . وأحيى عدد كبير من الفلاحين الذين يرجع اليهم الفضل في خصوبة سهول الأندلس معظم اراضي وادي مجردة . ولم ينصهر في إفريقية هذه الارض العريقة في الحضارة المهاجرون فقط بل كذلك المشاركة الذين أنسوا إلى الحياة في ظل النظام التركي وسرعان ما تبناوا العادات والتقاليد التونسية . وقدموا مقابل ذلك فنيات رفيعة في ميدان القرصنة مكنت عائداتها من تجميل المدينة ففي هذه الفترة شيد جامع يوسف على النمط المحلي المتقادم باستثناء الصومعة الشرقية الشكل وجامع حمودة باشا المرادي المعروف بمسجد سيدي بن عروس (1654) وجامع سيدي محرز التركي النمط والأكثر طرافة بمنبريه اللذين يعالو احدهما الآخر (حوالي 1675) واقامت مدرسة

حنفية وزيد على زاوية سيدي صاحب الرائحة او حلاق « القيروان »
وانشئت أسواق كثيرة وحدثت البركة وهي سوق للعبيد تتمثل في ساحة
صغيرة بممراتها الثلاثة المسقفة - ومدّ جسران على وادي مجردة قرب
طبربة ومجاز الباب ورممت حنايا قرطاج وبنيت « سبالات » (حنفيات
للورود) وميضوات (جمع ميضاة)

ومهما بلغ تأثير القرصنة في إنعاش الاقتصاد التونسي فانها لم
تبلغ ما بلغته في الايالة الجزائرية حيث كانت المورد الوحيد - بل ان
مقتضيات التجارة والعلاقات الدولية اضطرت الحكومة في آخر الأمر
إلى الحد منها .

الرق في بلاد البربر :

كانت تجارة العبيد تدر على أهل بلاد البربر ارباحا أوفر مما يحصلون
عليها من الغنائم . ولم يعد النصراني ذلك الكافر الذي يختطف من بلده
بل أصبح بضاعة يسعى القوم إلى التخلص منها في أسرع وقت وبأعلى
الاثمان - فتركيز مسرحية موليار الذي قبل تسليم عبده على الفور مقابل
فدية ليس وليد خيال « سكانان » المحتال ، وقد شوهد درغوث في عرض
سواحل كستلمار (castellamard) وهو يرفع حالما تمت عملية
الاختطاف « راية الفدية » .

وكان القراصنة ينزلون على السواحل ويحتجزون بالخصوص سفن
النصارى وذلك سعيا إلى ملء مخازنهم بالبضائع - وكانوا يوقفون
البحارة والركاب عراة على ظهر السفينة ولايتورعون في اجراء أدق
التفتيشات عليهم بحثا عن الحلي وينأملون في ملابسهم وايديهم للتكهن
بمكانتهم الاجتماعية . ثم تساق قطعان البشر إلى السوق حال عودتهم إلى
الجزائر أو تونس - ويقلب النحاسون (chaland) الاسرى كما
تقلب الحيوانات المعروضة في السوق . ويدققون النظر في أسنانهم وعيونهم
وايديهم ويجسسون لحومهم ويضربونهم بالعصا لحملهم على « المشي
والقفز والتشقلب » وتتفاوت قيمتهم بحسب ما ينتظره الشاري من خدماتهم
او ما يأمله من ربح عند بيعهم . ونجد في المقدمة الفتيات والفتيان
الذين لا يخفى ما لهم وكذلك كل من يُظن انه من عليّة القوم بحيث يؤمل

الحصول على فدية بواسطته واختيرا للعملة المختصين في الملاحاة واشغال المواني والمدفعية . وللسيد على عبده مطلق السلطة وله ان يضارب على فديته كما شاء .

إن حال العبيد كان أدعى إلى الرثاء من غيرهم نظرا إلى سوء تغذيتهم وضربهم بالسياط عند التهام مرا كبهم بمراكب العدو ثم ابتعادهم عنها ولكنهم على كل حال كانوا أحسن حظا من البربر المجدفين في خدمة ملك فرنسا اذ هم لا يؤسمون في ابدانهم وبقوا احرارا في دينهم — وكان الرؤساء يستخدمونهم على اليااسة كحمالين او يعرضونهم للكرء كعمال يوميين .

أما الخدم وهم أقل عددا فانهم يصبحون في بعض الاحيان محل ثقة اسيادهم . و « تستخدم النساء في الاعمال المنزلية » . ويرسل عدد آخر من العبيد إلى الحضائر او يكلفون بالاشغال المضنية في الضيعات ويمكن للمحوظين منهم القادرين على دفع منحة شهرية إلى اسيادهم ان يجوبوا المدينة احرارا . أما أكبرهم حيلة فانهم يصبحون اصحاب أو صاحبات حانات وفيها يقبل النصارى والمسلمون على تعاطي الخمر والاخلاد إلى الخلاعة . ويمكن للقساوسة بفضل ما يدفعه الاسرى في الغالب ان يقوموا بطقوسهم الدينية .

وكان أغلب العبيد يودعون ليلا بسجون الدولة . ووجدت ستة سجون في الجزائر منها سجن للملك ويتسع لالفي أسير ، وكان يوجد تسعة سجون بتونس أيام زيارة الأب دان (Dan) لها ، وكان الاسياد يودعونها خدمهم مقابل مبلغ يدفعونه ووضعت الحراسة تحت مسؤولية باش حارس وهو شخصية تتعاطى التهريب بمساعدته على بيع مايسرقه العبيد . وكانت الاسرة في السجن يوجد بعضها فوق بعض من دون لحاف ، وكان رجال الدين على حد قول « هيلدو » يكثر من الباش حارس غرفا صغيرة ويتصرفون بكل حرية في مصلتي منه « يؤدي القوم القداس كامل السنة وفي بعض الاحيان يؤدونه « بالايقاع » .

ولم يكن حظ الاسرى حالكا بالنحو الذي صورته جمعية الافتدائيين التي كان عليها ان تحرك الهمم للحصول على الهبات المتناقصة باطراد ولم

يقدر القساوسة الطيبون على السكوت امام جنوح الكثير إلى اعتناق الاسلام فاضطروا إلى استعمال العنف . واعتبر اغلب الاسياد الخروج عن الدين عملية خاسرة ماعدا النساء اللواتي كن يدفعن عشاقهن إلى الاسلام للتزوج بهم والرؤساء الذين كانوا يختنون صغار نوتيتهم ليبقوا في صحبتهم .

وكان العلاج على بتشين يتبجح « باستعمال العصا لاستبقاء المسيحي على دينه » .

والعبد بضاعة ليس من المصلحة افسادها ولئن وجد اسياد « غلاظ » شراس ، قساة « فان دارفيو (Darvieux) اعترف بكل نزاهة : « انه يوجد في اوربا اسياد لا يقلون عنهم فظاظة بل ربما تجاوزوا اسياد تونس وحشية لو ملكوا عبيدا مثلهم » اما انواع التعذيب الثلاثة والعشرون التي وصفها وصورها الاب « دان » فقد حدثت بصورة استثنائية . ونسى اولئك الذين شهروا محققين بقساوة البربر ان ملك فرنسا لم يكن أكثر رفقاً بالبروتستان الموجودين في سفنه الشراعية وان جماهير باريس لا تتردد في مشاهدة عقوبة الفسخ (écartèlement) او بعداب العجلة كما لو حضرت إحدى الحفلات .

واعتبرت الكنيسة دائما ان افتداء الأسرى واجب مقدس تفرغت لأدائه جمعيات (ordre) كهنوتية مثل جماعة الثالوثيين التي أسسها القديس يوحنا دي متي (1198) وجماعة نوتردام دي لامرسي التي أسسها القديس فيرنون لاسك (1218) ووجد في كل أمة افتدائيون وعمدت حكومات الدول البروتستانية إلى جمع التبرعات بل ان بعض اللائكيين التقوا سعوا في تخليص ابناء أوطانهم من الاصفاد غير ان الموارد قلت وفتت حماس رجال الدين . وكشف البحث الذي أجري سنة 1638 قصد اصلاح جماعة الثالوثيين نتيجة معارضة الجنرال أن دار باريس (Maison de Paris) التي بلغت مواردها السنوية عشرة آلاف ليرة لم يوظف عليها إلا 18 ليرة للقدية .

وتتمثل طرافة القديس فيانسان دي بولس في أنه عرض على اللعازيين أن يقفوا حياتهم على شيء يتجاوز اعتناق بعض الناس المسيحية أو اقتداء عدد من المسيحيين . وهي مهمة لا تقدر على الاضطلاع بها في

نظره إلا الدولة ولا يهتم ما إذا حملته نزوة الشباب وجموح الخيال كما أقام « قرانشون » الدليل القاطع على ذلك إلى تصوير أسره في تونس ، ثم أصرّ على الإمتناع عن ذكره فيما بعد . فهو الذي فُكر في إرسال اخوانه لـ : « إعانة النصارى المساكين أسرى البرابرة روحياً ومادياً المرضى منهم والأصحاء وذلك بالزبادة ، والصدقة ، والتعليم والقيام بالطقوس المقدسة » .

وظل إلى أن مات المحرك لهذا المشروع الرامي إلى رفع المعنويات ومقاومة الخروج عن الدين وكان « فنان » شفوفا ولكنه حازم في دعوته ، عرف كيف يُبقي على علاقته مع الجمعيات المتنافسة ويظفر في باريس بمؤيدين له مسموعي الكلمة ويوفق بين التواضع والقوة وينجح في ادخال الفكرة الدينية في السياسة الفرنسية .

تجارة بلاد البربر والمراكز التجارية :

لم تقم الجزائر البتة بدور تجاري مماثل لما كانت تقوم به الأسكندرية في المشرق ، ذلك ان حالة الحرب والقرصنة وضعف الماديات التجارية في الداخل ومنافسة وهران وعنابة (بونة) وبستيون فرنسا حالت دون نمو التجارة مع الخارج - ورغم الاخطار المحدقة بالتجار الاوروبيين في حالة نشوب الاضطرابات فانهم بقوا مقيمين بالجزائر مهما تبدلت الاحوال يتاجرون عادة بالاتفاق مع القناصل في البضاعة الحاصلة من الغنائم التي كان يبيعها لهم اليهود او يرسلونها إلى قرنة وحتى جزر الانتي (Antilles) وكانوا يصدرون خاصة الجلد والشمع العسلي والصوف - وتوصل الأنقليز والهولنديون حتى إلى تبادل الأسلحة مقابل المواد الغذائية . ولم يمثل حجم التجارة التصديرية بما في ذلك الزبيب والتين والتمر والأقمشة والتبغ الا شيئا زهيدا كانت ترغب الحكومة في تنميته ، وكانت الايالة تمنح رخص التصدير وتضاعف الاداءات على تسويق البضائع وتغض الطرف مقابل ما يغدق من « بقشيش » على كل الوسائط وبلغ تلاؤم اليهود مع هذه الشروط المتعامل بها في الشرق في ميدان التجارة حدا مكنهم من ان يصبحوا المقتصدین والمحولين للعملة وسماسرة البايات والمسيطرين على حياة البلاد

الاقتصادية . ولم ينافسهم سوى التجار الذين جاؤوا من مرسيليا والمقدوح في اخلاقهم فقد ثبتوا رغم المذابح الدورية وتصادموا في آخر القرن السابع عشر مع المتدينين (religionnaires) القادمين من لانغدوك الذين لجأوا ابتداء من سنة 1685 إلى الجزائر او تونس او المغرب الأقصى .

وكان النصارى بتونس أسعد حظا ، اذ رغم الهزات التي نشأت عن الازمات مع الأمم الاوروبية فانهم غالبا ما عاشوا في امان بقيادتهم حتى ان التجار الانغليز واصلوا ممارسة تجارتهم بكل حرية عندما سجن التونسيون قنصلهم كرد فعل على حملة بليك (Blake) (1654) وكان فندق فرنسا المبني سنة 1659 اوسع الفنادق مساحة وأجملها منظرا لأن قنصل فرنسا كان يضع تحت حمايته التجار من مختلف الجنسيات ماعدا الانغليز والهولنديين ونازعه قنصل انغلترا هذا الامتياز بكل الوسائل ، وعندما تعذر تسويق القموح من تونس صدرت الجلود الطرية رغم منافسة جلود المشرق لها في اواخر القرن السابع عشر وكذلك الصوف والشمع العسلي والاسفنج والتمر وريش النعام وهو أقل شهرة من ريش السينغال وكانت تستورد مقابل ذلك انواع أخرى من الصوف أكثر طواعية في صنع الشاشية وهي صناعة رائجة في تونس وكذلك الخمر وأقمشة الكتان والأسلحة . وكان تنافس اليهود وشركة الرأس الأسود (Cap nègre) تقلل من مزاياح التجار الاوروبيين المقيمين الذين كانوا يفضلون اكرتاء السفن من اليهود التونسيين . وحظيت سوسة بنصيب متواضع من هذه المبادلات التجارية ورغم ان التجارة الفرنسية في تونس بلغت ضعفي او ثلاثة اضعاف ما بلغته مع الجزائر فيما بين سنتي 1670 - 1690 فان حجمها ظل ضعيفا .

ولم يبلغ نشاط تجار فرنسا وجنوة أقصاه في الجزائر ولا في تونس بل في بستيون فرنسا والرأس الأسود وطبرقة وقد تضايق الجزائريون من شركة « لنش » (Lenche) التي انتصبت ببستيون فرنسا وسلكت سلوك الغازين فتعاطت تصدير القموح رامية بالاتفاقات عرض الحائط وانتهى بهم الأمر إلى افتكاك هذه القاعدة ولم تكن الصفقة خاسرة ذا تنافس القوم من أجل استرجاعها تنافسا كبيرا . وغنم منها ابن أخ لنش

ثروات طائلة غير ان الأمر آله إلى تهديم البستيون من جديد « بسبب تحيل الفرنسيين على المغاربة وعدم دفع معالم الزمة طيلة ثلاث سنوات » (1604) .

وحالت الخصومات بين فرنسا ومدينة الجزائر دون حصول أي اتفاق إلى ان دخل الميدان سنسون نابليون (Sansan Napollon) وهو كورسيكي الأصل مرسيلي المنشأ فتوصل بعد سنتين من المفاوضات ودفع مقادير كبرى من البقشيش إلى ابرام اتفاقية باستيون الشهيرة (29 سبتمبر 1628) التي تعص الفرنسيين دون سواهم بحق التجارة وصيد المرجان في كامل المناطق المعنية وحق ترميم القواعد واعادة بنائها كما كانت من قبل توقيا من خطر المغاربة ومراكب ميورقة ومنورقة الشراعية « وذلك مقابل لزمة قدرت بست عشرة الف ليرة تستعمل خاصة لدفع جناية الانكشارية ولم يسمح هذا النص بادخال تغييرات كبيرة على البستيون بل بترميم هذه المراكز فقط حيث حجرت اتفاقية 1560 « اقامة أية تحصينات كانت » ولم يمنع هذا سنسون من احداث قلعة باتم معنى الكلمة حولها إلى مركز للجوسسة « لمعرفة مايجري ببلاد البربر » وجعلها قاعدة تموين بالنسبة « لرجال الحرب » الذين كان يحث الملك على انزالهم في اراضي المسلمين وكان يقول : « انه من الضروري الاحتفاظ بالمراكز المذكورة تحت ستار التجارة وصيد المرجان حتى تنكشف نية الغزو المبيتة » وأخيرا فانه لم يجمع الأموال من صيد المرجان والتجارة المرخص فيها فقط بل انه أثرى بالخصوص من تصدير القمح وهي عملية التزم بان لايقوم بها وهكذا كان في مقدور المحتال « سنسون » ان يلقي البربر دروسا في فن الخادعة .

وكان هذا المغامر الخبيث يحلم ايضا بافتكاك طبرقة من تجار جنوة الذين تسلموها من خير الدين مقابل فدية درغوث (1540) وأعطوا لزمته لجماعة لومليني (Lomellini) قصد صيد المرجان والتجارة مع بلاد البربر وباغته أهل طبرقة في محاولته الثالثة وطاردوه في البحر وقتلوه « بطلقة بندقية » ورموا بجثته في الماء وسمروا رأسه على باب القلعة (ماي 1633) .

وكان موت « سنسون » ضربة قاضية لمراكز التجارة . ذلك ان خصوصيات الفرنسيين المقيمين بالجزائر مع « سنسون لي بناج » القبطان الجديد ، والخشية من ان يتحول البستانيون إلى قاعدة تموين للأسطول الفرنسي وخاصة حجز مركبين محملين بالحبوب المهزبة كانت كلها مدعاة لقرار الديوان بتهديم هذه المراكز نهائيا و « قتل كل من تحدثه نفسه بذكرها » .

ونفذ علي بتشينن هذا القرار بحذافيره (13 ديسمبر 1637) وحمل تهديم المراكز زعيم الحنانشة الذي كان يتاجر شخصيا مع الشركة ويربح بواسطتها ارباحا طائلة على حفز قبيلته على التمرد واشترط ارجاع البستانيون على ما كان عليه مقابل دخوله الطاعة ونصت اتفاقية جديدة على التمييز بين مرسى عنابة ومرسى القل اللذين لا يمكن ان يكون فيهما غير المغازات وبين البستانيون والقالة ورأس روزا حيث يسمح « بالبناء » للتوقي من سفن الاعداء الشراعية ومن المغاربة (7 جويلية 1640) ولم تضع هذه المعاهدة حيدا لتقلبات الأمور بالنسبة لهذه المراكز رغم ان الجزائريين كما شهد بذلك ب. ماسون « أبدوا رغبة ملحّة في التفاهم » وباعت كل المحاولات بالفشل بسبب المطامع الجشعة التي دعمها من لا خلاق لهم من كبار القوم وبسبب الخصومات القائمة بين تجارليون وتجار مرسيليا وتدخلات العمارات الفرنسية واتاحت السلم مع الجزائر الفرصة ابتداء من سنة 1689 إلى الملك لاقضاء مديري الشركات عن الشؤون الديبلو ماسية وحصر مهمتهم من جديد في التجارة فحسب . وتمت مراجعة وضع هذه المؤسسات بصفة نهائية بواسطة آخر عقد امضي بين حدى الشركات والجزائريين بالرجوع خاصة إلى السنة التي ابتدعها سانسون نابولون (غرة جانفي 1694) ومن ذلك التاريخ إلى سنة 1754 اقتصر القوم على تجديد العمل بالاتفاقية اربع عشرة مرة من دون تغييرها .

وكان على الشركة التي أخذت لزمة صيد المرجان بالبلاد التونسية في مكان الرأس الأسود (قبانة طبرقة) وهو غير ملائم لهذا الغرض في نفس الوقت الذي تأسس فيه البستانيون ، ان تصارع تجار جنوة وتندرا حسد التجار المقيمين بتونس وآل الأمر بالمصرف الذي رسمه بعد أطوار

كثيرة تجار مرسيليا (1631) إلى استيلاء التونسيين (1637) وسرعان ما رجعت التجارة إلى سالف نشاطها غير أن الاتفاقية أبرمت بعد مرور ثلاثين سنة (1666) وهي لم تنص على أي تنازل ترابي لفائدة الفرنسيين وتمنع على هذه المؤسسات ان تكتسي أي مظهر من مظاهر التحصينات « وكانت اللزمات تقدر بخمسة اضعاف لزمات البستيون من دون ان تتحمل الشركة تكاليف أخرى لم تتجاوز ذلك بل كانت تحظى ، علاوة على ذلك ، بحق المتاجرة في القمح والشعير ، واستغل الانفليز فرصة ما استتبع موت مراد من فوضى فحاولوا بدون جدوى اقضاء الفرنسيين . ودرّ تموين الشركة لجيوش الملك بكميات الحبوب ابتداء من سنة 1691 ارباحا طائلة سعت الشركة إلى الابقاء عليها بالتحصيل على لزمة دائمة (1700) وحدثت شركة جديدة بعد فشل سابقتها في البستيون والرأس الأسود اوائل القرن الثامن عشر ووحدت بين استغلال اللزمتين مع الابقاء على الاستقلال الاداري لكل من الشركتين وزالت منذ ذلك التاريخ شركة القل والرأس الأسود وانفردت بالوجود شركة واحدة الا وهي شركة افريقيا .

حروب الإيالاتيين :

إذا نحن ظننا ان سياسة الدول النصرانية تجاه الدول البربرية ناتجة عن مجرد ردود الفعل ازاء اعمال القراصنة نكون قد اكتفينا باعتبارات سطحية ولئن ثار ضمير الشعب على مايقاسيه الأسرى في دينهم فان الحكومات كانت تعتمد في سياستها اولا وبالذات المصالح التجارية ، وتحركها المنافسات الاوروبية .

وكانت سياسة الايالاتيين خاضعة بالخصوص إلى اعتبارات اقتصادية . فاذا تضاءلت الغنائم عجزت موارد البلاد عن تمويل الخزينة وجدت الاضطرابات ويستتبع ابرام الصلح مع النصراني نقصا في الارباح الواردة عادة من مراكب الأمة المحمية وكذلك من المراكب التي ترفع اعلاما غير اعلامها وإذن فان حالة الحرب افضل بما فيها من أخطار وكذلك من منافع وكانت الجزائر لاتتصلح الا مع دولة واحدة عند الضرورة وتضاعف مضايقتها للدول الأخرى ، من ذلك ان ابرام الصلح مع رويتر (Ruyter) جرتفاقم القرصنة ضد المراكب

الفرنسية (1663) وكانت مهادنة لويس الرابع عشر سببا في إحلال القطيعة مع الانقليز والهولنديين (1670) وانجر عن مسالمة انقلترا اعلان الحرب على فرنسا (1681) ، وعلى كل فان هذه السياسة الواقعية كانت تقرّ التعايش بين القرصنة والتجارة لذلك أعلم الجزائريون (سنة 1681) تجار مرسيليا « بانهم يرحبون بكل الراغبين في القدوم إلى بلادهم رغم هذه القطيعة » .

لم تقدر اسبانيا في القرن السابع عشر على ردّ الفعل ضد القرصنة البربرية خلافا لانقلترا بواسطة قوادها بليك (Blake) ومارلبرو (Marlborough) وآلن (Allen) وهولاندا بواسطة رويتر اللتين قامتا بهجمات بحرية أُعدت اتم اعداد ونُفذت أحسن وتنفّذ، وقد قذف الانقليز مدينة الجزائر ثلاث مرات (1622 — 1655 — 1672) غير ان النتائج كانت متواضعة جدا رغم تفوقهم التقني ولم يقتصروا في أغلب الأحيان على اقتداء الاسرى بل ان الهولنديين اضطروا سنة 1680 كما اضطر مثلهم الانقليز سنة 1682 إلى الرضا بتزويد الجزائريين بالبحال والصواري والاسلحة مقابل حق تصدير الحبوب .

ان التدخلات الفرنسية التي أُعدت بكل شأن وشهرّ بها يهود مرسيليا في الديوان لاقت مقاومة افقدتها كل جدوى وحتى عندما سمح اختراع الغليونات الكبيرة بتحدي نيران مدافع الجزائريين فان جل القنابل المحرقة تفرقت قبل اصابة الهدف فكانت النتيجة دائما دون المجهود المبذول وصوّبت العمارات سنة 1661 — 1665 نيران مدافعها إلى مكسر الامواج بدون جدوى ورمى دوكان (Duquesne) المدينة مرتين متتاليتين . فلم يتوصل في المرة الاولى (20 اوت — 20 سبتمبر 1682) الا إلى تهديم خمسين دارا وقتل 500 ساكن ، (جوان — جويلية 1683) وتسببت المحاولة الثانية في الحاق خسائر فادحة بالمباني وفي تقتيل الفرنسيين المقيمين ومن بينهم الأب المسن « جون لي فاشي » الذي شد إلى فوهة مدفع ، وبعد ذلك بخمس سنوات القى دستري (Dèstrées) عشرة آلاف قنبلة أضرت بالحصون والمنازل ضررا كبيرا لكنه اضطر إلى الانسحاب من دون ان يكون نصيبه من النجاح اوفر من سابقه (جوان — جويلية 1688) .

وكانت نتائج محاولة احتلال جيجاتي أسوأ بكثير ، فلم يقو الجنود الذين نزلوا من البحر بصعوبة (23 جويلية 1664) والذين نقصتهم المؤن والذخيرة وانهكتهم الحمى على التصدي إلى هجمات الاتراك « والقبائلية » واضطر القوم إلى ركوب البحر من جديد تاركين للعدو 1.400 جثة وحوالي مائة مدفع ، وغرق وهم في طريق العودة أحد مراكبهم قبالة بروفونس (Provence) وعلى متنه 1.200 جندي .

اختيار الملك :

لايسكن فهم موقف فرنسا من البرابرة اذا نحن لم نربطه بسياستها العامة كما فعل كبوت - ري (Capot - Rey) فالاصطدامات لم تسكد تتوقف طيلة القرن السابع عشر ، وتعرض قنصلنا في سنة 1603 إلى الاعتداء والبستيون إلى النهب ثم بعد هدنة قصيرة (1605 - 1609) دامت القطيعة عشرين سنة بسبب هروب القرصان سيمون دانسا إلى فرنسا بمدفعين على ملك الباشا وبسبب تقيل رسل جزائريين في مرسيليا ودامت حالة الحرب تسع سنوات بعد موت سنسون نابولون (1636 - 1643) ورغم هذا فان فرنسا لم ترد الفعل بقوة في أي وقت من الاوقات مشاما فعلت ذلك ابتداء من سنة 1661 ، ذلك ان عوامل جديدة ظهرت في الاثناء وفعلت فعلها .

لقد عظم شأن العزازيين بفضل القديس بول ، وتوصلوا على يد « جان لوفاشي » بصفتهم نوابا رسوليين ومنظمين لكنيسة افريقيا إلى اكتساب سلطة أسقفية شملت مراقبة الكبوشيين (Capucins) الايطاليين والثالوثين (Trinitaires) الاسبان . وأصبح من الصعب الاستغناء عن اعانتهم في المفاوضات الرامية دائما إلى فدية الأسرى بوصفهم المترعمين لحركة الافتداء ومحل ثقة الاولياء الأسرى . وكانوا إلى ذلك بصفتهم قناصل ، الوسطاء الذين لاغنى عنهم بين الملك والبرابرة . وكثيرا ما تمكنوا بفضل هذه الصفات الثلاث من احلال وجهة نظرهم محل وجهة نظر الملك بل إلى فرضها . غير انهم كانوا هم أنفسهم آلة في أيدي غيرهم أكثر مما كانوا مصدر إحياء .

ان سياسة فرنسا تجاه بلاد البربر في عهد مازاران اتخذها المترمتون غرضا من اغراض حملاتهم وهو امر غريب وغير معروف ، فقد كانت

الشركة وراء القديس بول الذي كثيرا ما يوافق على مضض وتقوم مقام الحكومة في الشؤون الافريقية وتدفع القوم في السبل التي تهىء نصرة الدين - ومن الثابت ان السيد فانسان لايرتاح إلى القنصليات وان دوقه « أفيون » (Aiguillon) هي التي اقنعتة بمزايا هذه القنصليات واشترت على التوالي قنصلية الجزائر (1646) ثم قنصلية تونس (1648) وهي التي اقترحت كذلك سنة 1659 متجاوزة الوزراء استعمال اموال الصدقات لتمويل حملة خاصة ضد الجزائر بقيادة الفارس « بول » وهو قائد العمارة الوحيدة الذي بقي صدره يتأجج حقدا قدسيا على المسلمين واخيرا فان نار الروح التبشيرية المستعرة التي كانت تحلو الشركة هي التي زودت الرأي العام الكاثوليكي المندفع بفرط موجة من الايمان المجدد بالقدرة على التعبير وفرض نفسه على الحكومة ، وكان على الملك وهو النصراني المغالي في نصرانيته أن يركّز جهوده استجابة إلى نداء البابا لمقاومة الاثراك في « كندي » (Candie) أو على الارض المجرية لكن التحالف بين فرنسا وتركيا ظل قائما رغم الاصطدامات ، وتمثلت مهارة لويس الرابع عشر الكبرى ، في محاربة المسلمين بأدنى التكاليف وذلك بالتزام وجهة نظر قومية ، فكانت الحملات الموجهة ضد البربر بدوافع تجارية بحتة تستجيب في الظاهر لرغبة النصارى المتزعمين لحرب المسلمين .

وتخلصت السياسة الفرنسية عند موت السيد فانسان من قبضة الكاثوليك بفضل دي ليون (De Lionne) وكولبير (Colbert) ، ففي سنة 1672 أجاب «بومبون» (Pomponne) بشدة الماركيز دي فوكيار (Marquis de feuquières) الذي ابلغه رسالة « لينيتير » البالغة الغرابة حول غزو مصر (Consilium Egyptiacum) قائلا : « لا أفاتحك في شيء عن أي مشروع لحرب مقدسة غير انك تعلم ان الحروب المقدسة موضوعة قد تجاوزتها الأحداث منذ القديس لويس وكان « لاينيتيز » عند ضبط تعليماته للدبلوماسيين الذين سيضطلعون بمهامهم في المستعمرات مستقبلا يؤكد على ضرورة : « اظهار السعي وراء شؤون الدنيا والتعلق بالمصلحة في مظهر التفرغ إلى الدين والتشبث بالاخلاق » وطبق « كولبار » هذه المبادئ التي أعدها « لاينيتيز » لحكم مصر في علاقاته مع الدول البربرية ، فقد كانت الحملات الدينية

والمساعي من أجل اقتداء الاسرى المساكين مجرد عملية انتفاعية سرعان ما استتبت فيها مظاهر القوة المقترحات التجارية .

وكانت التجارة المرجع الاوحد لسياسة « كولبير » لذلك فقد سحب بجرة قلم من اللعازرين نفوذهم على القنصليات التجارية استجابة لرغبة التجار ، نعم ان الآباء الطيبين جمعوا بين الوظائف فقادهم ذلك إلى الخلط بين ميزانية الاسرى وميزانية المقيمين بصورة غير شرعية وإلى توظيف اداءات جديدة على مراكب فرنسا . وربما بالغ القوم في انتقادهم . أليس السبب الحقيقي فيما واجهوه من مناهضة يتمثل في وفائهم إلى القرار البابوي (Incoenam domini) الذي حرم بيع التجهيزات البحرية إلى المسلمين وفي معارضتهم عمليات تهريب الأسلحة التي كانت تثري المقيمين الفرنسيين ثراء كبيرا . ومهما يكن من أمر فان رجلا مثل « جون لي فاشي » الذي قدم إلى بلاد البربر في الثامنة والعشرين من عمره يكن له داي تونس اعجابا كبيرا وينصت إليه في احترام ديوان الجزائر وبلغ به الحماس الديني حدا جعله يصرخ قائلا : « لو فتح في وجهي من جهة طريق السماء وسمح لي بسلوكها وطريق الجزائر من جهة أخرى لفصلت الطريق الثاني ، « ثم مات شهيد حبه للسلم ، ان رجلا كهذا يمثل قيمة انسانية اين منها « دي مولان » ذلك الأضحوكة الجبان الذي أقام بتونس او الفارس « دارفيو » ذاك الدعي الزائف الذي عاش في الجزائر وقد دفعتهما خيائتهما المتوالية إلى التار لنفسيهما بالحث على الحرب .

انساق كولبار إلى تنظيم الحملات ضد البرابرة بايعاز من التجار المقيمين ، انصار استعمال القوة دائما والناصحين تارة « بمسك العصا عالية » . فلم يهوبها في الوقت الذي أراد بل عندما منحه الوضع في أوروبا مهلة ، فما دام لم يحرك الامبراطور ساكنا تتدهور العلاقات مع الاتراك ويؤول الأمر مع البربر إلى الهجمات البحرية - وانتهت حرب هولاندا بالتصالح بين الفرنسيين والمسلمين (1672) ولكن الملك عاد في الفترة الواقعة بن صلح نيمائ (1678) وحرب رابطة او قسبورغ (Augsbourg) إلى سياسة الوعيد المتمثلة في حملات دوكان (Duquesne) بالارخبيل

(1681 — 1684) ورمي الجزائر وطرابلس بالقنابل وحاد موعد الامتحان سنة 1688 فاختارت فرنسا ربط العلاقات الطيبة مع المسلمين .

وكان في امكان « كولبار » التحصيل على أكثر من السلم أي أن يبرم حلفا رسميا ولكنه أبى ذلك ، لا من باب التحري بل خشية افساد عملية تجييش المجدفين ، ولهذا السبب ايضا رفض امكانية التفاهم مع مولاي اسماعيل ، بل انه فوق ذلك رفض الجنوح إلى هذا التفاهم حرصا على عظمة الملك التي لا تتجلى الا في الحروب . وهذا ما يفسر الردود الوقحة التي وجهت إلى مولاي اسماعيل واذنارات دوكان ، وقنبلة سلا ومدينة الجزائر وطرابلس وهي جميعا مظاهر من احتقار لويس الرابع عشر للبرابرة واشعار للدول الأوروبية بان قوة الهجمات البحرية الفرنسية تفوق الهجمات الانجليزية والهولندية . ورغم ان الملك لم يتمكن من اهانة البرابرة كما طاب له فانه رضي في آخر الأمر بالتقارب معهم والتمسك في نفس الوقت باحلامه وظهرت معاهدة المائة سنة المضادة من قبل غليوم مارسال (Guillaume Marcel) مندوب الجيوش البحرية (1689) أنه عدل عن الحرب المقدسة مقابل امتيازات سياسية وتجارية ، وهكذا اختار الملك المغالي في نصرانيته نهائيا واقعية « كولبار » التجارية على حساب التزعة الصليبية المتمثلة في القديس « فانسان دي بول » .

وتوسعت الايالة الجزائرية في أواخر القرن السادس عشر حتى بلغت إلى الحدود التي حافظت عليها إلى سنة 1837 ، وتواصلت التزايدات أثناء القرن السابع عشر بينها وبين الأشراف والمراديين ، وسجلت وفاة علي على نهاية مطامحها من دون ان تضع حدا للمناورات التركية في المغرب الأقصى . وتحركت الجزائر منذ ذلك الوقت عن طريق وسطاء من رجال الدين خاصة او باعانة الثوار ، من ذلك ان الأعيان الأتراك ساندوا الرايس غيلان واحتدت الازمة عندما قام مولاي اسماعيل بهجمتين صدهما الداي شعبان (1691) والداي حاج مصطفى (1701) .

واستدرج الشريف التونسيين في نزاعاته مع الجزائر غير ان الداي شعبان اوقف غزوهم لقسنطينة ونصب أحد أتباعه في تونس (1681) وتدخل مرة أخرى بعد ثلاث سنوات لفائدة عميله وهزم خصومه في

الكاف ودخل الجزائر محملا بالغنائم (1694) وحاول الباي مراد بمعية مولاي اسماعيل الانخذ بثأره ولكنه هزم بين سطيف وقسنطينة (1700) وأصبح استقلال تونس مهددا بل واعتزم الداوي الحاج مصطفى غزوها وانتصر في أول الأمر على إبراهيم ثم رده على أعقابهِ حسين بن علي واضطره إلى التقهقر نحو مدينة الجزائر حيث أطاحت فتنة بعرشه وقطع رأسه (1705) وهكذا اكتست الحروب التي نشبت بين المغرب الأقصى والايالتين اثناء القرن السابع عشر صبغة ظرفية ، ولم ينتج عنها أي تغيير ملحوظ في بلاد المغرب وانما ساهمت في عدم استقرار الحكم في الجزائر وتونس بسبب ما أحدثته من انقلابات في مستوى المسؤولين .

5 - بلاد الجزائر في عهد الدايات والبلاد التونسية في عهد الحسينيين

تدهور مدينة الجزائر :

أضاعت مدينة الجزائر في القرن الثامن عشر ازدهارها - فقد تدهورت القرصنة بسبب ما تم من معاهدات بين الدول العظمى وما تعرضت إليه من هجمات بحرية وما حدث من تناقص في عدد البحارة البارغين في فن القرصنة ، فلم تبلغ الغنائم طيلة تسع سنين اثناء ربع قرن (1765 - 1792) مائة الف فرنك ، ونزل عدد قطع الأسطول من اربع وعشرين قطعة (1724) إلى ثمانية مراكب وجليونتين (1788) في ظرف ستين سنة .

ورفع الرانس حميدو الذي جال البحار إلى سنة 1815 هذا العدد إلى 30 سفينة مستغلا الحروب التي دارت رحاها في أوروبا بعد الثورة الفرنسية ، وعجلت أوبئة الطاعون المتتالية والمجاعات المتعاقبة نتيجة انحباس المطر بتدهور الحالة في الجزائر ، فقد مات في سنة 1787 وحدها سبعة عشر الف ساكن وقضى خمسمائة شخص نحبهم كل يوم في صيف 1817 ، فاذا أضفنا إلى ذلك الفتن التي كانت تغذيها الفوضى السياسية ادر كنا لماذا نزل عدد السكان في أوائل القرن التاسع عشر إلى حوالي ثلاثين ألفا ونقص عدد الوجد حتى انتهى إلى ستة آلاف وعندما اجتل الفرنسيون مدينة الجزائر لم يكن عدد الأسرى أكثر من 122 بعد ان كان 800 سنة 1788 ثم ارتفع إلى 1642 سنة 1816 :

موكسدت التجارة من جراء ما دها مدينة الجزائر من فقر متزايد ولئن وفر ذلك للاروبيين مزيدا من الأمن فقد حرمهم من فرص الاثراء التي عرفوها في الفترات الزاهرة وعندما احتكر الداي التجارة آل الأمر إلى خنقها فلم تبق في أواسط القرن الثامن عشر الا مؤسسات فرنسيتان او ثلاث حلت محلها فيما بعد دار واحدة من مرسيليا تدعى « دار فرنسا » احتكرت كل الصادرات وصمدت بصعوبة امام منافسة شركة إفريقيا الشهيرة .

وتحسن الحال تدريجيا بالنسبة إلى مراكز افريقيا وهي التي انجزت ثلاث مؤسسات بالقالة وعنابة والقل وأصبحت ابتداء من سنة 1714 تصدر القمح بحرية ، ونجح الوزير « موروبا » (Maurepas) في صرف عناية الحجرة التجارية بمرسيليا إلى تطوير هذه المؤسسات وفي وضع الشركة تحت مراقبة الحكومة وقد أصبحت منذ ذلك العهد ملكية (1741) وبلغت هذه الشركة حدا من الازدهار حوالي سنة 1776 تمكنت معه من ضرب ميدالية تمثل افريقيا وهي ماسكة بيديها قرنا يرمز إلى الخصوبة وتبرز منه سنابل ، وكتبت في أسفل هذه الميدالية جملة تشير إلى ثراء مرسيليا بفضل التجارة الافريقية (Aucta libycis Opibus Massilia) .

ولم ينم حجم الصادرات بالنسبة إلى الأمم الأخرى ، اذ خرج منذ زمان كما ذكر ذلك رينال (Rynal) سنة 1775 من حلبة السباق تجار السويد والدانمارك وهولاندا والبندقية ، وبقي في الميدان التجار الأنغليز تمثلهم شركة واحدة أقل شأنا من مثيلتها في مرسيليا لم تنفك أحوالها تسير من سيء إلى أسوأ ، غير ان الجزائر كانت تساهم في تموين جبل طارق .

ولئن احتلت مرسيليا المرتبة الأولى بالنسبة إلى التصدير فان قرنة فاقتها في مجال التوريد من الجزائر وذلك بفضل اليهود ، وفاز الأنغليز بالصدارة سنة 1822 بالنسبة إلى مجموع الايالة اذ كان نصيبهم حوالي نصف قيمة مجموع البضائع وفي الجملة فان رقم المعاملات التجارية في الجزائر بلغ حوالي سنة 1830 خمسة ملايين من الفرنكات تقريبا وهو رقم يعتبر ضعيفا جدا .

وبقيت التجارة الداخلية مدعّمة في النصف الأول من القرن الثامن عشر اذ وجدت في مدينة الجزائر صناعات محلية نشيطة توزع انتاجها في كافة المقاطعات وظلت صامدة حتى سنة 1830 . ولكن تناقص عدد السكان وفقرهم المطرد قضيا على التجارة والصناعات بالإنهيار .

دايات مدينة الجزائر طغاة بلا حرية :

لما حرمت مدينة الجزائر من غنائم القرصنة اتجهت إلى استغلال البلاد ، فقد أخضع نظام الدايات الايالة إلى ملكية انتخابية ولكنها تمارس الحكم المطلق وقد حلّ ضباط الحرس محل الرؤساء لتعيين الدايات منذ سنة 1689 ولم يشترط في تقلد أعلى منصب في الدولة أي شرط مسبق وما دامت الطائفة ماسكة بزمام الأمور فانها تعين الرؤساء اما الحرس فقد خبط خبط عشواء ابتداء من الدايات الخامس الا أن أكثر المنتخبين كانوا من بين خوجات الخيل الآغوات أو الخزناجية فعلي الملمولي (1754 - 1766) عمل حمارا ثم أصبح آغا ، وكان الانتخاب مجرد مظهر إذ أن أربعة عشر دايا من بين الثلاثين الذين تعاقبوا على الحكم من سنة 1671 إلى سنة 1818 فُرضوا فرضا بعد اشغال نيران الفتنة واغتيال اسلافهم .

وكان الدايات حاكما بأمره اذ كان نفوذه محددًا صوريا من قبل ديوان يختار من بين اعضاءه الوزراء الخمسة وهم الخزناجي وهو صاحب الخزينة وآغا المحلة أي القائد الأعلى لجيش البر ووكيل الخرج وهو وزير البحرية وخوجة الخيل وهو وكيل القصر والمكلف بالأوقاف (بيت الملجي) وقابض الضرائب ويعينهم جميعا أمين ماله الخاص خزنदार وكتاب (خوجات) وحجاب (شواش) وكان الدايات يجتنب جمعهم ويستقبلهم أقل ما يمكن بل يؤثر الاتصال بهم عن طريق مترجم القصر .

وكانت مسؤوليته الأولى تتمثل في الحكم بين الناس ، ولم يكن الأتراك والأهالي راجعين بالنظر إلى نفس المحاكم ولا خاضعين إلى شرطة واحدة فالأتراك وهم حنفية يتجهون إلى القاضي الحنفي اما المغاربة الباقون على المذهب المالكي فيقصّدون القاضي المالكي - أما القضايا الجنائية فيحكم فيها الآغا بالنسبة إلى الأتراك وكاهيته بالنسبة إلى المغاربة ، وكان يوجد أخيرا شواش خاصون بالأتراك وشرطة نجدة مقصورة

على المغاربة ، وتنفذ الاحكام بالجلد والغرامات حالا وتنفذ أحكام الإعدام بقطع الرأس أمام قاعة المحكمة بالذات ويعدم المحكوم عليهم بالخنق أو بالخوَزقة على المزاليح المعقفة بباب عزون ، أما اليهود والمرقدون فانهم يحرقون في المكان المخصص لذلك بمكسر الأمواج أو بباب الواد . وكان الداوي يحبل القضايا المدنية إلى القضاة أو في بعض الأحوال إلى مفاتي المالكية أو الحنفية . ويخصص فترة ما بعد الظّهر لشؤون الدولة فيستقبل كبار الموظفين ويوجّه المفاوضات الدبلوماسية وهو الذي يبت في آخر الأمر وعند الاقتضاء في أمر السلم أو الحرب .

وليس للدايات سوى ما يتقاضاه أعلى الإنكشارية مرتبة وذلك احتراماً لفكرة المساواة النظرية ، غير أن ما يدفعه لهم الموظفون وخاصة البايات عند تسميتهم وهدايا القناصل أو الملوك ونصيبهم من الغنائم وأرباحهم من العمليات التجارية التي يمارسونها قدر عليهم مداخيل إضافية وفيرة ، فإذا اغتيل أحدهم رجعت ثروته وهي طائلة في أغلب الأحيان إلى الخزينة العامة .

وكان يُوقف جانب من ثرواتهم على المشاريع الدينية فقد شيّد محمد بن عثمان (1766 - 1791) وهو من ألمع الدايات في القرن الثامن عشر جامع السيّدة الموجود قرب القصر والذي يؤمّه زعماء الأيالة . وأسرع الفرنسيون إلى تهديمه من دون فائدة تذكّر سنة 1830 وكاد جامع المصيدة (La Pêcherie) أن يلاقي نفس المصير وشيّد بابا حسن خلف محمد بن عثمان جامع كمشاوة سنة 1794 وأصبح بسبب التغييرات المسطرة عليه، لجعله كتدرايسة، مبنى ممسوخا رغم أن بعض الملامح تشير إلى بقايا قبة المئمنة الاضلاع بعقود زواياها مزينة بالربيعيات والتي تغطي مساحة مربعة الشكل طول ضلعها أحد عشر مترا ونصفاً كما تذكر هذه البقايا بأروقة هذا الجامع الجانبية وأقواسه المنكسرة المعتمدة على اسطوانات تيجانها بصيلية الشكل . ويرجع إلى نفس الفترة بناء جامع سيدي محمد بن عبد الرحمان في مقبرة الحامة ويدعى بوقبرين وهو الرجل ذو القبرين لأن قرية في بلاد القبائل تدعى انه مدفون بها ، وأذن الداوي حسين وهو آخر الدايات ببناء جامع القصبة واعادة تشييد جامع

السفير الذي ليس له الا ثلاثة اروقة لأن الجهة الخلفية الموازية للقبلة خالية من ذلك .

ان كل هذه الجوامع الجزائرية « التي تتميز اساسا بقاعة رئيسية تغطيها قبة بزواياها الثمانية وتحيط بها اروقة » (ج. مارسى) مستوحاة من النمط الأنصولي .

ورغم السلطة التي كان الداى ينفرد بها فانه لم يكن في مأمن من الاخطار بل كان في الواقع يحوم حوله الموت بدون انقطاع فما ان ينتخب حتى يصبح ملكا للدولة التي تفصله عن ذويه لان المراسم لا تسمح له بالتمتع بالحياة العائلية في داره الخاصة الا نصف نهار وليلة واحدة في الاسبوع وكان عدد كبير من الدايات رجلا ممتازين ولكن اغلبهم من القساة ، ذلك انهم يظنون مثل القس نامي (Némi) ان المنافسين يتربصون بهم الدوائر لاغتيالهم وأخذ مكانهم فتدفع هذه الخشية حتى الطيبين منهم إلى استعمال ابشع مظاهر القسوة .

وترك علي خوجة سنة 1816 الجنيّة خوفا من انتفاضات الحرس واحتفى بقلعة القصبة حيث أعدت له غرفة خاصة وأقام بها حريمه وهيئة قاعة الحكم تحت أحد أروقة الطابق السفلي — أما الشرفة التي شهدت حسب الروايات ضربة المروحة فهي عبارة عن رواق من خشب أقيم في دخلة من الطابق الثاني . وقد أصاب المؤرخ الاسباني « خوان كنو » عندما وصف الداى بأنه « رجل ثري لا يتصرف في كنوزه وأب بدون أولاد وزوج بلا زوجة وطاغية غير حر وملك لعبيد وعبد لرعاياه ».

حكومة الايالة :

إن الحكم بالنسبة للاتراك صناعة سعوا جاهدين إلى أن تدر عليهم أوفر الارباح .

وكانت مقاطعة مدينة الجزائر تعتبر ملكا خاصا للداى (دار السلطان) وراجعة اليه بالنظر يتصرف فيها بواسطة آغا الصبايحية الذي يقوم مقام الباى واربعة « قياد » من الاتراك . وكان يؤثر مدينة الجزائر بنظام خاص تحت رقابة الخزاناجي ويوجد على رأس كل فئة من السكان — ما عدا

فئة القبائل - وعلى رأس كل خرفة ، مسؤول يسمى الأمين وترجع إليه الشرطة والمحاكم بالنظر تحت رقابة شيخ البلد . وكانت الحفريات والأسواق والأنهج والحمامات ودور الخناء تحت مسؤولية موظفين خاصين بها وكانت شرطة المدينة في مستوى مرضي للغاية .

أما باقي الايالة فقد قسمت إلى ثلاث مقاطعات (بيليك) بيليك الغرب وعاصمته على التوالي مزونة (جنوب شرقي رينو) ثم مسكرة (1710) وأخيرا وهران (1792) وبيليك الوسط أو تيطري وعاصمته مدية وبيليك الشرق أو قسنطينة ويوجد على رأس كل بيليك باي يعينه الداى عادة من بين أكثرهم استعدادا للمهاداة . وكان البايات يتصرفون في مقاطعاتهم تصرف الملوك مثل محمد الكبير في وهران والحاج أحمد في قسنطينة الذي جلب خبراء مشهورين لتشييد قصر ليست اناقته في مستوى مارصده له من أموال تحوط به حديقتان وعدة ساحات ، وكان الدايات لا يطمثون إلى ولايتهم فيعطون إلى مبعوثي البايات (خليفة) مرتين في السنة بمناسبة قدومهم لتسليم محاصيل الضرائب ، قفطانا شرفيا (خلعة سنية) هدية لاسيادهم ، وكان على البايات ان يتقدموا بأنفسهم كل ثلاث سنوات إلى الجزائر لتسليم الاموال المتأتية من الضرائب ، وهي بالنسبة اليهم مغامرة يتركون فيها دائما جانبا من ثروتهم ويخسرون غالبا وظيفهم ويقضون احيانا نحبهم . غير ان الداى كان يقرأ لهم حسابا حتى في مدينة الجزائر كما تشهد بذلك رواية تخلص « تدنا » من الاسر كما نشرها « أمريت » ، وكان باي تيطري أشد البايات خطرا على الداى لقربه من العاصمة لذلك اقتطعت مدية من جهته واثرت في طريقه الأشواك بسبب تدخلات المسؤول عن هذه المنطقة الذي عينه الآغا .

وينقسم كل بيليك إلى جملة من « الاوطان » يضم كل واحد منها في الغالب عددا من القبائل ويحكمها « قياد » يجمعون بين أيديهم الساط المدنية والعسكرية والقضائية - ويساعدتهم في الحكم رؤساء القبائل والمشايخ الذين يعتمدون بدورهم على رؤساء « الدواوير » وتمثل مسؤولية هؤلاء « القياد » بالخصوص في السهر على توزيع الأراضي وحياتها لضبط مقاييس توظيف الأداءات ثم يسهرون على استخلاصها

بإعانة المشايخ وبعين الباي القياد باقتراح من الأغا أو غيره من كبار الموظفين الذين يرجعون اليهم بالنظر فيتسلمون طابعا وبرنسا أحمر وكانوا كلهم اتراكنا بينما يتنسب المشايخ إلى أكهر قبائل « الوطن » شأنا ، ويتفق احيانا ان يتركب « الوطن » من قبيلة كبرى واحدة فيصبح شيخها قائدا عليها ، فقد تفككت المجموعات العمرانية الكبرى المعروفة في القرون الوسطى واندمجت عناصرها في فئات أخرى واندمج كذلك نهائيا العرب والبربر بعضهم ببعض اما الفئات الثانوية المستقرة في الاراضي الفقيرة البعيدة عن مناطق النفوذ التركي مثل اولاد نابل والصحراويين فقد صمدت أكثر من غيرها أمام هذه التحولات بل زاد عدد افرادها وامتدت جذورها وأخيرا ظهرت فئات أخرى تجمعها أواصر الدين مثل اولاد سيدي الشيخ في ولاية وهران .

وكان الباي يعتمد في حفظ الأمن بولايته واستخلاص الضرائب على قبائل مخزنية معقاة من الضرائب غير الدينية فيمتصون القبائل المغلوبة على امرها امتصاصا . وكان تواطنوهم على قدر اخلاصهم لرؤسائهم ثم ان الاتراك اقروا إلى جانب ذلك في النقط الاستراتيجية مجموعات عسكرية تسمى الواحدة منها زمالة لحفظ الأمن بالجهة مقابل اعفائها من الاداءات .

وكان البايات لا يكثرثون بتقاليد رعاياهم وعاداتهم ماداموا يدفعون الضرائب ولا يعترضون سبيل جيوشهم .

ظهورات وحروب :

ان سلطة الدايات لم تتجاوز في واقع الأمر حسب « رين » سدس بلاد الجزائر الحالية . ذلك أن جمهوريات بلاد القبائل والقبائل الرحل في النجود والجنوب والامارات المحاربة او الطرقية مثل امارة توفرت أو عين مهدي عاشت كلها مستقلة استقلالاً تاما ، وارتبطت بهم مجموعات أخرى مثل اولاد سيدي الشيخ بروابط ولاء واهية - بل انه كان على الحكومة ان تخشى تألف القبائل المستقرة في المناطق الخاضعة لهم لذلك كانت تعتمد على اضرام نار الفتن بينها اتقاء لشرها وتراعي وتداري نفوذ الأشراف واصحاب الطرق .

ومهما اظهر الحكم مهارة فانه لم يسيطر أبدا على البلاد السيطرة التامة ولم تنفك بلاد القبائل في تمردها رغم المراكز العسكرية التي أقرها الأتراك في وادي سبو ورغم تدخلاتهم في الخصومات القائمة بين العروش بالاعتماد على الأشراف المحليين . وقضى الداوي محمد بن عثمان المعروف بحزمه (1766 - 1791) سنوات عديدة للانتهاء من أمر هذه الثورات . وكانت الفن التي اثارها في اوائل القرن التاسع عشر طريقة الدرقاوة والتي اوعز بها من قريب او من بعيد مولاي سليمان سلطان فاس أشد خطرا . فالولي ابن شريف هو الذي اشعل نار الفتنة في وهران بينما نادى بالثورة ابن الاحرش أحد الأشراف الدرقاوية المتصل أغلب الظن بالانفليز في قبائل البابور واضطر الأتراك إلى التخلي في الغرب عن مسكرة وحوصروا في مشوار تلمسان في حين اقتيد باي قسنطينة أسيرا وقتل . ولم تلبث أن عمت الفتنة البلاد كلها من الشلف إلى حدود المغرب الأقصى . ثم أخذ الأتراك يسيطرون شيئا فشيئا على الوضع ولكنهم لم يمنعوا مواطن الفتنة من التكاثر . فهزمتهم ابتداء من سنة 1810 إلى 1815 قبائل البابور وبني فليسة وتيطري وشاركهم بعد ذلك التونسيون . وعزز عمل الدرقاوة اولياء تيجانية عين المهدي وخاصة عندما تحققوا من حماية مولاي عبد الرحمان الشريف الجديد بالمغرب الأقصى . ولما بدأ الصراع بين فرنسا والايالة لم يتمكن الداوي بعد من ارجاع نفوذه إلى ما كان عليه .

وحاول الدايات المنهمكون غربا في التصدي إلى مناورات المغاربة ان يخضعوا في الجهة الشرقية البلاد التونسية بحد السلاح مستغلين خصومات الحسينيين فاحتلوا تونس ونهبوها واجبروا البايات على دفع آتاوة سنوية (1756) ولم يتوقف الصراع الناتج عن محاولات البايات طيلة خمس وستين سنة للظفر بالاستقلال الا بفضل وساطة الباب العالي (1821) .

واغتنمت الدول العظمى تدهور الأمور في مدينة الجزائر لجبرها على احترام مراكبها وذلك باغرائها بالاموال أو بالهدايا بلون الهجوم إلى الهجمات البحرية بل ان سبعة دول وهي الولايات المتحدة وهولاندا والبرتغال ومملكة نابولي والسويد والنرويج والدانمارك رضيت بدفع آتاوة سنوية . وحاولت إسبانيا بمفردها في القرن الثامن عشر الهجوم على

مدينة الجزائر . وكان ذلك بمثابة الانتفاضات الاخيرة في سياستها تجاه الجزائر . فقد تخلت اثناء الاضطرابات التي تبعت الحرب من أجل العرش عن وهران ومرسى الكبير (1708) بل اضطرت إلى الانتظار طيلة ربع قرن لاسترجاعهما (1732) . وأصبح أكبر المحصون في وهران الذي بلغ عدد سكانه في آخر الأمر عشرة آلاف مدينة تحتضن حامية وتسعى إلى تقليد مدريد في مراسمها مما جعل القوم ينعنونها في لهجة لاتخلو من تبجح بالبلاط الصغير (Corte Chica) وظلت الجيوش توالي غزواتها في دائرة تقارب مائة كيلو متر وتقرض على القبائل الخاضعة لها ضريبة من الحبوب (رومية) وبقي التموين رغم هذا الاداء وشرائط المواد الغذائية من الاهالي مرتبطا بما تجود به المواني الاسبانية وخاضعا للازمات الاقتصادية الخطيرة من دون أن تبلغ الدرجة التي عرفتها في عهد « الكونت ألكوديت » . ولعل « اوريبي » (O'Reilly) قصد اجتناب هذه الصعوبات فاضطر إلى الانسحاب من الغد بعد ان قرر انزال جيش يعد خمسة وعشرين الفا قرب الحراش بعد أن أبعد عشر جنده (8 جويلية 1775) ولاشك أن هذه الصعوبات هي التي تسببت في رمي « دون انجيلو برسولو » البلاد بالقنابل على كرتين (اوت 1783 - جويلية 1784) ثم كان امضاء معاهدة كلفت اسبانيا ثمنا باهظا ودعمت هذه الخييات تشاؤم بعض الاوساط الاسبانية المحترزة في التدخل في الأراضي الافريقية - فكان زلزال اكتوبر سنة 1790 الذي هدم وهران بمثابة هدية الاقدار التي مكنت ولاشك من الضغط على الارادة الملكية . وعلى كل فان الاسبان سلموا الداى القاعدة بمقتضى معاهدة 12 سبتمبر 1791 وجلوا عنها في السنة الموالية .

وتوترت العلاقات بين الايالة وأوروبا ابتداء من سنة 1792 ولاشك أن وكالة إفريقيا واصلت التصرف لفائدة الدولة في الشركة القديمة التي أمرت بحلها هيئة الانقاذ العمومي (8 فيفري 1794) ولاشك كذلك أن الجمهورية قبلت بارتياح شحنات الحبوب والقروض بدون فائض التي اسندها اليها الداى . غير أن نابليون فكّر في الرجوع إلى سياسة لويس الرابع عشر . ولئن هو لم يقدر على تنفيذ فكرته فقد أذن الرائد « بوتان » (Boutin) قائد الهندسة العسكرية (جويلية 1818) بالقيام برسوم ودراسات

على العين كانت حصيلتها تقريراً شافياً استفادت منه الحملة العسكرية في سنة 1830 .

ورفضت فرنسا غداة انهيار الامبراطورية الموافقة على المشاريع التي ضببتها ندوات لندن للقضاء على القراصنة (1816) فأثرت ابقاء القرصنة على دعم الهيمنة الانكليزية على البحار . ولم يتوفق مؤتمر ايكس لاشايبيل (Aix-La-Chapelle) الا إلى ايفاد قائدين للبحرية أحدهما فرنسي وثنائهما انكليزي باسم أوروبا فقبلهما الداي سآخرًا وانتهى الأمر بالدول العظمى إلى أن تعمل كل واحدة منها على حدة ، من ذلك ان الولايات المتحدة توصلت إلى ابرام معاهدة في صالحها بقوة المدافع (1815) وقامت عمارة انكليزية يقودها اللورد « أكموث » (Exmouth) وقائد البحرية الهولندية « فان كابلان » (Van Cappellen) بأجراء عمالية عرفت في ذلك الوقت إذ اقتحمت المرسى في حماية راية التفاوض وامطرت الاسطول والمدينة بـ 34.000 قذيفة وسحقتهما ولكنها اصطدمت بمقاومة شديدة خسرت فيها 883 رجلاً (27 اوت 1816) . وقام أمير البحر « نيل » بعد تسع سنوات بمحاولة لم تأت بأية نتيجة (1825) ولم يؤثر كل ذلك في الطاقة الدفاعية لمدينة الجزائر .

وكان في امكان الايالة ان يطول صمودها لو لم يقع الداي ضحية المساومات المالية ومناورات القنصل « دوفال » المربية التي مهدت إلى مشهد صفقة المروحة (30 افريل 1827) التي اقتضت ضرورات السياسة الداخلية الفرنسية تنظيم حملة بعد ثلاث سنوات وانتهت باحتلال مدينة الجزائر . (5 جويلية 1830) .

البلاد التونسية في العهد الحسيني :

أحدث القرن السابع عشر تغييرات كبيرة في البلاد التونسية . فلقد اقام البايات المراديون نوعاً من الحكم الوراثي ، واستحكم امر عدة عائلات عربية وبربرية في وسط البلاد وجنوبها وتمكنت الايالة من صيانة استقلالها ورد الهجمات الجزائرية . وركز الحسينيون ابتداء من القرن الثامن عشر بصورة رسمية الملكية الوراثية ولكنهم اضطروا إلى مقاومة

الهيمنة الجزائرية وخاصة تسلط الدول الأوروبية العظمى المتزايد مع الحرص على إبرام علاقات عادية معها .

ولم يقنع مؤسس الدولة الحسينية حسين باي وهو المعروف بخذره وحزمه وذكائه بتعيينه بايًّا من قبل الآغوات (1705) بل ضمن لآحفاده شرعية وراثية العرش عن طريق مجلس خاص (1710) وعرفت تونس في عهده ازدهارا اقتصاديا حقيقيا . فلاحظ بيسونال (Peysonnel) سنة 1724 مدى أهمية المواد الأولية المستعملة في صناعة الشاشية وتصدير القمح والجلود والشمع العسلي والأسفنج والتمر وكذلك توافد القوافل الآتية من المغرب الأقصى وفزان . فكسر لذلك عدد الأجانب المقيمين ، إلا أن العقبة الوحيدة التي كانت تعترض التجارة تتمثل في « شح الباي الذي احتكر النشاط التجاري لهذا الميدان وخص نفسه ببيع البضائع باثمان باهظة » بينما اتفقت كلمة الأجانب على التنبؤ باستقامة التجار التونسيين ، وابرم الباي مع فرنسا (1710 - 1728) وانقلترا (1716) وإسبانيا (1720) وهولاندا (1728) والنمسا (1725) -- وهكذا ركز علاقاته الدولية دون تدخل الباب العالي . غير أن تأثيره على القراصنة كان محدودا مما تسبب مرتين متواليتين في ارسال عمارات فرنسية إلى حلق الوادي (1728 - 1731) وكان وضع البلاد في أول الأمر حسنا جدا . وكتب في ذلك محمد الصغير بن يوسف قائلا : « - وامنّت الطرقات وكثرت في أيامه الخيرات فعمروا الرباع والرباض وبنوا القصور بأمنه المستفاض ما لم يكن في زمن غيره » . وأعلى حسين باي سور القيروان وأعطاه شكله الحالي وبنى عدة مدارس وحقق مشاريع كثيرة ذات مصلحة عامة .

غير أن ثورات ابن أخيه علي باشا الذي اقصاه عن الحكم اولاد حسين باي الذين انجبتهم علجية من جنوة احدثت اضطرابات خطيرة (1729) واستعان ابن علي باشا بالجزائريين وحاصر الباي بالقيروان طيلة خمس سنوات وتمكن في آخر الامر من القاء القبض عليه وقطع رأسه (18 ماي 1740) .

واشتهر الباي الجديد (1740 - 1756) بتطرفه في نزعه الاستقلالية وعرف كيف يقنع القناصل بذلك عندما أكد لهم انه يريد أن يبقى سيّدا

في بلاده وكان يعتقد. وهو محق في ذلك أن الفرنسيين يشجعون قيام الثورات في بلاده فكان يكنّ للقنصل عداوة شخصية تجلت بالخصوص عندما تورّط هذا القنصل في قضية امرأة وانتهى به الأمر إلى قطع العلاقات مع فرنسا (1741) وزاده موقف شركة افريقيا غضبا على غضبه ، ذلك انه احتجز رسالة لمدير الرأس الأسود يدعى فوفاس (Fougasse) يكشف النقاب عن خطة لغزو طبرقة التي اعتزم جماعة لومليني (Lomellini) التخلي عنها « ذلك أن احتلال الجزيرة لا ينشط التجارة الفرنسية تنشيطا كبيرا فقط بل إن هذا المركز الهام من شأنه ان يمكن فرنسا من فرض ارادتها على باي تونس وعلى كل الدول البربرية » (ب. ماسون) وهكذا تشابه برنامج فوفاس ومشروع سنسون نابولون وكشف كلاهما عن نفس الاغراض الامبريالية .

وسبق الباي الاحداث فاستولى على القاعدة ثمّ الرأس الأسود فحاول ضابط بحرية فرنسي الاستيلاء على الجزيرة في غفلة من أهلها وانكشف امره وعزل « فوفاس » رسميًا جبرا لخاطر الباي غير انه احتفظ في الواقع بادارة القالة ممّا أقام الدليل على أن الحكومة نظرت بعين الرضا إلى محاولة الغزو . واضطرت الحرب الأهلية علي باشا كما شجعه كرم تاجر فرنسي مدعّم بحضور عدد من « الفرقاطات » على ابرام معاهدة سلم تقضي بارجاع المراكز التجارية إلى سالف عهدها ولكنها تفرض على قنصل فرنسا الخضوع إلى مراسم تقييل اليد (9 نوفمبر 1742) .

واستجاب الباي إلى رغبات البلاد فبنى خاصة المدارس ومن أهمها المدرسة الباشية وهي مستوحاة كغيرها من حيث معمارها من نمط المدارس المصرية في احتوائها في نفس الوقت على فصول الدراسة وضريح المؤسس وحفّة عمومية ، وزاد الباي ايضا في القصر الحفصي القديم بباردو قاعات وزخرفها في بعض الاحيان على الشكل الاوروبي وفتحها على فنانين تحوط بكل منهما اروقة .

واضطربت الاحوال في آخر عهد علي باشا من جراء ثورة ابنه فاغتنم الجزائريون الفرصة لغزو تونس ودخلوا العاصمة من دون عناء وقضوا على الباي وقطعوا رأسه ونصبوا محمّدا أحد ابناء حسين بن علي بابا واضطروه إلى دفع اتاوة لهم (1756)

ولم تدم فترة حكم محمد الآ ثلاث سنوات تمكن فيها من بسط الامن في البلاد - واشتهر باستقامته ، وطيبة قلبه في معاملاته مع التونسيين والاجانب لمهارته ولباقة ، واعتلى العرش من بعده أخوه علي باي (1759 - 1782) فعرف بذكائه الحاد ورغم تدخلات الانقليز المزهوين بانتصارهم في حرب السبع سنوات فانه لم يظهر عداوة للفرنسيين واعترف لهم باحتكار صيد المرجان في السواحل التونسية كما ميزهم بحق فتح مصرف في بنزرت (1768) وعندما الحقت فرنسا جزيرة كورسيكا بترابها احدثت قطعة لم تدم طويلا نظرا إلى أن ذلك من شأنه ان ينال من المصالح التونسية - وكانت آخر قطعة ، وأعطى الباي الشركة جزيرة جالطة (شمال شرقي طبرقة) عوضا عن رأس نيفرو الذي كان الاهالي يطردون منه التجار الفرنسيين المقيمين بطلقات البنادق عوضا عن بنزرت التي طالبت بها فرنسا (1770) ثم سمح الباي بتركيز اربعة مصارف على ساحلي الوطن القبلي (1781) وكانت فرنسا مدينة بهذا الوضع الممتاز اولا وبالذات إلى مصطفى خوجة صهر الباي ووزيره الاول الذي عرفت الادارة التونسية على يده ازدهارا مجددا .

أمّا حمودة باشا ابن علي (1782 - 1814) وهو أمير شاب معروف بنزعه الاستقلالية وحماسه المتقدم ، فقد صمد أكثر من سابقه في وجه الهيمنة الاوروبية . وقطع العلاقات مع البندويه التي رمت سوسة بالقنابل (1784) وهدمت مدينة حلق الوادي أو كادت (1785) من دون أن تليّن له قناة ورضي بابرار معاهدة مع اسبانيا عندما تمكن من فرض شروط ثقيلة الوطأة عليها (1790) وقطع كذلك روابط الولاء إزاء مدينة الجزائر التي شنت هجومين متتاليين عليه باء كلاهما بالفشل (1807 و 1813) وارسل ايضا جيشا إلى طرابلس لارجاع الباشا إلى منصبه واثناء ذلك اغتتم فرصة تمرد الانكشارية لحلّهم والتخلص منهم نهائيا مستعينا في ذلك بالسكان (1811) ولم تحدث بينه وبين فرنسا سوى ثلاث خصومات فقد صادف عهده ازدهار التجارة الفرنسية التي بزت تجارة كل الأمم الأجنبية بما فيها تجارة اليهود بفضل التجار المتجولين من مقاطعة بروفانس الذين لم تفتأ ملاحتهم الساحلية تزايد في ذلك الوقت ،

غير أن الحروب التي تبعث الثورة الفرنسية وصاحبت امبراطورية نابليون أضرت بهذا الوضع الممتاز .

وشيد حمودة باشا في فترة حكمه الطويلة قصرا كبيرا سماه دار الباي غير بعيد عن القصبة - وبني فيه قاعة للاستقبالات فسيحة الارحاء على شكل قريب من شكل الف ممدودة لها مقصورة كبيرة ولعل زخرفة هذه القاعة كانت من صنع مغارية ، وأقام قصرا بمنوبة نقلت ظلة منه إلى حديقة البلفدير (قبة البلفيدير) ونحن مدينون إلى وزيره الخطير يوسف صاحب الطابع بجامع الحلفاوين المشهور بطاقاته نصف الاسطوانية التي تفصل بين أروقه التسعة المستفة وبخصائص أخرى تشهد أكثر من غيرها من المعالم المعاصرة على التأثير الاوروبي .

واعلى العرش محمود باي (1814 - 1824) ابن محمد باي بعد ثلاثة أشهر من حكم عثمان باي أخي حمودة باشا واضطرته الدول الاوروبية العظمى إلى ابطال الرق رغم النتائج السيئة التي نتجت عن هذا الاجراء الفجئي على الاقتصاد (1819) وادرك ضرورة التقارب مع الوجود للقدرة على الصمود أمام ضغوط الدول العظمى غير أن الايالتين لم تبرما سلما دائمة الا بعد عامين من ذلك التاريخ من دون حماس كبير (1821) .

ولم تتغير هذه السياسة عندما اعتلى ابنه حسين باي العرش (1824 - 1825) وانتهت جولة جديدة من التنافس القائم بين فرنسا وانجلترا بتسليم لزمة صيد المرجان بطبرقة والسواحل إلى انجلترا التي قدمت عائدات أوفر . ولما حطمت السفن الفرنسية الأسطول التونسي في نهياران (Navarain) استشاط التونسيون غضبا على فرنسا (1827) غير أن الباي لم يغتنم فرصة انهيار العلاقات بين فرنسا والجزائر للتعبير عن هذه النقمة وبصورة عملية اكتفى باظهار شماته لما حل بالايالة المجاورة شأنه في ذلك شأن الشريف المغربي الذي كان يرأسه بواسطة الاولياء المتسولين . لذلك تظاهر بالحياد الكامل بل انه لم يتردد في مدّ باريس بمعلومات عن الوضع الداخلي بالجزائر وما كان أحد ليتنبأ في ذلك الوقت بان حملة فرنسا سنة 1830 ستؤول إلى احتلال مدينة الجزائر ثم كامل البلاد الجزائرية بصورة دائمة ولا من باب أولى وأحرى أن يتوقع احتلال البلاد التونسية وبلاد المغرب الأقصى .

الخاتمة :

اتجهت الايالتان اللتان اسسهما الاتراك في إفريقيا الشمالية واللذان لم يلبث منذ انبعاثهما أن تفرق جمعتهما وجهتين مختلفتين اختلافا كبيرا . فقد اندمج الاتراك شيئا فشيئا في تونس وهي بلاد عريقة في حضارتها - ويمكن الجزم بان ذلك تم في اوائل القرن التاسع عشر وان الدولة الحسينية أصبحت دولة تونسية : ونحن اذا استثنينا عددا من الألفاظ المستعملة في الادارة وبعض العادات التركية أمكننا اعتبار البايات وضباطهم من أهل البلاد .

ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة لمدينة الجزائر حيث عاش الفاتحون على هامش البلاد إلى سنة 1830 ، ولاشك ان أحد اسباب هذه الظاهرة هو انصراف الاتراك إلى شؤون البحر وعدم اكتراثهم بالبلاد نفسها ولكن يجب أن نعترف ايضا بأن فقر البلاد الجزائرية الحضارية بلغ حدا حال دون « هضم غازيها المتعالي » وان البربر المتمسكين بشخصيتهم تمسكا شديدا والموجودين في الجهات التي استقر فيها الاتراك بالذات لم تكن لهم مع المشاركة نفس الوشائج التي كانت لسكان البلاد التونسية المتعربين .

ومخلاصة القول فان البلادين رغم خضوعهما لسلطة واحدة في أول الأمر سرعان ما اختلفتا في الاتجاه . فظالت احدهما بلدا مغزوا لا يضرر العداوة لغالبه لكن من دون اتصال حقيقي معه ، بينما هضمت الاخرى الوافدين عليها شيئا فشيئا وسعت إلى أن تجعل منهم تونسيين أشبه ما يكونون بغيرهم من التونسيين .

الباب السابع

نَظَرَةُ إِجْمَالِيَّةٍ

لما نزلت الجيوش الفرنسية بسيدي فرج سنة 1830 يكون قد سر على دخول الاسلام إلى إفريقيا الشمالية اثنا عشر قرنا ، ولئن واجه المسلمون في أيام الفتح الأولى مقاومة مستميتة من قبل البربر فانه يظهر أن المسيحية الافريقية لم تصمد في وجه الاسلام صمودا كبيرا ، بل ان الدين اليهودي ، إذا ما نحن سلمنا بان الكاهنة يهودية ، هو الذي واجه الدين الجديد مذهبا ووفق في التصدي له والدليل على ذلك ان المجموعات اليهودية المحلية لا تزال موجودة إلى يومنا هذا بينما آل أمر المجموعات المسيحية بالبلاد الافريقية إلى الزوال في اواخر القرن الثاني عشر ، غير ان الاسلام أصبح بعد مرور ثلاثة قرون أو أربعة دين الأغلبية الساحقة للمغاربة ولعله طبعهم بطابع لن يمحي واكسب كل المدن في هذه البلاد وكل المناطق التي يسهل الوصول اليها اسلوبا في الحياة خاصا بها اما في المناطق الجبلية التي منحتها الطبيعة مناعة أكبر فان الاسلام أثر في المعتقدات ولكنه لم يكسب غير شيئا من العادات التي بقيت وفيّة للماضي .

غير أن الاسلام تكيف في صيغ خاصة عند التحامه بالبرابرة لذلك يجوز الحديث عن اسلام مغربي كما نتحدث عن كاثوليكية اسبانيا أو مقاطعة بريطانيا فلقد نجا الاسلام في المغرب أو كاد من الخصومات المذهبية ، ولم تبق آثار للشيعنة الادارسة ولا للفاطميين . وتبخر المذهب الموحي من دون أن نعرف السر في ذلك رغم شبابه وحيويته في أول أمره ، وظل المذهب الخارجي وحده يتحدى الزمن ممثلا في مجموعتين بربريتين بالمراب وجزيرة جربة إلى اليوم وهما عبارة عن ربوتين بارزتين لا تكادان تغيران شيئا من الملامح البشرية لهذه البقعة من الأرض . وعلى كل فان هاتين المجموعتين الخارجيتين عن الجماعة المستقرتين على هامش المغرب في أماكن قاصية لم تدخل ابدا في صراع مكشوف مع أهل السنة المحيطين بها بل ان بلاد المغرب كلها اوتكاد تتبع تعاليم مذهب فقهي واحد الا وهو المذهب المالكي : ولم يتبن المذهب الحنفي سوى

أحفاد الأتراك المستقرين بالبلاد الجزائرية والتونسية ، وهم جماعات قليلة العدد تقيم في بعض المدن الكبرى في البلدين . ان الدين الاسلامي في بلاد المغرب لم يبق في مأمن من البدع رغم ابتعاده عن الخصومات الفقهية الكبرى ولا يمكن أن ننكر ان نزعة التجسيم قد رانت عليه ، فقد انتشر تقديس الأولياء انتشارا كبيرا كما تشهد بذلك الزيارات اليومية لقبور الصالحين واقامة المواسم حيث يحتفل بذكرى وفاة الولي وأصبح القوم يعددون مناقب الأولياء في كافة بلاد إفريقيا الشمالية ابتداء من القرن الخامس عشر ، وتواجد عندهم في احيان كثيرة الأولياء مع الاشجار والعيون والاماكن الرفيعة بحيث لم يعد مجال للشك في أن تقديس الولي الصالح المسلم يغطي ضروبا عتيقة من التقديس بقي البربر اوفياء لها ، ثم ان الوثنية المنتشرة في العهود الغابرة تغذت بسهولة من الاعتقاد في الجن الذي يقره الدين الاسلامي .

وعلاوة على هذه البقايا من العبادات القديمة التي تختلف درجة وضوحها فان الاسلام تميز في بلاد المغرب بازدهار نوع من الصوفية الشعبية ابتداء من القرن الخامس عشر بالخصوص . ولقد انبثق هذا الدين النابع من القلب في الارياف لا المدن وشع في أذهان أبسط الناس عقيدة وأشدهم حمية لا في عقول الاصوليين والفقهاء الثاقبة . وانتشر شيئا فشيئا في شكل فرق دينية يجمع بين افرادها نسق صوفي واحد أو كما يقال « طريقة » واحدة ، فمنها المتواضعة التي لا يتجاوز عدد مريديها بضع عشرات استقروا في بقعة صغيرة ومنها التي انتشرت في جزء كبير من إفريقيا الشمالية وحيانا عمت البلاد بأكملها ، ومنها المغرقة في الشعبية حتى آل امرها إلى البهلوانية كما كان الشأن بالنسبة إلى طريقة العيساوية الشهيرة . ومنها التي أصبحت مراكز اشعاع لعلم التصوف واستقطبت أكثر العقول تهديبا . ولا يمكن بالاستناد إلى ما وصلت اليه معلوماتنا اليوم أن نعرف بكل دقة الدور الذي لعبته الطرق في تاريخ بلاد البربر ، الا أنه كان دورا كبيرا ولاشك مثلما تشهد بذلك ثورة الدرقاوة على الأتراك بجهة وهران في أواخر القرن الثامن عشر .

ولا يمكن أن نهمل المنزل التي حظي بها كل من اشتهروا بأنهم أعطوا البركة ، وهي منة إلهية لها مفعولها في شؤون الدنيا والدين

وهؤلاء هم أولياء الله الذين يعيشون صحبة أقربائهم ومريديهم فيعطون أحدهم البركة ليكون خليفته في اشاعة تعاليمهم ومواصلة كراماتهم ، وغالبا ما تكون منطقة نفوذهم محدودة غير أنهم أشعوا بعض الاشعاع أحيانا عند نشوب الاضطرابات وظهور القوضى . فقد كاد اولياء الدلاء ان يستحوذوا على الحكم في كامل بلاد المغرب الأقصى في اواسط القرن السابع عشر ، وقد نافسهم في البركة الأشراف وهم المنحدرون من السلالة النبوية الذين عظم شأنهم منذ إدريس الأول وعبيد الله في بلدان المغرب بالنسبة إلى كل الطبقات الاجتماعية ، وآل أمرهم إلى مسك زمام الأمور في المغرب الأقصى حيث يصعب ان نتصور اليوم أن يكون عاهلها من غير سلالة الأشراف - ولئن لم يكن تأثيرهم كبيرا في الجزائر وتونس فانه لا يمكن اهماله على كل حال .

وأخيرا فان الاسلام في بلاد المغرب يبدو كأنه تعوزه الحركية ، ذلك أن العبادات والمعاملات بقيت منذ الحركة الموحدية أي ابتداء من اواسط القرن الثالث عشر هي لم تتطور اللهم الا بدعة واحدة تتمثل في الاحتفال بالمولد النبوي أدخلها رسميا أبو يعقوب المريني وتبناها عن طواغية كل أهل المغرب حتى أصبحت في مستوى عيد الفطر وعيد الاضحى (العيد الصغير والعيد الكبير) ، غير أن حركة مذهبية في مثل أهمية الحركة الوهابية لم تجد أي صدى في المغرب في القرن الثامن عشر رغم الجهود التي بذلها سيدي محمد بن عبد الله سلطان المغرب الأقصى لفائدتها.

وانتصر الاسلام إذن في إفريقيا الشمالية ، فكون العلماء وجلب إلى حضيرته كل الأهالي او كاد حتى ان أجهل الناس وابعدهم عن تعاليم السنة أصبح لا يتردد في بذل حياته للدفاع عن معتقداته البسيطة كما ان الإسلام أكسب هذه البلاد ملامح شرقية ظلت طيلة الفترة الرومانية تحيا على النمط الغربي وارتاحت إلى ذلك على ما يظهر ، غير أنه في الوقت الذي كان فيه الاسلام بالمغرب يتغلغل في النفوس كان ينطوي على نفسه ويفقد روابطه مع المدارس الشرقية ومجموعاتها وينقاد إلى التأثير بالمعتقدات القديمة والعادات البربرية العتيقة ويتحفظ بسبب اغراق المذهب المالكي في المناقشات الشكلية والخلاصة ان الاسلام في المغرب بقي قويا في جوهره ولكنه تحجر وانحرف نوعا ما نتيجة ممارسة المغاربة اياه منذ قرون .

ولم ينجح عن انتصار الاسلام انتصار العرب ، اذ لم تطل سيطرتهم على كافة بلدان افريقيا الشمالية أكثر من خمسين سنة وانتهت نهائيا في أواسط القرن الثامن بالنسبة إلى القسم الغربي منها . أما بالنسبة إلى إفريقيا فقد تم ذلك بعد قرن ونصف .

غير أن الغريب في الأمر هو أنه رغم سرعة زوال تأثير المشرق الاسلامي في المغرب سياسيا فان البربر اضطفوا رؤساءهم من المشرق واستوحوا اعمالهم منه طيلة قرون كاملة .

واذا نحن تركنا جانبا النجاح المنقطع النظير الذي حققه بنو أمية في اسبانيا الاسلامية وجب أن نتذكر ان ابن رستم وإدريس بن عبد الله وعبيد الله وداعيته أبا عبد الله جاءوا جميعهم من المشرق وتمكنوا كلهم بفضل نسبهم الشرقي أو شجرتهم النبوية بالنسبة إلى إدريس وعبيد الله من قيادة قبيلة أو مجموعة من القبائل البربرية فأسسوا بها دولا ، فقد اعتمد ابن رستم على زناة وإدريس على أوربة وعبيد الله على كتامة ، ولمّا عدل البربر فيما بعد عن الامتثال للجانب واستقلوا بالدعوة لانفسهم استمدوا من المشرق المثل العليا التي شددت عزائمهم في الكفاح ، ونشأ سعي أول المرابطين إلى تجديد الاسلام اثناء رحلة إلى الشرق كما تصور ابن تومرت مذهبه اثناء اقامته في بلاد المشرق ولم ينغلق البربر عن كل المؤثرات الخارجية الا ابتداء من عهد عبد المؤمن فلم تنقض على ذلك فترة طويلة حتى زالت الامبراطورية البربرية الكبرى ورجعت البلاد شيئا فشيئا إلى سابق تفككها .

ويظهر اننا بازاء أشد خاصيات تاريخ المغرب عراقة وهي معارضتهم الشديدة للأوامر الصادرة لهم من ذويهم ، وعزيمتهم الفولاذية في تشديد المراقبة على كل من يتقلد الحكم منهم وكذلك عصبيتهم الضيقة التي تحمل القبيلة المنتصرة على غلق باب التفاهم مع المغلوبين والنفور من تشريكهم في اعمالها وبإيجاز عجزهم عن التحول من الروابط العرقية إلى مستوى الدولة . ولم يوفق قائد بربري واحد إلى تجاوز العصبية القبلية . نعم قد حاول ابن تومرت ذلك في تينملل بين قبائل تربط افرادها بعضهم إلى بعض روابط الدم واللغة ونمط الحياة . لكن ما ان نزل الموحدون من جبالهم حتى امتنعوا عن التعاون مع الاقوام التي اخضعوها ، وسرعان ما

أصبحت عائلة عبد المؤمن ، وهو الرجل العظيم ، جماعة جديدة منغلقة على نفسها ضمن الجماعة الكبيرة المنتصرة ، ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا الحفصيون الذين لم يبلغ عددهم في إفريقية حدا يمكنهم من فرض سيطرتهم وحدهم على باقي السكان . غير أنهم لم يقدروا على تأسيس دولة كاملة الانسجام لأن القبائل العربية حالت دون بلوغ هذه الغاية ، والحال أنهم كانوا أوفر حظا لتحقيق مرامهم لأن إفريقية كانت أقل بلاد المغرب تجزؤا بحكم طبيعتها ولأنها إلى ذلك منطقة مفتوحة إلى المؤثرات الخارجية منذ أبعد الدهور يسكنها اناس جاؤوا من آفاق مختلفة وتعودوا الحياة بعضهم مع بعض ولأنها أيضا زاخرة بالمدن عامرة بالحضارات إلا أن وجود العرب البدو أفسد عليها إلى حد كبير هذه المؤهلات الكفيلة بالتطور والرقى إلى مستوى الدولة .

ولم يتخلف مؤرخ واحد منذ ابن خلدون عن ذكر أهمية الحدث العربي في إفريقيا الشمالية ، وإن تغلغل بني هلال ومن جاؤوا بعدهم بصورة بطيئة وثابتة في نفس الوقت غير حسب ما يقال التوازن السياسي في بلاد المغرب ، والواقع أن التغيير شغل أيضا وبالخصوص التوازن الاقتصادي ، فالمناخ والتضاريس جعلت من إفريقيا الشمالية بلادا فلاحية ورعوية في نفس الوقت إلا أن التوفيق صعب بين هذين النمطين من الحياة لاختلاف مقتضياتهما ، ويظهر أن الرومان اقصوا الرعاة في اتجاه الجنوب ما أمكنهم ذلك ومما يلفت النظر في هذا الصدد هو أن حدود الوجود الروماني توافق تقريبا ، بحسب ما توفر لدينا من قدرة على الضبط ، الخط الذي يمكن اعتباره فاصلا طبيعيا بين الرعاة والفلاحين أي الخط الذي يتوغل كثيرا في الجنوب بالبلاد التونسية ومقاطعة قسنطينة ويقترب من البحر بصورة جلية كلما اتجهنا نحو الغرب حتى إذا بلغنا جهة تلمسان حيث تقترب الصحراء أو السباسب من البحر قربا كبيرا أصبح مجرد حاشية موازية للسواحل

إن التوازن الذي فرضته السيطرة الرومانية واقتضته في نفس الوقت أحوال البلاد لم يختل بزوال الرومان ، ولم يمحه الفاتحون المسلمون الأولون لأنهم لم يكونوا رعاة بالجزيرة العربية بل حصرا من الشرق الأدنى ولم تؤثر كذلك تأثيرا كبيرا الخصومات السياسية التي عقت

الفتح الاسلامي وبقي المغرب كما وصفه ابن حوقل في أواسط القرن العاشر بلادا فلاحية تكثر فيها الغابات ويعمها الازدهار رغم ما قامت به قبائل زناة الرحل من محاولات لمنازعة قبائل كتامة الحضرية في التفوق وبسط النفوذ ، ولئن تمكنت زناة من التسرب إلى أقصى بلاد المغرب فانهم لم يفلحوا في اقتحام مناطق غمارة وبرغواطة ومصمودة الفلاحية .

ولمّا زحف العرب الرحل تغيير كل شيء ، وقد شك المؤرخون في كثرة عددهم ولعلمهم محقون في ذلك ، غير أنه يكفي ان يحل بالصحراء بضعة آلاف من البشر والحيوانات ليضيق المتسع الحيوي بأهله ، فكلما توافد العرب اضطرت القبائل البربرية الرعوية التي احتفظت بنشاطها التقليدي إلى التقهقر نحو الغرب والشمال أي في آن واحد نحو أراضي الفلاحين . وتم هذا المد بصورة بطيئة ولكنها ثابتة ولم يلبث الفلاحون ان وجدوا انفسهم مطاردين من المعز والغنم التي ضيقت من الاراضي المزروعة وأفسدت الأشجار المثمرة ولابد ان نسلم بأن هذه الثورة غير المشعور بها والعميقة في آن واحد التي طرأت على توازن البلاد الداخلي ليست غريبة عن التدهور السياسي الذي حل ببلاد المغرب بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر .

وحدث في القرن الخامس عشر عامل جديد أثر في توازن القوى المتقابلة الا وهو حضور النصارى في إفريقيا . وأسهم أهل المغرب الأقصى إلى حد ذلك التاريخ في الدفاع عن الاسلام باسبانيا وكان حظهم متفاوتا غير ان هزائم أبني الحسن سنة 1340 و 1343 وضعت حدا لتدخلاتهم وعبر البرتغاليون سنة 1415 مضيق جبل طارق واستقروا للمرة الاولى منذ الفتح العربي في أرض اسلامية .

ولئن ظل هذا النجاح فريدا في نوعه مدة طويلة فسرعان ما ترتبت عنه نتائج هامة ، ذلك أن وجود أقوام غير مسلمة في المغرب الأقصى ، ولو انحصر في شبه جزيرة صغيرة في طرف البلاد احدث حركة دينية تنقد حماسا وكان لها مفعول أعظم مما لوحظ في عهد الموحدین خاصة انه لم تنبثق من ذهن رجل مذهبي مثل ابن تومرت بل انبثقت من ضمير الشعب ، وبدأ عدد الاولياء رجالا ونساء يتكاثرون بجوار سبتة في الهبط والجبل داعين المسلمين للدفاع عن عقيدتهم المهددة ثم توسعت الحركة

من هذا المنطلق بالقادر الذي كان يتغلغل فيه البرتغاليون في سواحل المغرب الأقصى حتى بلغ الأماكن القاصية في الدرعة والسوس حيث ظهر الأشراف السعديون ، ولم يلبث الحماس الديني ان تحول إلى كره للأجنبي إلى حد جعل السعديين لا يترددون في التحالف مع الاسبان لمزيد القدرة على مقاومة الأتراك المتمركزين بمدينة الجزائر رغم انهم مسلمون ، اذ اعتبروهم اجانب يهددون بالتوغل في المغرب الأقصى بينما توارى خطر الاسبان .

وكف المغرب الأقصى من ذلك التاريخ عن المشاركة في حياة إفريقيا الشمالية وانطوى على نفسه شيئاً فشيئاً وأصبح لا يسمح من الاتصالات الا بما هو ضروري لمواصلة تجارة هزيلة وانقطعت علاقاته مع المشرق الاسلامي والغرب النصراني على السواء ، وانهك في صراع لا يكاد يني بين القبائل البربرية المتمردة على الحكم القائم وانغلق تماما عن كل تأثير خارجي - ويتبع عن هذه الانتفاضات المنهكة ركود لا مثيل له في الحياة الاجتماعية في وقت كانت فيه أوروبا المجاورة تتطور بسرعة متزايدة وأعرض المغرب الأقصى عن أوروبا بينما كانت تنمو في تسرع وتسعى إلى جر سائر العالم في تيارها .

وانجرت عن التدخل الاسباني في جهات المغرب الأقصى نتائج مغايرة فلقد تحالف مغاربة بجاية مع القراصنة الأتراك لاسترجاع مدينتهم فاغتنم الأتراك الفرصة للتمركز بمدينة الجزائر ، ولما احسوا بالخطر بدورهم استنجدوا بالسلطان في القسطنطينية وبعث لهم بالجيوش وبسط سلطانه على المناطق التي احتلوها ، فأصبحت الجزائر لمدة نصف قرن القلعة الأمامية الذائدة عن الامبراطورية العثمانية في غربي البحر المتوسط وإحدى النقاط الحساسة في الصراع الهائل القائم بين شارل الخامس وسليمان القانوني - واستقر الأتراك في نهاية القرن ولمدة طويلة في الإيالتين الجزائرية والتونسية . غير انه بينما كان اترك الجزائر يعيشون على هامش البلاد ويقتصرون على جوبها لاستخلاص الجباية حيثما قدروا انصهر اترك تونس في بوقفة واحدة مع التونسيين لأنهم وجدوا انفسهم بازاء حضارة ثابتة الأركان وأسسوا دولة يمكن نعتها بالوطنية الا وهي دولة الحسينيين ومهما اختلف تطور الايالتين فان الأتراك لم يتوصلوا رغم ذلك إلى دفع المغرب العريق في القدم دفعا جديدا بل انتصر في كلا البلدين الجمود البربري

بحيث عاش المغرب من اقصاه إلى أقصاه في اوائل القرن التاسع عشر منطويا على نفسه تحدوه قيم اخنى عليها الدهر من دون ان يقدر على التطور ويصبح دولة عصرية

والخلاصة انه لايمكن ان ننكر أن الحضارة الاسلامية أمكن لها بعد فترة من التأقلم طويلة وصعبة أن تخمر العجين البربري وان تبعث حضارة لامعة بلغت أوجها في العهد الموحيدي ، ثم ان البرابرة خذلوا بأنفسهم بعد ذلك فانساقوا شيئاً فشيئاً إلى حضيفض التناحر واستطابوا الوضع ان صحت هذه العبارة وعاشوا حياة تجاوزها العصر غير بعيد عن عالم يغلي غايانا . وان جوارا كهذا ما كان يمكن ألاّ يؤتي ثماره .

ببلوغرافيا

1 - ملاحظات عامة

نلاحظ * بادیء ذی بدء ان الببلوغرافيا التي أعدها شارل أندري جوليان في طبعته الثانية للكتاب المنقحة والمزيدة والصادرة منذ ما یرب من ثلاثين سنة لم تعد مستوفاة لأن كتباً جديدة صدرت أثناء هذه الفترة تحتوي على وثائق ومراجع ودراسات جد هامة . وهي رغم هذا لها قيمة علمية لا شك فيها علاوة على كثافتها (تقارب الاربعين صفحة من الكتاب الصادر باللغة الفرنسية) .

ونلاحظ أيضا ان هذه الببلوغرافيا تحيل الى مراجع أغلبها باللغة الفرنسية او باللاتينية او الانكليزية او الاسبانية او غيرها من اللغات الاخرى .

لهذه الاسباب ولاسباب أخرى تتعلق بسعر الكتاب آثرنا الا نترجم هذه الببلوغرافيا تاركين للقارئ الرجوع الى النص الفرنسي اذا رام زيادة في التفاصيل .

على اننا سنحاول ان نعطي لمحة عامة عن هذه الببلوغرافيا ثم نشير الى المصادر العربية التي اعتمدها شارل أندري جوليان المترجمة الى الفرنسية والتي اعانه على الاطلاع عليها المستشرق روجي لوترنو .

قسم شارل أندري جوليان الببلوغرافيا الى قسمين : ببلوغرافيا عامة وببلوغرافيا حسب الابواب فالببلوغرافيا العامة تحتوي على :

(1) ببلوغرافيا تشير الى المراجع المتعلقة بالجزائر وتونس والمغرب الاقصى وطرابلس .

(2) الوثائق والمكتبات .

(3) المجلات الفرنسية الصادرة بالجزائر وتونس والمغرب الاقصى وفرنسا وبلدان أخرى .

(4) وسائل العمل من تراجم اعلام كدائرة المعارف الاسلامية ومن مجموعة خرائط وبيانات وجداول ومتاحف .

(5) المصادر وهي تضم :

أ - النصوص العربية التي سنذكر أهمها في آخر هذه الببلوغرافيا والنصوص الصادرة بلغات أوروبية .

ب - الفن وعلم والآثار وأهم كتاب هو لجورج مرسى .

ج - علم المسكوكات .

د - علم النقائش .

(6) الاسلام وهنا ذكر لاهم الكتب الدارسة لتاريخ الديانات والاسلام خاصة في بلاد البربر .

(7) علم الاجتماع وعلم الاجناس ويذكر هنا المؤرخ مراجع عديدة وهامة تتعلق بحياة شعوب بلاد المغرب وجنسهم .

(8) المسائل الاقتصادية .

(9) تأليف عامة متعلقة بالتاريخ .

أ - التواريخ العامة .

ب - القرون الوسطى .

ج - اسبانيا والبرتغال .

د - افريقيا الشمالية ويذكر المؤرخ هنا التأليف الدارسة لعموميات هذه البلاد ثم المراجع المتعلقة بالفتح الاسلامي ثم المتفرقات ثم التأليف الدارسة لتاريخ الجزائر وتونس والمغرب الاقصى .

أما الببلوغرافيا حسب الابواب فغالبا ما تحتوى على المصادر العربية بما فيها الوثائق والنصوص العربية او الاجنبية ثم التأليف والدراسات .

2 - المصادر العربية

ملاحظة : المصادر المذكورة منشورة وأغلبها مترجم في كتب او في نشریات ونحن نعطي قائمة فيها من دون الإشارة الى الناشر وتاريخ الصدور محيلين القارئ الى النسخة الفرنسية زيادة في التدقيق .

- اليعقوبي ، كتاب البلدان .

- ابن حوقل ، كتاب المسالك والممالك .

- البكري ، كتاب المسالك .

- الادريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق .

- ابن عبد الحكم ، كتاب فتوح مصر وافريقية .

- ابن الاثير ، الكامل في التاريخ .

- ابن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر .
- ابن ابى دينار القيروانى ، المؤنس فى اخبار افريقية وتونس .
- الناصر السلاوى ، كتاب الاستقصاء فى أخبار دول المغرب الاقصى .
- ابن الصغير ، تاريخ الدولة الرستمية بتاهرت .
- أبو زكرياء ، كتاب السيرة واخبار الائمة .
- ابن ابى زرع ، روض القرطاس .
- ابن عذارى ، البيان المغرب فى اخبار المغرب .
- ابو العرب ، طبقات علماء افريقية .
- المالكى ، رياض النفوس .
- ابو الحسن على الجزنائى ، زهرة الآس .
- ابن حماد ، أخبار ملوك بنى عبيد .
- ابن خلكان ، وفيات الاعيان .
- المقرئ ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب .
- المراكشى ، المعجب فى تلخيص اخبار المغرب .
- الزركشى ، تاريخ الدولتين .
- العمرى ، مسالك الابصار فى ممالك الامصار .
- ابن الاحمر ، روض النسرین .
- يحيى بن خلدون ، بغية الرواد .
- ابن قنقد ، الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية .
- أبو عبد الله محمد الشماخ ، الأدلة البينة النوارنية على مفاخر الدولة الحفصية .
- ابن مرزوق ، المسند .
- التجانى ، رحلة .
- الزيانى ، الترجمان المغرب عن دول المشرق والمغرب .
- التمغروتى ، النفحات المسكية فى السفارات التركية .
- غزوات عروج وخيرالدين .
- الصغير بن يوسف ، المشرع الملكى .
- العياشى ، رحلة .

$$y_{n+1} = y_n + \Delta y$$

فهرس الاعلام

احمد الاعرج :

• 267 ، 266

احمد الريفى :

• 309 ، 308

احمد بن محرز :

• 293

احمد المنصور :

• 276 ، 275 ، 274 ، 273 ، 271

• 278 ، 277

احمد الوطاسى :

• 266 ، 257

ابن الاحمر :

• 219 ، 157

ادريس الثانى :

• 59 ، 58 ، 56

ادريس بن عبد الله (الاول) :

• 219 ، 201 ، 58 ، 56 ، 55 ، 15

• 392 ، 391

- ١ -

ابراهيم بن الاغلب (الاول) :

• 66 ، 60

ابراهيم باشا :

• 370 ، 354 ، 352

ابراهيم الثانى :

• 74 ، 73 ، 66

ابن الاثير :

• 144 ، 133 ، 103 ، 85 ، 77 ، 14

ابن الاحرش :

• 379

ابن الاشعث :

• 39 ، 38

أحمد :

• 66

أحمد :

• 268

الاشعري :
 . 127 ، 124 ، 64

اغما علي :
 . 352

الاغلب بن سالم :
 . 60

اغسطينوس (قديس) :
 . 175

الافرائي :
 . 276 ، 272 ، 268 ، 264

افلح (الامام) :
 . 47

افوقال (Afoughal) :
 . 265

اكموت (Exmouth) :
 . 381

الفونسو الخادي عشر :
 . 231 ، 230

الفونسو الثامن :
 . 154 ، 153 ، 150 ، 137

الفونسو الخامس :
 . 253

الفونسو السابع :
 . 120

الفونسو السادس :
 119 ، 114 ، 113 ، 112 ، 111
 . 120

الادريسي :
 . 137 ، 103

ادورن الفلاندي
 : (Le flomand Adorne)
 . 194 ، 188

ارسطو :
 . 163

ارنيست بيسكاري
 (Ernest Pichari)
 . 41

ج.ب. استيل (J.B. Eestelle) :
 . 299

اسحاق :
 . 328 ، 376

ابو اسحاق :
 . 182

اسحاق اسكيا :
 . 275

اسحاق دي رزيني :
 . 285

اسد ابن الفرات :
 . 69 ، 64

اسكندر الثاني :
 . 111

الاسكندر الافروديزي :
 . 72

اسماعيل (امام الشيعة) :
 . 84

اسماعيل المنصور (ابو العباس) :
 . 84

339 ، 340 ، 341 ، 343 ، 344 ،
345 ، 346 ، 348 ، 350 ، 351

بربروس :

• انظر : خير الدين

بربروسا :

• 144

برنس :

• 27

برنشفيق :

• 21 ، 188 ، 189

برودل (Brandel) :

• 322 ، 323 ، 324

بطرس القاسي :

• 235

بطليوس :

• 111 ، 114

ابو البقاء :

• 183

ابو بكر (الصدیق) :

• 34

ابو بكر (امير) :

• 46 ، 47

ابو بكر :

• 135 ، 183 ، 184

الفونسو العاشر :

• 218 ، 219 ، 222 ، 223 ، 230

الكوديت (الكونت) :

• 380

الن (Alem)

• 365

الياس :

• 326

اليزابيت :

• 278

أمریت :

• 377

أنطوان دي سان مدری :

(Antoine de Saint Madrier) :

• 285

أوريي (O'Reily) :

• 380

- ب -

البابا :

• 141 ، 154 ، 367

بابا حسن :

• 375

ابن باجة :

• 163

باريس :

• 90 ، 93 ، 95

باي لرباي :

• 329 ، 333 ، 335 ، 336 ، 338

- بوتان (Boutin) :
 • 380
- بوسنو (Busnot) :
 • 306 ، 292 ، 291
- بوفور (Beaufort) :
 • 289
- بول (الفارسي) :
 • 367
- بول (القديس) :
 • 367 ، 366
- بيار الثالث :
 • 182
- بيالي باشا :
 • 348
- بييرس :
 • 180 ، 179
- بيدرو (D. Pedro) :
 • 251
- بيدرو نفارو :
 • 326 ، 324
- بيدو دي سانت اولون :
 (Pidou de St Olong)
 • 301 ، 299 ، 292 ، 291
- البيلق :
 • 140 ، 134 ، 129 ، 128 ، 125
- ابو بكر (الحنفي) :
 • 231 ، 228 ، 205
- ابو بكر بن عمر :
 • 109 ، 108 ، 107
- ابو بكر بن غازي :
 • 236
- ابو بكر مهاوش :
 • 314
- البكري :
 • 104 ، 103 ، 88 ، 58 ، 48 ، 29
 • 201 ، 108 ، 106 ، 105
- البلاذري :
 • 29 ، 15
- بلانشي (P. Blanchet) :
 • 93
- بلكين بن محمد بن حماد :
 • 108
- بليك (Blake) :
 • 361
- بنبرا (ملك) :
 • 294
- بهلول :
 • 62
- بوبون (Pomponne) :
 • 367

بيسونال (Peysonorel) :
• 282

بيوس الخامس :
• 348

- ت -

تاشفين :
• 235

تاشفين بن علي :
• 136 ، 135 ، 120

ابن تاشفين يوسف :
• 113 ، 110 ، 109 ، 108 ، 25
• 121 ، 119 ، 118 ، 115 ، 114
• 219 ، 201 ، 130

ابو تاشفين :
• 231 ، 228 ، 210 ، 207 ، 205

ابن تافركين :
• 231 ، 184

تدنا :
• 377

هـ. تراسي :
• 167 ، 166 ، 105 ، 79 ، 58 ، 55
• 245 ، 243 ، 224 ، 170 ، 168
• 296 ، 287

ابن تفوفت :
• 257

ابن تومرت :

• 125 ، 124 ، 123 ، 25 ، 15
• 132 ، 129 ، 128 ، 127 ، 126
• 138 ، 137 ، 135 ، 134 ، 133
• 193 ، 191 ، 170 ، 152 ، 139
• 394 ، 392

- ث -

ابو ثابت :
• 226 ، 206

- ج -

جاء الثاني :
• 293

جام (Jayme d'Aragon) :
• 219

جان لوفاشي :
• 366

جبله :
• 42

جرجير :
• 24 ، 18 ، 17 ، 16 ، 10

الجزولي :
• 273 ، 266 ، 265 ، 254 ، 252

جناديوس :
19

الحجاج :	جنبي (Jenby) :
36 .	39 .
ابن حزم :	جنسريق :
124 .	9 .
حسان بن النعمان :	جودر الاسباني :
33 ، 32 ، 27 ، 25 ، 24 .	275 .
ابو الحسن :	جورج الانطاكي :
394 .	141 .
حسن آغا :	جورج مرسى :
343 ، 342 .	87 ، 77 ، 44 ، 43 ، 25 ، 15 ،
حسن باشا :	198 ، 175 ، 119 ، 98 ، 93 ،
344 ، 343 ، 338 .	376 ، 338 ، 280 ، 208 .
حسن البندقي :	جوستنيان (Jean Destrees) :
350 .	180 .
الحسن (ابن خيرالدين) :	جون ديستري :
346 ، 344 .	290 .
ابو الحسن الشاذلي :	جون وندوس :
197 .	306 .
ابو حسن عبد العزيز :	جوهر :
240 ، 239 ، 236 .	86 .
حسن فنزيانو :	ابو حاتم :
350 ، 349 .	46 ، 39 .
حسن كورسو :	الحاج احمد :
344 ، 343 .	377 .

- ح -

ابو الحسن المريني :

184 ، 185 ، 187 ، 198 ، 203 ،
205 ، 206 ، 227 ، 228 ، 229 ،
230 ، 232 ، 234 ، 235 ، 239 ،
241 ، 242 ، 244

ابو حسن الوطاسي :

343

ابو حسون = بو حسون :

257 ، 258 ، 267 ، 281 ، 294 ،
344

حسين داي :

375

الحسين بن علي (ابن ابي طالب) :

71

حسين بن علي باي :

354 ، 370 ، 382 ، 383 ، 385

ابو حفص عمر :

139 ، 140 ، 147 ، 148 ، 177 ،
182 ، 183

حماد :

90 ، 93 ، 95 ، 219

ابن حماد :

81 ، 82

حمودة باشا باي :

353 ، 354 ، 385

ابو حمو موسى الاول :

204

ابو حمو موسى الثاني :

206 ، 207 ، 209 ، 210 ، 236

حنيفل :

175

حنظلة بن صفوان :

37

ابن حوقل :

53 ، 394

ابو حنيفة :

64

- خ -

خالد بن حميد :

37

خزرون بن فلفل المغراوي :

107

ابو الخطاب :

38 ، 40

ابن الخطيب :

245

ابن خلدون :

14 ، 21 ، 22 ، 24 ، 25 ، 26 ،
37 ، 40 ، 48 ، 53 ، 58 ، 73 ،
75 ، 84 ، 96 ، 108 ، 134 ،
147 ، 153 ، 175 ، 176 ، 180 ،
193 ، 198 ، 199 ، 201 ، 204 ،
207 ، 208 ، 213 ، 229 ، 230 ،
238 ، 393

دوریا :
 347 ، 346 ، 345

دوسی لامار (Dessus-Lamare) :
 43

دوفال :
 381

دون انجیلو برسولو :
 380

دوکان (Duquesne) :
 369 ، 368

دون خوان :
 348 ، 336

دون مانوال :
 255

دیاکو دی قیرا :
 327

دی سلان (De Slane) :
 176

دی فوکیار :
 376

ه. دی کاستر (H. de Castries) :
 263

دی کوتتی :
 302

خوان دی مدینا :
 (Juan de Medina) :
 274

خوان کتو :
 376

خیر الدین = بربروس = عروج :
 330 ، 329 ، 328 ، 327 ، 326
 336 ، 335 ، 333 ، 332 ، 331
 345 ، 343 ، 342 ، 339 ، 338
 362 ، 348

- د -

دارفیو :
 368

دان (اب) (Dan) :
 359 ، 358

ابو دبوس :
 217 ، 216 ، 157

درغوث :
 349 ، 348 ، 347 ، 346 ، 335
 357

دستر :
 302

الدوادی :
 انظر : سیدی الدوادی .

دوارت (Duarte) :
 250

ابنة ابن رستم :
 . 48
 ابن رشد :
 . 164 ، 163 ، 158 ، 151
 الرشيد :
 . 178 ، 157 ، 156
 رمضان :
 . 350 ، 349 ، 348
 روجر الثاني :
 . 162 ، 142 ، 141
 روجار دي لوريا
 : (Roger Di Loria)
 . 197 ، 183
 رولان (Roland) :
 . 30
 رولان فريجوس (Roland Fréjus) :
 . 290 ، 289
 روبر (Ruyter) :
 . 365 ، 364
 . ريكار (B. Ricard) :
 . 306 ، 241
 ر. ريكار (R. Ricard) :
 . 263 ، 241
 رينال (Rynal) :
 . 372
 ريمون مرتان (Raymond Martin) :
 . 180

دي ليون (De Lionne) :
 . 367
 دي بريون (De Brugnon) :
 . 312
 دي بيل (De Beylié) :
 . 93
 دي مدينه دي كالي :
 . 348
 - ر -
 راشد :
 . 55
 رامون مونتنيير
 : (Ramon Montaner)
 . 197
 الرايس حميدو :
 . 371
 البربرتيير (Réverter) :
 . 135 ، 120
 ابو الربيع :
 . 227
 ردريق :
 . 112
 رستم :
 . 347
 ابن رستم :
 . 73 ، 45 ، 44 ، 41 ، 39 ، 15
 392

- ج. أ. رى (J.E. Ry) : 311 ، 309
- ريتر (Ruyter) : 286
- ز -
- ابن أبي ذرع : 152 ، 133 ، 109
- الزوكشى : 198
- ابو زكرياء : 42
- ابو زكرياء : 83
- ابو زكرياء الثانى : 183
- ابو زكرياء الحفصى : 188 ، 183 ، 178 ، 177 ، 156 ، 244 ، 214 ، 198 ، 195 ، 193
- ابو زكرياء يحيى الوطاسى : 252 ، 251 ، 250
- زهير بن قيس : 24
- زيادة الله الاول : 69 ، 67 ، 66
- زيادة الله الثالث : 74 ، 70 ، 66
- زيادة الله الثانى : 66
- ابو زيان : 236 ، 204
- الزيانى : 310 ، 307 ، 305 ، 296 ، 224
- زيدان : 298
- زيرى : 141 ، 138
- زيرى بلكين : 325
- زيرى بن مناد : 89 ، 88 ، 86 ، 84
- زينب : 109 ، 108 ، 107 ، 25
- س -
- سانت أمان (St Amand) : 301 ، 292
- أ. أ. سايوس (E.A. Sayous) : 160
- سبستيان (Sébastien) : 271 ، 270
- ستيوارت : 306

سحنون :	سليم التومي :
. 65 ، 64	. 327
سرفتيس :	سليم (السلطان العثماني) :
. 349	. 329
السعيد :	أبو سليم :
. 236	. 235
ابن سعد :	سليمان القانوني :
انظر : عبد الله .	. 395 ، 347 ، 331 ، 268 ، 267
ابن سعيد :	أبو الحسن السمللي :
. 198	. 288 ، 287 ، 285 ، 281
أبو سعيد :	سنان باشا :
. 243 ، 154	. 353 ، 349 ، 346 ، 335
أبو سعيد الباجي :	سنسون لي باج :
. 206 ، 197	. 363
أبو سعيد عثمان الزياتي :	سنسون نابليون :
. 209 ، 204	. 366 ، 363 ، 362
سفاري دي بروسلون :	سنغاي :
. 300	. 274
سفيان :	ب . سنيفال (P. de Cenival) :
. 222	. 263
سكابان :	السيد :
. 357	. 157 ، 113 ، 112
السلطان الشريف :	سیدی ابراهيم :
. 311 ، 293	. 210
سلفا :	سیدی حرازم :
. 312	. 170

سيدي الحلوى :

• 240

سيدي الدواي :

• 184 ، 185 ، 206 ، 209

سيدي صاحب :

• 357

سيدي بن عروس :

• 179

سيدي فرج :

• 389

سيدي وهاب :

• 208

سيدي محمد بن عبد الرحمن بوقبرين :

• 375

سيدي محمد بن عبد الله :

• 309 ، 310 ، 311 ، 312 ، 313

• 314 ، 315

سيدي محمد بن عريية :

• 308

سيهون :

• 366

ابن سينا :

• 163

- ش -

شاتو رونو (Château Renaud) :

• 290

شارل الثاني :

• 285 ، 289 ، 293 ، 297

شارل الخامس :

• 311 ، 336 ، 337 ، 342 ، 346

• 348 ، 395

شارل (صاحب أنجو) :

• 179 ، 180 ، 181 ، 182

شارل العاشر :

• 180

شارل مارتل :

• 33

شارلكان :

• 257

شانت مانكس (Ciman) :

• 346

بوشايب :

• 170

الشريف محمد :

• 285 ، 287 ، 290 ، 294 ، 295

• 297 ، 298 ، 299 ، 301 ، 304

• 306 ، 308 ، 344 ، 369 ، 385

ابن شريف :

• 379

شريف مكة :

• 179

شعيان داي :

• 369

طوماس بلو (Thomas Pellow) :

• 296

طوماس لاش :

• 340

- ع -

عائشة (أم المؤمنين) :

• 24

ابن عائشة :

• 302

عائشة المنوية :

• 179

العباسي (السعدي) :

• 280

ابو العباس احمد :

• 255

ابو العباس (الحفصي) :

• 186 ، 185

ابو العباس (الدعي) :

• 248 ، 237 ، 236

ابو العباس (الشيعة) :

• 75

عبد الحق :

• 250 ، 243 ، 214 ، 213 ، 212

• 254 ، 253

ابن عبد الحكم :

• 30 ، 21 ، 16 ، 15 ، 14

شوازل (Choiseul) :

• 311

الشيخ الاعرابي :

• 290

الشيخ الاعرس :

• 289

الشيخ حمزة :

• 184

- ص -

صالح (قائد) :

• 49 ، 48

صالح الرأس :

• 344 ، 343 ، 267

ابن الصغير :

• 47 ، 46 ، 45 ، 44 ، 43 ، 42

صغير بن عامر :

• 206

صلاح الدين الايوبي :

• 162

- ط -

طارق بن زياد :

• 32

ابن طفيل :

• 164 ، 163 ، 158

عبد الرحمن :	38
عبد الله بن الزبير :	24 ، 17
عبد الرحمن :	313
عبد الله بن سعد :	18 ، 17 ، 16
عبد الرحمن الثالث :	80
ابو عبد الله الشيعي :	83 ، 79 ، 75 ، 74 ، 73 ، 70
عبد الرحمن الثعالبي :	350
عبد المؤمن بن علي :	133 ، 132 ، 128 ، 126 ، 125
عبد الرحمن بن حبيب :	138 ، 137 ، 136 ، 135 ، 134
عبد الرحمن بن رستم :	146 ، 145 ، 144 ، 140 ، 139
عبد السلام بن مشيش :	158 ، 154 ، 153 ، 148 ، 147
عبد العزيز :	293 ، 292 ، 200 ، 173 ، 165
عبد الله الغالب بالله :	392
عبد القادر (الامين) :	252
عبد الله بن مبارك :	140
عبد القادر الجيلاني :	268
عبد الله :	43
عبد الملك :	252
عبد الله الاول :	199 ، 189 ، 139
عبد الله الثاني :	271 ، 270 ، 269 ، 268
عبد الله بن البشر الوشرسي :	308
عبد الملك الدعوي :	349
عبد الله الثاني :	73 ، 66

عبد الملك بن مروان :

• 26 ، 24 ، 22

عبد الوحد الوائشريسي :

• 267

عبد الوهاب :

• 47

العبدري :

• 183

عبيد الله :

• 392 ، 391

عبيد الله المهدي :

• 76 ، 75 ، 74 ، 73 ، 72 ، 71

• 80 ، 79 ، 77

عثمان :

• 213

عثمان (بن عفان) :

• 35 ، 18 ، 16

عثمان بن ادريس الميرني :

• 250 ، 241 ، 228 ، 227

عثمان باي :

• 385

عثمان داي :

• 356 ، 353

عثمان الثالث :

• 283

ابن عذارى :

• 90 ، 80 ، 77

ابن عرفة :

• 179

عروج :

• انظر : بربروس

العزيز :

• 138

العزيز (الفاطمي) :

• 89

ابو عصيدة :

• 183

ابو عقبال :

• 66

عقبة :

• 201

عقبة بن نافع :

• 67 ، 37 ، 30 ، 21 ، 20 ، 19

• 219

علي بن باشا :

• 349 ، 348 ، 345 ، 277 ، 269

• 369 ، 350

ابو علي :

• 229 ، 227

علي باشا :

• 383 ، 382

ابن علي باشا :

• 382

علي بتشينين :
• 356

علي باي :
• 384

علي بن تاشفين :
• 115 ، 117 ، 118 ، 119 ، 120 ،
• 121 ، 129

علي بن حيدر :
• 294

علي خوجة :
• 376

علي بن ابي طالب :
• 18 ، 34 ، 35 ، 71

علي المملوي :
• 374

علي بن يوسف :
• 250

ابن ابي عمار :
• 182

عمر (بن الخطاب) :
• 16 ، 18 ، 34 ، 36

عمر بن حفص :
• 39

عمر بن عبد الله :
• 236

ابو عمر عثمان :
• 186 ، 187 ، 188

عمر المرتضى :
• 157

ابو عمرو :
• 224 ، 225

عمر الهنتاتي (ابو حفص) :
• 132 ، 134

ابو عمران الفاسي :
• 105

عمرو (بن العاص) :
• 16 ، 18

العمرى :
• 191

ابو عنان :
• 185 ، 206 ، 232 ، 233 ، 234 ،
• 235 ، 236 ، 237 ، 240 ، 241 ،
• 244 ، 245 ، 248

العياشي (الولي) :
• 281 ، 282 ، 283 ، 284 ، 295 ،
• 296

عيسى المهدي :
• 140

- غ -

غانم :
• 173

فرديناد الثالث :
• 155 ، 156 ، 248 ، 249 ، 252 .

ابن فرديناد الثالث :
• 218

فرديناند الرابع :
• 228

فرنانهو :
• 249 ، 251 ، 252

فريدريك :
• 178

الفشتالي :
• 268 ، 272

فرواسار (Froissart) :
• 175

فنسان :
• 360 ، 367 ، 369

الفودودي :
• 234 ، 235

فوقاس (Fougasse) :
• 383

فيكو (Vico) :
• 175

فيكتور بيراز :
• 346

فيليب الثالث :
• 281

الغزالي (ابو حامد) :
• 117 ، 120 ، 124 ، 127

غايوم مرسال :
• 369

غيلان :
• 290 ، 295 ، 369 ، 393

- ف -

ابو فارسي :
• 186 ، 187 ، 188 ، 199 ، 279 ،
• 321

فاسكو دي قاما
(Vasco de Gama) :
• 255

فاطمة (بنت الرسول) :
• 55 ، 71 ، 228 ، 287

فاطمة (الأميرة) :
• 228

فانسان دي بولس :
• 359

فان كبلان (Van Cappellen) :
• 381

فرانسوا الاول :
• 330

فرديناد الاول :
• 11 ، 322 ، 324 ، 327 ، 331

41 ، 54 ، 55 ، 58 ، 75 ، 173 ،
• 175 ، 201 ، 208

قودو فروادی موبین :
• 191

قوط (Wisigoths) :
• 20

- لک -

کاترین :
• 285

کاندید : (Candide)
• 292

الکاهنة :
24 ، 25 ، 26 ، 29

ابن الکاهنة :
• 30

ابو کرکه :
• 255

کریستوف کولومب :
• 255

کسیمناس دی سیسیروس :
• 323 ، 324

کلیر = کولیر :
• 289 ، 301

کلثوم :
• 37

فیلیب الثاني :

270 ، 278 ، 281 ، 344 ، 346 ،
• 347 ، 349

فیلیب کستال :
• 285

فییرنولاسک :
• 359

- ق -

ابو القاسم بن عبید الله (المهدی) :
• 76 ، 81 ، 82

قاینقوس :
• 198

ابن قتیبة :
• 30

قراقوش :
148 ، 149 ، 150 ، 153 ، 162 ،

قراشون :
• 360

ابو قرة :
• 39

قسطن الثاني (Constant) :
• 10 ، 18

ا. ف. قوتی (E. F. Gautier) :

13 ، 15 ، 17 ، 20 ، 21 ، 24 ،
26 ، 27 ، 29 ، 30 ، 35 ، 37 ،

لوييس الخامس عشر :
• 309

لوييس الرابع عشر :
307 ، 303 ، 302 ، 301 ، 297

ليفي بروفنصال :
263 ، 147 ، 122 ، 57 ، 56
• 264

ابو ليل اسحاق :
• 56

ليبنتز (Leibentiz) :
• 163

ليون :
• 245 ، 202 ، 156 ، 154 ، 150

ليون الافريقي :
• 303

ليون السادس :
• 70

ليونسيوس :
• 25

- م -

مازاران :
• 289

ابن ماساي :
236 ، 235

كمويشي :
• 270

كنزة :
• 57 ، 56

كونت برشلونة :
• 141

كورنو :
• 311

- ل -

ابن اللحياني :
• 183

(الشيخ) اللواتي :
• 288

لواترنو :
• 8

لورانس مادوك :
• 276

لوسيانى :
• 127

لوييس (قديس) :
• 181 ، 180 ، 173

لوييس الثانى :
• 70

لوييس الحادى عشر :

ماسى (Massé) :
• 127

مالك بن انس :
• 64 ، 65

المالكى :
• 14

المامون :
• 284

المامون الموحدى :
• 151 ، 155 ، 177 ، 178

محرز :
• 293

ابو محلى :
• 281 ، 284

محمد (الرسول صلى الله عليه وسلم) :
• 14 ، 18 ، 67 ، 71 ، 123 ، 128 ،
• 130

محمد :
• 66

محمد :
• 145

محمد الاصغر :
• 266

محمد بن احمد الزيانى :
• انظر المياشى

محمد البرتقالى :
• 255

محمد تميم :
• 301

محمد الثانى :
• 66

محمد الحاج :
• 287

محمد (ابن حسين بن علي) :
• 283 ، 384

ابو محمد (الحنفى) :
• 152 ، 153 ، 155

محمد الرشيد مولين :
• 151

محمد الشيخ :
• 188 ، 253 ، 254 ، 255 ، 256 ،
• 268 ، 269

محمد الشيخ الاشقر (السعدى) :
• 284

محمد الشيخ المامون :
• 278 ، 284

محمود باي بن محمد باي :
 • 385
 محمود زرقون :
 • 212
 • 210 ، 209 ، 205 ، 197 ، 170
 • 241 ، 233
 • 370 ، 354
 • 269
 • 353
 • 152 ، 151 ، 119 ، 115 ، 103
 • 215
 • 148 ، 147 ، 145
 • 240 ، 229
 • 183 ، 182 ، 181 ، 180 ، 179
 • 199 ، 198 ، 198 ، 193 ، 187
 • 244 ، 223 ، 217 ، 213 ، 203
 • 206

محمد بن صالح رايس :
 • 345
 محمد الصغير بن يوسف :
 • 282
 محمد بن طفارة أبو عبد الله :
 • 105
 • 265
 • 391
 • 155
 • 379 ، 275 ، 236
 • 226 ، 225 ، 222 ، 219
 • 377
 • 271 ، 270 ، 269
 • 344 ، 343 ، 258 ، 257
 • 177 ، 154 ، 153 ، 152 ، 137
 • 219 ، 213
 • 384

المنصور (بن زبيرى الصنهاجى)
• 96 ، 90

المنصور بن ابى عامر :
• 110 ، 90

المنصور (العباسى) :
• 38

المنصور (العباسى) :
• 350 ، 340 ، 315 ، 294

المنصور (الفاطمى) :
• 58

ابو منصور :
• 48

ابو المهاجر :
• 20 ، 14

المهدى عبيد الله :
• 138 ، 82 ، 74 ، 71 ، 38 ، 35
• 158 ، 155 ، 151 ، 140 ، 139
• 178 ، 173 ، 165 ، 160

المهدى (المنتظر) :
• 281 ، 72

مهد الموحدين :
• 133 ، 130 ، 124

مووات (Mouette) :
• 304 ، 300 ، 292 ، 291

موتيلنسكى (Motylinski) :
• 42

المسيح :
• 34

مصطفى خوجة :
• 384

المظفر :
• 110

معاوية (بن أبى سفيان) :
• 18

معاوية (بن خديج) :
• 19

المعتد :
• 114 ، 113

المعز :
• 96 ، 95 ، 92 ، 90 ، 86 ، 85

مغديس الابتر :
• 27

المقتدر (العباسى) :
• 76

مكيافيل (Machiavel) :
• 175

المنجور :
• 272

المنصور (من بنى حماد) :
• 219 ، 163 ، 159 ، 138 ، 137

مولای الرشید :
، 264 ، 261 ، 260 ، 286 ، 288
• 307 ، 298

مولای زیدان :
، 283 ، 282 ، 281 ، 280 ، 278
• 287 ، 286 ، 285 ، 284

مولای زین العابدین :
• 308

مولای سلیمان :
• 379 ، 315 ، 314 ، 313

مولای عبد الرحمن الشریف :
• 379 ، 315 ، 314

مولای عبد الله :
• 309 ، 308 ، 269

مولای بوغزة :
• 170

مولای علی الاعرج :
• 308

مولای محمد :
• 342 ، 288 ، 287

مولای المستنصر :
• 309 ، 308

مولای مسلمة :
• 314

مولای هشام :
• 314 ، 313

موروبا (Maure-pas) :
• 372

موسی (ولد أبی عنان) :
• 236

موسی بن أبی العافیة :
• 81 ، 80 ، 79

موسی بن نصیر :
• 38 ، 32 ، 30 ، 14

مولای احمد الذهبی :
• 308

مولای ادريس :
• 252

مولای اسماعیل :
، 292 ، 291 ، 277 ، 272 ، 264
، 299 ، 298 ، 297 ، 296 ، 295
، 306 ، 305 ، 303 ، 302 ، 301
، 369 ، 315 ، 311 ، 308 ، 307
• 370

مولای الحران :
• 293

مولای الحسن :
• 346 ، 331 ، 330

مولای الحسين :
• 314

مولای حميدة :
• 346

- مولای الیزید :
• 312 ، 313 ، 314
- مولیار :
• 357
- مونس :
• 76 ، 77
- ر • مونتانیو :
• 130
- موٹشیکور :
• 346 ، 347
- میسرة السقاء الصفری :
• 36 ، 38 ، 48
- میشال :
• 289
- میمون القحاح :
• 72
- ن -
- نابليون :
• 380 ، 383 ، 385
- الناصر (الصنهاجی) :
• 96 ، 108
- الناصر الدعی :
• 272
- الناصری :
• 264
- نامی (قس) :
• 375
- النویری :
• 14 ، 19
- نیشار (Nuecher) :
• 289
- نیل (أمیر) :
• 371
- ه -
- هارون الرشید :
• 56
- هانری الثالث :
• 249
- هینو (Hainaut) :
• 166
- ج هردي :
• 303
- هرقل :
• 10 ، 271
- هشام :
• 36 ، 37
- الهتاتی :
• 198 ، 235 ، 236
- هنری باسیة (H. Basset) :
• 167
- هنریکو :
• 249 ، 251

يحيى بن ابراهيم الجدلي :

• 107 105

ابو يحيى ابو بكر :

• 217 ، 216 ، 215 ، 214 ، 183

يحيى الرابع (الادريسي) :

• 79

يحيى رايس :

• 344

يحيى بن ابي زكرياء :

• 253

ابو يحيى زكرياء :

• 223 ، 189

يحيى بن عبد العزيز :

• 155 ، 153 ، 152 ، 149 ، 138

• 156

يحيى بن عبد الله الحامي :

• 281

يحيى بن العزفي :

• 228

يحيى بن عمر :

• 107

يحيى بن غانية :

• 178 ، 177

ابو يحيى المريني :

• 244

ههستوفن (Hohenstaufen) :

• 181 ، 179

هيقودي مونكدا :

• 329

هيدو :

• 334 ، 335 ، 336 ، 338 ، 339

• 358

- و -

الواثق :

• 182

ابن الواثق :

• 182

الواقدي :

• 13

ولهوسن (Wellhausen) :

• 35

ونزهار :

• 207

وليام مرسى :

• 35 ، 32 ، 28 ، 27 ، 14 ، 13

• 42 ، 41 ، 37

- ي -

ابن ياسين عبد الله :

• 107 ، 106 ، 105

يحيى بن الناصر :

• 178 ، 155

يزيد بن حاتم :

• 60 ، 41 ، 40 ، 39 ، 36

ابو يزيد (صاحب الحمار) :

• 93 ، 87 ، 84 ، 83 ، 82 ، 80

يعقوب (الامام) :

• 44

ابو يعقوب المريني :

• 391 ، 245 ، 236 ، 204

ابو يعقوب يوسف :

• 158 ، 150 ، 148 ، 147 ، 145

• 224 ، 222 ، 165 ، 163 ، 162

• 229 ، 226 ، 225

اليعقوبي :

• 62 ، 53

يغمراسن بن زيان :

• 202 ، 200 ، 178 ، 173 ، 156

• 211 ، 210 ، 205 ، 204 ، 203

• 219 ، 218 ، 217 ، 215 ، 214

• 244 ، 223 ، 222

يمنة :

• 115

يوحنا الاول :

• 250 ، 249

يوحنا الثالث :

• 270

يوحنادى هتي :

• 359

يوسف :

• 353

يوسف البربري :

• 162

يوسف صاحب الطابع :

• 385

يوسف المنتصر :

• 187 ، 154

ابو يوسف يعقوب :

• 152 ، 151 ، 150 ، 149 ، 148

• 221 ، 219 ، 218 ، 217 ، 216

• 228 ، 227 ، 224 ، 223 ، 222

• 245 ، 242 ، 240 ، 239

يوليان (Julien) :

• 20

يونس (الخارجي) :

• 49

الجماعات والقبائل والدول

، 270 ، 269 ، 268 ، 267 ، 257
 ، 288 ، 284 ، 279 ، 278 ، 273
 ، 298 ، 296 ، 294 ، 293 ، 290
 ، 321 ، 315 ، 314 ، 308 ، 307
 ، 332 ، 330 ، 328 ، 325 ، 322
 ، 344 ، 343 ، 342 ، 341 ، 335
 ، 356 ، 355 ، 343 ، 346 ، 345
 ، 374 ، 369 ، 368 ، 367 ، 366
 ، 390 ، 386 ، 379 ، 378 ، 376
 . 395

أحفاد الرسول = أحفاد علي :

، 86 ، 72 ، 71 ، 56

أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب :

· 287

اخوة بن تومرت :

· 132

الادارسة ، دولتهم :

، 59 ، 58 ، 55 ، 53 ، 49 ، 7

· 201 ، 123 ، 95 ، 81 ، 80

- 1 -

أفيز :

· 249 ، 248

الاسماعيلية :

· 72

آباء الرحمة والثالث :

· 302

آل أكسياولي (Acciaouli) :

· 196

آل بروجي (Perruzzi) :

· 196

آل سعود :

· 311

الإباضية :

، 45 ، 44 ، 42 ، 39 ، 38 ، 35

· 82 ، 47 ، 46

الأتراك = الترك :

، 207 ، 194 ، 189 ، 118 ، 7

الازارقة :

• 35

بنو الافطس ، دولتهم :

• 111

الاقباط :

• 43

الالمان :

• 270

الامويون = بنو أمية ، دولتهم :

• 71 ، 37 ، 36 ، 35 ، 19 ، 18

• 118 ، 95 ، 89 ، 86 ، 83 ، 81

الامويون الاندلس :

• 274 ، 225 ، 201 ، 85 ، 79

• 282

الاندلسيون :

• 238 ، 194 ، 186 ، 119 ، 111

• 356 ، 269 ، 243

الانقليز :

• 278 ، 277 ، 276 ، 269 ، 268

• 290 ، 289 ، 286 ، 284 ، 283

• 303 ، 302 ، 300 ، 297 ، 296

• 365 ، 364 ، 361 ، 360 ، 339

• 384 ، 379 ، 372

اهل الاندلس :

• انظر : الاندلسيون

اهل باديس :

• 142

اهل بجاية :

• 125

الاسبان = الاسبانيول :

• 251 ، 216 ، 197 ، 189 ، 112

• 270 ، 269 ، 268 ، 267 ، 255

• 278 ، 277 ، 276 ، 272 ، 271

• 290 ، 286 ، 283 ، 281 ، 279

• 321 ، 315 ، 313 ، 302 ، 296

• 330 ، 327 ، 326 ، 323 ، 322

• 347 ، 346 ، 345 ، 343 ، 341

• 395 ، 366 ، 834

بنو اسفن :

• 48

اسكيا :

• 274

اسناسن :

• 294 ، 288

الاشراف :

• 394 ، 391 ، 379 ، 378

اصحاب الطرق :

• 378

الاغالبة ، دولتهم ، عهدهم :

• 62 ، 61 ، 60 ، 53 ، 49 ، 41

• 73 ، 70 ، 69 ، 68 ، 67 ، 66

• 80 ، 76 ، 75 ، 74

الافرن :

• 28

، 311 ، 269 ، 266 ، 265 ، 257
• 395 ، 394 ، 321 ، 315

البروتستان :
• 359

بلاش (عائلة يهودية) :
• 286

البيزنطيون :
، 22 ، 20 ، 19 ، 17 ، 10 ، 9
• 85

- ت -

التجيبون :
• 111

تشنين :
• 359

توات :
274 ، 227 ، 201

- ث -

الثالوثيون :
• 366 ، 356

الثعالبية :
• 327 ، 325

- ج -

بنو جامع (الهاليون) :
• 140

أوربة (قبيلة) :

• 56 ، 55 ، 30 ، 24 ، 21 ، 20

أوقسبورغ (جماعة) (Augsbourg) :
• 368

ولاد سيدى الشيخ :
• 378

أولاد نايل :
• 378

أولياء الدلاء :
• 391 ، 294 ، 288

أولياء السوس :
• 290

بنو ايفرن :
• 200 ، 39

الايطاليون :
• 366 ، 270

- ب -

البتير :
• 27

البرانس = بنو برانس :
• 272 ، 36 ، 28 ، 27 ، 21

البربر * :

البرتقاليون :
، 254 ، 252 ، 250 ، 249 ، 248

(أمملنا ذكرهم فى هذا الفهرس لكثرة تردادهم)

الجيش الموحدى :

• 153 ، 145

جيوش صنهاجة :

• 93

الجيوش الفرنسية :

• 389

- ح -

الحركة الوهابية :

• 311

بنو حسين :

• 206

الحسينيون :

• 385 ، 386 ، 382 ، 381 ، 379

الخفصيون = بنو حفص ، دولتهم :

• 162 ، 157 ، 155 ، 153 ، 7

• 177 ، 175 ، 173 ، 170 ، 167

• 185 ، 184 ، 183 ، 182 ، 179

• 190 ، 189 ، 188 ، 187 ، 186

• 197 ، 195 ، 194 ، 193 ، 191

• 205 ، 203 ، 202 ، 199 ، 198

• 229 ، 228 ، 225 ، 210 ، 207

• 345 ، 239 ، 233 ، 232 ، 231

• 354 ، 348 ، 346

بنو حماد :

• 125 ، 108 ، 99 ، 98 ، 96 ، 95

• 219 ، 149 ، 138 ، 137 ، 135

بنو جدار :

• 21

جدالة :

• 106 ، 105

جراوة :

• 28 ، 24

جفارة :

• 189

جماعة نوتردام دى لا مرسى :

• 358

جمعية الافتدائى :

• 358

جمهورية بورقراق :

• 286

الجيش الاغلبى :

• 74 ، 70

الجيش البيزانطى :

• 24 ، 17

جيش الروم :

• 22

جيش الشيعة العبيدى :

• 76

الجيش العربى :

• 74 ، 39 ، 25

الدلائيون = الدلاء :

• 307 ، 287 ، 286 ، 283 ، 281

الدواودة :

• 322

الدوناتوسيون :

• 34

- ر -

بنو رستم :

• 74 ، 47 ، 46 ، 43 ، 42 ، 41

الرومان = الروم :

• 25 ، 24 ، 21 ، 20 ، 10 ، 9

• 276 ، 201 ، 62 ، 61 ، 34 ، 26

• 292 ، 291

بنو رياح :

• 213

- ز -

الزباب :

• 75 ، 61 ، 39

بنو زغبة :

• 203

زناتة = الزناتيون :

• 42 ، 37 ، 36 ، 35 ، 27 ، 24

• 90 ، 89 ، 87 ، 80 ، 79 ، 76

• 135 ، 110 ، 107 ، 96 ، 95

• 154 ، 153 ، 146 ، 140 ، 138

بنو حمود :

• 111

بنو حميان :

• 203

الحناشة :

• 363

الحنفية :

• 375 ، 65

- خ -

بنو خزد :

• 201

خلفوات :

• 349

الخوارج ، مذهبهم :

• 38 ، 37 ، 36 ، 35 ، 34 ، 7

• 46 ، 43 ، 42 ، 41 ، 40 ، 39

• 62 ، 61 ، 55 ، 49 ، 48 ، 47

• 85 ، 82 ، 81 ، 79 ، 73 ، 71

• 389 ، 201

- د -

درعة :

• 258 ، 230 ، 227 ، 223 ، 32

• 265

الدرقوية :

• 379

بنو دكالة :

• 136

السنفو :	156 ، 168 ، 173 ، 200 ، 201 ،
• 276	202 ، 203 ، 208 ، 212 ، 226 ،
السينغال :	238 ، 245 ،
• 361	زواوة :
السودان :	• 341
28 ، 82 ، 105 ، 107 ، 274 ،	بنو زيان :
275 ، 276 ، 277 ، 278 ، 294 ،	200 ، 202 ، 203 ، 204 ، 206 ،
298 ، 300 ،	207 ، 209 ، 232 ، 325 ، 328 ،
بنو سويد :	• 343
203 ، 205 ، 206 ، 207 ، 232 ،	بنو زيري ، دولتهم :
- ش -	87 ، 89 ، 91 ، 92 ، 95 ، 96 ،
الشاوية :	98 ، 99 ، 108 ، 111 ، 141 ،
• 30	144 ، 178 ، 190 ، 235 ،
الشبانات :	- س -
288 ، 290 ، 294 ،	بنو سدويكش :
الشرقة :	• 28
• 291	السعديون = بنو سعد :
شركة افريقيا :	7 ، 257 ، 258 ، 263 ، 264 ،
• 364 ، 383 ،	266 ، 267 ، 273 ، 279 ، 280 ،
الشلف :	281 ، 284 ، 285 ، 287 ، 296 ،
• 379	• 315 ، 394 ،
الشيعه :	بنو سليم :
55 ، 66 ، 71 ، 72 ، 74 ، 76 ،	96 ، 149 ، 150 ، 153 ، 183 ،
79 ، 80 ، 81 ، 82 ، 83 ، 84 ،	• 184
• 107	بنو سناسن :
	• 110 ، 328 ،

، 239 ، 219 ، 212 ، 201 ، 184
· 252 ، 244

بنو عبد الواد :

، 173 ، 167 ، 157 ، 156 ، 146
، 201 ، 200 ، 187 ، 184 ، 175
، 207 ، 206 ، 205 ، 203 ، 202
، 212 ، 211 ، 210 ، 209 ، 208
، 235 ، 232 ، 226 ، 222 ، 218
· 325 ، 321 ، 250 ، 239 ، 236

عبيد البخارى :

· 295

العبيديون = بنو عبيد الله :

· 203 ، 202 ، 79

العثمانيون :

· 395 ، 278 ، 276 ، 275

العرب :

· (متداولة)

العلويون ، دولتهم :

، 265 ، 264 ، 263 ، 55 ، 29 ، 7
· 287 ، 284 ، 281

العیساویة (طريقة) :

· 390

- غ -

بنو غانية :

· 168 ، 151 ، 149

بنو غمارة :

· 227 ، 225 ، 147

- ص -

الصفريّة :

· 48 ، 35

الصقليون :

· 179 ، 141

الصليبيون :

· 181

صنهاجة :

، 87 ، 86 ، 84 ، 79 ، 32 ، 28
، 105 ، 103 ، 98 ، 95 ، 89
، 148 ، 138 ، 123 ، 108 ، 106
، 283 ، 224 ، 200 ، 173 ، 153
· 354 ، 310

- ع -

بنو عامر :

· 206 ، 205 ، 203

بنو عباد :

· 111

بنو عباس :

· 325

العباسيون ، دولتهم :

، 55 ، 53 ، 39 ، 38 ، 37 ، 35
، 118 ، 91 ، 90 ، 71 ، 68 ، 60
، 192 ، 179

بنو عبد المؤمن :

، 177 ، 169 ، 167 ، 163 ، 151

- ف -

الفاطيون ، دولتهم :

17 ، 43 ، 55 ، 59 ، 71 ، 72 ،
74 ، 77 ، 80 ، 81 ، 82 ، 83 ،
85 ، 86 ، 87 ، 89 ، 90 ، 92 ،
95 ، 96 ، 107 ، 144 .

فرسان مالطة :

• 342

الفرنسيون :

181 ، 309 ، 312 ، 330 ، 331 ،
339 ، 342 ، 343 ، 346 ، 347 ،
348 ، 350 ، 362 ، 363 ، 364 ،
365 ، 366 ، 367 ، 368 ، 369 ،
371 ، 372 ، 375 ، 381 ، 382 ،
383 ، 384 ، 385 .

الفرنسيسكون :

• 191

بنو فليسة :

• 379

الفيلاليون = الفلالية :

• 288 ، 290

- ق -

القبائل البربرية :

انظر : البربر (في الجماعات)

القبائل الصغرى :

• 61 ، 72 ، 73 ، 87 ، 355

قروان :

• 313

القيشاليون :

• 243 ، 248 ، 249 ، 255

القطانيون :

• 190 ، 247

قطلوونية :

• 247 ، 338

قيصر :

• 288

- ك -

بنو كبدانة :

• 288

الكبوشيون :

• 339 ، 366

كتامة :

28 ، 61 ، 70 ، 71 ، 72 ، 73 ،
74 ، 75 ، 76 ، 83 ، 86 ، 90 ،
93 ، 144 ، 392 ، 394

الكراغلة :

• 338 ، 352 ، 353

كوكو :

• 328 ، 329 ، 343

الكومية :

• 28

، 185 ، 184 ، 178 ، 175 ، 173
 ، 203 ، 202 ، 200 ، 198 ، 190
 ، 210 ، 207 ، 206 ، 205 ، 204
 ، 215 ، 214 ، 213 ، 212 ، 211
 ، 222 ، 220 ، 219 ، 217 ، 216
 ، 227 ، 226 ، 225 ، 224 ، 223
 ، 234 ، 232 ، 231 ، 230 ، 228
 ، 239 ، 238 ، 237 ، 236 ، 235
 ، 248 ، 244 ، 243 ، 242 ، 240
 280 ، 258 ، 252 ، 250 ، 249
 • 325 ، 314 ، 303

بنو مزاب :
 • 338

مزغنة :
 • 325

المسيحيون :
 • 195 ، 194 ، 112 ، 67

المسيحيون الارثوذكس :
 • 19

المصاعدة = مصمودة :
 ، 119 ، 109 ، 103 ، 95 ، 32
 ، 169 ، 168 ، 162 ، 134 ، 130
 • 394

المطماطة :
 • 28

المعتزلة :
 • 65 ، 64 ، 63 ، 61 ، 46

- ل -

لنش :
 • 361

لومليني :
 • 373 ، 361

المالكية ، مذهبيهم :
 ، 105 ، 83 ، 82 ، 81 ، 65 ، 64
 ، 124 ، 123 ، 117 ، 115 ، 114
 • 375 ، 374 ، 197 ، 170

المانديون :
 • 274

المتاغرة :
 • 28

بنو مدرار :
 • 107 ، 86 ، 74 ، 48

المرابطون ، امبراطوريتهم :
 ، 106 ، 104 ، 103 ، 53 ، 29 ، 7
 ، 114 ، 113 ، 109 ، 108 ، 107
 ، 122 ، 121 ، 120 ، 119 ، 115
 ، 135 ، 133 ، 130 ، 128 ، 123
 ، 152 ، 150 ، 142 ، 137 ، 136
 ، 220 ، 170 ، 167 ، 166 ، 153
 • 303 ، 251

المراديون :
 • 381 ، 354 ، 353

بنو مرين = المرينيون ، دولتهم ،
 عهدهم :
 ، 168 ، 157 ، 154 ، 121 ، 29 ، 7

، 237 ، 231 ، 224 ، 220 ، 219
، 244 ، 243 ، 240 ، 239 ، 238
، 273 ، 252 ، 251 ، 250 ، 246
، 389 ، 354 ، 315 ، 303 ، 280
، 396 ، 394 ، 392 ، 391

بنو ميمون :
، 162

- ن -

الترمان :
، 144 ، 142 ، 141 ، 140 ، 99
، 179

النصارى :
، 111 ، 108 ، 66 ، 63 ، 62 ، 46
، 119 ، 115 ، 114 ، 113 ، 112
، 145 ، 142 ، 140 ، 121 ، 120
، 155 ، 154 ، 152 ، 148 ، 147
، 194 ، 186 ، 183 ، 162 ، 160
، 238 ، 223 ، 216 ، 214 ، 196
، 276 ، 274 ، 273 ، 269 ، 247
، 330 ، 326 ، 321 ، 313 ، 282
، 358 ، 338 ، 335 ، 333 ، 331
، 364 ، 361

بنو نصر :
، 218 ، 175 ، 173 ، 157 ، 156
، 236 ، 230 ، 227 ، 225 ، 222

النكارة :
، 82 ، 73

بنو معقل :

، 235 ، 224 ، 217 ، 206 ، 168

مفراوة :

، 200 ، 109 ، 107 ، 80 ، 76
، 201

الملثمون :
، 118

ملوك الطوائف :

، 160 ، 114 ، 113 ، 112 ، 95

ممالك مصر :
، 179

الموريسكوس = الموريسك :

، 285 ، 284 ، 283 ، 282 ، 281
، 338 ، 326 ، 325 ، 323 ، 286
، 346

الموحدون ، دولتهم :

، 120 ، 117 ، 103 ، 96 ، 29 ، 7
، 128 ، 126 ، 123 ، 122 ، 121
، 136 ، 135 ، 134 ، 133 ، 132
، 144 ، 142 ، 140 ، 139 ، 137
، 150 ، 149 ، 148 ، 147 ، 146
، 159 ، 158 ، 157 ، 154 ، 152
، 167 ، 166 ، 165 ، 163 ، 162
، 177 ، 173 ، 170 ، 169 ، 168
، 191 ، 190 ، 186 ، 183 ، 182
، 197 ، 195 ، 194 ، 193
، 212 ، 203 ، 202 ، 200 ، 199
، 217 ، 216 ، 215 ، 214 ، 213

الوثنيون :

• 67

بنو ورفجومة :

• 40 ، 38

بنو وطاس :

• 235 ، 226 ، 224 ، 188 ، 187

• 252 ، 250 ، 247 ، 243 ، 237

• 258 ، 257 ، 255 ، 254 ، 253

• 268 ، 267 ، 266 ، 265 ، 259

• 343 ، 328

وكالة افريقيا :

• 380

الوندال ، عهدهم :

• 27 ، 9

- ي -

بنو يعقوب :

• 205 ، 204

بنو يعلى :

• 201

اليهود :

• 273 ، 151 ، 62 ، 46 ، 25

• 361 ، 360 ، 313 ، 305 ، 300

• 375 ، 372

- ه -

هرغة :

• 132 ، 123

هسكورة :

• 32

بنو هلال = الهالليون :

• 98 ، 97 ، 96 ، 95 ، 93 ، 53

• 142 ، 140 ، 139 ، 138 ، 113

• 195 ، 173 ، 168 ، 150 ، 149

• 208 ، 207 ، 206 ، 202 ، 200

• 393 ، 250 ، 212

هنتاة :

• 265 ، 254 ، 235 ، 232

بنو هود ، دولتهم :

• 112 ، 111

الهولانديون :

• 309 ، 302 ، 300 ، 286 ، 284

• 365 ، 361 ، 360

هيئة الانقاذ العمومي :

• 380

- و -

الوانشريس :

• 328 ، 322

الاماكن والبلدان والمدن
والسهول والجبال والوديان

البيسة (Ibiça) :	- أ -
• 115	أرنسول (Arnisol) :
أجر سيف :	• 120
• 212 ، 157 ، 128	أسفى :
إدرار :	• 299 ، 266 ، 257 ، 255 ، 247
• 104	• 314 ، 312 ، 311 ، 309
الاريس :	آسيا :
• 74	• 92
الارغون (Aragon) :	آسيا الصفرى :
• 147 ، 120 ، 113 ، 111 ، 110	• 355
• 182 ، 181 ، 178 ، 156 ، 150	أصيلا (Arzila) :
• 247 ، 219 ، 196 ، 187 ، 183	• 255 ، 254 ، 253 ، 247 ، 227
• 338 ، 324 ، 248	• 297 ، 278 ، 270 ، 257 ، 256
	آيت يحيى (قرية) :
	• 322

استرامادورا (Estramadura) :

• 281 ، 150

الاساطيل الاروية :

• 355

الاسطول البيزنطي :

• 25

الاسطول العباسي :

• 76

الاسكندرية :

162 ، 124 ، 81 ، 76

اسلندا :

• 355

اشبيلية :

• 122 ، 120 ، 114 ، 113 ، 111

• 164 ، 159 ، 158 ، 157 ، 156

• 240 ، 222 ، 178 ، 165

اشير :

• 201 ، 93 ، 90 ، 89 ، 87 ، 84

الاطلس :

• 109 ، 107 ، 103 ، 95 ، 32

• 215 ، 136 ، 133 ، 128 ، 123

• 265 ، 232 ، 228 ، 224 ، 217

• 293 ، 288 ، 284 ، 281 ، 268

• 314 ، 312 ، 310 ، 307 ، 303

الاطنطيق = البحر الاطنطي :

• 285 ، 277 ، 256 ، 136 ، 20

• 321

ارقوين (Arguin) :

• 278

الارك (Alarcos) :

• 212 ، 154 ، 152 ، 150

اركودية = الكدية (الخزامى) :

• (Alhucemas)

• 247

أريانة :

• 199

ازمور :

• 283 ، 266 ، 257 ، 247 ، 214

أسبانيا :

• 35 ، 33 ، 32 ، 25 ، 21 ، 20

• 110 ، 103 ، 79 ، 70 ، 37 ، 36

• 117 ، 115 ، 114 ، 113 ، 111

• 122 ، 121 ، 120 ، 119 ، 118

• 145 ، 144 ، 138 ، 137 ، 125

• 150 ، 149 ، 148 ، 147 ، 146

• 160 ، 159 ، 158 ، 156 ، 154

• 190 ، 173 ، 169 ، 164 ، 162

• 219 ، 218 ، 217 ، 216 ، 198

• 229 ، 227 ، 226 ، 225 ، 223

• 245 ، 244 ، 243 ، 231 ، 230

• 280 ، 278 ، 270 ، 269 ، 248

• 286 ، 285 ، 284 ، 282 ، 281

• 324 ، 323 ، 322 ، 300 ، 289

• 348 ، 347 ، 339 ، 333 ، 326

• 365 ، 356 ، 350 ، 349

• 389 ، 384 ، 382 ، 380 ، 379

• 394 ، 392

349 ، 353 ، 354 ، 356 ، 363 .
393

افريقية البيزطية :
12 ، 9

افريقية الرومانية :
9

افوقال (Afoughal) :
365

أفينيون :
311

اقادير = اكادير :
103 ، 201 ، 257 ، 258 ، 265 .
266 ، 299 ، 311 ، 312

أقليج (Ucles) :
119

أقدا :
215

اقيون (Aiguillon) :
367

أكسرحس (Exarque) :
16

أليقت (Alicante) :
156 ، 160 ، 323

أليط :
114

الاعراش :

227 ، 279 ، 281 ، 284

أغمات :

107 ، 129 ، 133

الاغواط :

288 ، 298

افراغة :

115 ، 120

افريقيا * السوداء :

255

افريقية = البلاد التونسية :

10 ، 14 ، 16 ، 20 ، 28 ، 32 ،

33 ، 36 ، 37 ، 38 ، 39 ، 40 ،

43 ، 49 ، 53 ، 55 ، 56 ، 60 ،

61 ، 62 ، 63 ، 64 ، 65 ، 67 ،

68 ، 69 ، 70 ، 72 ، 74 ، 75 ،

76 ، 77 ، 80 ، 82 ، 84 ، 86 ، 87 ،

89 ، 90 ، 91 ، 92 ، 93 ، 96 ،

98 ، 118 ، 139 ، 139 ، 140 ،

141 ، 142 ، 144 ، 145 ، 146 ،

148 ، 149 ، 150 ، 152 ، 154 ،

156 ، 160 ، 161 ، 166 ، 167 ،

168 ، 169 ، 170 ، 173 ، 177 ،

179 ، 180 ، 181 ، 182 ، 185 ،

188 ، 189 ، 190 ، 191 ، 195 ،

197 ، 198 ، 199 ، 200 ، 222 ،

226 ، 229 ، 234 ، 248 ، 258 ،

316 ، 321 ، 341 ، 346 ، 347 ،

* أهملنا ذكر «افريقيا الشمالية» وما فى معناها : «المغرب الكبير» «المغرب» لكثرة ترادفها ولانها موضوع الكتاب بأكمله .

أود غسطن :
• 107

الأوراسي :

• 25 ، 24 ، 22 ، 21 ، 20 ، 19
• 83 ، 81 ، 42 ، 30 ، 28 ، 26
• 244 ، 234 ، 189 ، 185 ، 142

أوراسين :
• 30

أوروبا = الدول الأوروبية :

• 302 ، 300 ، 277 ، 273 ، 46
• 346 ، 328 ، 316 ، 314 ، 312
• 380 ، 371 ، 368 ، 359 ، 347
• 395 ، 392 ، 385 ، 382 ، 381

الايالة التونسية :
انظر : افريقية

الايالة الجزائرية :
انظر : الجزائر

الايبرو (نهر) :
• 120

إيطاليا = الجمهورية الإيطالية :

• 273 ، 188 ، 141 ، 99 ، 70 ، 69
• 349 ، 330 ، 327 ، 324 ، 300
• 355 ، 350

إيقليز (قرية) :
• 124 ، 123

إيق مورت :
• 180

أمرغو (Amergo) :
• 119

الاناضول :

• 335 ، 332

الانتى (جزر) :
• 360

الاندلس = الجزيرة الخضراء :

• 110 ، 95 ، 90 ، 63 ، 56 ، 14
• 137 ، 120 ، 114 ، 113 ، 111
• 164 ، 160 ، 156 ، 155 ، 145
• 223 ، 222 ، 219 ، 198 ، 166
• 356 ، 338 ، 294 ، 244 ، 230

أنجو (Anjou) :
• 179

أنلوجر :
• 156

أنقلترا :

• 300 ، 286 ، 285 ، 270 ، 230
• 382 ، 365 ، 361 ، 355 ، 309
• 389 ، 285

أنكاد (Angad) :
• 290 ، 289

أوجلة :
• 140

أوداية :
• 309 ، 308

الباب العالي :
• 277 ، 311 ، 328 ، 330 ، 332
• 339 ، 340 ، 341 ، 345 ، 346
• 347 ، 350 ، 351 ، 352 ، 355
• 379 ، 382

باب عزون (بالجزائر)
• 336 ، 339 ، 344 ، 375

باب القلعة (بطينة)
• 362

باب قيزة (بغاس)
• 311

باب منصور (بمكناس)
• 306

باب الوادي (بالجزائر)
• 336 ، 375

البابور :
• 72 ، 142 ، 379

باجة :
• 83 ، 92 ، 139 ، 141 ، 142
• 150 ، 183

بادستان :
• 339

باديس (ميناء فاس)
• 247 ، 248 ، 269

ايكجان :
• 73 ، 74

ايكس لاشايل :
• 381

ايلغ (قلعة) :
• 290 ، 300

- ب -

باب اقناو (بمراكش)
• 166

باب الجديد (بالجزائر)
• 336

باب الجزيرة (بالجزائر)
• 336

باب الجهاد (بالجزائر)
• 336

باب الخميس (بمكناس)
• 305

باب الرواح (بالرباط)
• 166

باب السمك (بالجزائر)
• 336

باب سويقة (بتونس)

بئر الكاهنة :

• 26

البرازيل :

• 270

باردو :

• 383 ، 354

البرتقال :

• 256 ، 254 ، 253 ، 154 ، 111

• 280 ، 278 ، 277 ، 271 ، 267

• 379 ، 349 ، 323 ، 285

باريس :

• 385 ، 360 ، 395

برتو (Porto) :

• 249

باغية :

• 142 ، 66 ، 20

برج 44 ساعة :

• 337

بجاية :

• 138 ، 137 ، 125 ، 98 ، 96

• 160 ، 149 ، 146 ، 140 ، 139

• 185 ، 184 ، 182 ، 178 ، 161

• 203 ، 197 ، 196 ، 187 ، 186

• 233 ، 232 ، 206 ، 205 ، 204

• 334 ، 330 ، 326 ، 324 ، 322

• 395

برج السلطان قلاص :

• 337

برج علج على :

• 337

برشلونة :

• 147 ، 141 ، 120 ، 119 ، 113

البحر الاحمر :

• 287

برغواطة :

• 107 ، 95 ، 48 ، 40 ، 36 ، 32

• 394 ، 145 ، 136

البحر الاطلسي :

• انظر : الاطلسي

برقة :

• 151 ، 146 ، 140 ، 24 ، 22 ، 16

البحر المتوسط :

• 149 ، 148 ، 141 ، 77 ، 32 ، 15

• 194 ، 188 ، 182 ، 179 ، 162

• 330 ، 326 ، 322 ، 316 ، 297

• 348 ، 347 ، 339 ، 334 ، 333

• 395 ، 355

بركة القيروان :

• 357

برنو :

• 274 ، 179

- بروفانسي :**
• 81 ، 180 ، 188 ، 366 ، 384
- البروقنصلية :**
• 9
- البريجة :**
• 269
- بريطانيا :**
• انظر : انقلترا
- البسائط :**
• 215 ، 222
- بستيون فرنسا :**
• 360 ، 361
- البستيون :**
• 363 ، 364 ، 366
- بسكرة :**
• 22 ، 150 ، 186 ، 212 ، 338 ، 355
- بغداد :**
• 13 ، 40 ، 53 ، 60 ، 65 ، 67 ، 76 ، 90 ، 91 ، 92 ، 95 ، 124
- البقاع المقدسة :**
• 186
- بلاد البربر :**
• انظر : البربر (في الجماعات)
- بلاد البرمة :**
• انظر : الاندلس
- البلاد التونسية :**
• انظر : افريقية
- بلاد الريف :**
• انظر : الريف
- بلاد الزاب :**
• 322
- بلاد الزنج :**
• 104
- بلاد القبائل :**
• انظر : (البربر في الجماعات)
- بلاد القريني (Cyrénaïque) :**
• 16
- بلاد المخزن :**
• 307 ، 310 ، 314 ، 315
- بلرمو :**
• 70 ، 144
- بلزمة :**
• 66 ، 69 ، 74
- بلقدير :**
• 375
- بلنسية :**
• 100 ، 111 ، 115 ، 120 ، 156 ، 178 ، 338

- ت -

تاجو (Tage) :

• 112 ، 111

تادلا :

• 314 ، 310 ، 293 ، 266 ، 215

تارودانت :

• 300 ، 293 ، 265 ، 275 ، 107

تازا :

• 215 ، 213 ، 200 ، 165 ، 128

• 237 ، 228 ، 227 ، 224 ، 216

• 267 ، 248 ، 245 ، 244 ، 239

• 298 ، 296 ، 293 ، 290 ، 289

• 343

تاسغيموت (Tasghimout) :

• 119

تافيلالت = تفيالالت :

• 229 ، 202 ، 107 ، 58 ، 32

• 284 ، 281 ، 266 ، 237 ، 232

• 292 ، 290 ، 289 ، 288 ، 287

• 310 ، 300 ، 296 ، 294 ، 293

• 313

تافنا = تفنا = تفنه :

• 298 ، 288 ، 201

تافرا :

• 125

تاغراوت (Tagrat) :

• 119

البندقية :

• 178 ، 147 ، 162 ، 160 ، 70

• 348 ، 300 ، 197 ، 196 ، 181

• 384 ، 372 ، 355 ، 349

بنزوت :

• 384 ، 330 ، 320 ، 98

البنى (Bani) :

• 265

بواتي (Poitiers) :

• 33

بوسمفون :

• 298

بوقاري :

• 87

بوماريا :

• 201

بونه :

• انظر : عنابة

بوهيميا :

• 355

البيريني :

• 324

بيز (Pise) :

• 196 ، 181 ، 178 ، 161 ، 160

بيزنطة :

• 69 ، 10

تركيا :
 • 367 ، 348 ، 311

تطوان :
 • 281 ، 251 ، 249 ، 245 ، 227
 • 309 ، 302 ، 299

تغازة (Teghazza) :
 • 275 ، 274

تقونيت :
 • 215

تلمسان :
 • 125 ، 121 ، 110 ، 89 ، 56 ، 39
 • 157 ، 156 ، 138 ، 136 ، 128
 • 179 ، 178 ، 173 ، 161 ، 160
 • 197 ، 188 ، 186 ، 184 ، 182
 • 204 ، 203 ، 202 ، 201 ، 200
 • 214 ، 208 ، 207 ، 206 ، 205
 • 225 ، 224 ، 223 ، 222 ، 218
 • 232 ، 231 ، 229 ، 228 ، 226
 • 240 ، 237 ، 236 ، 235 ، 233
 • 258 ، 250 ، 249 ، 248 ، 245
 • 327 ، 321 ، 298 ، 288 ، 267
 • 344 ، 343 ، 342 ، 341 ، 328
 • 393 ، 379 ، 346

تمبكتو :
 • 295 ، 294 ، 277 ، 275 ، 274

تنس :
 • 329 ، 327 ، 324 ، 141 ، 110

تنسفت :
 • 310 ، 119 ، 109

تاكرارت :
 • 209 ، 201

تاميزدكت :
 • 205

تامسنا :
 • 95

تاهرت = تيهرت (العاصمة
 الرسمية) :
 • 44 ، 43 ، 42 ، 41 ، 39 ، 20
 • 81 ، 76 ، 74 ، 48 ، 47 ، 45
 • 98 ، 85 ، 82

تاودونه (Taadeni) :
 • 277 ، 274

تاورمينه (Toormina) :
 • 70

تاويرت :
 • 226

تاونت :
 • 218

تبسة :
 • 153 ، 139 ، 61 ، 25

تدلس :
 • 237 ، 187 ، 183

تربلانتا (Torreblanca) :
 • 187

تيدرا (Tydra) :	تنملى :
• 106	• 219 ، 165 ، 136 ، 132 ، 130
تيدسى :	تودية :
• 265	• 113
تيطرى :	توزر :
• 379 ، 377 ، 328 ، 206	• 186 ، 82
تيكورارين :	توقرت :
• 227	• 378 ، 343 ، 322 ، 188
تيمريس (Timiris) :	التوكولور (Toucouleur) :
• 106	• 277
- ث -	تونس (العاصمة) *
ثقات (Tagant) :	• 61 ، 60 ، 41 ، 35 ، 25 ، 19
• 107	• 126 ، 124 ، 83 ، 77 ، 67 ، 66
- ج -	• 150 ، 149 ، 144 ، 142 ، 141
جالطة :	• 161 ، 160 ، 157 ، 156 ، 154
• 384	• 181 ، 180 ، 175 ، 162
الجامع الاعظم (باشييلية)	• 185 ، 184 ، 183 ، 182
• 165	• 198 ، 197 ، 196 ، 193 ، 188
الجامع الاكبر (بفاس) :	• 232 ، 231 ، 217 ، 207 ، 199
• 279	• 311 ، 299 ، 281 ، 234 ، 233
جامع تلمسان :	• 336 ، 331 ، 330 ، 322 ، 321
• 118	• 351 ، 350 ، 349 ، 341 ، 340
جامع الثلاثة ابواب (بالقيروان)	• 358 ، 357 ، 356 ، 354 ، 352
• 67	• 368 ، 367 ، 363 ، 361 ، 360
تيارت :	• 395 ، 391 ، 379 ، 370 ، 369
• 89	

(*) انظر : تونس (البلاد) في افريقية .

- جامع حسان (بالرباط) :
• 167 ، 165
- جامع الحفلاويين (بتونس) :
• 385
- جامع الزيتونة = الاعظم (بتونس) :
• 321 ، 67
- جامع السفير (بالجزائر) :
• 375
- جامع سوسة :
• 67
- جامع سيدى محرز :
• 356
- جامع السيدة (بالجزائر) :
• 375
- جامع سيدى محمد بن عبد الرحمن (بالجزائر) :
• 375
- جامع صفاقس :
• 67
- جامع القرويين (بفاس) :
• 220 ، 118
- جامع القصبة (بتونس) :
• 198
- جامع القصبة (بالجزائر) :
• 375
- الجامع الكبير بشبيلية :
• 159 ، 158
- الجامع الكبير (بالجزائر) :
• 118
- الجامع الكبير (بالقيروان) :
• 198 ، 67
- جامع الكتبيين (بمراكش) :
• 167 ، 165
- جامع كتشاوة (بالجزائر) :
• 375
- جامع مراكش :
• 118
- جامع المصيدة (بالجزائر) :
• 375
- جامع يوسف :
• 350
- جبال البابور :
انظر : البابور
- جبال التل :
• 28
- جبال غمارة :
• 217
- جبال غيثة :
• 213

جبال نفوسة :

• 189 ، 153 ، 150

الجبل الاخضر :

• 87

جبل الرصاص :

• 321

جبل رندة (Sierra de Ronda) :

• 219

جبل شلير (Sierra Nevada) :

• 219

جبل طارق :

• 217 ، 145 ، 113 ، 32 ، 15

• 255 ، 234 ، 231 ، 230 ، 227

• 302

جبل عمور :

• 298

الجديدة :

• 269

جيرالدا :

• 165

جربة :

• 184 ، 183 ، 141 ، 138 ، 47

• 321 ، 197 ، 196 ، 189 ، 187

• 348 ، 347 ، 326 ، 324 ، 322

• 389 ، 354

الجريد :

• 142 ، 140 ، 82 ، 61 ، 40

• 321 ، 185 ، 183 ، 149

الجربة :

• انظر : حجر باديس

الجزائر (البلاد) = الايالة

الجزائرية = المغرب الاوسط :

• 58 ، 55 ، 42 ، 40 ، 38 ، 21

• 109 ، 93 ، 89 ، 85 ، 82

• 149 ، 140 ، 139 ، 137 ، 123

• 178 ، 168 ، 155 ، 154 ، 153

• 201 ، 200 ، 186 ، 185 ، 181

• 226 ، 210 ، 207 ، 206 ، 205

• 236 ، 234 ، 233 ، 232 ، 231

• 268 ، 267 ، 244 ، 239 ، 237

• 316 ، 299 ، 298 ، 284 ، 269

• 339 ، 330 ، 325 ، 324 ، 321

• 344 ، 343 ، 342 ، 341 ، 340

• 369 ، 357 ، 350 ، 349 ، 346

الجزائر (المدينة) :

• 277 ، 121 ، 118 ، 110 ، 88

• 322 ، 313 ، 311 ، 298 ، 290

• 333 ، 331 ، 330 ، 329 ، 327

• 350 ، 348 ، 345 ، 336 ، 335

• 355 ، 354 ، 353 ، 352 ، 351

• 361 ، 360 ، 358 ، 357 ، 356

• 367 ، 365 ، 364 ، 363 ، 362

• 372 ، 371 ، 370 ، 369 ، 368

• 379 ، 378 ، 377 ، 376 ، 374

• 386 ، 385 ، 384 ، 381 ، 380

• 395 ، 391

جزر الانتى (Antilles) :

• 360

- جيان :**
• 156 ، 150
- جيلى :**
• 289
- جيجلى :**
• 72 ، 141 ، 326 ، 327 ، 329
• 366
- جيرى فيل (Geryville) :**
• 298
- الجزيرة :**
• 76
- ح -
- الحامة :**
• 156
- حجر باديس :**
• 247 ، 297 ، 323 ، 344
- حجر خزامى :**
• 297
- الحراش :**
• 380
- حضر هوت (سوسة) :**
• 19
- الحضنة :**
• 61 ، 84 ، 85 ، 138 ، 142
• 329
- حلق الوادى :**
• 269 ، 330 ، 331 ، 346 ، 347
• 348 ، 349 ، 382 ، 384

- الجزر الخضراء (Iles Canaries) :**
• 255
- الجزائر الشرقية (Iles Baléares) :**
• 120 ، 149 ، 339
- جزر البحر المتوسط :**
• 25
- جزول (جبل) :**
• 39
- الجزيرة الخضراء :**
انظر : الاندلس
- الجزيرة العربية :**
• 176 ، 311 ، 313
- جزيرة لكوس (Ile Loukous) :**
• 255
- جفرة (واحة) :**
• 153
- جليبولى :**
• 348
- جنوة :**
• 81 ، 138 ، 160 ، 161 ، 178 ، 181 ، 186 ، 194 ، 196 ، 197 ، 230 ، 247 ، 355 ، 361 ، 362
• 363
- جنييف :**
• 46
- الجنيينة :**
• 350 ، 376

حمزه (مدينة) :
• 93

حنايا أدريانوس :
• 199

حنايا قرطاج :
• 357

حنين (ميناء) :
• 322 ، 202

- خ -

الخزامى :
• 290 ، 289 ، 213

- د -

دار الباي :
• 385

الدار البيضاء :
311 ، 310

دار الصناعة :
• 195

دار ابن مشعل :
• 286

الدرعة :
• 385

دكالة :
• 257 ، 145

دلس :
• 324

دمشق :
• 124 ، 53 ، 37 ، 18

الدنمارك :
• 379 ، 372 ، 311

الدومينيكا :
• 191

ديرالدو مينيكان :
• 180

ديني :
• 274

- ر -

الرأس الاسود (Cap Nègre) :
• 364 ، 363 ، 361

رأس بوقرعون :
• 142

رأس روزا :
• 363

الرباط :
• 220 ، 215 ، 166 ، 165 ، 159
• 312 ، 310 ، 282 ، 240

رباط بورقراق :
• 242

ريو دى سلاو :	رباط الفتح :
• 234	• 166 ، 165 ، 151 ، 146 ، 145
- ز -	(أم) الربيع (واد) :
الزاب :	• 288 ، 227 ، 215 ، 157 ، 32
• 389 ، 212 ، 142	• 310
زافورة :	رقادة :
265	• 141 ، 77 ، 76 ، 74 ، 66
زاوية بوجاد :	بورقراق :
• 311	• 283
زاوية سيدي بلحسن (بالمغرب)	روض القرطاس :
• 209	• 158 ، 152 ، 146 ، 133 ، 58
زاوية سيدي عبد السلام بن مشيش :	• 223 ، 175
• 313	الريف :
زفارين :	• 135
• 289	الرياض (قرب مكناس) :
زفورة :	• 305
• 215	رسقوني (Rusgunioë) :
الزلاقة :	• 330
• 114	ريبودى سلاو :
زليطن :	• 228
• 38	ريجودى كلابر :
زموقورزفسكى (Zmogorzeuski) :	• 85
• 42	الريف :
زناتة :	• 293 ، 288 ، 250
• 394 ، 392	رينو :
	• 377

سجل ماسية :
 ، 86 ، 79 ، 74 ، 48 ، 46 ، 32
 ، 218 ، 217 ، 215 ، 107 ، 90
 ، 235 ، 232 ، 229 ، 228 ، 227
 ، 308 ، 293 ، 281 ، 248

سجرتا الاصغرى :
 ، 347

سردانيا :
 ، 334

سرسو :
 ، 206 ، 204

سرقسطة :
 ، 115 ، 114 ، 113 ، 112 ، 111
 ، 120 ، 119 ، 117

سرقوسة :
 ، 70

سطيف :
 ، 355 ، 142 ، 139 ، 74 ، 72
 ، 370

سغو (Segou) :
 ، 294

سلا :
 ، 247 ، 245 ، 216 ، 215 ، 55
 ، 290 ، 283 ، 282 ، 281 ، 250
 ، 309 ، 303 ، 302 ، 299 ، 294
 ، 369 ، 312

زويلة :
 ، ، 144

- س -

الساحل الاطلسي :
 ، 297 ، 295

الساحل (بتونس) :
 ، 98

سافونة :
 ، 141

الساقية الحمراء :
 ، 29

سالادو (نهر) :
 ، 248

سبنة :

، 113 ، 89 ، 86 ، 80 ، 32 ، 25
 ، 161 ، 160 ، 156 ، 135 ، 118
 ، 226 ، 219 ، 218 ، 178 ، 163
 ، 249 ، 248 ، 247 ، 246 ، 228
 ، 257 ، 255 ، 253 ، 251 ، 250
 ، 298 ، 297 ، 285 ، 270 ، 258
 ، 394 ، 315 ، 313 ، 302

سبو :
 ، 294 ، 37

سيطة :
 ، 17 ، 16

سيدي عقبة :	سليمة :
• 232 ، 219 ، 209	• 74 ، 72
السيبة :	سمرقند :
• 315	• 62
سيقا :	السودان :
• 201	• 231 ، 202
سيفاكس :	السوس :
• 201	• 136 ، 107 ، 32 ، 21 ، 20
اسينغال :	• 227 ، 223 ، 217 ، 215 ، 146
• 106	• 258 ، 257 ، 254 ، 234 ، 230
- ش -	• 293 ، 290 ، 288 ، 281 ، 265
شاطيء باب الوادي :	• 361 ، 312 ، 299 ، 298 ، 294
• 329	• 394 ، 384
شاطبة :	السوس الأقصى :
• 160	• 105
شالة :	سوسة :
• 242 ، 240 ، 233	• 144 ، 141 ، 77 ، 66 ، 61 ، 24
الشم :	• 346
• 162 ، 111 ، 72 ، 43 ، 37 ، 18	سيوداد (Ciudad Real) :
شانجة :	• 150
• 226 ، 225 ، 223 ، 222	السونغو :
شبرو (قرب تبسة) :	• 275
• 153	السويد :
شذونة (Sidonia) :	• 379 ، 372
• 255	السويس (مضيق) :
	• 36 ، 16

- ص -

صبرة :

• 85

الصحراء :

• 104 ، 53 ، 48 ، 47 ، 42 ، 41

• 152 ، 121 ، 115 ، 110 ، 109

• 287 ، 278 ، 213 ، 207 ، 206

• 393

صدراته :

• 44 ، 43

الصعيد (مصر) :

• 96

صفاقس :

• 196 ، 183 ، 141 ، 77 ، 66

• 346

صقلية :

• 76 ، 75 ، 70 ، 69 ، 66 ، 64

• 144 ، 141 ، 111 ، 99 ، 85

• 182 ، 181 ، 179 ، 178 ، 162

• 347 ، 335 ، 334 ، 330 ، 183

- ط -

طبرية :

• 357

طبرقة :

• 384 ، 383 ، 363 ، 361 ، 26

• 385

شمال :

• 329 ، 327 ، 324 ، 141 ، 9

الشرق = الشرق الاوسط =

الشرق الاسلامي :

• 55 ، 53 ، 46 ، 15 ، 13 ، 7

• 79 ، 77 ، 71 ، 70 ، 66 ، 63

• 125 ، 123 ، 118 ، 105 ، 97

• 144 ، 138 ، 131 ، 129 ، 128

• 199 ، 196 ، 167 ، 164 ، 145

• 361 ، 360 ، 290 ، 251 ، 243

• 395 ، 392

شريس :

• 222 ، 219 ، 178

شفشاون :

• 216

الشلف :

• 232 ، 37 ، 36

شلوبانية (Salobrenia) :

• 120

شنترين :

• 150 ، 148

شوفري (Chevreuil) :

• 73

شيشاو :

• 266

طون : • 301	طينة : • 74 ، 39 ، 30 ، 22
الظهرة : • 324	طرابلس : • 38 ، 35 ، 28 ، 25 ، 16 ، 9 • 76 ، 74 ، 61 ، 42 ، 41 ، 39 • 141 ، 140 ، 103 ، 89 ، 81 • 186 ، 153 ، 149 ، 148 ، 142 • 347 ، 340 ، 324 ، 313 ، 189 • 369 ، 354 ، 350 ، 349 ، 348 • 384
- ع -	
العباد : • 239 ، 209	طرطوشة : • 120
العرائش : • 297 ، 285 ، 283 ، 280 ، 271 • 313	طربان : • 119
العراق : • 72 ، 63 ، 44 ، 43 ، 36	طريف : • 248 ، 231 ، 230 ، 225 ، 178 • 325
عزرو : • 55	طليطلة : • 150 ، 114 ، 113 ، 111
عناية : • 185 ، 150 ، 138 ، 61 ، 24 • 325 ، 322 ، 232 ، 188 ، 187 • 372 ، 360 ، 331 ، 329	طنجة : • 37 ، 36 ، 33 ، 32 ، 21 ، 20 • 163 ، 89 ، 86 ، 59 ، 58 ، 55 • 251 ، 248 ، 247 ، 218 ، 178 • 257 ، 256 ، 255 ، 254 ، 253 • 289 ، 288 ، 285 ، 270 ، 258 • 312 ، 308 ، 297 ، 296 ، 290 • 313
عين البيضاء : • 25	
عين الصفراء : • 298	
عين اللوح : • 55	

- ف -

فارس :

• 72 ، 24

فازاز :

• 55

فاس :

، 157 ، 151 ، 149 ، 140 ، 136
، 173 ، 166 ، 162 ، 160 ، 158
، 200 ، 188 ، 187 ، 186 ، 179
، 206 ، 205 ، 204 ، 202 ، 201
، 216 ، 215 ، 213 ، 212 ، 207
، 230 ، 228 ، 227 ، 224 ، 220
، 250 ، 245 ، 242 ، 241 ، 231
، 255 ، 254 ، 253 ، 252 ، 251
، 267 ، 265 ، 258 ، 257 ، 256
، 281 ، 280 ، 279 ، 276 ، 268
، 292 ، 290 ، 289 ، 288 ، 284
، 303 ، 300 ، 299 ، 296 ، 293
، 314 ، 313 ، 311 ، 310 ، 308
• 379 ، 350 ، 349 ، 344 ، 328

الفرات :

• 34

فرسای :

• 303 ، 302 ، 301

فرسوفيا :

• 41

عين المهدى :

• 378 ، 298

عين ابى يعقوب :

• 224

عيون تلمسان :

• 20

- غ -

غانة :

• 274 ، 107

غرداية :

• 48

غرناطة :

، 120 ، 118 ، 117 ، 114 ، 111
، 173 ، 164 ، 157 ، 156 ، 145
، 190 ، 188 ، 187 ، 186 ، 178
، 226 ، 225 ، 222 ، 219 ، 218
، 248 ، 236 ، 231 ، 230 ، 228
، 323 ، 281 ، 255 ، 250 ، 249
• 348 ، 346 ، 338 ، 326 ، 325

غزوة ابن سعد :

• 16

غساسة :

• 247

غمارة :

225 ، 147 ، 95 ، 36 ، 32

• 394 ، 227

فرنسا :

111 ، 180 ، 181 ، 186 ، 188 ،
230 ، 270 ، 278 ، 285 ، 301 ،
302 ، 303 ، 311 ، 312

الفزان :

16 ، 19 ، 149

الفسطاط :

76

الفكيك :

212 ، 314 ، 322

الفلاندر :

188

فلورانس :

188 ، 196

فندق فرنسا :

361

فوليبيليس (Volubilis) :

55

الفيوم :

76

- ق -

قابسي :

61 ، 140 ، 150 ، 177 ، 184

185 ، 196

قادس :

212 ، 296 ، 300

القالة :

182 ، 340 ، 363 ، 372

القاهرة :

14 ، 86 ، 89 ، 90 ، 91 ، 92

95 ، 96 ، 162 ، 313

قبة البلفدير :

385

قراة :

274

قرطاج :

10 ، 15 ، 17 ، 25 ، 77 ، 141

179 ، 181 ، 331

قرطبة :

38 ، 58 ، 59 ، 79 ، 80 ، 83

85 ، 89 ، 95 ، 107 ، 110 ، 111

118 ، 119 ، 120 ، 137 ، 145

150 ، 154 ، 158 ، 160 ، 201

219 ، 222 ، 225

قرنة :

141 ، 183 ، 187

قرقة :

309 ، 360 ، 372

القريني :

16

القسطنطينية :

18 ، 25 ، 180 ، 253 ، 267 ، 268 ، 277 ، 278 ، 329 ، 330 ، 331 ، 332 ، 333 ، 342 ، 343 ، 344 ، 345 ، 346 ، 351 ، 356 ، 395

قسطيلية = الجريد :

74

قسنطينية :

29 ، 35 ، 75 ، 81 ، 138 ، 142 ، 149 ، 160 ، 178 ، 183 ، 184 ، 185 ، 187 ، 190 ، 205 ، 232 ، 234 ، 269 ، 369 ، 370 ، 377 ، 379 ، 393

قشتالة :

111 ، 112 ، 113 ، 114 ، 119 ، 147 ، 150 ، 155 ، 156 ، 216 ، 219 ، 222 ، 225 ، 228 ، 230 ، 234 ، 235 ، 244 ، 248

القصبة (بتونس) :

179 ، 195

القصبة (بالجزائر) :

331 ، 336 ، 337 ، 384

قصبة خميس :

291

قصبة بني سعد :

273

قصبة شمراردة :

291

القصبة المرينية :

305

قصبة مكناس :

220

قصبة مراکش :

165 ، 198

قصبة الوداية (فى الرباط) :

165 ، 166

قصر باردو :

199

القصر الحفصى :

383

قصر راس الطابية :

199

قصر فرساي :

291

القصر الكبير :

178 ، 270

قفصة :

61 ، 148 ، 152 ، 185 ، 186

347

القل :

322 ، 329 ، 363 ، 364 ، 372

الكاف :	قلعة بني حماد :
• 370	• 137 ، 107 ، 96 ، 95 ، 93
• 180	• 150 ، 149 ، 142
كاغلياري (Gagliari) :	قلعة بني راشد :
• 180	• 355
كربلاء :	قلعة فنتي :
• 71	• 265
كستلامارا (Castellamara) :	قلعة قراشيوزا (Griaciosa) :
• 357	• 255
كسييلة :	قليبية :
• 30 ، 29 ، 27 ، 24 ، 21 ، 20	• 346
• 38	قمودة :
كندی (Candi) :	• 61
• 367	القيروان :
كنيسة برو (Brou) :	• 24 ، 22 ، 20 ، 19 ، 17 ، 14
• 280	• 48 ، 39 ، 38 ، 37 ، 36 ، 32
كنيسة شارتر (Chartres) :	• 65 ، 63 ، 62 ، 61 ، 60 ، 58
• 280	• 81 ، 77 ، 73 ، 68 ، 67 ، 66
كورسيكا :	• 96 ، 93 ، 90 ، 85 ، 84 ، 83
• 384 ، 325	• 150 ، 141 ، 118 ، 105 ، 98
الكوفة :	• 199 ، 197 ، 190 ، 184 ، 181
• 44 ، 36 ، 34	• 330 ، 232 ، 231 ، 219 ، 205
• 382 ، 347 ، 346	
كوكو :	- لا -
• 327 ، 277 ، 275 ، 274	كاتو كمبريس (Cateau Cambresis) :
• 347	
كونكة (Cuenca) :	
• 150 ، 119 ، 103	

- ل -

لاردة :

. 120 ، 115

لامباز (Lambaise) :

. 20

لبدة :

. 140

اللسانة :

. 120

لشبونة :

. 270 ، 249

لتسونة :

. 107 ، 106 ، 105 ، 104 ، 32

لطة :

. 32

لندرة = لندن :

. 381 ، 297 ، 296

اللقنوك :

. 361 ، 302

لولبة (نهر) :

. 288

لوخاس (نهر) :

. 271

لوزتانيا :

. 110

ليانت :

. 349 ، 348

ليفري (Levrier) :

. 106

ليون (Léon) :

. 119 ، 111

- م -

ماتيفو :

. 330

مارستان فاس :

. 233

ماسة :

. 281

مالطة :

. 354 ، 348 ، 347 ، 345

مالقة :

. 323 ، 222 ، 114 ، 111

مايوركا :

. 25

متيجة :

. 329 ، 328 ، 139

مجاز الباب :

. 357

مجرىط = مدريد :

. 380 ، 150

المحيط الاطلنطي :	مدرسة العباد :
انظر : الاطلنطي .	
المحيط الهندي :	مدرسة العطارين :
256 .	227 ، 241 .
مدارس تازي :	مدرسة فاس :
233 .	245 .
مدارس سلا :	المدرسة المصباحية :
233 .	141 ، 233 .
مدارس مراكش :	مدرسة الواد :
233 .	233 .
المدارس المصرية :	مسلى (ايسبوس القديمة) :
383 .	326 .
مدارس مكناس :	المدينة :
233 .	88 ، 201 ، 327 .
المدرسة الباشية :	المدينة :
383 .	13 ، 48 ، 63 ، 130 .
المدرسة البوغانمية :	المدينة البيضاء :
241 ، 303 ، 314 .	انظر : فاس .
المدرسة الحربية للضباط المغاربة :	مراكش :
311 .	109 ، 110 ، 121 ، 122 ، 123 ،
مدرسة سيدى بومدين :	126 ، 129 ، 132 ، 136 ، 137 ،
233 .	139 ، 140 ، 144 ، 151 ، 152 ،
مدرسة الصفارين :	153 ، 154 ، 155 ، 156 ، 157 ،
240 .	158 ، 165 ، 166 ، 168 ، 173 ،
مدرسة الصهرج :	217 ، 219 ، 222 ، 224 ، 227 ،
227 ، 241 .	232 ، 235 ، 239 ، 247 ، 252 ،

المزاق :	254 ، 255 ، 257 ، 265 ، 266 ،
• 9 ، 17 ، 19 ، 25 .	267 ، 268 ، 269 ، 271 ، 273 ،
مزغان :	275 ، 276 ، 278 ، 279 ، 281 ،
269 ، 282 ، 285 ، 297 ، 311 ،	284 ، 285 ، 288 ، 290 ، 291 ،
• 314	293 ، 296 ، 300 ، 303 ، 305 ،
	309 ، 310 ، 311 ، 314 .
المشرق :	مرداش :
• انظر : الشرق .	215 .
مستفانم :	المرسى :
267 ، 269 ، 324 ، 343 ، 345 .	199 .
مسجد الادارسة :	مرسى الرشيد :
• 209	76 .
مسجد اكادير :	المرسى الكبير :
• 209	323 ، 345 ، 347 ، 349 ، 380 .
مسجد باب بردين :	مرسية :
• 304	110 ، 113 ، 114 ، 120 ، 147 ،
مسجد تنملل :	• 156 ، 218 .
• 158	مرسيليا :
مسجد البصريين :	160 ، 161 ، 247 ، 285 ، 289 ،
• 43	309 ، 311 ، 312 ، 339 ، 361 ،
مسجد حسان (بالرباط)	363 ، 364 ، 365 ، 366 ، 372 ،
• 239	مرناق :
مسجد الحسن	• 321
• 159	المرية :
مسجد حي الرصيف :	111 ، 114 ، 120 ، 160 .
• 314	المزاب :
	42 ، 47 .

المسلية :	مسجد الزهور :
• 93	• 305
مسينا :	مسجد سيدى بن عروس :
• 141 ، 70	• 356
مشرع الرمل :	مسجد الشرايين :
• 295 ، 294	• 314 ، 233
المشوار :	مسجد العباد :
• 379 ، 342 ، 328 ، 209	• 239
نصر :	مسجد القرويين :
• 19 ، 18 ، 17 ، 16 ، 14 ، 10	• 43
• 75 ، 74 ، 38 ، 37 ، 32 ، 20	مسجد القصبة (بمراكش) :
• 90 ، 86 ، 81 ، 79 ، 77 ، 76	• 159
• 188 ، 186 ، 180 ، 179 ، 162	المسجد الكبير :
• 367 ، 231 ، 226	• 220
مضيق جبل طارق :	مسجد الكوفيين :
• 394 ، 372 ، 330 ، 316	• 43
مطماط (جبل) :	مسجد للا عودة :
• 29	• 305
المعمورة :	مسجد المنصورة :
• 296 ، 285 ، 284 ، 283	• 233
المغرب = المغرب العربى :	مسكراى (Masqueray) :
انظر : افريقيا الشمالية :	• 42 ، 30
المغرب الاقصى :	مسكرة :
• 145 ، 140 ، 139 ، 136 ، 135	• 379
• 150 ، 149 ، 148 ، 147 ، 146	
• 165 ، 160 ، 157 ، 156 ، 155	

، 304 ، 303 ، 302 ، 296 ، 295
، 113 ، 311 ، 310 ، 308 ، 306

مكناسة :

، 111 ، 80 ، 79 ، 48 ، 36 ، 32
• 303

ملالة :

• 125

ملوية :

، 157 ، 146 ، 137 ، 87 ، 30 ، 29
، 294 ، 284 ، 241 ، 217 ، 212
• 343

مليانة :

• 327 ، 238 ، 201 ، 149 ، 88

مليكة :

• 48

مليلة :

، 297 ، 288 ، 255 ، 247 ، 80
• 349 ، 323 ، 315 ، 311

الممالك الصقلية :

• انظر : صقلية

ممس : (Memes)

• 24

المنستير :

• 346 ، 220 ، 199 ، 198 ، 66

المنصورية :

، 141 ، 95 ، 93 ، 92 ، 89 ، 85

، 185 ، 170 ، 169 ، 168 ، 167
، 203 ، 200 ، 190 ، 189 ، 188
، 214 ، 213 ، 211 ، 210 ، 208
، 222 ، 218 ، 217 ، 216 ، 215
، 227 ، 226 ، 225 ، 224 ، 223
، 233 ، 232 ، 230 ، 229 ، 228
، 244 ، 243 ، 239 ، 237 ، 236
، 263 ، 259 ، 258 ، 256 ، 245
، 270 ، 269 ، 268 ، 267 ، 264
، 291 ، 290 ، 273 ، 272 ، 271
، 299 ، 298 ، 295 ، 294 ، 293
، 309 ، 307 ، 303 ، 301 ، 300
، 316 ، 315 ، 313 ، 312 ، 311
، 327 ، 324 ، 323 ، 322 ، 321
، 369 ، 361 ، 350 ، 349 ، 343
، 391 ، 390 ، 385 ، 382 ، 370
• 395

المغرب الاوسط :

• انظر الجزائر (البلاد)

المقطعات الفارسية :

• انظر فارس

مقبرة الحمامة :

• 375

مكة :

• 226 ، 73 ، 55

مكناس :

، 216 ، 215 ، 214 ، 157 ، 129
، 294 ، 293 ، 291 ، 279 ، 245

ميشلي :	205 ، 210 ، 219 ، 226 ، 233 ،
• 322	• 239 ، 242
الميلة :	منوبة :
• 73 ، 74	• 385
ميناء :	الموانئ الإسبانية :
• 146	• 380
ميناء باديس :	مونبيلية :
• 296	• 161
مينورقا (Minorque) :	المهدية :
• 36 ، 115 ، 362	77 ، 81 ، 83 ، 84 ، 96 ، 98 ،
ميورقة (Majorque) :	124 ، 129 ، 141 ، 144 ، 149
• 115 ، 149 ، 187 ، 362	150 ، 152 ، 186 ، 197 ، 219
	• 280 ، 346 ، 347
- ن -	
نافار (Navarre) :	موريطانيا الرومانية :
• 111 ، 150 ، 181	• 72
نابولي :	موريطانيا السطيفية :
• 334 ، 347 ، 348 ، 379	• 9
ندرومة :	موريطانيا الطنجية :
• 125 ، 226	• 9 ، 20 ، 26 ، 33
النرويج :	موريطانيا القيصرية :
• 178 ، 379	• 9
نفزاوة :	مورقادور :
• 40	• 247
نقطة :	موقادور :
• 188	• 311 ، 312 ، 313

- ه -

هر ناشو :

• 282

الهند :

• 278 ، 270

هولاندا :

• 368 ، 365 ، 349 ، 300 ، 278

• 382 ، 379 ، 372

- و -

وادی ایسلی :

• 218 ، 215

وادی بورقراق :

• 281 ، 280 ، 166

وادی بهت :

• 214

وادی درعة :

• 287 ، 224 ، 217 ، 215 ، 107

وادی ریر :

• 322

وادی زیز :

• 287

وادی سبو :

• 379 ، 280 ، 213

وادی السوس :

• 265 ، 123

• نفاران (Navaran)

• 385

نفوسة (جبال) :

• 45 ، 41 ، 39 ، 38 ، 28 ، 16

• 61 ، 47

نکور :

• 79

النمسا :

• 382

نهر العاصی :

• 72

نوتردام :

• 155

نوتردام دی فکتوار :

(Notre Dame des Victoires)

• 356

نول :

• 146

نومور (Nemours) :

• 218 ، 202

نومیدیا :

• 142 ، 72 ، 27 ، 9

النيجر :

• 285 ، 277 ، 275 ، 274 ، 106

وادی النون :
• 308 ، 307 ، 151

وادی ناکور :

وادی وزغة :
• 214 ، 148 ، 135

الوانشريس :
• 182 ، 110

وجدة :
• 239 ، 226 ، 205 ، 128 ، 110
• 307 ، 296 ، 294 ، 288 ، 245

ودان :
• 153

ورغة :
• 119

ورقلة :
• 343 ، 47 ، 43 ، 42

ورليزان :
• 355

وزان :
• 307

وشقة (Heusca) :
• 111

وطاط الحاج (مكان)
• 212

وادی شريف :
• 298

وادی شلف :
• 206 ، 205 ، 203 ، 178 ، 21
• 328

وادی صا :
• 226 ، 212

وادی صومام :
• 205

وادی غريس :
• 287

وادی الكبير :
• 219

وادی مجرده :
• 357 ، 356

وادی المخازن :
• 273 ، 271

وادی ملاق :
• 83

وادی الملوية :
• 110

وادی مينة :
• 46

وادی فيس :
• 130

، 378 ، 377 ، 360 ، 349 ، 345
، 390 ، 380 ، 379

ويلش (Elche) :
، 347 ، 323

- ي -

يانا (كستروجيون فاني) :

اليمن :
، 313 ، 72

ينبوع :
، 287

اليونان :
، 21 ، 17

الوطن القبلي :
، 384 ، 98

وقعة الاصنام :
، 37

ولاعة :
، 274

الولايات المتحدة :
، 379

وليل :
، 306 ، 253 ، 56

وهران :
، 137 ، 136 ، 110 ، 36 ، 21
، 211 ، 202 ، 200 ، 161 ، 160
، 324 ، 322 ، 268 ، 267 ، 212
، 344 ، 342 ، 330 ، 328 ، 325

الثورات والاحداث والوقعات

وقعة بقنودة :
، 37

وقعة تاورغة :
، 38

وقعة فنج :
، 55

وقعة القرن :
، 37

وقعة النبلاء :
، 37

ثورة ابي يزيد :
، 85 ، 82 ، 80

الثورة الروسية :
، 13

الثورة الفرنسية :
، 13

زحفة بني هلال :
، 195 ، 98 ، 97 ، 87

معركة الثلاثة ملوك :
315

الكتب

صحيح البخارى :	احياء علوم الدين :
• 295	• 115
طبقات علماء افريقية :	الادلة :
• 62	• 198
العبر :	الاستقصاء :
• 175	• 264
الفارسية :	الاسلام الجديد :
• 198	• 8
القرآن = الايات القرآنية :	تاريخ البربر :
• 63 ، 64 ، 74 ، 82 ، 116 ، 117 ، 124 ، 125 ، 126 ، 127 ، 140 ، 151 ، 229	• 176
القرطاس :	تاريخ الدولتين :
• 109	• 198
كتاب ابن تومرت :	تاريخ المغرب الاقصى :
• 128	• 168
المدونة :	الجلل الموشية :
• 65	• 140 ، 152
مذكرات عبد الله :	حي بن يقظان :
• 113	• 163
	رحلة التجانى :
	• 198
	سلوة الانفاس :
	• 264

قائمة الخرائط

- شكل 1 - مراحل فتوح المغرب (القرن 7 هـ و 8 م) 23
- شكل 2 - المغرب في مستهل القرن 7 م 31
- شكل 3 - فاس 57
- شكل 4 - المنستير (منظر للرباط من جهة البحر) 68
- شكل 5 - مراحل الغزو الفاطمي 78
- شكل 6 - موقع أشير بنى زيري 88
- شكل 7 - قلعة بنى حماد 91
- شكل 8 - بلاد البربر في أواسط القرن الحادي عشر 94
- شكل 9 - الطرق الرابطة بين القلعة وبجاية 97
- شكل 10 - امبراطورية المرابطين بالمغرب 104
- شكل 11 - اسبانيا المسلمة في عهد المرابطين والموحدين 112
- شكل 12 - جنوب المغرب الأقصى في أوائل القرن 12 م 116
- شكل 13 - مراحل الغزو الموحيدي 131
- شكل 14 - رسم مسجد تنمل 143
- شكل 15 - رسم جامع الكتبية بمراكش 159
- شكل 16 - رسم جامع القصبة بمراكش 169
- شكل 17 - المغرب في نهاية القرن 13 م 174
- شكل 18 - تونس في عهد بنى حفص 192
- شكل 19 - القيروان في عهد بنى حفص 194
- شكل 20 - مدينة فاس في عهد بنى مرين 218
- شكل 21 - رسم الجامع الكبير بفاس الجديد 221
- شكل 22 - رسم المدرسة العنانية بفاس 242
- شكل 23 - البرتغاليون في المغرب الأقصى 256
- شكل 24 - المغرب الأقصى في أواسط القرن 17م 283
- شكل 25 - المغرب الأقصى في أواسط القرن 18 م 316
- شكل 26 - مدينة الجزائر في عهد الاتراك 337
- شكل 27 - تونس والجزائر في عهد الاتراك 373

فهرس الموضوعات

- 7 مدخل
9 مقدمة - افريقيا الشمالية ابان الفتح العربى

الباب الاول

الفتح العربى وممالك الخوارج

- 1 - الفتح العربى : تاريخ خرافى - المغرب الشرقى - غزوة ابن سعد -
أزمة الخلافة - زحفة معاوية - الاحتلال الدائم - مسيرة غنية
نحو المغرب - المقاومة البربرية : كسيلة - الكاهنة - انتصار
حسان - الموازنة (برانس + بتر = حضر + بدو رحل)
33 - 13 موسى بن نصير
- 2 - المقاومة البربرية : نحلة الخوارج - طغيان العرب ورد فعل البربر -
اضطراب افريقية - خوارج المغرب الاوسط
40 - 34
- 3 - ممالك الخوارج : مملكة تاهرت - حكومة لهوتية - مملكة
سجلماسة وبرغواطية
49 - 41

الباب الثاني

الدول العربية والبربرية من 9 الى 11

- 1 - دولة الادارسة : استقرار ادريس في المغرب الاقصى - ادريس الثاني وتأسيس فاس - انحطاط الدولة 51 - 59
- 2 - دولة الاغالبة : دولة - مستقلة - امتداد سلطان الاغالبة - مجتمع تقاة - مسألة خلق القرآن والمعتزلة - المذهب المالكي - الامام سحنون - الامراء - الفن المعماري العسكري والديني - الحكومة - الجند وفتح صقلية 60 - 70
- 3 - سلطان الفاطميين على المغرب : الشيعة - عبيد الله المهدي - كتامة - الداعي ابو عبد الله - انتصار المهدي - أوائل حكم المهدي - الحملات على مصر - تأسيس المهديّة - الحملات في بلاد المغرب - طغيان الفاطميين - أبو القاسم - ثورة أبي يزيد صاحب الحمار - آخر عهد الفاطميين بالمغرب 71 - 86
- 4 - دولة صنهاجة وزحفة بني هلال : أشير زيري - ملوك بني زيري - الدولة في عهد بني زيري، - انفصام الوحدة الصنهاجية - قلعة بني حماد - زحفة بني هلال 87 - 99

الباب الثالث

الامبراطورية البربرية

- 1 - المرابطون : ابن ياسين - الغزوات الاولى - ابن تاشفين - ملوك الطوائف - تدخل المرابطين - على والدفاع عن المالكية - المعالم المرابطية في المغرب - انحطاط دولة المرابطين وسقوطها - الخلاصة 101 - 122

2 - ابن تومرت ، مهدي الموحدين : ابن تومرت - عبد المؤمن - مذهب المهدي - تأسيس الطائفة الموحدية - نظام الطائفة 134 - 123

3 - امبراطورية الموحدين : غزو المغرب الاقصى - دخول الموحدين الى اسبانيا - الاطاحة بمملكة بنى حماد - صمود الهلاليين - من الموحدين الى بنى عبد المؤمن - حالة بلاد البربر الشرقية والوسطى - النصاري والهلاليون - احتلال افريقية - القلاقل باسبانيا - ابن مردنيش حكم الخليفة - أبو يعقوب يوسف - اندلاع الثورة في بلاد المغرب - الجهاد في اسبانيا - ثورة بنى غانية - الارك (Alarcos) - الامبراطورية الموحدية في عهد المنصور - الخليفة الناصر - خضوع افريقية - حكم ابو محمد ابن حفص - العقاب (Las navas de tolosa) - تصدع الامبراطورية 157 - 135

4 - للحضارة الموحدية : الحلفاء - النشاط الاقتصادي - الجيش والاسطول - فلسفة ابن طفيل وابن رشد - الموسيقى - الفن المعماري - الخاتمة 170 - 158

الباب الرابع

عودة الى الممالك البربرية

1 - مملكة بنى حفص بتونس : ابو زكرياء - المستنصر - انقصاص الوحدة الحفصية - غزو بنى مرين لافريقية - عودة سلطة بنى حفص - القرن 15 الحفصي : أبو فارس وأبو عمرو عثمان - نهاية بنى حفص - الدولة الحفصية - تونس والتجارة في حوض البحر المتوسط - الحضارة الحفصية 199 - 173

2 - مملكة بنى عبد الواد بتلمسان : نهوض زناتة - بنو عبد الواد تلمسان - يغمراسن بن زيان - غزوات بنى مرين - احتلال بنى

ميرين لتلمسان وضمها الى مملكتهم - أبو حمو الثاني - تعريب
زناتة - حضارة عبد الوادى - خاتمة
211 - 200

3 - مملكة بنى ميرين بفاس : أصل بنى ميرين - أبو يحيى - أبو
يوسف - الحملة الاولى على اسبانيا وتأسيس فاس الجديدة -
حملات جديدة باسبانيا - أبو يعقوب يوسف - أفول نجم بنى
ميرين لأول مرة - أبو الحسن - أبو عنان - انحطاط الدولة
المرينية - حكومة السلاطين - الميرينى - خاتمة
246 - 212

4 - دولة بنى وطاس وبقظة الاسلام : هجوم النصارى على المغرب
الاقصى - قيام دولة بنى وطاس - يقظة الاسلام - نهاية بنى
ميرين - انتصارات الاشراف - الخاتمة
259 - 247

الباب الخامس

المملكة الشريفة

1 - الدولة السعدية : تاريخ الدولة الشريفة - أصل السعديين -
غزو جنوب المغرب الاقصى - الانتصار بفاس - المملكة السعدية
الى تاريخ معركة الملوك الثلاثة (557 - 1578) - واقعة الملوك
الثلاثة (4 أوت 1578) - أحمد المنصور - فتح السودان - سياسة
المنصور الخارجية - انحطاط السعديين - الساعون الى الحكم -
جمهورية بورقراق - أولياء الشمال - أوروبا والمغرب الاقصى 271 - 286

2 - الدولة الهاوية : الاشراف الفيلاليون - مولاي الرشيد - مولاي
اسماعيل - خضوع المغرب الاقصى - جيش العبيد الاسود وجيش
المجاهدين - الجهاد ومقاومة الاترك - التجارة والعلاقات الخارجية
مكناس - حكم الشريف - خلفاء مولاي اسماعيل - سيدى محمد
ابن عبد الله - مولاي اليزيد - مولاي سليمان - الخلاصة 287 - 316

الباب السادس

1 - الحرب الصليبية الاسبانية والاخوة عروج وتأسيس الايالة الجزائرية :

المغرب الاوسط في اواخر القرن 15 - أوائل الحرب الصليبية
الافريقية - الحصون والاحتلال المحدود - القرصان عروج في
الجزائر - خير الدين مؤسس الايالة الجزائرية - غزو تونس 321 - 331

2 - الدولة الجزائرية : الوجد - طائفة الرؤساء - جزائر القراصنة - سكان الجزائر - حكومة الباي لارباي 332 - 341

3 - الباي لارباي ونهاية الدولة الزناتية والحفصية : صراع الباي لارباي ضد الاسبان والاشمراف - علج علي ونهاية دولة الحفصيين - نهاية الباي لارباي 342 - 350

4 - العصر الذهبي للقرصنة الجزائرية والتونسيين : ثورات بلاد الجزائر في القرن 17 - ثورات البلاد التونسية - دولة القراصنة الرق في بلاد البربر - تجارة بلاد البربر والمراكز التجارية - حروب الايالتين - اختيار الملك 351 - 370

5 - بلاد الجزائر في عهد الدايات والبلاد التونسية في عهد الحسينيين : تدهور مدينة الجزائر - دايات مدينة الجزائر طغاة بلا حرية - حكومة الايالة - ثورات وحروب - البلاد التونسية في العهد الحسيني 371 - 386

الباب السابع

نظرة اجمالية 389 - 396
بيلوغرافيا 397

الفهارس



401

فهرس الاعلام

427

الجماعات والقبائل والدول

438

الاماكن والبلدان والمدن والسهول والجبال والوديان

470

الكتب

471

قائمة الخرائط





تم طبع هذا الكتاب
بمطبعة شركة فنون الرسم والنشر والصحافة
تونس ، فيفري 1983

سحب من هذا الكتاب 5.000 نسخة في طبعته الثانية .

محمد مزالي

- ولد محمد مزالي بالمنستير في 23 سبتمبر 1925
- زاول تعلمه الثانوي بالمدرسة الصادقية .
- تابع تعلمه العالي بكلية الاداب بباريس حيث تحصل على الاجازة في الفلسفة ودبلوم الدراسات العالية في الآداب .
- تحمل مسؤوليات في الحكومة والحزب الاشتراكي الدستوري منذ الاستقلال وهو حاليا وزير أول بالجمهورية التونسية .
- أسس مجلة الفكر سنة 1955
- رئيس اتحاد الشباب التونسي
- نائب رئيس اللجنة الاولمبية العالمية .
- انتخب سنة 1979 رئيسا لهيئة ألعاب البحر الابيض المتوسط .
- صدر له :
- الديمقراطية 1965
- تاريخ افريقيا الشمالية جزان لشارل أندري جوليان ترجمه بمعية الاستاذ البشير بن سلامة . صدر الجزء الاول سنة 1968 و الجزء الثاني سنة 1978
- من وحي الفكر 1969
- المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي لشارل أندري جوليان ترجمه بمعية الاستاذ البشير بن سلامة - 1971 .
- ... مواقف : 1973
- دراسات : 1974
- وجهات نظر : 1975 .

البشير بن سلامة

- ولد البشير بن سلامة في 14 اكتوبر 1931 بباردو .
- زاول تعلمه بالمدرسة الصادقية ثم بدار المعلمين العليا .
- استاذ في اللغة والاداب العربية .
- رئيس تحرير مجلة الفكر التونسية .
- وزير الشؤون الثقافية بالجمهورية التونسية .
- صدر له :
- اللغة العربية ومشاكل الكتابة 1971
- الشخصية التونسية :
- مقوماتها وخصائصها 1974
- النظرية التاريخية في الكفاح التحريري التونسي 1977 .
- قضايا 1977 .
- تاريخ افريقيا الشمالية جزان لشارل أندري جوليان ترجم بمعية الاستاذ محمد مزالي ج 1 - 1968 ج 2 - 1978
- المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي لشارل أندري جوليان ترجمه بمعية الاستاذ محمد مزالي صدر سنة 1971 .
- « عائشة » رواية 1982 .